جديد دار المشاريع
الآن في الأسواق

النفحات الإلهية

بشرح قواعد العقائد الإيمانية للسادة الرفاعية

المتن للإمام شيخ الإسلام علم الأعلام الغوث الهمام
قطب شيوخ الإسلام ولي الله العلام أبي العلمين
أحمد الرفاعي الكبير
شيخ العربجاء

الشرح لخويدم الخدام
جميل حليم الرفاعي
كثير الآثام راجي رحمة ربه باريء الأنام

+961 1 304311 - 304524
dar.nashr@gmail.com
DMCPublisher
www.dmcpublisher.com

النفحات الإلهية

بشرح قواعد العقائد الإيمانية للسادة الرفاعية

المتن للإمام شيخ الإسلام علم الأعلام الغوث الهمام
قطب شيوخ الإسلام ولي الله العلام أبي العلمين
أحمد الرفاعي الكبير
شيخ العريجاء

الشرح لخويدم الخدام
جميل حليم الرفاعي
كثير الآثام راجي رحمة ربه بارئ الأنام

شركة دار المشاريع

الطبعة الأولى
١٤٤٦هـ ـ ٢٠٢٥ر

شركة دار المشاريع

بيروت ـ لبنان

العنوان: المزرعة، بربور، شارع ابن خلدون، بناية الإخلاص
تلفون وفاكس: ٣١١ ٣٠٤(١ ٩٦١)٠٠
صندوق بريد: ٥٢٨٣ ـ ١٤ بيروت ـ لبنان

شركة دار المشاريع للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م

ISBN 978-9953-20-896-1

email: dar.nashr@gmail.com
www.dmcpublisher.com

+961 3 006 078
+961 3 673 946
info@sheikhjamilhalim.com
sheikhjamilhalim@gmail.com

التوطئة
الميزان في بيان عقيدة أهل الإيمان

الحمدُ للّه ربِّ العالمين، وصلى اللّه وسلَّم وشرَّف وكرَّم على سيّدنا محمَّد، الحبيبِ المحبوبِ، العظيمِ الجاهِ، العالي القَدرِ طه الأمينِ، وإمامِ المرسلينَ وقائدِ الغُرِّ المحَجَّلِينَ، وعلى ذُرِّيَّته وأهلِ بَيتِه المَيامِين المكرَّمين، وعلى زوجاتِه أمَّهات المؤمنِين البارّاتِ التَّقِيَّات النَّقِيَّات الطاهراتِ الصَّفِيَّات، وصحابَتِه الطيّبِين الطَّاهرِين، ومَن تَبِعَهُم بإحسانٍ إلى يَومِ الدِّين.

أما بعدُ، فهذه عقيدةُ كلّ الأمّة الإسلاميةِ سلَفًا وخلفًا، وهي المرجع الذي تُعْرض عليه عقائدُ الناس، فمن خالفها أو كذبها لا يكونُ من المسلمينَ، وهي ميزان الحقِّ الذي يَكْشِفُ زيْفَ الباطلِ وزيغَهُ، فكان لا بُدَّ من هذا البيان المهمّ لخصوصِ الغَرضِ وعمومِ النَّفْعِ؛ وعليه:

اعلم أرشدَنا اللّهُ وإياكَ أنهُ يجبُ على كلّ مكلفٍ أن يعلمَ أنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ واحدٌ في ملكِهِ، خلقَ العالمَ بأسرِهِ العلويَّ والسفليَّ والعرشَ والكرسيَّ، والسمٰواتِ والأرضَ وما فيهمَا وما بينهُمَا. جميعُ الخلائِقِ مقهورونَ بقدرتِهِ، لا تتحرَكُ ذرةٌ إلا بإذنِهِ، ليس معهُ مُدَبّرٌ في الخلقِ ولا شريكٌ في الملكِ، حي قيومٌ لا تأخذُهُ سِنَةٌ ولا نومٌ، عالمُ الغيبِ والشهادةِ لا يخفى عليه شيء في الأرضِ ولا في السماءِ، يعلمُ ما في البرّ والبحرِ، وما تسقطُ من ورقةٍ إلا يعلمُهَا، ولا حبةٍ في ظلماتِ الأرضِ ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلا في كتابٍ مبينٍ.

أحاطَ بكلِ شيء علمًا وأحصَى كلّ شيءٍ عددًا، فعالٌ لما يريدُ، قادرٌ على ما يشاءُ، له الملكُ وله الغِنى، وله العِزُّ والبقاءُ، وله الحكمُ والقضاءُ، وله الأسماءُ الحسنى، لا دافعَ لما قضَى، ولا مانعَ لما أعطَى، يَفْعَلُ في ملكِهِ ما يريدُ، ويَحْكُمُ في خَلْقِهِ بما يشاءُ، لا يَرجُو ثوابًا ولا يخافُ عقابًا، ليس عليهِ حقٌّ يلزَمُهُ ولا عليهِ حُكْمٌ، وكلُّ نِعْمةٍ منْهُ فَضْلٌ وكل نِقْمةٍ منه عَدْلٌ، لا يُسألُ عمّا يَفْعَلُ

وهم يُسْألونَ. مَوجودٌ قبلَ الخَلْقِ، ليسَ لهُ قبلٌ ولا بعدٌ، ولا فوقٌ ولا تحتٌ، ولا يمينٌ ولا شمالٌ، ولا أمامٌ ولا خلفٌ، ولا كلٌّ ولا بعضٌ، ولا يقالُ متَى كانَ ولا أينَ كانَ ولا كيفَ، كانَ ولا مكانَ، كوَّنَ الأكوانَ، ودبَّرَ الزمانَ، لا يتقَيَّدُ بالزمانِ، ولا يتخصَّصُ بالمكانِ، ولا يشغَلُهُ شأنٌ عن شأنٍ، ولا يلحقُهُ وهمٌ ولا يكتنِفُهُ عقلٌ، ولا يتخصَّصُ بالذّهنِ، ولا يتمثَّلُ في النفسِ، ولا يُتَصَورُ في الوهمِ، ولا يتكيفُ في العقلِ، لا تَلْحَقُهُ الأوهامُ والأفكارُ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

تنزَّه ربّي عن الجلوسِ والقعودِ والاستقرارِ والمحاذاةِ، الرّحمٰنُ على العرشِ استوى استواءً منزهًا عن المماسةِ والاعوجاجِ، خلقَ العرشَ إظهارًا لقدرتِهِ ولم يتَّخِذه مكانًا لذاتِهِ، ومن اعتقدَ أنَّ اللَّهَ جالسٌ على العرشِ فهو كافرٌ، الرّحمٰنُ على العرشِ استوى كما أخبرَ لا كما يخطرُ للبشرِ، فهو قاهرٌ للعرشِ مُتَصرِّفٌ فيه كيف يشاءُ، تنزَّهَ وتقدَّسَ ربّي عن الحركةِ والسكونِ، وعن الاتصالِ والانفصالِ والقُربِ والبُعدِ بالحِسِّ والمسافةِ، وعن التَّحوُّلِ والزّوالِ والانتقالِ، جلَّ ربّي لا تُحيطُ به الأَوهامُ ولا الظُّنونُ ولا الأفهامُ، لا فِكرةَ في الرَّبِّ، خلق الخلق بقُدرته، وأحكمَهم بعِلْمه، وخَصَّهم بمشيئته، ودَبَّرَهم بحِكمَته، لم يكن له في خَلْقِهم مُعِين، ولا في تَدبِيرهم مُشِير ولا ظَهِير.

لا يلزمه (لِمَ)، ولا يُجاوِرُه (أين)، ولا يُلاصِقُه (حَيث)، ولا يَحُلُّه (ما)، ولا يَعُدُّه (كَم)، ولا يَحصُره (متَى)، ولا يُحِيطُ به (كَيف)، ولا يَنالُه (أيٌّ)، ولا يُظِلُّه (فَوق) ولا يُقِلُّه (تَحت)، ولا يُقابِلُه (حَدّ)، ولا يُزاحِمُه (عِند)، ولا يأخُذه (خَلْف)، ولا يَحُدُّه (أمام)، ولم يَتقدَّمُه (قَبْل)، ولم يَفُتْه (بَعد)، ولم يَجْمَعْه (كُلّ)، ولم يُوجِدْه (كان)، ولم يَفْقِدْه (لَيس).

لا إلٰه إلا هو، تقدَّسَ عن كلِّ صفاتِ المخلوقينَ وسِمَاتِ المحدَثينَ، لا يَمَسُّ ولا يُمَسُّ ولا يُحَسُّ ولا يُجَسُّ، لا يُعرَفُ بالحواسِّ ولا يُقاسُ بالناس، نُوَحِّدُه ولا نُبَعِّضُه، ليس جسمًا ولا يتَّصِفُ بصفاتِ الأجسام، فالمجسِّم كافر بالإجماع وإن قال: «اللَّه جسمٌ لا كالأجسام» وإن صام وصلى صورةً، فاللَّه ليس

شبحًا، وليس شخصًا، وليس جوهرًا، وليس عَرَضًا، لا تَحُلُّ فيه الأعراضُ، ليس مؤلَّفًا ولا مُرَكَّبًا، ليس بذي أبعاضٍ ولا أجزاءٍ، ليس ضوءًا وليس ظلامًا، ليس ماءً وليس غَيمًا وليس هواءً وليس نارًا، وليس روحًا ولا له روحٌ، لا اجتماعَ له ولا افتراقَ.

لا تجري عليه الآفاتُ ولا تأخذُه السِّنَاتُ، منزّهٌ عن الطُّولِ والعَرْضِ والعُمْقِ والسَّمْكِ والتركيبِ والتأليفِ والألوانِ، لا يَحُلُّ فيه شيء، ولا يَنْحَلُّ منه شيء، ولا يَحُلُّ هو في شيء، لأنه ليس كمثله شيء، فمَن زعَم أنّ الله في شيء أو مِن شيء أو على شيء فقد أشْرَكَ، إذ لو كان في شيء لكان محصورًا، ولو كان مِن شيء لكان مُحدَثًا أي مخلوقًا، ولو كان على شيء لكان محمولًا، وهو معكم بعِلمِه أينما كنتم لا تخفى عليه خافية، وهو أعلم بكم منكم، وليس كالهواء مخالطًا لكم.

وكلَّم الله موسى تكليمًا، وكلامُه كلامٌ واحدٌ لا يتبعض ولا يتعدد ليس حرفًا ولا صوتًا ولا لغةً، ليس مُبتَدَأً ولا مُختَتَمًا، ولا يتخلله انقطاع، أزليٌّ أبديٌّ ليس ككلام المخلوقين، فهو ليس بفم ولا لسان ولا شفاه ولا مخارج حروف ولا انسلال هواء ولا اصطكاك أجرام. كلامُه صفةٌ من صفاتِه، وصفاتُه أزليةٌ أبديةٌ كذاتِه، وصفاته لا تتغيَّر لأنَّ التغيُّرَ أكبرُ علاماتِ الحدوثِ، وحدوثُ الصفةِ يستلزمُ حدوثَ الذاتِ، والله منزَّهٌ عن كل ذلك، مهما تصورت ببالك فالله لا يشبه ذلك، فصونوا عقائدَكم من التَّمَسُّكِ بظاهِرِ ما تشابَه من الكتابِ والسنَّةِ فإنَّ ذلك من أصولِ الكفر، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾، ومن زعم أن إلٰهنا محدودٌ فقد جَهِلَ الخالقَ المعبودَ، فالله تعالى ليس بقدر العرش ولا أوسع منه ولا أصغر، ولا تصِحُّ العبادة إلا بعد معرفة المعبود، وتعالى ربّنا عن الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات، ولا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات، ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر فقد خرج من الإسلام وكفَر.

﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾، ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ ما شاء الله كان وما لم يشأْ

لم يكن، وكلّ ما دخل في الوجود من أجسامٍ وأجرامٍ وأعمالٍ وحركاتٍ وسكناتٍ ونوايا وخواطر وحياة وموت وصحة ومَرَض ولذّة وألم وفَرَح وحزن وانزعاج وانبساط وحرارة وبُرودة ولُيونة وخشونة وحلاوة ومرارة وإيمانٍ وكفر وطاعة ومعصية وفوز وخسران وتوفيق وخذلان وتحركات وسكنات الإنس والجن والملائكة والبهائم وقطرات المياه والبحار والأنهار والآبار وأوراق الشجر وحبات الرمال والحصى في السهول والجبال والقفار فهو بخلق الله، بتقديره وعلمه الأزلي، فالإنس والجن والملائكة والبهائم لا يخلقون شيئًا من أعمالهم، وهم وأعمالهم خَلْق لله، ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾، ومن كذَّبَ بالقدر فقد كفر.

ونشهد أن سَيِّدَنا ونبيَّنا وعظيمنا وقائدَنا وقُرَّة أعينِنا وغوثنا ووسيلتنا ومعلمنا وهادينا ومرشدنا وشفيعنا محمَّدًا عبدُه ورسولُه، وصفيُّه وحبيبُه وخليلُه، مَن أرسَلَه اللَّهُ رحمةً للعالمين، جاءنا بدين الإسلام ككُلِّ الأنبياء والمرسلين، هاديًا ومُبَشِّرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه قمرًا وهَّاجًا وسِراجًا مُنيرًا، فبلَّغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حقّ جهاده حتى أتاه اليقين، فعَلَّمَ وأرشدَ ونصحَ وهدى إلى طريق الحقِّ والجنَّة، ﷺ وعلى كلِّ رسولٍ أرسَلَه، ورضي الله عن ساداتنا وأئمتنا وقدوتنا وملاذنا أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسائر العشرة المبشرين بالجنة الأتقياء البررة وعن أمهات المؤمنين زوجات النبي الطاهرات النقيات المبرَّآت، وعن أهل البيت الأصفياء الأجلاء وعن سائر الأولياء وعباد الله الصالحين.

ولله الحمدُ والفَضلُ والمِنَّةُ أنْ هدانا لهذا الحقّ الّذي عليه الأشاعرة والماتريدية وكلُّ الأمّة الإسلامية، والحمدُ لله ربّ العالمين.

نُبْذَة تعريفِيَّة
بالشّيخ الدكتور جَمِيل حَلِيم

بقلم النّاشِر

هو السيّد الشريف رئيس جمعية المشايخ الصوفية الشيخ الدكتور عماد الدين أبو الفضل جميل بن محمد علي حليم، الحسينيُّ الأشعري الشافعي الرفاعي القادريّ.

تلقَّى العلوم والطرق عند علَّامة العصر وقدوة المحققين الحافظ الشيخ عبد الله بن محمد الهرري الشيبي العبدري ولزمه وصحبه واستفاد منه زمانًا طويلًا وكان يعيد دروسه وإملاءاته في كثير من مجالسه العامة والخاصة بطلبٍ منه رضي الله عنه، وقرأ وسمع وحضر في علومٍ شتّى على كثيرٍ من العلماء والفقهاء والمحدّثين من مشاهير البلاد كمكة والمدينة وجدة ولبنان وسوريا والعراق ومصر وأندنوسيا وتركيا والمغرب واليمن والحبشة وغيرها، وأجازه كثيرٌ من العلماءِ والمحدِّثين والمشايخ في مختلف البلاد إجازةً عامةً مطلقةً وخاصَّة بكل ما تجوز لهم روايته وفي الطرق والإرشاد والتسليك وإقامة الختم والحضرة وتلقِين الأوراد.

وقد حاز الشيخ جميل على شهادتي دكتوراه، الأولى من الجامعة العالمية في لبنان تحت عنوان «السُّقوط الكبير المُدَوّي للمُجَسِّم ابن تَيمِيةَ الحرَّاني» بتقديرٍ ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى، والأخرى من جامعة مولاي إسماعيل بالمغرب تحت عنوان «التأويل في علم الكلام وضوابطه عند أهل السنة والجماعة» وذلك بتقدير مشَرّف جدًّا.

وقد أولَى الشيخ جميل اهتمامه العلم والمطالعة وتأليفِ الكتب وتحقيق

مصنَّفات العلماء في مكتبته «المكتبة الأشعرية العبدرية» في بيروت وقد حَوَت ءالاف الكتب المطبوعة والمخطوطة النادرة في علوم وفنون شتى بالإضافة إلى نشاطاته الواسعة وممارسته الخطابة في المساجد وإلقاء المحاضرات والمشاركة في المؤتمرات في لبنان والخارج والمحاضرات في بعض الجامعات ومشاركة الناس في أفراحهم وأتراحهم، واستقباله المشايخ وطلبة العلم وعموم الناس. ولم ينكفئ عن خدمة الناس ومخالطتهم لنشر الدين والدعوة والعلم. وقد بلغت مؤلفاته ومصنَّفاته وتحقيقاته لبعض الكتب فوق المائتي كتابٍ إلى الآن.

وقد قرأ وسمع على العلماء والمشايخ وحصَّل تلقّيًا أكثر من ثلاثمائة كتاب في كل الفنون والعلوم ولله الفضل والحمد والمِنّة ولا زال إلى اليوم بعونٍ من الله وتوفيقٍ وتسديدٍ قائمًا على الخطابة في المساجد والتدريس وإلقاء محاضرات في المساجد والجامعات والمعاهد وفي مناسبات الناس العامة كالجنائز والتعازي والأعراس جوَّالًا على المحافظات والبلاد بذلك، كما وأنه شارك وحضر في كثيرٍ من المؤتمرات والمهرجانات والاحتفالات في كثيرٍ من الدول والبلاد بطلب ودعوة من أهلها، وله العديد من المقابلات واللقاءات في عدد من وسائل الإعلام كالتلفزيون والإذاعة والمجلَّات والصحف، وهو دكتور أستاذ محاضر في الجامعة العالمية في لبنان، كما وأنه يعقد مجالس الإقراء والإسماع في الأحاديث المسلسلة وكتب الحديث الشريف كالكتب السبعة وغيرها من أمَّهات الكتب من العقائد والأحكام والفقه والتَّصوف وهو أوَّل من أقْرَأَ صحيحي البخاري ومسلم في لبنان من تلاميذ الحافظ الهرري، وقد أقْرَأَ إلى الآن العشرات من الكتب والمؤلَّفات الّتي حضر فيها الجمّ الغفير من المشايخ والدُّعاة والأساتذة والدَّكاترة ومعلِّمي ومعلماتِ المعاهد والمدارس وخطباء المساجد وطلَّاب الكليَّات والمعاهد الشرعيَّة، وبعض هذه المجالس تبث مباشرة على مواقع التواصل وصفحات الفايسبوك وبعض هذه المجالس والمحاضرات شاهدَها قريبٌ مِن ثلاثةِ ملايين مشاهِد.

كما وقد راسَله وهاتفه وكاتبه وشافهه عدد كبير من المشايخ والدكاترة

والدّعاة والأساتذة والفقهاء والمحدثين لطلب وأخذ الإجازة منه، وإجازاته من كل بقاع الدنيا قاربت الألف إجازة بعضها مذكور ومفصَّلٌ في ثبته الموسوم بـ«جمع اليواقيت الغوالي من أسانيد الشيخ جميل حليم العوالي»، وقد طبع مرات ومعظم إجازاته وأكثرها التي جاءت بالمئات في ثبته الكبير المسمَّى بـ«المجد والمعالي من أسانيد الشيخ جميل حليم الغوالي».

هذا وقد خصَّهُ بعض العلماء وأحفاد رسول الله ﷺ من الأُسَر الشريفة المشهورة وأصحاب الطرق من بلادٍ عدة بآثارٍ من آثار رسول الله محمَّد ﷺ، فحفظها في «الخزينة الحليمية». وفي كل عام يتبرك عشرات الآلاف من المسلمين في مختلف البلاد ببعض هذه الآثار الزكيّة المباركة العطرة، وقد حصل بذلك خيرٌ عظيم جسيمٌ كبير من دخول بعض النَّاس في الإسلام وظهرت حالات شفائيَّة سريعة وظاهرة جدًا حتى جُمِع بعضُها في كتابٍ طبع مرات وهو «أسرار الآثار النبويَّة أدِلّة شرعِيّة وحالات شِفائيّة» ولله الحمد والفضل والثناء والمنة والشكر الجزيل على ما أسدَى من الفضل العميم وصلى الله وسلَّم على سيدنا محمَّد وعلى كل النبيّين والمرسَلين وءالِ كلٍّ وصَحب كلٍّ وسائر عباد الله الصالحين[1].

بيروت، الخميس ٢٩ المحرَّم ١٤٤٢هـ
الموافِق ١٧ أيلول ٢٠٢٠ر

(١) للتواصل مع المؤلف راجع ما يلي: ٩٦١٣٠٠٦٠٧٨+/ ٩٦١٣٦٧٣٩٤٦+
info@sheikhjamilhalim.com :
sheikhjamilhalim@gmail.com

نَسَبُ الشّيخ الدكتور جَمِيل حَلِيم إِلَى رَسُولِ اللّه ﷺ

هو السيد الشريف الحسيب النسيب الشيخ الدكتور عماد الدين أبو محمد جميل بن محمد الأشعري الشافعي الحسيني الرفاعي القادري ابن السيد محمد ابن السيد عبد الحليم ابن السيد قاسم ابن السيد أحمد ابن السيد قاسم ابن السيد عبد الكريم ابن السيد عبد القادر ابن السيد علي ابن السيد محمد ابن السيد ياسين ابن السيد إسماعيل ابن السيد حسين ابن السيد محمد ابن السيد إبراهيم ابن السيد عمر ابن السيد حسن ابن السيد حسين ابن السيد بلال ابن السيد هارون ابن السيد علي ابن السيد علي أبي شجاع ابن السيد عيسى ابن السيد محمد ابن أبي طالب ابن السيد محمد ابن السيد جعفر ابن السيد الحسن أبي محمد ابن السيد عيسى الرُّومي ابن السيد محمد الأزرق ابن السيد أبي الحسن الأكبر عيسى النقيب ابن السيد محمد ابن السيد علي العريضي ابن الإمام جعفر الصادق ابن الإمام محمد الباقر ابن الإمام السجاد علي زين العابدين ابن الإمام السبط السعيد الشهيد الحسين ابن السيدة الجليلة الزكية الطاهرة فاطمة البتول زوجة أمير المؤمنين أسد الله الغالب علي ابن أبي طالب عليه السلام وابنة رسول رب العالمين خاتم النبيين والمرسلين محمد صلوات الله وسلامه عليه إلى يوم الدين[1].

---

(١) وهذا نسبٌ شريفٌ صحيحٌ بلا مِرْيَةٍ مضبوط في كتاب **جامع الدّرر البهيّة بأنساب القرشيّين في البلاد الشّاميّة**، جمع الدكتور الشّريف كمال الحوت الحسيني، شركة دار المشاريع الطبعة الثانية (ص٣٣٢، ٣٣٣) تاريخ ٢٠٠٦ر -١٤٢٧هـ، وفي كتاب **غاية الاختصار في أنساب السادة الأطهار**، ويليه **المستدرك** الطبعة الثالثة (ص١) ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٠م، وفي كتاب **الحقائق الجليّة في نسب السّادة العريضية** (ص٤٣٣، ٤٣٤) كلاهما للدكتور الوليد العريضي الحسيني البغدادي.

الشكر

شكر خاصّ لحبيبنا المحقق الشيخ السيد ماجد حميد البياتي البغدادي حفظه الله.

قال رسول الله ﷺ: «**مَن لم يَشكُر الناسَ لم يَشكُر الله**» معناه أنّ مِن تمام شكر الله شكر مَن أسدى لك المعروف. وإنّ مِن مكارم الأخلاق أن يشكر الإنسان من أسدى له المعروف ولو كان من أمور الدنيا؛ فكيف إذا كان في أمور الدين؟! وإخراج مخطوطات أهل السنة والجماعة في هذا العصر من أهم ما يخدم به المرء الدين؛ ومن ثم أتقدم بجزيل الشكر إلى حبيبنا وأخينا الأستاذ المحقّق ماجد حميد البياتي مخرجِ هذه اللؤلؤة المكنونة من صدفها عنيت متن سيدي إمام العلمين السيد أحمد الرفاعي المسمى بـ «**متن العقيدة الرفاعية**».

أسانِيدِي الذَّهبيّة

في عقيدةِ مولانا الإمامِ الغَوث الرِّفاعيّ

وسِلسِلة طريقتِه الرِّفاعيّةِ العَلِيّة

الشيخ الشريف

جميل محمد علي حليم

الرفاعي القادري النقشبندي

مجاز بإعطاء وتلقين الطرق الأربعين

دكتور محاضر في العقائد والفرق والسير

رئيس جمعية المشايخ الصوفية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يقولُ العبدُ الفقيرُ إلى رحمةِ مَولاهُ عزَّ وجلَّ جميلُ بن محمد عليّ حلِيم الحسَيني الأشعريّ الشافعيّ الرفاعيّ القادريّ النقشبنديّ: إنّي بفضلِ اللَّهِ ومَنّهِ عزَّ وجلَّ مُجازٌ بالطريقةِ الرفاعيّة العَلِيّةِ عن جملةٍ مِن الشُّيوخ، منهم:

١) الشيخ الصالح محمد سليم الرفاعيّ القاري (ت١٤١١هـ) وهو عن مفتي مدينة حماة الفقيه المعمَّر العلامة الشيخ محمد سعيد بن مصطفى النعسان الحموي الرفاعيّ وهو عن سيّدنا العلامة الشريف الأستاذ أبي الهدى محمد ابن السيّد حسن وادي بن خزام الرفاعيّ الخالديّ الصيّادِيّ وهو عن العلامة الفقيه السيّد شيخ الطريقة الرفاعيّة في زمانه شيخ الإسلام ومفتي الأنام الإمام السيّد بهاء الدين محمد مهدي ابن السيّد عليّ الروّاس الرفاعيّ الصيّادِيّ عن السيّد عبد الله الراوي الرفاعيّ عن السيّد أحمد الراوي الكبير الرفاعيّ عن السيّد العارف الكبير نور الدين حبيب الحديثي الرفاعيّ عن القطب المكين العلّامة نقيب البصرة السيّد حسين برهان الدين ءال خزام الرفاعيّ الصيّاديّ عن أخيه النقيب نور الدين الرفاعيّ عن ابن عمّه الشهاب الثاقب حزام الدين بن حزام الرفاعيّ البصريّ عن ابن عمّه شعبان نقيب البصرة عن عمّه تاج الدين النقيب عن ابن عمّه القطب الأجلّ سراج الدين الرفاعيّ المخزوميّ دفين صدرية بغداد عن المرشد الكامل الكبير الشيخ جمال الدين السليمي الرفاعيّ عن الشيخ قطب الدين الرفاعيّ عن عمر الصغير الفاروثيّ عن أبيه وليّ الدين عزّ الدّين أحمد الفاروثيّ عن أبي الفضل محيي الدين إبراهيم المصطفويّ الفاروثيّ عن الإمام شرف الدين أبي طالب بن عبد السميع العبّاسيّ الهاشميّ عن محيي السّنة والدين سيّدي الإمام العلّامة الغوث أبي العلَمَين أحمد بن عليّ بن يحيى الرفاعيّ الحسينيّ رضي الله عنه وأرضاه.

(ح) والسيّد أبو الهدى أيضًا عن شيخه ووالده السيّدِ الشيخ حسن وادي أبي البركاتِ الصياديّ وهو عن السيّد الشيخ رجب الصياديّ المحمديّ عن السيّد أحمد الجندي عن أبيه السيّد مصطفى عن خاله السيّد محمد عرفات الصياديّ عن ابنِ عمّه القطبِ السيّد خير الله عن السيّد أبي بكر عن ابن عمّه السيّد محمد بن حجازي عن ابن عمّه أبي بكر عن جدّه السيّد موسى الكبير عن والده السيّد عمر عن والده السيّد عبد السَّميع عن والده السيّد شمس الدين محمد الصياديّ عن أبيه الإمام الأجلّ شيخ الإسلام مولانا السيّد صدر الدين علي عن أبيه القطب مولانا السيّد أحمد عزّ الدين الصياد ابن السيّد ممهّد الدولة عبد الرحيم عن جدّه لأمّه زينبَ الإمامِ الغوث السيّد أحمد الرفاعيّ الكبير رضي الله عنه وأرضاه.

(ح) والسيّد أبو الهدى أيضًا عن ابن عمّه السيّد الشيخ عليّ ءال خير الله الصياديّ عن والده السيّد محمد عن والده القطبِ السيّد خير الله بسنَده المتقدِّم إلى السيّد أحمد الرفاعيّ الكبير رضي الله عنه وأرضاه.

٢) الشيخ السيّد محمد علي الحريري الرفاعيّ عن والده الشيخ السيّد محمد رشيد الحريري الرفاعيّ نقيب الأشراف بحوران عن شيخه الإمام العلّامة محمد مهدي الروّاس الصياديّ الرفاعيّ بسنَده المتقدِّم إلى السيّد أحمد الرفاعيّ الكبير رضي الله عنه وأرضاه.

٣) مفتي محافظة إدلب الشيخ محمد ثابت بن حسن الكيّالي الرفاعيّ (ت ١٤٢٩هـ) وهو عن جدّه الشيخ الصالح السيّد محمد طاهر بن عبد القادر الكيّالي عن السيّد الشيخ أبي الهدى الصياديّ بأسانيدِه المتقدِّمة إلى السيّد أحمد الرفاعيّ الكبير رضي الله عنه وأرضاه.

(ح) والسيّد محمد طاهر الكيّالي عن والد السيّد محمد شريف الكيّالي وهو عن والده السيّد طاهر الكيّالي وهو عن والده السيّد شريف الكيّالي وهو عن والده العلّامة عن والده السيّد أحمد السَّوّاح العراقيّ نزيل حمص ودفين

قرية مُودان عن ابن عمّه محمد حافظ الكيّالي عن والد عمر الكيّالي عن والده إسماعيل الكيّالي عن ابن عمّه أحمد الكيّالي عن والده عبد الكريم الكيّالي عن والده أحمد الكيّالي عن والده عمر الكيّالي عن والده العلّامة الكبير أحمد الكيّالي عن والده يحيى الكيّالي عن والده عمر الكيّالي عن والده تاج الدّين الكيّالي عن والده عبد السَّميع الكيّالي عن والده حسن الكيّالي عن والده عيسى الكيّالي عن والده عمر الكيّالي عن والده محمد الكيّالي عن والده عليّ الكيّالي عن والده محمد البصريّ الكيّالي عن والده إسماعيل الثاني البصريّ الكيّالي عن عمّه شهاب الدين البصريّ الكيّالي عن تاج الدّين الرفاعيّ عن شمس الدين أحمد الرفاعيّ نقيب البصرة عن نجم الدين الرفاعيّ عن ابن عمّه القطب الكبير المعمَّر السيّد إسماعيل المشهور بالكيّال الرفاعيّ دفين الترنْبة مِن نواحي حلب عن أخيه السيّد نجم الدين أحمد الأخضر الرفاعيّ عن قطب الدين الرفاعيّ عن شمس الدين محمد الرفاعيّ عن ابن عمّه القطب السيّد إبراهيم الأعزب الرفاعيّ عن عمّه السيّد ممهّد الدولة عبد الرحيم عن جدّه لأمّه زينبَ الإمامِ الغوث السيّد أحمد الرفاعيّ الكبير رضي الله عنه وأرضاه.

٤) خادم عُموم السادة الرفاعيّة السيّد أحمد أحمد كامل يس الرفاعيّ الحسيب النسيب السيّد أحمد كامل بيك ياسين الرفاعيّ وهو عن شيخه وعمه عصبا الحسيب النسيب السيّد محمد محمد يس الرفاعيّ شيخ عموم السادة الرفاعيّة سابقًا وهو عن شيخه ووالده الحسيب النسيب محمد ياسين الرفاعيّ شيخ عموم السادة الرفاعيّة سابقًا والمدفونين بمسجد جدّهم الإمام الرفاعيّ بالقَلعة وهو عن شيخه وابن عمّه عصبًا السيّد عمر الحريري الرفاعيّ مِن أشراف مدينة حماه وهو عن والده السيّد حسن الحريري الرفاعيّ عن والده السيّد محمد الحريري الرفاعيّ عن والده السيّد أبي بكر الحريري الرفاعيّ عن والده السيّد محمد الحريري الرفاعيّ عن عمّه السيّد موسى الحريري الرفاعيّ عن أخيه السيّد محمد الحريري الرفاعيّ عن والده السيّد عبد الباسط الحريري الرفاعيّ عن والده السيّد محفوظ

الحريري الرفاعيّ عن والده أحمد السوَّاح الحريري الرفاعيّ عن والده السيّد عبد الباسط الحريري الرفاعيّ عن والده السيّد عبد الدائم الحريري الرفاعيّ عن والده السيّد إبراهيم الحريري الرفاعيّ عن والده السيّد رسلان الحريري الرفاعيّ عن السيّد أبي بكر الحريري الرفاعيّ عن والده السيّد منصور الحريري الرفاعيّ عن والده السيّد إبراهيم الحريري الرفاعيّ عن السيّد علي الحريري الرفاعيّ عن والده السيّد محمد مغوار الحريري الرفاعيّ عن والده السيّد حسن الحريري الرفاعيّ عن والده السيّد خميس الحريري الرفاعيّ عن والده السيّد سعيد الحريري الرفاعيّ عن والده السيّد عبد المُعِزّ الحريري الرفاعيّ عن والده السيّد داود الحريري عن عمّه السيّد الشيخ الجليل يحيى الرفاعيّ عن عمّه الشيخ مطر الرفاعيّ عن والده الجليل العارف بالله السيّد محيي الدين الرفاعيّ دفين حماه وصاحب الزاوية الحريرية عن والده السيّد يحيى الرفاعيّ عن والده السيّد علي الرفاعيّ البصري دفين حوران عن جدّه لأمّه الإمامِ الغوث السيّد أحمد الرفاعيّ الكبير رضي الله عنه وأرضاه.

٥) مفتي محافظة الرَّقّة السوريّة العلّامة الشيخ محمد السيّد أحمد عن الحسيب النسيب السيّد الشيخ صالح ابن الشيخ عليّ عجّان الحديد الرفاعيّ عن والده عن مولانا الشيخ أبي البركات عثمان الموصلي عن السيّد الشيخ أبي الهدى الصياديّ بأسانيدِه المتقدِّمة إلى السيّد أحمد الرفاعيّ الكبير رضي الله عنه وأرضاه.

٦) الشيخ محمد أبو الهول المعروف بالشيخ هايل رجب الصيّاديّ الرفاعيّ عن والده السيّد خالد الرفاعيّ عن جدّه السيّد رجب الرفاعيّ عن الإمام السيّد بهاء الدين الروّاس بسنَده المتقدِّم إلى السيّد أحمد الرفاعيّ الكبير رضي الله عنه وأرضاه.

٧) الشيخ السيّد النسّابة جمال الراوي ابن الشّيخ إسماعيل ابن الشيخ إبراهيم الرفاعي البغدادي وهو عن جدّه عن السيّد الشيخ أبي الهدى الصياديّ

بأسانيدِه المتقدِّمة إلى السيّد أحمد الرفاعيّ الكبير رضي الله عنه وأرضاه.

٨) الشيخ المعمَّر المسنِد حسن سيد أفندي مستك أوستوران الحنفي القادريّ القونوي عن العلّامة السيّد أبي الهدى الصياديّ بأسانيدِه المتقدِّمة إلى السيّد أحمد الرفاعيّ الكبير رضي الله عنه وأرضاه.

٩) الشيخ محمد سعيد الخاني الصارجي عن شيخه العلّامة المعمَّر محمد سعيد ابن مصطفى النعسان الحموي عن العلّامة السيّد أبي الهدى الصياديّ بأسانيدِه المتقدِّمة إلى السيّد أحمد الرفاعيّ الكبير رضي الله عنه وأرضاه.

وأروي الطريقةَ الرِّفاعيّة العَلِيّةِ عن شيخنا شيخ الإسلام والمسلمين العارف بالله العلامة الحافظ القطب الزاهد العابد الفقيه الشيخ عبد الله بن محمّد بن يوسف الهرري رضي الله عنه وأرضاه وجزاه عنّا خير الجزاء، وهو يرويها بالبَيعة والخِلافةِ والتلقين والإجازة عن عددٍ، منهم:

١٠) الشيخ الصالح السيّد محمد طاهر الكيّاليّ الرّفاعيّ الحمصيّ شيخ الرفاعيّة في حمص رضي الله عنه وهو والده السيّد محمد شريف الكيّالي بسنَد الكيّاليّين إلى القطب الكبير المعمَّر السيّد إسماعيل المشهور بالكيّال الرفاعيّ بسنَده المتقدِّم إلى السيّد أحمد الرفاعيّ الكبير رضي الله عنه وأرضاه.

١١) والشيخ الصالح صاحب الأحوال السَّنِيّة وشيخ الرفاعيّة بمدينة حماه السيّد عبد الرحمن السَّبسَبيّ الحمويّ خليفة والده الشيخ أحمد السَّبسَبيّ الرفاعيّ الآخِذ عن ابن عمّه أحمد الحريري الرفاعيّ عن والده عمر الحريري الرفاعيّ مِن أشراف مدينة حماه بسنَده المتقدِّم إلى السيّد أحمد الرفاعيّ الكبير رضي الله عنه وأرضاه.

١٢) والشيخ السيّد عبد الرحمن السَّبسَبيّ المتقدِّم الذِّكر ءانِفًا الآخِذ أيضًا عن الشيخ المعمَّر محمد سعيد بن مصطفى النعسان الحموي الرفاعيّ بسنَده المتقدِّم إلى السيّد أحمد الرفاعيّ الكبير رضي الله عنه وأرضاه.

١٣) والشيخ السيّد محمد علي الحريري الرفاعيّ عن والده الشيخ السيّد محمد رشيد الحريري الرفاعيّ عن شيخه الإمام العلّامة محمد مهدي الروّاس الصياديّ الرفاعيّ بسنَده المتقدِّم إلى السيّد أحمد الرفاعيّ الكبير رضي الله عنه وأرضاه.

ولشيخنا العلّامة الهرريّ رحمه الله طرُق أخرى كثيرة في الطريقة الرِّفاعيّة العليّة لا يسَع المقامَ ذِكرُها، رضي الله عنه وعن سائر مشايخنا الصالحين الأعلام، وجزاهم الله عنّا خير الجزاء.

وقد وثَّقنا الأسانيد وضبطناها مِن نصوص الإجازات التي بحوزَتنا واستوثقنا مِن أعلامِها بالعرض على: «**السفينة الرفاعيّة بصحيح أصول الأنساب والأسانيد والمناقب العَلِيّة**» لصديقنا وأخينا الأستاذ المحقق ماجد البياتي، و«**خبايا الزَّوايا**» و«**رسالة في الطُّرق الصُّوفيّة**» كلاهما لحسن بن عليّ العجيميّ المكيّ، و«**موجَز ثبت الدرر الغالية**» لمحمد صالح الخطيب القادريّ الدمشقيّ، و«**عقود الأسانيد**» لمحمد أمين أفندي السفرجلاني الدمشقيّ، و«**المَنهل الرَّوِيّ الرائق في أسانيد العلوم وأصول الطرائِق**» و«**السَّلسل المعين في بالطرائق الأربعين**» كلاهما لمحمد عليّ السنوسي الخطّابيّ، و«**كشف الأسرار لتنوير الأفكار**» لمصطفى نجا البيروتيّ، و«**المِنَح البادية في الأسانيد العالية**» لمحمد الصغير الفاسيّ، و«**اللَّوامع النُّورانية في أسانيد الطُّرق الصُّوفيّة لإمام البلاد الحبشية**» لصديقنا وأخينا الأستاذ الدكتور الشيخ كمال يوسف الحوت.

الوسائِط العَلِيَّة

للاتّصالِ بسيّد الطائفةِ الرفاعيّة
وطَريقتِه السُّنّيّةِ السَّنِيّة

الشيخ الشـريف

جميـــل محمـد عـلي حليـــم

القـادري الرفـاعي النقشـبندي

مجـاز بإعطـاء وتلقين الطـرق الأربعيـن

دكتور محاضر في العقائد والفرق والسير

رئيـــس جمعيـة المشـــايخ الصوفيـة

اتصالي بالقطب الغوث السيد أحمد وطريقته الرفاعية العلية بعدّة وسائط

الواسطة الأولى

وقد تفضل الله علي بمنّه وكرمه وجوده وإحسانه بأن يسر لي ووفقني لأكون في ركب مولانا أبي العلمين شيخ الرجال ومخرّج الأولياء بأن أُجزت بطريقته الرفاعية من خليفته رفاعي عصره شيخي وأستاذي وسيدي وعمدتي وسندي وقرة عين أهل الإسلام والإيمان المحدث الحافظ الفقيه النحوي الأصولي المفسر الحجَّة القطب باب الرسول الزاهد الناسك الأوّاه العابد الداعي إلى الحق والدال على الصراط المستقيم المرشد المربي معلم التوحيد والسالك على قدم إمامنا وغوثنا وملجئنا شيخ العريجاء سلطان العلماء أحمد الرفاعي أعني الشيخ عبد الله بن محمَّد ابن يوسف بن عبد الله بن جامع الشيبي العبدري القرشي نسبًا الهرري موطنًا المتوفى في الثاني من شهر رمضان المبارك سنة تسع وعشرين وأربعمائة وألف من الهجرة النبوية رحمه الله تعالى مرات عديدة وفي مجامع مختلفة بعضها كان فيه نحو سبعة ءالاف مريد تلقّوها منه وذلك في مسجد الإمام علي بن أبي طالب في الطريق الجديدة في بيروت حيث امتلأ المسجد بكل طبقاته وقاعاته وامتد حضور الناس إلى الطرقات والشوارع المحيطة بالمسجد وأجازني بإعطائها بعد ذلك مرات وكرات وأكّدها لفظًا وكتابة وعندي إجازته بتوقيعه المبارك وختمه مع الإجازة العامة بكل الطرق وقد تكرَّم علي رضي الله عنه وألبسني بيده الشريفة المباركة الخِرقة الرفاعية من غير طلب مني وناولني الخلعة وأعطاني بيده الكريمة في بعض المرات قلنسوة أو رداءً أو قميصًا أو عباءةً أو مسبحةً ومرة ألبسني خاتمه مع صغر خنصره ودقته إلا أن خاتمه المبارك دخل في إصبعي بسهولة وكان أمرًا مستغربًا بالنسبة لي حيث أن إصبعي أضخم حجمًا من إصبعه رحمه الله

فجزاه الله عني وعن الإسلام والمسلمين يوم الدين خير الجزاء وأحسن إليه وغفر له ولوالديه ولأولاده ولأهله ولمريديه وللمؤمنين والمؤمنات، وهو أي شيخنا وأستاذنا الهرري رضي الله تعالى عنه وأرضاه عن الولي الصالح الشيخ محمَّد طاهر الكيالي الرفاعي الحمصي[1] وهو عن والده السيد محمَّد شريف الكيالي الرفاعي وهو عن والده السيد طاهر الكيالي الرفاعي وهو عن والده العلامة الشيخ شريف الكيالي الرفاعي عن والده العلامة الكبير العراقي السيد أحمد السواح الثاني الكيالي نزيل مدينة حمص ودفين قرية مدران وهو عن ابن عمه السيد محمَّد حافظ الكيالي الرفاعي عن والده السيد عمر الكيالي الرفاعي عن والده السيد إسماعيل الكيالي الرفاعي عن ابن عمه السيد أحمد الكيالي الرفاعي عن والده السيد عبد الكريم الكيالي الرفاعي عن والده السيد أحمد الكيالي الرفاعي عن والده السيد عمر الكيالي الرفاعي عن والده العلامة الكبير السيد أحمد الكيالي الرفاعي عن والده السيد يحيى الكيالي الرفاعي عن والده السيد عمر الكيالي الرفاعي عن والده السيد تاج الدين الكيالي الرفاعي عن والده السيد عبد السميع الكيالي الرفاعي عن والده السيد حسن الكيالي الرفاعي عن والده السيد عيسى الكيالي الرفاعي عن والده السيد عمر الكيالي الرفاعي عن والده السيد محمَّد الكيالي

---

(١) وقد أعطاني شيخنا الهرري الحبشي نسخة من إجازته الخطية بالطريقة الرفاعية التي كتبها له شيخه محمد طاهر الكيالي الحمصي الرفاعي كتب له فيها «أما بعدُ فإنيّ بعد أن استخرتُ الله عز وجل أجزتُ ولدى القلبيَّ التقيَّ النقيَّ العلامةَ الشيخَ عبدَ الله الهرريَّ بنَ محمدٍ الحبشيَّ من هرر نزيلَ مدينة بيروت بطريقة جدي سيدِ العارفين وشيخ الصالحين الإمام الكبير والعارف الشهير محيى السنة والدين السيد أحمد الرفاعيّ الحسينيّ الحسنيّ الأنصاريّ رضي الله عنه إلخ» وأذن له بأخذ العهد على المريدين وبإعطائها. وهي موجودة عندي وقد أخبرني صديقنا وابن عمنا فضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور الطبيب الحسيب النسيب السيد الشريف كمال بن يوسف الحوت البيروتي الحسيني رئيس الجمعية السادة الأشراف في لبنان أنه سمع من الشيخ طاهر رحمه الله يقول: أنا لو لم يكن لي مريد في الطريقة الرفاعية إلا العلامة الشيخ عبد الله الحبشي لكفاني ذلك شرفًا. المصنف.

الرفاعي عن والده السيد علي الكيالي الرفاعي عن والده السيد محمَّد البصري الكيالي الرفاعي عن والده السيد إسماعيل الثاني البصري الكيالي الرفاعي عن عمه السيد شهاب الدين البصري الرفاعي عن السيد تاج الدين الرفاعي عن السيد شمس الدين أحمد الرفاعي نقيب البصره عن السيد نجم الدين يحيى الرفاعي عن ابن عمه القطب الكبير السيد إسماعيل الشهير بالكيال الرفاعي نزيل سوريا والمدفون فيها في قرية الترنبة من قرى سرمين من أعمال حلب عن أخيه لأمه وأبيه السيد نجم الدين أحمد الأخضر الرفاعي عن قطب الدين الرفاعي عن شمس الدين السيد محمَّد الرفاعي عن ابن عمه صاحب الخوارق والعجائب السيد إبراهيم الأعزب الرفاعي عن عمه السيد عبد الرحيم الرفاعي عن أخيه السيد علي الرفاعي عن خاله وابن عم أبيه محي السنة والدين القطب الغوث الشهير الإمام السيد أحمد أبي العلمين بن السيد علي أبي الحسن الرفاعي الكبير الحسيني رضي الله عنه وأرضاه وامدنا بمدده وبمدد جده رسول الله وبمدد كل نبي وملك وولي وهو أخذ عن الإمام الشيخ علي الواسطي القاري وهو أخذ عن الشيخ أبي الفضل ابن كافحٍ وهو أخذ عن الشيخ غلام بن تركان وهو أخذ عن الشيخ أبي علي الروذباري وهو عن الشيخ علي العجمي وهو عن الشيخ أبي بكر الشبلي وهو عن شيخ الصوفية والفقهاء أبي القاسم الجنيد البغدادي سيد الطائفتين وهو عن خاله الشيخ سري السقطي وهو عن الشيخ أبي محفوظ معروف الكرخي وهو عن الشيخ داوود الطائي وهو عن الشيخ حبيب العجمي وهو عن الشيخ الإمام التابعي الحسن البصري وهو عن سيدنا ومولانا أمير المؤمنين أسد الله الغالب علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وعنهم أجمعين وهو عن النبي الأعظم والرسول الأكرم ﷺ.

وأقول ولسيدنا الإمام القطب رفاعي عصره العلامة الشيخ عبد الله الهرري الحبشي رضي الله عنه وأرضاه أسانيد وطرق أخرى في الطريقة الرفاعية فيروي الطريقة الرفاعية وبقية طرق أهل الله كلها عن مفتي الحبشة الشيخ محمَّد سراج ابن الشيخ محمَّد سعيد الجبرتي الآني الشافعي وهو عاليًا عن المعمر العارف بالله

الشيخ عمر بن أبي بكر باجنيد الحضرمي ثم المكي المدرس بالمسجد الحرام عن الشيخ أحمد زيني دحلان مفتي الشافعية بمكة المكرمة وهو عن الشيخ الإمام العارف بالله الأستاذ أبي عبد الله محمَّد ابن علي السنوسي الخطابي الحسني الإدريسي المتوفى سنة ١٢٧٦هـ بجغبوب بما في كتابه السلسبيل المعين في الطرق الأربعين، وعن الشيخ العارف بالله الحبيب عيدروس بن عمر الحبْشي بما في كتابه عقد اليواقيت الجوهرية وسمط العين الذهبية بذكر السادات العلوية، ويروي شيخنا الهرري أيضًا عن الشيخ السيد محمَّد علي الحريري الدمشقي وهو يروي عن والده المعمر الشيخ السيد الولي الصالح رشيد الحريري الرفاعي نقيب أشراف حوران وهو يروي عن القطب الكبير السيد الشهير محمَّد مهدي الصيادي الرفاعي الشهير بالرواس والرواس بأسانيده المعروفة والمشهورة ويروي شيخنا الهرري أيضًا عن الشيخ الصالح الحسيب النسيب السيد الأصيل عبد الرحمٰن السبسبي الحمَوي رحمه الله تعالى وهو عن الشيخ نعسان بدر الدين الحلبي صاحب «التعليق على مدارج السالكين» للرواس المطبوع في اسطنبول قريبًا من سنة ١٣١١هـ وهو عن صاحب التصانيف ناصر الصوفية مستشار السلطان عبد الحميد الثاني العثماني رحمهما الله تعالى الشيخ محمَّد أبي الهدى الصيادي عن شيخه القطب الشهير الشيخ بهاء الدين محمَّد مهدي بن علي الرفاعي المعروف بالرواس عن شيخ فطامه السيد عبد الله الراوي عن أبيه السيد أحمد الراوي عن شيخين الأول السيد بدوي الرفاعي عن أبيه السيد إسحاق عن أبيه السيد طالب عن أبيه السيد يوسف عن أبيه السيد يعقوب عن أبيه السيد شعبان عن أبيه السيد محمَّد عن أبيه السيد صالح عن أبيه السيد عبد الرحمٰن عن أبيه السيد عبد الله عن أبيه السيد حسن عن أبيه السيد حسين عن أبيه السيد يوسف عن أبيه السيد رجب عن أبيه السيد شمس الدين عن جده القطب الداعي السيد أحمد الكبير الرفاعي والشيخ الثاني هو السيد نور الدين حبيب الله الحَديثي الرفاعي عن السيد حسين برهان الدين ءال خُزام الصيادي الرفاعي نقيب البصرة عن أخيه النقيب السيد نور الدين عن أبيه

السيد عبد العلام عن عمه السيد سراج الدين الصغير عن جده السيد محمود عن أبيه السيد محمَّد برهان عن أبيه السيد حسن الغوَّاص عن أبيه السيد الحاج محمَّد شاه عن أبيه السيد محمَّد خزام دفين الموصل عن عمه السيد ملك المندلاوي عن أبيه السيد محمود الأسمر عن أبيه السيد حسين العراقي عن ابن عمه السيد تاج الدين عن ابن عمه السيد عبد الرحمٰن شمس الدين دفين مَتكين عن جده السيد محمَّد خزام السَّليم عن أبيه الشمس عبد الكريم عن أبيه السيد صالح عبد الرزاق عن أبيه السيد شمس الدين محمَّد عن أبيه السيد صدر الدين علي عن أبيه الغوث السيد أحمد الصياد عن أخيه السيد عبد المحسن أبي الحسن عن جده الإمام السيد أحمد الرفاعي الحسيني رضي الله عنه.

وللشيخ عبد الرحمٰن بن أحمد السَّبسَبي الحمَوي رحمه الله سند ءاخر من طريق الرفاعيين الحريريين مسلسلٌ بهم ولدًا عن والدٍ فإنه أجيز بالطريقة وتلقينها ولبس الخرقة من والده الشيخ أحمد السبسبي وهو من شيخه وابن عمه الشيخ أحمد الحريري الرفاعي وهو من والده الشيخ عمر الحريري الرفاعي وهو من والده الشيخ حسن وهو من والده الشيخ محمَّد وهو من والده الشيخ أبي بكر وهو من والده الشيخ محمَّد وهو من عمه الشيخ موسى وهو من أخيه الشيخ أحمد وهو من والده الشيخ عبد الباسط وهو من والده الشيخ محفوظ وهو من والده الشيخ أحمد الواسطي الحريري وهو من والده الشيخ عبد الباسط وهو من والده الشيخ عبد الدائم وهو من والده الشيخ إبراهيم الحريري وهو من والده الشيخ أبي بكر وهو من والده الشيخ رسلان وهو من والده الشيخ منصور وهو من والده الشيخ إبراهيم وهو من والده الشيخ علي وهو من والده الشيخ محمَّد وهو من والده الشيخ مغوار وهو من والده الشيخ حسن وهو من والده الشيخ خميس وهو من والده الشيخ سعيد وهو من والده الشيخ عبد المعزّ وهو من والده الشيخ داود وهو من عمه الجليل الشيخ يحيى وهو من عمه الشيخ مطر وهو من والده الجليل الشيخ محيي الدين القاطن في حماه المحمية صاحب

الزاوية الحريرية ودفينها وهو من والده الشيخ يحيى وهو من والده الشيخ محمَّد وهو من والده الشريف برهان الدين علي الحريري صاحب المقامات والبراهين دفين بصرى الحرير في حَوران نفعنا الله به والمسلمين وهو تلقن الذكرَ ولبس الخرقة وصحب جده سلطان العارفين وقدوة السالكين وشيخ المحققين صاحب المقامات الكثيرة والأحوال الشهيرة الممتازَ بتقبيل يد الرسول ﷺ سيدي السيد الكبير الشيخ أحمد الرفاعي رضي الله عنه وهو أيَّدنا الله ببركته ونفعنا الله بعلومه وإمداداته بايع من شيخه علامة الزمان فقيه العصر صوفي الوقت الشيخ أبي الفضل علي الواسطي ولبس منه الخرقة الشريفة وهو بايع الشيخ أبا الفضل ابن كامَخ الواسطي عن غلام بن تركان الواسطي عن أبي علي الروذباري عن علي العجمي عن أبي بكر الشبلي عن الجنيد البغدادي عن سري السَّقَطي عن معروف الكرخي عن داود الطائي عن حبيب العجمي عن أبي سعيد الحسن البصري عن سيدنا ومولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه عن ابن عمه سيد السادات وإمام القادة خليل الله وحبيب الحق سيدنا وسندنا النبي العربي القرشي الهاشمي محمَّد رسول الله ﷺ (ح) وأخذ السيد أحمد الكبير رضي الله عنه أيضًا عن خاله الإمام منصور الرباني البطائحي عن خاله أبي المنصور الطيب عن ابن عمه أبي سعيد يحيى النجاري الواسطي عن أبي علي الترمذي القرمزي عن أبي القاسم السندوسي ويقال السندروسي عن القاضي أبي محمَّد رُوَيْم البغدادي عن الإمام الجنيد (ح) ولبس الشيخ أبو منصور البطائحي أيضًا من عمه السيد البركة الغوث معز الدين أبي محمَّد طلحة الشنبكي الأنصاري رضي الله عنه وهو لبس من والده موسى النجاري وهو من أبيه الشيخ كامل وهو من أبيه الشيخ يحيى وهو من أبيه الشيخ الكبير أبي بكر الواسطي ثم الفرغاني نزيل مَروٍ وهو من شيخ الطائفتين الجنيد البغدادي وهو عن السري السقطيّ عن معروف الكرخي وله في الخرقة طريقان (أحدهما) عن داود الطائي عن حبيب العجمي عن الحسن البصري عن الإمام علي ابن أبي طالب رضي الله عنه وثانيهما عن الإمام علي الرضا عن أبيه الإمام موسى الكاظم عن أبيه الإمام جعفر الصادق عن أبيه

الإمام محمَّد الباقر عن أبيه الإمام علي السجاد زين العابدين عن أبيه الإمام الحسين الشهيد عن أبيه أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب (ح) ولسيدنا السيد أحمد الرفاعي سند بخرقتهم الخاصة لبسها من ابن عمه السيد عثمان والسيد عثمان لبس منه خرقة التصوف ولكن انتهت خرقة بيتهم إلى السيد عثمان إذ ذاك فلبسها منه والسيد عثمان لبسها من والد الإمام الرفاعي السيد علي وهو من ابن عمه السيد حسن وهو من ابن عمه السيد يحيى النقيب وهو من أبيه السيد ثابت وهو من أبيه السيد علي الحازم وهو من أبيه السيد علي وهو من أبيه السيد حسن رفاعة المكي وهو من أبيه السيد أبي القاسم محمَّد وهو من أبيه السيد الحسن وهو من أبيه السيد الحسين وهو من أبيه السيد أحمد وهو من أبيه السيد إبراهيم المرتضى وهو من أبيه الإمام موسى الكاظم وقد تقدم ذكر سنده إلى علي أمير المؤمنين عليه السلام.

الواسطة الثانية

وأجازني بالطريقة الرفاعية الشيخ المعمر الحنفي القادري المتواضع الطيب ملا حسن سيد مستك أوستوران القونوي إجازة عامة وبكل أورادها وما يتعلق بها عن أبي الهدى الصيادي العلامة الفقيه السيد شيخ الطريقة الرفاعية في زمانه وهو يروي مباشرة عن شيخ الإسلام مفتي الأنام الإمام محمَّد مهدي الرواس الصيادي الرفاعي عن السيد عبد الله الراوي قدس سره عن السيد أحمد الراوي الكبير قدس سره عن السيد نور الدين حبيب الحديثي قدس سره عن الغوث السيد الشيخ سراج الدين البغدادي عن المرشد الأعظم الشيخ جمال الدين السليمي عن الشيخ قطب الدين الرفاعي عن الشيخ شمس الدين الصيادي عن أبيه الإمام الأجل صاحب القدر العلي شيخ الإسلام مولانا السيد صدر الدين علي عن أبيه القطب الغوث الفرد الجواد مولانا السيد أحمد عز الدين الصياد رضي الله عنه عن جده الغوث الرفاعي رضي الله عنه.

الواسطة الثالثة

وأروي الطريقة الرفاعية العلية المباركة الزكية عن شيخي وسيدي الزاهد المتواضع أبو رشيد محمَّد علي الحريري الرفاعي الحوراني ثم الدمشقي كما وأنه أكرمه الله أكرمني بالمشابكة وسيأتي ذكر ذلك وأجازني بكل ما يتعلق بالطريقة وبأورادها وكتب لي أكثر من ذلك بأمور عديدة وهو أحسن الله إليه أجيز من أبيه الولي الصالح الزاهد السائح صاحب الخوارق والعجائب والأحوال السنية الرضية محمَّد رشيد الحريري الرفاعي نقيب الأشراف في لواء حوران وهو عن الإمام السيد الهمام والأستاذ المقدام رفاعي عصره ناشر الطريقة الرفاعية بين الخافقين ابن الرسول وحفيد البتول ونسل بيت القطب الرفاعي شيخ الفروع والأصول محمَّد مهدي بهاء الدين ابن السيد علي الصيادي الرفاعي الحسيني الحسني الأنصاري الخالدي الشهير بالرواس المولود ١٢٢٠هـ والمتوفى سنة ١٢٨٧هـ وهو عن السيد عماد الدين إبراهيم بن بدر الدين بن مبارك بن صالح ابن رجب الرفاعي الحسينيّ البِصري مفتِي البَصرة ونقيبها عن ابن عمه السيدِ أحمدَ عن أبي البركاتِ عبدِ الله البصري العباسي عن السيدِ نورِ الدينِ حبيبِ الله الحَدِيثِي الرفاعي عن السيدِ حسين برهانِ الدينِ ءال خُزام الرفاعي نقيب البصرة عن أخيه النقيب السيد نور الدين عن ابن عمه أبي الشهاب حسامِ الدينِ بن خُزام الرفاعي البصري عن ابن عمه السيد شعبان نقيب البصرة عن عمه السيد تاج الدين النقيب عن ابن عمه السيد سراج الدين الرفاعي دفين صدرية بغداد عن شيخه السيد جمال الدين السليميّ الرفاعي عن السيد قطب الدين الرفاعي عن الشيخ عمر الصغير الفاروثي الشافعي عن أبيه عز الدين أحمد الفاروثي عن أبي الفضل محيي الدين إبراهيم المصطفوي الفاروثي عن والده أبي الفرج عمر الفاروثي وعن الإمام شرف الدين أبي طالب ابن عبد السميع العباسي الهاشمي الذي تلقى البرهان المؤيد من مجالس وعظ الإمام أحمد الرفاعي مجلسًا مجلسًا ودوَّنَه عن الإمام السيد أحمد الرفاعي الكبير

(ح) وللسيد إبراهيم الرفاعي البصري سندٌ ءاخر ينتهِى إلى جدّه السيد شمس الدين محمَّد بن الرفاعي وهو عن جدّه الإمام أحمد بن أبي الحسن الرفاعي رضي الله عنه (ح) وعن السيد بهاء الدين الرواس عن السيد عبد الله الراوِي وهو شيخ فطامه كما قال في «طي السجلّ» وهو عن أبيه السيد أحمد الراوِي وهو قدّس الله سرَّه تلقَّى هذه الطريقة العليّة عن شيخين الأول السيد الشيخ بدوي الرفاعي وهو عن أبيه السيد إسحاق وهو عن أبيه السيد طالب وهو عن أبيه السيد يوسف وهو عن أبيه السيد يعقوب وهو عن أبيه السيد شعبان وهو عن أبيه السيد محمَّد وهو عن أبيه السيد صالح وهو عن أبيه السيد عبد الرحمٰن وهو عن أبيه السيد عبد الله وهو عن أبيه السيد حسن وهو عن أبيه السيد حسين وهو عن أبيه السيد يوسف وهو عن أبيه السيد رجب وهو عن أبيه السيد شمس الدين وهو عن جده القطب الداعي السيد أحمد الكبير الرفاعي والشيخ الثاني هو السيد نورُ الدينِ حبيب الله الحَدِيثِيّ عن السيدِ حسين برهان الدين ءال خزام الصيادي الرفاعي عن أخيه السيد نور الدين عن أبيه السيد عبد العَلاّم عن عمه السيد سراج الدين الصغير عن جده السيد محمود عن أبيه السيد محمَّد برهان عن أبيه السيد حسن الغواص عن أبيه السيد الحاج محمَّد شاه عن أبيه السيد دفين الموصل محمَّد خزام عن عمه السيد ملك المندلاوي عن أبيه السيد محمود الأسمر عن أبيه السيد حسين العراقيّ عن ابن عمه السيد تاج الدين عن ابن عمه السيد عبد الرحمٰن شمس الدين دفين متكين عن جده السيد محمَّد خزام السليم عن أبيه الشمس عبد الكريم عن أبيه السيد صالح عبد الرزاق عن أبيه السيد شمس الدين محمَّد عن أبيه السيد صدر الدين عليّ عن أبيه الغوث السيد أحمد الصياد عن أخيه السيد عبد المحسن أبي الحسن عن جده الإمام السيد أحمد الرفاعي الحسيني رضي الله عنه. ومنه رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ بالإسناد المتقدم.

الواسطة الرابعة

وأجازني فضيلة الشيخ الشريف الحسيب النسيب سليل بيت النبوة الأستاذ النسابة السيد جمال الرفاعي ابن الشيخ إسماعيل إبراهيم الراوي المأذون لشيخ الطريقة الرفاعية في منزله في بغداد وهو يروي عن شيخه ووالده الأستاذ السيد إسماعيل إبراهيم الراوي عن الشيخ محمَّد أبي الهدى أفندي الرفاعي وهو عن مشايخ كرام منهم أبو البركات السيد محمَّد بهاء الدين عن السيد الشيخ عبد الله الراوي الرفاعي وهو عن شيخه ووالده السيد الشيخ أحمد الراوي الرفاعي وهو عن السيد الشيخ نور الدين حبيب الله الحديثي الرفاعي وهو عن السيد برهان الدين الخزامي الصيادي وهو عن أخيه السيد نور الدين وهو عن أبيه السيد عبد العلام الخزامي وهو عن عمه السيد سراج الدين وهو عن جده السيد محمود الصوفي وهو عن أبيه محمَّد برهان الدين وهو عن أبيه السيد الحاج محمَّد شاه وهو عن أبيه مقتدى الأعلام السيد محمَّد خزام وهو عن أبيه السيد ملك المندلاوي وهو عن أبيه السيد محمود الأسمر وهو عن أبيه السيد حسين العراقي وهو عن ابن عمه السيد تاج الدين وهو عن ابن عمه السيد عبد الرحمٰن شمس الدين وهو عن جده السيد محمَّد خزام سليم وهو عن أبيه السيد شمس الدين عبد الكريم وهو عن أبيه السيد صالح عبد الرزاق وهو عن أبيه السيد شمس الدين محمَّد وهو عن أبيه صدر الدين علي وهو عن أبيه قطب الأفراد مولانا السيد أحمد عز الدين الصيادي رضي الله عنه وهو عن أخيه وشيخه السيد الشيخ عبد المحسن وهو عن شيخه وجده الحسيب النسيب صاحب العلوم المفيدة والكرامات العديدة والمناقب الحميدة مربي المريدين وقدوة السالكين وسلطان الأولياء والعارفين موصل كل أعرج ومقوم كل أعوج من ذلت له الأسود والأفاعي مولانا غوث الثقلين أبي العلمين الممتاز بتقبيل يد جده سيد الكونين السيد الشيخ أحمد محي الدين أبي العباس الحسيني الحسني الرفاعي رضي الله عنه وقدس سره ونفعنا ببركاته وهو عن شيخه الشيخ علي

الواسطي وهو عن شيخه الشيخ أبي الفضل ابن كامخ وهو عن شيخه الشيخ غلام بن تركان وهو عن شيخه الشيخ علي الروذبادي وهو عن شيخه الشيخ علي العجمي وهو عن شيخه الشيخ أبي بكر الشبلي وهو عن شيخه الشيخ تاج العارفين سيدنا أبي القاسم الجنيد البغدادي وهو عن شيخه سريّ السقطي وهو عن شيخه الشيخ معروف الكرخي وهو عن شيخه الشيخ داود الطائي وهو عن شيخه الشيخ حبيب العجمي وهو عن شيخه أبي سعيد الحسن البصري رضي الله عنه وعنهم جميعًا وهو عن شيخه زوج البتول وابن عم الرسول مفرق الكتائب ليث بني غالب أمير المؤمنين سيدنا ومولانا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي الله عنه وهو بالسند قال يا رسول الله دلني على أقرب الطرق إلى الله وأسهلها على عباده وأفضلها عند الله تعالى فقال ﷺ: «**أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي لا إلـٰه إلا الله ولو أن السماوات السبع والأرضين السبع في كفة ولا إلـٰه إلا الله في كفة لرجحت بهم لا إلـٰه إلا الله**»، ثم قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة وعلى وجه الأرض من يقول الله الله**» فقال علي رضي الله عنه: كيف أذكر يا رسول الله، فقال عليه الصلاة والسلام: «غمض عينيك واسمع مني ثلاث مرات ثم قل أنت ثلاث مرات وأنا أسمع، فقال ﷺ: **لا إلـٰه إلا الله** ثلاث مرات مغمضًا عينيه رافعًا صوته وعلي يسمع، ثم قال علي رضي الله عنه: **لا إلـٰه إلا الله** ثلاث مرات مغمضًا عينيه رافعًا صوته والنبي ﷺ يسمع. وروي عنه ﷺ أنه قال: «**أدبني ربي فأحسن تأديبي**» وهو عليه الصلاة والسلام محمَّد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

الواسطة الخامسة

وأجازني فضيلة الشيخ السيد أحمد أحمد كامل يس الرفاعي خادم عموم السادة الرفاعية إجازة بتلقين العهود وتربية المريدين واستفتاح مجالس الأذكار ولبس الخرقتين السوداء والبيضاء وإلباسهما لمن يرى فيه أهلية والسروح والرواح بالعلَم الأسمر والأبيض في الموالد والليالي تحت الكتاب والنجاب وقراءة الأحزاب والأوراد وأن يكون خليفة أسوةً لأمثاله الخلفاء الرفاعية وهو يروي عن أشياخه المذكورين بسنده الموصول إلى شيخنا وأستاذنا السيد أحمد الرفاعي الحسيني الكبير رضي الله عنه ومنهم جده الحسيب النسيب السيد أحمد كامل بيك ياسين الرفاعي وهو عن شيخه وعمه عصبًا الحسيب النسيب السيد محمَّد محمد ياسين الرفاعي شيخ عموم السادة الرفاعية سابقًا وهو عن شيخه ووالده الحسيب النسيب محمَّد ياسين الرفاعي شيخ عموم السادة الرفاعية سابقًا والمدفونين بمسجد جدهم الإمام الرفاعي بالقلعة وهو عن شيخه وابن عمه عصبًا السيد عمر الرفاعي من أشراف مدينة حماه بالأقطار الشامية وهو عن والده السيد حسن عن والده السيد محمَّد عن والده السيد أبي بكر عن والده السيد محمَّد عن عمه السيد موسى عن أخيه السيد محمَّد عن والده السيد عبد الباسط عن والده السيد محفوظ عن والده السيد أحمد السواح عن والده السيد عبد الباسط عن والده السيد عبد الدائم عن والده السيد إبراهيم عن والده السيد رسلان عن السيد أبي بكر عن والده السيد منصور عن والده السيد إبراهيم عن السيد علي عن والده السيد محمَّد مغوار عن والده السيد حسن عن والده السيد خميس عن والده السيد سعيد عن والده السيد معروف عن والده السيد داود عن والده السيد محيي الدين الكائن ضريحه بمدينة حماه عن والده السيد يحيى عن والده السيد علي البصري الكائن ضريحه بحوران عن جده والد أمه حميد المساعي الأستاذ الكبير والعلم الشهير والبحر الغزير السيد أحمد الرفاعي الكبير قدس الله سره ورضي الله عنه وهو عن شيخه الأستاذ سيدي علي القاري

الواسطي عن شيخه سيدي علي أبي الفضل بن كامخ عن شيخه سيدي علام عن شيخه سيدي علي البازي عن شيخه سيدي علي العجمي عن الأستاذ سيدي أبي بكر الشبلي عن شيخ الطائفة الأستاذ الجنيد البغدادي عن الأستاذ سيدي السري السقطي عن الأستاذ سيدي أبي محفوظ معروف الكرخي عن الأستاذ سيدي داود الطائي عن الأستاذ سيدي حبيب العجمي عن الأستاذ سيدي أبي سعيد حسن البصري وهو عن الإمام الهمام زوج البتول ابن عم الرسول مظهر العجائب ومفرق الكتائب ليث بني غالب الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي الله عنه وهو عن رسول الثقلين وجد الحسنين شفيع الأمة وكاشف الغمة سيدنا ومولانا محمَّد ﷺ وهو عن الأمين جبريل عليه السلام.

الواسطة السادسة

أجازني بالطريقة الرفاعية الشيخ الأستاذ الداعية مصطفى التركماني[1] رحمه الله رحمة واسعة وهو خليفة مولانا السيد الولي الصالح عبد الرحمٰن

(١) كنا في منزله في يوم من الأيام الكائن في محلة الزاهرة بدمشق، ضحى يوم الخميس في ١٩٩٧\١٠\٢٠ر وصار يخبرنا ويحدثنا عن شيخه السيد عبد الرحمٰن السبسبي وهو يبكي ويتحسر ثم لما عرف منا أن شيخنا الشيخ عبد الله الهرري الحبشي الرفاعي أخذ الطريقة من الشيخ عبد الرحمٰن السبسبي جعل يحدثنا عن معرفته القديمة بشيخنا الشيخ الهرري أيام كان في جامع القطاط في القيمرية في دمشق ويثني عليه ويدعو له ويقول: أخلاق الشيخ أخلاق ولاية كبرى، والله لا يوجد في مستواه من الصبر والمثابرة والمصابرة والإرشاد يندر مثله في العالم الإسلامي في العلم والإنكسار والتواضع، الذي لم يعاشره لا يعرف كيف يقومه، والذي عاشره يعرفه، الشيخ يُتبرك بقدميه وبتراب قدميه، هذا الشيخ يعيد السنة ويعيد سيرة السلف الصالح بأقصى ما يتصوره العقل، سلموا لي عليه وقبلوا لي يديه، وقال: كل الذين يحاربونه مصدر واحد وعملة واحدة لكنهم نوعوا حتى يقال العالم كله ضد الشيخ.

السَّبْسَبِيّ[1] الحَمَوِيّ رحمه الله تعالى ورضي عنه عن شيخه السبسبي عن الشيخ نعسان بدر الدين الحلبيّ وهو عن الشيخ محمَّد أبي الهدى الصياديّ عن الشيخ بهاء الدين محمَّد مهدي بن عليّ الرفاعي المشهورِ بالرواسِ بأسانيده المتقدمة إلى سيدنا أحمد الرفاعي رضي الله عنه (ح) وللشيخ عبد الرحمٰن بن أحمد السَّبْسَبِيّ الحَمَوِيّ رحمه الله سندٌ ءاخرُ من طريق الرفاعيّينَ الحريريينَ مسلسلٌ بهم ولدًا عن والدٍ ذكره في إجازته لابن عمّه محمَّد عارف بن محمَّد زاهد السَّبْسَبِيّ حيث قال إنه أجيز بالطريقة وتلقينها ولَبِسَ الخرقة من والده الشيخ أحمد السبسبيّ وهو من شيخه وابن عمه الشيخ أحمد الحريريّ الرفاعي وهو من والده الشيخ عمر الحريريّ الرفاعي وهو من والده الشيخ حسن وهو من والده الشيخ محمَّد وهو من والده الشيخ أبي بكر وهو من والده الشيخ محمَّد وهو من عمه الشيخ موسى وهو من أخيه الشيخ أحمد وهو من والده الشيخ عبد الباسط وهو من والده الشيخ محفوظ وهو من والده الشيخ أحمد الواسطيّ الحريريّ وهو من والده الشيخ عبد الباسط وهو من والده الشيخ عبد الدائم وهو من والده الشيخ إبراهيم الحريريّ وهو من والده الشيخ أبي بكر وهو من والده الشيخ رسلان وهو من والده الشيخ منصور وهو من والده الشيخ إبراهيم وهو من والده الشيخ عليّ وهو من والده الشيخ محمَّد وهو من والده الشيخ مغوار وهو من والده الشيخ حسن وهو من والده الشيخ خميس وهو من والده الشيخ سعيد وهو من والده الشيخ عبد المعزّ وهو من والده الشيخ داود وهو من عمه الجليل الشيخ يحيى وهو من عمه الشيخ مطر وهو من والده الجليل الشيخ محيي الدين القاطن في حماه المحميّة صاحب الزاوية الحريرية ودفينها وهو من والده الشيخ يحيى وهو من والده الشيخ محمَّد وهو من والده الشريف برهان الدين

---

(١) وهو شيخ شيخنا الإمام الهرري في الطريقة الرفاعية وشيخنا الهرري يروي عنه في بعض طرقه وأسانيده في الطريقة الرفاعية العلية. وقد سمعت شيحنا الهرري عند ذكره للشيخ عبد الرحمٰن السبسبي يقول (رضي الله عنه) وقد بدا متأثرًا عند تكلمه عنه رضي الله عنهما. المصنف.

عليّ الحريريّ صاحب المقامات والبراهين دفين بُصرى الحرير في حَوْرانَ نفعنا الله به والمسلمين وهو تلقَّنَ الذكرَ ولبس الخرقة وصحب جده سلطان العارفين وقدوة السالكين وشيخ المحققين صاحب المقامات الكثيرة والأحوال الشهيرة الممتازَ بتقبيل يد الرسول ﷺ سيّدى السيدَ الكبيرَ الشيخَ أحمد الرفاعي رضي الله عنه اهـ. وهذه الإجازة مؤرخةٌ في يوم الجمعة الواقع في الحادى والعشرين من شهر شعبان الذي هو من أَشْهُرِ السنة السابعة والأربعين بعد الثلاثمائة والألف من الهجرة الشريفة وعليها تواقيع وأختام جملةٍ من مشاهير ذلك الزمان منهم نقيب السعديين بحلب الحاج محمَّد بن الشيخ مصطفى الأجود الشهير بالبغداديّ والشيخ إبراهيم المصريّ وخادم النقشبندية والرفاعية بحماه حسن دندشليّ وخطيب الجامع الجديد بحماه محمَّد نجيب مراد والشيخ إبراهيم السبسبيّ والخليفة الرفاعي محمَّد نجيب العثمان البرازيّ والسيد حسنُ يس الصياديّ نقيب أشراف عكار وشيخ مشايخ الطرق العلية بطرابلس محمَّد منير ملك والخليفة الرفاعي بحماه خليل بن الحاج عبد الفتاح خليل وأحمد عبد الواحد السَّبْسَبيّ وإمام جامع طوسون بيك خادم الطريقة النقشبندية والرفاعية عبد الله الصبّاغ والشيخ القادريّ المعتقَد أحمد شاكر الزعبيّ وخادم الطريقة الكيالية الرفاعية بحمص محمَّد الطاهر ءال الشريف الكيّاليّ الرفاعي وغيرهم رحمهُمُ الله تعالى وغفر لهم.

الواسطة السابعة

وأجازني بالطريقة الرفاعية وبأورادها فضيلة الشيخ السيد الشريف الحسيب النسيب الرفاعي الأصيل نسبًا وطريقة صاحب الخوارق عبد المجيد[1]

(١) ولا زال أنجال وأبناء الشيخ عبد المجيد رحمات الله عليه قائمون على خدم الطريقة الرفاعية وأهلها وتظهر على أيديهم العجائب والخوارق كرامة لجدهم أبي العلمين وآبائهم وأجدادهم الأحمديين الرفاعيين أمدنا الله بمددهم ونفعنا ببركاتهم،=

ءال الشيخ عيسى الصيادي الرفاعي الحسيني عن الشيخ عبد اللطيف الشيخ والشيخ عبود عن والده الصلبي السيد إبراهيم أخذها عن والده السيد عبيد أخذها عن والده الشيخ عبد اللطيف أخذها عن والده الشيخ إبراهيم الملقب بالطماس أخذها عن والده الشيخ عبد الواحد أخذها عن أبيه السيد الشيخ القطب الكبير الشيخ عيسى الصيادي الرفاعي «دفين البصرة» عن أبيه السيد قمر الدين والدولة عن أبيه السيد موسى عن أبيه السيد سليمان أبي المكارم عن السيد الأمير سلامة «أمير أمارة عباده» عن أبيه السيد شهاب الدين عبد الله البصري عن أبيه السيد الكبير العارف بالله محمود الصوفي، عن أبيه السيد محمَّد برهان الدين عن أبيه السيد محمَّد حسن الغواص «دفين دمشق الشام» عن أبيه السيد محمَّد شاه المعروف بالرندي، عن أبيه السيد خزام «دفين الموصل» عن أبيه السيد نور الدين عن أبيه السيد عبد الواحد عن أبيه السيد محمود الأسمر عن أبيه السيد حسين العراقي عن أبيه السيد إبراهيم العربي عن أبيه السيد محمود عن أبيه السيد عبد الرحمٰن شمس الدين «دفين متكين» بجوار جده الصياد عن أبيه السيد القاسم نجم الدين المبارك عن أبيه السيد خزام السليم عن أبيه السيد شمس الدين عبد الكريم عن أبيه السيد صالح عبد الرزاق عن أبيه السيد شمس الدين محمَّد عن أبيه القطب السيد صدر الدين علي الصياد عن أبيه القطب الغوث السجاد بن السجاد مولانا الإمام عز الدين أحمد الصياد الرفاعي سبط الحضرة الرفاعية الحسينية المعظمة رضي الله عنهم جميعًا عن أخيه السيد المحسن عن جده الأمير الإمام الكبير مولانا وسيدنا الغوث الأعظم أحمد محي الدين الرفاعي وأخذها الإمام الصياد عن أبيه السيد عبد الرحيم ويلقب «ممهد الدولة» وأبو الأقطاب عن أبيه السيد سيف الدين عثمان عن أبيه السيد حسن عن أبيه السيد محمَّد عسلة عن أبيه

= وقد رأيت منهم من التواضع والأدب والخلق الحسن والصفات الحميدة ومن حبهم للعلم ما يُذكّر ببيت القطب الرفاعي رضي الله عنه وأرضاه.

السيد ثابت عن أبيه السيد علي الحازم عن أبيه السيد أحمد عن أبيه السيد علي المكي عن أبيه السيد رفاعة ويقال له الحسن نزيل إشبيليا بالمغرب العربي عن أبيه السيد محمَّد علي المهدي أبي القاسم عن أبيه السيد الحسن عن أبيه السيد الحسين عن أبيه السيد أحمد عن أبيه السيد موسى الثاني ويقال له أبو سبحة وأبو يحيى عن أبيه السيد الأمير المجاب إبراهيم المرتضى عن أبيه السيد الإمام موسى الكاظم عن أبيه السيد الإمام جعفر الصادق عن أبيه السيد الإمام محمَّد الباقر عن أبيه السيد زين العابدين علي السجاد عن أبيه السيد الإمام أبي عبد الله الحسين شهيد كربلاء الطاهر الزكي بن علي وفاطمة عن أبيه الإمام الهمام الغالب فارس العجم والأعارب والمشارق والمغارب سيدنا ومولانا علي ابن أبي طالب أخذ البيعة عن ابن عمه سيد الأنبياء والمرسلين وخير العالمين وحبيب الرحمٰن سيد ولد عدنان محمَّد بن عبد الله عليه صلوات رب العالمين ءامين عن جيريل عليه السلام.

الواسطة الثامنة

وأجازني بالطريقة الرفاعية إجازة عامة وبكل أورادها وإجازة بها وبكل ما يتعلق بآدابها وهيئاتها السيد الشريف والأستاذ المؤرخ والحسيب النسيب النسابة محمَّد غازي حسين ءاغا المكناسي الحسيني كما أجازه سعد الدين السعدي الجيباوي شيخ سجادة السادة الأشراف السعدية في مدينة حمص عن سماحة الشيخ محمَّد أبي الهدى الصيادي الرفاعي عن شيخه وابن عمه السيد الشيخ الحاج علي أفندي بن خير الله الصيادي شيخ المشايخ بحلب الشهباء وهو عن والده الأستاذ السيد الشيخ خير الله عن والده السيد محمَّد عن والده الأستاذ الولي العارف بالله السيد الشيخ خير الله صاحب العلم عن شيخه ووالده السيد الشيخ أبي بكر عن شيخه وابن عمه السيد الشيخ محمَّد بن حجازي عن شيخه وابن عمه السيد الشيخ أبي بكر عن شيخه وجده السيد موسى الكبير عن

شيخه ووالده السيد الشيخ عمر عن شيخه ووالده السيد الشيخ عبد السميع عن شيخه ووالده السيد الشيخ شمس الدين محمَّد عن شيخه ووالده السيد الشيخ صدر الدين علي عن شيخه ووالده قطب الأقطاب ونجيب الأنجاب، قدوة الأفراد وعلَم الأوتاد، القطب الجواد السيد الإمام أبي علي عز الدين أحمد المعروف بالصياد رضي الله عنه وهو عن شيخه وأخيه القطب المتمكن السيد الشيخ عبد المحسن وهو عن شيخه وجده الحسيب النسيب صاحب العلوم المفيدة والخوارق العديدة، صاحب المناقب والكرامات الظاهرات، مربي المريدين وقدوة المسلكين وسلطان الأولياء والعارفين، من ذلت له الأسود والأفاعي مولانا غوث الثقلين أبي العلمين، الممتاز على الأولياء الأعلام بشرف تقبيل يد سيد الكونين، السيد الشيخ محي الدين أحمد الرفاعي الحسيني الحسني رضي الله عنه ونفعنا ببركته.

الواسطة التاسعة

وأجازني بالطريقة الرفاعية سيدي ومولاي وحبيب قلبي وشيخي الحسيب النسيب السيد الشريف الفقيه العالم الولي الصالح الشيخ محمَّد سليم الرفاعي القاري[1] نسبة إلى قرية قارى بين دمشق وحمص رضي الله عنه وأرضاه وهو عن

(١) في زيارتنا له رضي الله عنه وكان في صبيحة يوم سبت من بعد صلاة الفجر في عام ١٩٨٦ مـ في منزله في قارى وكان قد خرج من عملية جراحية أجريت له وهو على كرسي بهيئة التواضع والانكسار ـ وبعد أن استأذنا وسلمنا عليه وعرف أننا من مريدي الإمام القطب الهرري قال لنا: كان عندنا في بلدنا قبل خمسين عامًا وليًا من أهل الكشف يقول لنا: سيأتي من الحبشة من يمثل الصحابي بلال الحبشي رضي الله عنه وفي الحديث محدث بلاد الشام الشيخ بدر الدين الحسني رضي الله عنه. ولما جاء الأستاذ الشيخ عبد الله الحبشي إلى بلاد الشام عرفنا أنه هو المراد والمقصود بمن كان يبشر به ذاك الولي المكاشف، ثم أعطيته قلنسوتي وقلت له: =

خليفة أبي الهدى الصيادي الشيخ الفقيه محمَّد سعيد النعسان الوردي القادري الرفاعي مفتي حماه عن أبي الهدى الصيادي العارف بالله المستأنس بذكره والمُعرِض عن الناس أبي البركات والمكارم مولانا السيد محمَّد مهدي الرواس قدس سره وصلة أخرى فإنه أخذ عن شيخه الإمام العارف بالله السيد عبد الله الراوي عن شيخه السيد أحمد الراوي عن شيخه السيد نور الدين حبيب الله الحديثي عن السيد برهان الدين الخزامي الصيادي عن أخيه السيد نور الدين عن أبيه السيد عبد العلام الخزامي عن عمه إمام العارفين السيد سراج الدين عن جده السيد محمود الصوفي عن أبيه السيد محمَّد برهان عن أبيه السيد حسن الغواص عن أبيه السيد الحاج محمَّد شاه عن أبيه مقتدى الرجال الأعلام السيد محمَّد خزام دفين الموصل الحدباء عن عمه السيد ملك المندلاوي عن أبيه السيد محمود الأسمر عن أبيه السيد حسين العراقي عن ابن عمه السيد تاج الدين عن ابن عمه السيد عبد الرحمٰن شمس الدين عن جده السيد محمَّد خزام السليم عن أبيه السيد شمس الدين عبد الكريم أبي محمَّد الواسطي عن أبيه السيد صالح عبد الرزاق عن أبيه السيد شمس الدين محمَّد عن أبيه السيد صدر الدين علي عن أبيه قطب الأفراد السيد أحمد الصيادعن أخيه القطب

= بعد إذنكم لو قرأتم لي عليها من أجل البركة فصار يمرها على جرحه ويمسح بها ويقول: أنا أتبرك بكم أنتم تلاميذ المحدث الشيخ عبد الله الحبشي وهذا من عظيم تواضعه. وأكرمني بأن أجازني بالطريقة الرفاعية بالمشابكة وبالإجازة العامة في العلوم وذكر لي أنه أخذ عن الشيخ محمد راغب الطباخ الحلبي وأنه مجاز بثبته الأنوار الجلية في الأثبات الحلبية وأجازني بكل ما فيه، ثم وضع يده الشريفة المباركة على رأسي وقرأ ودعا وقال: زادك الله باطنًا وظاهرًا حلمًا وعلمًا وجمالًا والحمد لله على هذه النعمة المباركة. وبعد أن رجعت إلى بيروت وأخبرت شيخنا وأستاذنا ومرشدنا ومعلمنا الإمام الهرري الحبشي بما حصل قال لي: الحمد لله الحمد لله ثم قال: ما رأيت في حياتي رفاعيًا كالشيخ محمد سليم، هو في تواضعه وحسن معشره كأنه السيد أحمد الرفاعي الكبير، فرضي الله عنهما ونفعني بهما. المصنف.

المتمكن أبي الحسن عبد المحسن عن جده لاثم يد الرسول المكرم غوث العرب والعجم أبي العباس مولانا السيد أحمد الكبير الحسيني الرفاعي رضي الله عنه وعنهم أجمعين.

الواسطة العاشرة

وأجازني بالطريقة الرفاعية الشيخ محمَّد سعيد الخاني الملقب صارجي خليفة الشيخ محمَّد سعيد النعسان القادري الرفاعي وهو عن الشيخ محمَّد سعيد النعسان الوردي وهو عن السيد أبي الهدى الصيادي عن إمامنا الرواس وهو لبس الخرقة الشريفة وأخذ الطريقة الرفاعية عن شيخه مفتي البصرة السيد إبراهيم الرفاعي البصري وهو عن شيخه السيد أحمد وهو عن شيخه السيد أبي البركات عبد الله البصري العباسي وهو عن شيخه السيد نور الدين حبيب الله الحديثي الرفاعي وهو عن شيخه سيدنا السيد حسين برهان الدين ءال خزام الصيادي الرفاعي نقيب البصرة وهو عن أخيه النقيب السيد نور الدين وهو عن ابن عمه الشهاب الثاقب حزام الدين بن خزام الرفاعي البصري وهو عن ابن عمه السيد شعبان نقيب البصرة وهو عن عمه السيد تاج الدين النقيب وهو عن ابن عمه شيخ مشايخ الإسلام القطب الغوث السيد سراج الدين الرفاعي ثم المخزومي دفين صدرية بغداد وهو عن شيخه السيد جمال الدين السليمي الرفاعي وهو عن السيد قطب الدين الرفاعي وهو عن الشيخ عمر الصغير الفاروثي وهو عن أبيه ولي الله عز الدين أحمد الفاروثي وهو عن أبي الفضل محي الدين إبراهيم المصطفوي الفاروثي وهو عن الإمام شرف الدين أبي طالب بن عبد السميع العباسي الهاشمي (جامع كتاب البرهان المؤيد) وهو عن شيخ الطوائف ولي الله بلا خلاف القطب الأعظم علم الشرق أبي العلمين أحمد الكبير الرفاعي رضي الله عنه وعنا به.

الواسطة الحادية عشر

وأجازني بالطريقة الرفاعية والبدوية والقادرية والدسوقية إجازة عامة كاملة مطلقة سلوكًا وتسليكًا وإرشادًا الشيخ الحسيب النسيب السيد الشريف إمام سجادة الطريقة السادة الأحمدية البدوية بكر السيفي شيخ مشايخ الطريقة الأحمدية البدوية بمدينة حلب وهو عن أبيه الشيخ محمَّد شريف السيفي عن أبيه الشيخ بكري السيفي شيخ مشايخ الطريقة الأحمدية البدوية عن أبيه الشيخ محمَّد شريف السيفي شيخ مشايخ الطريقة الأحمدية البدوية عن أبيه الشيخ أحمد السيفي شيخ مشايخ الطريقة الأحمدية البدوية ونقيب أشراف حلب عن أبيه الشيخ محسن السيفي شيخ مشايخ الطريقة الأحمدية البدوية ونقيب أشراف حلب عن أبيه الشيخ علي السيفي شيخ مشايخ الطريقة الأحمدية البدوية ونقيب أشراف حلب عن أبيه الشيخ حسن السيفي شيخ مشايخ الطريقة الأحمدية البدوية ونقيب أشراف حلب عن أبيه الشيخ إبراهيم السيفي شيخ مشايخ الطريقة الأحمدية البدوية ونقيب أشراف حلب، عن أبيه الشيخ مصطفى السيفي شيخ مشايخ الطريقة الأحمدية البدوية عن أبيه الشيخ أحمد السيفي شيخ مشايخ الطريقة الأحمدية البدوية عن أبيه الشيخ سيف الدين السيفي شيخ مشايخ الطريقة الأحمدية البدوية عن أبيه الشيخ محمَّد السيفي شيخ مشايخ الطريقة الأحمدية البدوية عن أبيه الشيخ الحسين بالأبطح عن أبيه الشيخ الشريف حسن شقيق السيد أحمد البدوي وهو عن أخيه القطب الغوث الإمام الجليل صاحب المواهب والعجائب سيدي أحمد البدوي رضي الله تعالى عنه وأرضاه وقدس سره العظيم عن سيدي القطب عبد السلام ابن مشيش شيخ الأستاذ أبي الحسن الشاذلي وسيدي عبد السلام عن السيد الجليل بري العراقي صاحب السيد الأكبر أحمد الرفاعي عن السيد الكبير الغوث الرفاعي قدس الله سره، وله طريق ءاخر عن شيخه عبد الرحمٰن المدني وهو عن الشيخ علي بن نعيم البغدادي وهو من السيد أحمد الرفاعي، والغوث القطب

السيد أحمد بإسناده الشريف الذي مر معنا سابقًا.

الواسطة الثانية عشر

وأجازني السيد الجليل الشيخ المتواضع الحسيب النسيب الرفاعي الأصيل محمَّد الهايل أبو الهول[1] عن أبيه السيد خالد وهو عن أبيه الشيخ الجليل الواصل والولي الأصيل الفاضل الزاهد الكامل العلي الحسيب الزكي النسيب شيخنا السيد رجب المحمدي الصيادي الرفاعي الحسيني قدس سره دفين قرية كفر سجناء عن سيدي عن السيد محمَّد مهدي بهاء الدين الصيادي الرفاعي الحسيني الملقب بالرواس وهو من السيد عبد الله الراوي وهو عن والده السيد أحمد الراوي وهو من السيد نور الدين الحديثي وهو من السيد الهمام والقطب الضرغام حسين برهان الدين البصري البغدادي الصيادي الرفاعي الحسيني وهو من السيد نور الدين وهو من السيد أبيه السيد عبد العلام وهو من إمام العارفين السيد سراج الدين الخزامي الصيادي وهو من جده السيد محمود الصوفي وهو عن أبيه السيد محمَّد برهان الدين وهو عن والده السيد حسن الغواص وهو عن أبيه السيد محمَّد شاه وهو عن مقتدى الرجال الأعلام السيد محمَّد خزام

---

(١) زرته مرات عديدة في منزله في قريتهم وقرية جدهم الشيخ رجب الرفاعي رضي الله عنه كفرسجناء وأكرمني رحمه الله رحمة واسعة بأن أجازني بالطريقة الرفاعية وبكل ما يتعلق بها وبآدابها وبأورادها وبالمشابكة الرواسية وأخبرني أن جده الشيخ رجب عندما اجتمع بالشيخ الإمام الرواس تعلق به الرواس وقال له: أنت تجيزني لما رأى منه من الخوارق والأحوال والنفحات الرفاعية ثم تدبج معه فأجاز كل منهما الآخر وأكرمنا بأن سقانا الماء من الوعاء الذي شرب فيه الإمام الرواس ويسمونه عندهم «الكشكول» كما وأخرج لنا مسبحة جده الشيخ رجب الكبيرة فتبركنا بها وأجازني بالمشابكة وشابكني وصافحني ونفخ في فمي وأجازني بما هو أكثر من ذلك بكثير، وتشرفنا بزيارة الشيخ رجب وهو مدفون في غرفة قريبة من منزلهم رضي الله عنه.

وهو عن عمه السيد ملك المندلاوي وهو عن والده السيد محمود الأسمر وهو عن السيد حسين العراقي وهو عن ابن عمه السيد تاج الدين وهو عن السيد عبد الرحمٰن شمس الدين وهو عن السيد خزام السليم وهو عن الشيخ عبد الكريم وهو عن السيد محمَّد صالح عبد الرزاق وهو عن السيد شمس الدين محمَّد وهو عن مندوب الحقيقة والشريعة والطريقة السيد صدر الدين علي وهو أخذها عن والده القطب الفرد الغوث ساكن متكين السيد عز الدين أحمد الصياد وهو عن القطب المتمكن السيد عبد المحسن وهو أخذها عن جده الكبير الغوث الشهيد أبي العلمين العارف الرباني القنديل الصحراني مولاي السيد محي الدين أحمد الرفاعي الكبير وهو عن شيخه الشيخ علي الواسطي المعروف بالقاري وهو عن شيخه أبي الفضل بن كامخ وهو عن شيخه غلام بن تركان وهو عن شيخه الشيخ أبي علي الروذباري وهو عن شيخه علي العجمي وهو عن الشيخ أبو بكر الشبلي وهو عن الشيخ الجنيد البغدادي وهو عن شيخه سري الدين السقطي وهو عن شيخه الشيخ معروف الكرخي وهو عن شيخه داوود الطائي وهو عن شيخه حبيب الله العجمي وهو عن شيخه أبي سعيد الحسن البصري وهو عن أمير المؤمنين وأسد الله الغالب سيدي وشيخي وجدي ومولاي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وهو عن إمام المرسلين وإمام الأولين والآخرين وسيد ولد ءادم جدنا الأكبر حبيبنا وحبيب رب العالمين محمَّد صلى الله عليه وعلى ءاله وصحبه أجمعين وتلقاها عن سيدنا جبريل عليه السلام.

الواسطة الثالثة عشر

وأجازني الشيخ السيد الشريف علي الرفاعي[1] وهو عن أبيه الشيخ حسن

(١) وقد أخبرنا الشيخ علي يوم كنا في منزله في قرية أم ولد في حوران وكان في المجلس=

ابن الشيخ زعل الرفاعي من قرية أم ولد حوران سوريا والشيخ حسين أخذ من أبي الهدى الصيادي عندما اجتمع به والتقاه في مجلس السلطان عبد الحميد خان ابن السلطان عبد المجيد العثماني رحمه الله رحمة واسعة في اسطنبول،

= الشيخ قاسم الرفاعي والشيخ سمير بن الشيخ علي الرفاعي أن شيخنا المحدث الشيخ عبد الله الهرري يوم زار قريتهم في السبعينيات سنة ألف وتسعمائة واثنين وسبعين رومية تقريبًا وكان المجلس مكتظًا بالناس وكانت القرية ذلك الوقت قد جفت من الماء وصار الماء شحيحًا جدًا حتى إنهم كانوا بصعوبة يجلبون ماء الشرب، فقال شيخنا الهرري: نريد أن نتوضأ ونصلي صلاة العصر، فقال الشيخ قاسم: تفضل إلى بيتنا يا شيخ، فقال الشيخ: قوموا بنا فالشيخ قاسم يدعونا إلى بيته، فارتبك الشيخ قاسم وخجل لأنه لا ماء لديه إلا ما يكفي للشيخ فقام الجمع ومشوا خلف الشيخ عبد الله الهرري إلى بيت الشيخ قاسم، والشيخ قاسم يهرول نحو بيته وهو متحير ماذا يفعل، وإذ بزوجته تقف أمام باب بيتهم وهو يشير إليها أن انظري إلى هذا الجمع وهي تتبسم وتشير له أن انظر إلى بركة الماء فلما نظر فإذا ببركة الماء ممتلئة إلى أعلاها والماء يبرق من أشعة الشمس فصار الشيخ قاسم يكبر فرحًا بهذه الكرامة التي حصلت لشيخنا الهرري فدخل الجميع إلى منزله وتوضؤوا وصلوْا ثم قال لنا الشيخ قاسم: شيخكم من تواضعه لم يحك لكم هذه الكرامة التي حصلت له عندنا ولكن أخبركم فقط عن كرامة الشيخ سرور الرفاعي وهي ما أخبرنا وحدثنا به شيخُنا الإمام الحجة الثبت عبد الله بن محمد الهرريّ رحمه الله تعالى في مجالس متعددة من أنَّ الشيخ سرورًا الرفاعيَّ نسبًا وطريقةً من قريةِ «أمّ وَلَدٍ» في حوران مولِدًا ومنشئًا ومدفنًا وأهلُها كلُّهم رفاعيةٌ نسبًا أخبرَهُ بأنَّ الدروز كانوا كلَّ مدةٍ يُغيرون على قريةِ «أمّ ولد» فيؤذون الناس ويفسدون الزرع ثم إنهم فعلوا مرّةً فأخذ الشيخُ سرورٌ أحدَهم وضربه بالسيف فقطعَهُ نصفين ثم جمع نصفيه فعاد حيًّا وضرب ءاخرَ فقطع رأسَه ثم أرجعه إلى موضعه فرجع حيًّا فانزجر الدروزُ من حينئذٍ عن إيذاء أهلها اهـ. وتشرفنا بزيارة قبر الشيخ سرور الرفاعي رضي الله عنه ودعونا عند قبره وتشرفنا بزيارة ابنه الشيخ عيسى الرفاعي وأجازنا بالطريقة الرفاعية وبأورادها وأخبرنا عن بعض ما يتعلق بضرب واستعمال السلاح عند السادة الأحمدية الرفاعية نفعنا الله بهم.

وأبو الهدى الصيادي عن الإمام الرواس وهو عن السيد عبد الله الراوي الرفاعي وهو عن أبيه السيد أحمد الراوي عن السيد نور الدين حبيب الله الحديثي عن القطب السيد حسين برهان الدين ءال خزام الصيادي الرفاعي عن أخيه السيد نور الدين عن أبيه السيد عبد العلام عن عمه السيد سراج الدين الصغير عن جده السيد محمود عن أبيه السيد برهان عن أبيه السيد حسن الغواص عن أبيه السيد محمَّد شاه عن أبيه السيد محمَّد خزام الموصلي عن عمه السيد ملك المندلاوي عن أبيه السيد محمود الأسمر عن أبيه السيد حسين العراقي عن ابن عمه السيد تاج الدين عن ابن عمه السيد عبد الرحمٰن شمس الدين عن جده السيد خزام السليم عن أبيه الشمس عبد الكريم عن أبيه السيد صالح عبد الرزاق عن أبيه السيد شمس الدين محمَّد عن أبيه السيد صدر الدين علي عن أبيه الغوث السيد أحمد الصياد عن أخيه السيد عبد المحسن أبي الحسن عن جده سلطان الأولياء الإمام السيد أحمد الرفاعي الحسيني رضي الله عنه وعنهم أجمعين.

الواسطة الرابعة عشر

وأجازني مفتي مدينة إدلب السورية السيد الشريف الحسيب النسيب الأستاذ الفقيه الزاهد المتواضع صاحب الفضيلة سماحة محمَّد ثابت ابن حسن الكيالي[1] رحمه الله رحمة واسعة وهو عن جده الولي الصالح السيد

(١) وفي السابع من شوال سنة ١٤٢٣هـ كنا في زيارته في بيته المتواضع في محافظة إدلب وخدمنا رحمه الله بنفسه من شدة تواضعه وقال: قال الله تعالى في الحديث القدسي: «من عادى لي وليًا فقد ءاذنته بالحرب» رواه البخاري، ومن أشد أعداء الأولياء الوهابية الذين يكفرون أهل السنة والجماعة ولا سيما الأشاعرة منهم والسادة الرفاعية وكذلك أهل الطرق الصادقين، ولذلك قامت الحركة الوهابية بطبع كتاب ونشره لمحاربة أهل السنة والجماعة وتكفيرهم والتحريض عليهم وهذا الكتاب=

الشريف سليل بيت النبوة الشيخ محمَّد طاهر الكيالي الرفاعي وهو عن الشيخ العلامة أبي الهدى الصيادي الرفاعي عن والده الصلبي والروحي السيد حسن وادي الصيادي الرفاعي قدس سره وهو عن شيخه العارف بالله أحد أعيان هذا البيت العامر مولانا السيد رجب الصيادي الرفاعي عن شيخه السيد أحمد الجندي قدس سره عن أبيه السيد مصطفى عن شيخه السيد عرفات الصيادي عن شيخه الولي الكبير المحترم السيد خير الله الصيادي صاحب العلم قدس سره عن شيخه ووالده السيد الشيخ أبي بكر عن شيخه وابن عمه السيد الشيخ محمَّد بن حجازي عن شيخه وابن عمه السيد الشيخ أبي بكر عن شيخه وجده السيد موسى الكبير عن شيخه ووالده السيد الشيخ عمر عن شيخه ووالده السيد الشيخ عبد السميع عن شيخه ووالده السيد الشيخ شمس الدين محمَّد عن شيخه ووالده السيد الشيخ صدر الدين علي عن شيخه ووالده قطب الأقطاب ونجيب الأنجاب، قدوة الأفراد وعلـم الأوتاد، القطب الجواد السيد الإمام أبي علي عز الدين أحمد المعروف بالصياد رضي الله عنه وهو عن شيخه وأخيه القطب المتمكن السيد الشيخ عبد المحسن وهو عن شيخه وجده الحسيب النسيب

= أسموه فرقة الأحباش نشأتها عقائدها وآثارها تأليف الوهابي سعد بن علي الشهراني وقد سبقه في ترويج الأكاذيب والأباطيل على الشيخ عبد الله الحبشي وتلاميذه المدعو عبد الرحمٰن دمشقية وهو من الوهابية لذلك أكتب وأبين وأشهد أن الشيخ عبد الله الهرري وتلاميذه براء من هذه الأقاويل والأكاذيب والافتراءات الموجودة في هذا الكتاب، ونشهد بأن الشيخ عبد الله الهرري هو عالم جليل محدث كبير زاهد عابد عالم عامل جعل شغله الشاغل نشر عقيدة أهل السنة والجماعة بين الناس ونشر العلوم الصافية بالدليل من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والسلف رضوان الله عليهم أجمعين وبسبب ذلك قامت الوهابية بنشر الأكاذيب والأباطيل في الكتب ونشرها بين الناس ليشوشوا على دعوته الصافية من الشوائب وأنا أكتب هذا على ما أعرف عنه وأشهد بهذا إظهارًا للحق وبيانه للناس لتكون رسالتي هذه بيانًا للناس والتاريخ وتبرئة للشيخ عبد الله الهرري رضي الله عنه ونفعنا به وبعلومه ءامين.

صاحب العلوم المفيدة والكرامات العديدة، صاحب المناقب والكرامات الظاهرات، مربي المريدين وقدوة المسلكين وسلطان الأولياء والعارفين، من ذلت له الأسود والأفاعي مولانا غوث الثقلين أبي العلمين، الممتاز على الأولياء الأعلام بشرف تقبيل يد سيد الكونين، السيد الشيخ محي الدين أحمد الرفاعي الحسيني الحسني رضي الله عنه ونفعنا ببركته.

وبقيت وسائط كثيرة لم نذكرها في هذا المقام خشية الإطالة على القارئ أكثر ومنها على سبيل المثال باختصار ومن غير إطالة:

وأجازني الولي الصالح المعمر الشيخ السيد الحسيب النسيب حسان الصيادي الرفاعي من قرية متكين.

وأجازني السيد الشريف الشيخ الحسيب عيسى الرفاعي عن أبيه الولي الكبير السيد الجليل صاحب الكرامات والأحوال السنية الشيخ سرور

ابن الشيخ محمود الرفاعي من قرية أم ولد حوران سوريا وهو عن أبيه السيد الشريف محمود الرفاعي.

وأجازني بالطريقة الرفاعية إجازة عامة مفتي محافظة الرقة السورية سماحة الشيخ محمَّد السيد أحمد وهو عن السيد الشيخ صالح الرفاعي عجان الحديد وهو عن أبيه السيد الشريف الشيخ علي عجان الحديد الحلبي.

وأجازني بالطريقة الرفاعية إجازة عامة الحسيب النسيب فضيلة الشيخ السيد الشريف خطيب حمص محمَّد سعيد بن هانئ كحيل.

وأجازني بالطريقة الرفاعية الشيخ السيد صالح بن حمادي الشيخ ضاهر الصيادي.

وأجازني بالطريقة الرفاعية وبكل الأوراد إجازة عامة فضيلة الشيخ الأستاذ الفقيه النحوي محمَّد نجل مفتي الحبشة العلامة الشيخ محمَّد سراج ابن الشيخ سعيد الآني الجبرتي.

وأجازني بالطريقة الرفاعية الشيخ عبد الرحمٰن التبلالي الهرري رحمهم الله جميعًا.

أسانيدي في المشابكة والمصافحة بأنواعها[1] المسلسل بالمصافحة الخضرية

أقول وأنا جميل أروي المسلسل بالمصافحة الخضرية عن شيخي الحبيب محمَّد ابن أبي بكر العلوي الحبشي فأقول صافحني وشابكني وأجازني بكل أنواع المصافحة والمشابكة وبكل أسانيدها الحبيب محمَّد كما صافحه وشابكه والده قاضي مكة المكرمة قال والده صافحني شيخنا الشيخ عمر حمدان وشدَّ يَده على يدي وقال المراد بهذا الاشتداد تأكيد المحبة وقال صافحني الشيخ فالح الظاهري وشدَّ يَده على يدي وقال المراد بهذا الاشتداد تأكيد المحبة يرويه عن الأستاذ الحافظ محمَّد بن علي السنوسي عن أبي العباس أحمد بن عبد الله بن إدريس العرائشي عن سيدي عبد الوهاب التازي الشريف الحسني عن أبي سالم العياشي عن أبي مهدي عيسى الثعالبي عن أبي عثمان سعيد الجزايري عن سعيد المقري عن سيدي أحمد حجي الوهراني عن سيدي إبراهيم التازي عن سيدي صالح الزواوي قال صافحني عبد الله العيدروسي الفقيه النظار وشد يده بيدي وقال المراد بهذا الاشتداد تأكيد المحبة صافحني محمَّد بن جابر الغساني عن أبي عبد الله محمَّد بن علي المراكشي عن أبي عبد الله الصدفي عن أبي العباس ابن البنا عن أبي عبد الله الهزميري عن أبي العباس الخضر عليه السلام عن رسول الله ﷺ. قال شيخنا الشيخ محمَّد عبد الباقي في «المناهل»: «قلت وحياة الخضر وصحبته ثابتة عند المحققين من المحدثين وفي إثبات ذلك لهم مؤلفات ولقاؤه أمر متواتر عن الأولياء والله أعلم اهـ. وأقول وأنا العبد الفقير إلى عفو ربّه

(١) المصنف.

سبحانه جميل بن محمَّد حليم الحسيني الأشعري الشافعي صافحني الشيخ محمَّد الحبشي وشد يده على يدي وقال المراد بهذا الاشتداد تأكيد المحبة.

إجازة الخضر عليه السلام للإمام الرواس بالمصافحة والمشابكة ولمن اتبعه إلى سابع

قال الإمام الرواس في كتابه بوارق الحقائق ما نصه[1]: فاستوعبته بارقة نور حفَّتْ به من جهاته حتى زُجَّ بها، ثم سُرّي ذلك، فألقى الله تعالى رحمة بي في قلبي أنه الخَضِرُ عليه السلام، فقمت وقبلتُ يدهُ ورُكبتهُ، فبارك لي ورحَّب وقال: اجلس، أنا هو الذي مر بخاطرك، هاتِ يدك أصافحُك كما صافحتُ جدَّك رسولَ الله ﷺ، فقبض يدي وقبضتُ يده، ثم شابكني فشابكتُهُ وقال: هكذا صافحتُ وشابكتُ النبي ﷺ وبشرني بعدها بالجنة، وأن من يُشابكني ويصافحني معنا في الجنة، وكذا إلى سبع[2].

---

(١) بوارق الحقائق، الطبعة الثانية – دار البشائر دمشق ١٤٢٢هـ ٢٠٠١مـ (ص١٦٠–١٦٢).

(٢) قال شرف الدين حسن: وقد وَصَلَت إلينا هذه الإجازة –أعني المصافحة والمشابكة– من طريق شيخنا الإمام الوالد الماجد عليه الرحمة والرضوان، وقد أجازني بها وكثيرًا من أحبابه لإتمام السلوك في هذه الطريقة العلية، وربما أجاز البعض بها دون علمهم، رحمةً بهم وإيصالًا لهذا الخير إليهم؛ فإن العارف المحمدي وصاحب النظرة الأحمدية، لا يريد منفعة لا حصة منها للمسلمين، عملًا بقول رسول الله ﷺ: «**لا يكون المؤمنُ مؤمنًا حتى يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه**». أخرجه الطبراني في «الكبير» حديث (٨١٥٤). (أي لا يكون كامل الإيمان من كان على خلاف هذه الصفات) وسند هذه الإجازة أن تقول: أخذ سيدنا الإمام الوالد الماجد –رحمة الله عليه– هذه الإجازة من المفتي العلامة الفقيه الحنفي المعمَّر السيد الشيخ محمد سعيد النعسان، وهو أخذها عن شيخه الإمام الهمام السيد أبي الهدى الصيادي الرفاعي، وهو أخذها عن شيخه الإمام العلامة السيد محمد مهدي=

فحمدتُ الله، وصليتُ على رسول الله ﷺ، وذكرت السلام على الخَضِر صاحب الحضرة، والرّضا عن صاحب المرقد السيد الصياد، وذكرتُ الصالحين اهـ.

طرق أخرى للمصافحة

قال السيد الشريف الحبيب محمَّد الحبشي قال والدي قاضي مكة الشيخ العلامة أبو بكر بن أحمد بن حسين الحبشي صافحني شيخنا الشيخ عبد الله ابن محمَّد غازي وقال صافحني سيدي العلّامة الحبيب حسين بن محمَّد الحبشي قال صافحني السيد عيدروس بن عمر الحبشي قال صافحني الشيخ عبد الله بالسودان قال صافحني السيد مشيخ باعبود قال صافحت النبي ﷺ بيدي هذه.

(ح) وصافحني شيخنا السيد أحمد التبر الإدريسي عن السيد محمَّد بن جعفر

= الصيادي الرفاعي الشهير بـ«الرواس»، صاحب هذا الكتاب العُجاب، وهو أخذها كما هو معلوم عن سيدنا الخضر عليه السلام، وهو عن سيد الوجود وصاحب الكرم والجود، إمام المرسلين، وسيد الأولين والآخرين، حبيبنا وقرة أعيننا أبي القاسم، سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى ءاله وصحبه وسلم.

وقوله: إلى سبع. هو أن تقول: إن سيدنا الخضر -عليه السلام- من حيث التسلسل رقمه (١)، والسيد المصنف رقمه (٢)، وتلميذه وخليفته السيد أبا الهدى رقمه (٣)، والمفتي النعسان رقم (٤)، والإمام الوالد الماجد رقمه (٥)، والفقير كاتب هذه الكلمات شرف الدّين حسنًا رقمه (٦).

فشرف الدّين حسن يعطي مثلًا رجلًا يكون هذا الرجل قد أخذ الرقم (٧)، فتقف عنده ولا تتعداه، ولو أعطى غيره لم يصح؛ لأن النص إلى سابع.

فكل رقم من الأرقام الستة الأوَل مؤهل لأن يعطي غيره إلا رقم (٧)، فيأخذها كما قلنا ولا تتعداه. وإذا صادف أن رجلًا قد أخذ مني وكان قد أخذ قَبْلُ من سيدي الوالد، فله أن يعطي السابع من طريق شيخنا الإمام الوالد لا من طريقي؛ لأنني -والحالة هذه- أكون سادسًا، وهو السابع، فتقف عنده ولا تتعداه، أما إذا أعطاه من طريق شيخنا فأنا وهو في الباب سواء، يعطي غيره وتقف عنده.

الكتاني عن الحبيب أحمد بن حسن العطاس كما فعل ذلك معه النبي ﷺ يقظةً.

(ح) وصافحني شيخانا الحبيب عبد الله والحبيب علوي ابنا طاهر الحداد كما صافحهما الحبيب أحمد بن حسن العطاس عن النبي ﷺ.

سند ءاخر في المشابكة

أقول وأنا جميل صافحني السيد الحبيب محمَّد الحبشي كما صافحه والده قاضي مكة أبو بكر بن أحمد بن حسين الحبشي قال صافحنا شيخنا الشيخ محمَّد بن عبد الرحيم بن عبد الكريم بن محمود البغدادي المدني وأخبرنا عن والده عن شيخه عثمان الجيلاني عن خالد الرومي عن الجني الصحابي شمهورش عن رسول الله ﷺ أنه قال من صافحني ومن صافح من صافحني إلى يوم القيامة دخل الجنة.

سند ءاخر في المشابكة

شابكني وصافحني السيد الشريف الشيخ محمَّد علي الحريري الرفاعي وهو عن أبيه الولي الصالح الشيخ محمَّد رشيد الحريري الرفاعي وهو عن الإمام الرواس رضي الله عنهم جميعًا وهو عن نبي الله الخضر عليه الصلاة والسلام وهو عن نبينا محمَّد رسول رب العالمين سيد الخلائق أجمعين صلوات الله وسلامه عليه وعلى كل النبيين والمرسلين.

سند ءاخر في المشابكة

شابكني وصافحني في مدينة رسول الله ﷺ شيخي المعمر الحنفي القادري الجليل الفاضل ملا حسن سيد مستك أوستوران القونوي التركي المولود سنة ١٢٩٥هـ الموافق ١٨٧٤مـ وهو عن الخضر عليه السلام مباشرة شابكه

وصافحه سنة ١٩٤٤م.

سند ءاخر

شابكني وصافحني الولي الصالح والفقيه العالم الحسيب النسيب السيد الشريف حفيد رسول الله الرفاعي الأصيل سيدي ومولاي وحبيبي وقرة عيني محمَّد سليم الرفاعي القاري الشافعي في منزله في مدينة قاره السورية وهو رضي الله عنه عن الفقيه العلامة الشيخ محمَّد سعيد النعسان مفتي حماه سابقًا وهو عن السيد الجليل والأستاذ النبيل محمَّد أبي الهدى الصيادي الرفاعي ثم الخالدي رحمه الله رحمة واسعة وهو عن رفاعي عصره الإمام الهمام شيخ الإسلام السيد محمَّد مهدي بهاء الدين ابن السيد علي الصيادي الرفاعي الحسيني الحسني الأنصاري الخالدي المشهور بالرواس وهو رضي الله عنه عن نبي الله الخضر وهو عن قرة عيوننا إمام الأنبياء وسيد المرسلين نبينا المصطفى محمَّد بن عبد الله عليهما الصلاة والسلام.

سند ءاخر

شابكني وصافحني الولي الصالح والمجذوب الهائم في حب الله السيد الجليل والمعمر النبيل الشيخ الحسيب النسيب حسان الصيادي الرفاعي وهو رضي الله عنه عن نبي الله الخضر مباشرة التقاه وصافحه وشابكه وكان في طريقه من حمص إلى تركيا.

سند ءاخر في المشابكة والمصافحة

شابكني وصافحني سيدي الأستاذ العلامة الشيخ عبد الله الهرري الحبشي

وهو عن الشيخ الحسيب النسيب الزاهد المتواضع محمَّد الهايل أبو الهول وهو عن أبيه السيد الشريف خالد وهو عن أبيه ولي الله أسد الرفاعية الشيخ رجب الرفاعي دفين قرية كفرسجناء خليفة الإمام الرواس والذي تدبّج مع السيد الرواس وهو قد شابكه وصافحه والرواس عن نبي الله الخضر وهو عن سيد العالمين وأفضل المخلوقين محمَّد عليهما الصلاة والسلام.

سند ءاخر

وكذلك أكرمني الله عز وجلّ بأن صافحني وشابكني الشيخ محمَّد جلّود ويقال جنّود المعمَّر فوق المائة سنة وصاحب الحال والاستغراق وهو من قرية الحاج كوسا القريبة من مدينة الباب السورية وكان في منزل الحاج خضر الآغا في بيروت في منطقة زقاق البلاط وقال لي أنا شابكت وصافحت الخضر فقلت له يعني هذه المشابكة عن الخضر؟؟ فقال نعم فقلت أجزتني بها؟؟ فقال نعم ومسح على رأسي وأطعمني عنبًا. وكنت قبل ذلك زرته في قريته برفقة عدد من المشايخ منهم الدكتور الحسيب النسيب الصوفي جمال محمَّد صقر والسيد الشريف الشيخ الدكتور كمال بن يوسف الحوت الحسيني والحاج فؤاد حسن صدقة والحاج مروان محمَّد علي قطاع وحصلت عجيبة في تلك الزيارة أنه رحمه الله مع أنه كان نحيفًا وهزيلًا وأنا بحجم بالنسبة لحجمه أعتبر ضخمًا بدنًا خلع قميصه وأمسكه بيده وصار يشير به إلينا فقال بعض الحاضرين وقد همَّ بالقيام نحوه أنا لي؟؟ فأشار برأسه أن لا ثم صار يشير إليّ فقمت فقال لي اخلع قميصك فخلعته فأعطاني قميصه فلبسته فدخل في جسمي بسهولة وبلا تكلف وأنا والناس نتعجب من ذلك ولبس هو قميصي والحمد لله على هذه البركة، ولي أسانيد أخر في أمر المشابكة العمرية والمشابكة الأنسية نفعني الله بكل أنبيائه وأوليائه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله شكرًا على نواله، وتعظيمًا لقدرته وجلاله، الذي خصّ من شاء بهدايته من غير حاجة، ومنعها من شاء من غير نقص ولا ءافة، أوجد المخلوقات بقدرته، وأتقنها بعلمه ودبّرها على حسب إرادته ومشيئته، ودلّت بدائعه على حكمته، وشهدت صنائعه بعزّته وعظمته، مقدّسٌ عن الحاجات مبرّأٌ عن العاهات منزّه عن وجوه النقص والآفات، متعالٍ عن أن يوصف بالجوارح والآلات والأدوات والسكون والحركات، لا يليق به الحدود والنهايات، ولا يجوز عليه الألوان والمماسّات، ولا يجري عليه الأزمان والأوقات، ولا يلحقه النقائص والزيادات، موجود بلا حد، موصوف بلا كيف، مذكور بلا أين، معبود بلا شبه، لا تتصوره الأوهام، ولا تقدره الأفهام، ونحمده على نعمه عودًا وبدءًا ونشكره على فواضله أوّلًا وءاخرًا، ونستعصمه من الخطأ والزلل، ونشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّدا ﷺ عبده ورسوله وصفوته وخيرته، أرسله بالحق إلى الخلق بشيرًا ونذيرًا صادقًا أمينًا فقطع به العذر وأكمل الحجّة وختم الرسالة ﷺ خاصّة وعلى النبيّين والمرسلين والملائكة المقرّبين وعلى جميع المطيعين له عامّة وسلّم تسليمًا.

ترجمة لإمامنا القطب الغوث أبي العلمين أحمد الرفاعي الكبير رضي الله عنه

اسمه وكنيته ونسبه:

هو الإمام السيد أحمد محيي الدين أبو العباس الرفاعيّ، ابن السيد أبي الحسن عليّ دفين بغداد، ابن السيد يحيى نقيب البصرة من المغرب ابن السيد أبي حازم ثابت ابن السيد عليّ الحازم أبي الفوارس، ابن السيد أبي عليّ أحمد المرتضى، ابن السيد عليّ أبي الفضائل، ابن السيد الحسن الأصغر رفاعة الهاشميّ المكيّ نزيل بادية إشبيلية بالمغرب، ابن السيد أبي رفاعة المهدي، ابن السيد أبي القاسم محمد، ابن السيد الحسن أبي موسى رئيس بغداد نزيل مكة، ابن السيد الحسين عبد الرحمن الرضي المحدث ابن السيد أحمد الصالح، ويقال له الأكبر، ابن السيد موسى الثاني، ويقال له أبو يحيى وأبو سبحة، ابن الأمير الجليل السيد أبي محمد إبراهيم المرتضى ابن السيد الإمام موسى الكاظم، ابن السيد جعفر الصادق، ابن السيد محمد الباقر، ابن السيد الإمام عليّ زين العابدين، ابن السيد الإمام الحسين الشهيد بكربلاء، ابن السيد الإمام أمير المؤمنين وزير سيد المخلوقين، أسد الله الغالب سيدنا ومولانا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

وأم سيدنا الإمام الحسين بضعة إمام المرسلين، سيدتنا فاطمة الزهراء، بنت سيد الخلق وحبيب الحق، إمام المرسلين وأفضل العالمين نور عيوننا وقلوبنا، بحر المعارف التي تفجرت منه بحور العرفان، سيدنا محمد المصطفى إمام أهل الوفا صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى ءاله الكرام وأصحابه العظام وتابعيهم بدور التمام إلى يوم الدين يوم الزحام[1].

---

(١) **ترياق المحبين في طبقات خرقة المشايخ العارفين** (ص/ ٣).

مولده ونشأته:

قدم أبوه العراق، وسكن البطائح بقرية اسمها أم عبيدة، فتزوج بفاطمة أخت القطب الشيخ منصور البطائحي، ورزق منها أولادا، أعظمهم قدرا وأرفعهم ذكرا السيد أحمد الرفاعي الكبير.

ولد رضي الله عنه في المحرم سنة ٥١٢هـ ونشأ في حجر خاله منصور البطائحي فأدبه وهذّبه وعلّمه. قال الرافعي في كتاب «سواد العينين»[1]: «قال لي شيخنا عمر الفاروثي أخبرني الشيخ بدر الأنصاري عن الشيخ الإمام منصور البطائحي الرباني قال رأيت النبي ﷺ قبل ولادة ابن أختي الشيخ أحمد الرفاعي بأربعين يومًا في الرؤيا فقال لي: «يا منصور أبشّرك أن الله يعطي أختك بعد أربعين يومًا ولدًا يكون اسمه أحمد الرفاعي مثلما أنا رأس الأنبياء كذلك هو رأس الأولياء وحين يَكْبُرُ خذه إلى الشيخ علي القارئ الواسطيّ، وأعطه له كي يربّيه ولا تغفل عنه»، فقلت: «الأمر أمركم يا رسول الله عليك الصلاة والسلام. وكان الأمر كما ذكر رسول الله ﷺ» اهـ.

ونقل أنّ الشيخ عبد القادر الجيلاني قال: «توجهت يومًا حال سياحتي إلى زيارة السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنه، فبينما نحن جلوس معه نتصاحب ونتحادث إذ وقع في خاطري سؤال في أثناء المصاحبة، فسألته وقلت: يا سيدي أنتم من ولد رسول الله ﷺ، ونَسَبُكُم هاشميّ، فلأيّ شيء وصفتم بالرفاعي؟» فقال السيد الكبير رضي الله عنه: «هي نسبة إلى جدي عليّ بن رفاعة من بني الإمام عليّ، فالحمد لله أن جدي الإمام عليّ كرم الله وجهه، وتربيت في بيت أبي الفوارس». فلما سمع الشيخ عبد القادر الجيلاني ذلك من السيد الكبير رضي الله عنه حين سأله قال: «سيدي أنت الرفاعي الفاطمي ابن ابن عم النبي ﷺ القرشيّ؟»اهـ.

---

(١) **سواد العينين في مناقب الغوث أبي العلمين** (ص/ ٦٤).

مشايخه:

درس القرءان العظيم، وأتمّ حفظه وترتيله على الشيخ الصالح الورع المقرئ عبد السميع الحربوني بقرية حسن وهي من أعمال واسط العراق وكان له من العمر سبع سنين وفي هذه السنة توفي أبوه في بغداد، وبعد وفاة والده كفله خاله الباز الأشهب الشيخ منصور البطائحي ونقله ووالدته وإخوته إلى بلدة نهر دقلا، من أعمال واسط وأدخله على الإمام العلامة الفقيه المقرئ المفسر المحدث الواعظ الصوفي الكبير الشأن الشيخ أبي الفضل عليّ الواسطي رضي الله عنه فتولى أمره وقام بتربيته وتأديبه وتعليمه فبرع بالعلوم النقلية والعقلية.

وكان يلازم درس خاله الشيخ أبي بكر شيخ وقته وسلطان زمانه كما كان يتردد على حلقة خاله منصور الرباني ويتلقى بعض العلوم عن الشيخ عبد الملك الحربوني.

وفي العشرين من عمره أجازه شيخه أبو الفضل علي محدث واسط وشيخها إجازة عامّة بجميع العلوم الشرعيّة والطريقة وألبسه خرقته المباركة وأعظم شأنه ولقبه بأبي العلمين.

مؤلفاته رضي الله عنه:

- **معاني بسم الله الرحمن الرحيم**، وهو كتاب في التفسير على طريقة القوم.
- **الرواية**، في الحديث.
- **الطريق إلى الله**.
- **حالة أهل الحقيقة مع الله**، وهو أربعون حديثًا بالإسناد المتصل ألقاها السيد أحمد الرفاعي في أربعين مجلسًا جمعها الفقيه الشافعي أبو شجاع.
- **الصراط المستقيم**.
- **البهجة**، في التصوف.
- **النظام الخاص لأهل الاختصاص**.

- **المجالس الأحمدية**، جمعه المحدث الشيخ عبد العظيم بن عبد القوي بن أحمد المنذري أورد فيه ما قاله سيدنا أحمد الرفاعي رضي الله عنه في كل مجلس في الغالب.
- **كتاب الحكم**، في الوعظ والحكم.
- **شرح التنبيه**، للشيرازي في الفقه الشافعي.
- **راتب الرفاعي**.
- **المصباح المنير** في ورد السيد الرفاعي الكبير.
- **السر المصون** وهو حزب السيد أحمد الرفاعي.
- **البرهان المؤيد** وهو من أشهر كتبه، وقد وصفه الإمام الرفاعي بقوله: «الكتاب الجليل» الذي جمعه من مجالس وعظه ودونه شيخ الإسلام شرف الدين ابن الشيخ عبد السميع الهاشمي العباسي الواسطي، نفعنا الله بهم أجمعين.
- **السير والمساعي**، جمعه الشيخ إبراهيم الراوي الرفاعي البغدادي ذكر فيه أحزاب وأوراد السيد أحمد رضي الله عنه.
- أوصافه رضي الله عنه:

قال الإمام العيدروس[1]: «كان السيد أحمد الرفاعي عالِمًا، حكيمًا، متورعًا، متواضعًا، قانعًا، قاطعًا عمره في الرياضة، أسمر اللون، متوسط القد، نيّر الوجه، شعره أسود، في صدره شعر أسود، كريم الخلق، صاحب أسرار خارقة» اهـ.

وقال السيد عز الدين أحمد الصياد[2]: «كان السيد أحمد رضي الله عنه ربعة من القوم، أسمر، أزهر، خفيف العارضين، وسيع الجبهة، أسود العينين، مدور

---

(١) **تنوير الأبصار في طبقات السادة الرفاعية الأخيار** (ص/ ٦).

(٢) **المعارف المحمدية في الوظائف الأحمدية** (ص/ ٣).

الوجه، حسن المبسم، إذا تكلم سلب القلوب، وإذا سكت أهابها. كان يلبس قميصًا أبيض، ورداء أبيض، وخفه من صوف أبيض، ويتعمم بعمامة سوداء دسماء، وفي بعض الأحيان يتعمم بالبياض، وكان رفيع القوام، خفيف الوجود، كثير التبسم، قليل الضحك، مكينًا في طوره، ذا هيبة عظيمة» اهـ.

تواضعه رضي الله عنه:

ولقد كان رضي الله عنه حمالًا للأذى، في تسامح كريم، ولم يتغير خاطره من مخلوق قطّ، مهما تطاول عليه في الأذى، أو لجّ في العناد، والإنكار. ولقد روى الشعرانيّ أن الشيخ إبراهيم البستي أرسل إلى سيدي أحمد كتابًا يحطّ عليه فيه، فلم ينتقم لنفسه مع ما في الكتاب من سوء الأدب وقلة الاحترام ثم أنشد رضي الله عنه:

ولســت أبالي مــن رمــاني بريبة إذا كنــت عنــد الله غــير مريب

ثم قال للرسول اكتب إليه الجواب: «من هذا اللاش حميد إلى الشيخ إبراهيم البستيّ، أما قولك الذي ذكرته، فإن الله تعالى خلقني كما يشاء، وأَسْكَنَ فيّ ما يشاء». فلما وصل الكتاب إلى البستيّ هام على وجهه، فما عرفوا إلى أين ذهب[1].

وكان يخدم نفسه، ويخصف نعله، ويجمع الحطب، ويشده بحبلٍ مُدخرٍ له عند بعض خدامه، فيحمله إلى بيوت الأرامل والمساكين والمرضى، وأصحاب الحاجات، ويقدم للعميان نعالهم، ويقودهم إذا لقي منهم أناسًا، إلى محل مطلوبهم، ويكرم الشيوخ، ويوصي بإكرامهم، ويقول: «قال النبي ﷺ: «**من أكرم ذا شيبة[2] سخر الله له من يكرمه عند شيبته**».

---

(١) **لواقح الأنوار في طبقات الأخيار (١/ ١٢٣).**

(٢) يعني مسلما.

وكان يمشي إلى المجذومين، والزَّمنى، ويغسل ثيابهم ويحمل لهم الطعام، ويأكل معهم، ويجالسهم، ويسألهم الدعاء. وإذا سمع بمريض في قرية، ولو على بعد، يمضي إليه ويعوده. وكان يداوي الكلاب، ويقول: «الشفقة على خلق الله مما يقرب العبد إلى الله».

قال مشايخ أهل عصره: «كل ما حصل لابن الرفاعيّ من المقامات، إنما هو من كثرة شفقته على الخلق، وذل نفسه رضي الله عنه». وكان يعظم العلماء، والفقهاء، ويحترمهم، ويأمر بتعظيمهم واحترامهم، ويقول: «هؤلاء أركان الأمة وقادتها»[1].

خصائصه رضي الله عنه:

وكان السيد أحمد رضي الله عنه، قد انتهت إليه الرياسة في علوم الطريق، وشرح أحوال القوم، وكشف مشكلات منازلاتهم، وبه عرف الأمر بتربية المريدين، وطريق السالكين، وتخرج بصحبته الجمع الكثير، وأثنى عليه العارفون، وقدمه السالكون، وهو أحد من قهر أحواله، وملك أسراره.

وكان رضي الله عنه لا يتكلم إلا يسيرًا، ويقول: «أمرت بالسكوت»، ولم يتصدر في مجلس قطّ، ولا جلس على سجادة ولا وسادة، بل خالف مألوفه، وتذكر عهد ألست بربكم، فحنّ، وتفكر في حاله فأنّ، ولسان حاله يقول:

سرى نسيم الصبا من حاجر فَصَبَا ... وبات يشكو إلى أنفاسه الوصبا

ذو صبوة لم يشم برق الشآم ولا ... دعا ابن ورقاء إلا صاح واحربا

ما يبرح البارق النجدي يذكره ... نجدا ويطربه وجدًا إذا التهبا

يود لو أن أيام الحمى رجعت ... وكيف يرجع عيش بعد ما ذهبا

---

(١) البرهان المؤيد (ص/ ٨).

كان من شوامخ أعلام الأئمة الواصلين، وصدور أعيان الأولياء المحققين، قطب أقطاب العارفين، ومركز دائرة الصديقين، غوث الثقلين، أبو العلمين، سيدي أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنه ونفعنا به في الدارين.

إمام ترقى في معاريج الحقائق، حتى انتهت دونه مقامات الأولياء، وقطب جمع بين الشريعة والحقيقة علمًا، وحالًا، وذوقًا، ومقالًا؛ فتصدر للقيادة الروحية، والتربية الصوفية، على منبر الخصوصيّة والتمكين، وأروى قلوبًا عطاشا، طالما برح بها شوق إلى النور، وحنين إلى الطهر والصفاء، فشعت قبسات هديه المحمدي، لتنير الدرب، وتثبت الأقدام، وتشعل جذوة الشوق إلى الله في قلوب عباد خلقوا للتفرد في محاريب العبوديّة والاختصاص، فرفع الإمام الرفاعي علم الصوفية على صرح مدرسة جديدة، تحمل اسمه وطريقته، وتنشئ رجالًا يخلفون السلف الصالح في إقبالهم على الله، وتجردهم لإحياء معالم الطريق المحمدي، برائع سمته وجليل عظمته وشامخ مجده.

وشهد القرن السادس الهجري تألق هذا المجد وبزوغه، رأي العين، وملء السمع والبصر، ولعل أوّل ما يؤكد سريان المدد المحمدي، إلى مولانا القطب الرفاعي رضي الله عنه، أنه ينتمي نسبه إلى العترة المحمديّة الطاهرة. فقد أجمع الرواة والمؤرخون، على أنه ينتهي نسبه من جهة أبيه إلى مولانا الإمام الحسين رضي الله تعالى عنه ونفعنا به في الدارين، فأنعم به من نسب.

وإلى جانب هذا السند الظاهري الذي سلك به القطب الرفاعي الطريق، فإن سيدي أحمد كان يستمد سنده الباطني من سيد الوجود ﷺ مباشرة. بل إن رسول الله ﷺ هو الذي سماه بالرفاعي. فلقد روى الشيخ أبو بكر العيدروس، أن الشيخ عمادًا الزنجي سأل السيد الكبير أحمد فقال له: «أي سيدي، ما سبب اشتهاركم بالرفاعية»؟ فقال السيد الكبير: «يا زنجي هو أني كنت يومًا جالسًا في عرفات، فإذا جماعة من الأولياء، وأهل الطريق الأبدال، في ذلك المجلس،

فالتفت في جانبي، فرأيت سيد المرسلين[1]، فقال: يا رفاعيّ، قد ارتفعت درجتك في الدنيا والآخرة، بشارة لك، فصار اسمي من ذلك اليوم مشهورًا بالرفاعي بين أهل الحضرة، لأنهم سمعوه من نفس النبي ﷺ».

ذلك أمر التسمية الباطنيّة، وأما تسميته الظاهريّة بالرفاعي؛ فنسبة إلى جده رفاعة، الحسن أبي المكارم المكيّ. وأما كنيته بأبي العلمين، فلاتصال نسبه من جهة أبيه بسيدنا ومولانا الإمام الحسين، ومن جهة أمه بسيدنا ومولانا الإمام الحسن رضي الله عنهما ونفعنا بهما في الدارين. وذكر بعض العارفين أنّ كنيته بأبي العلمين للإشارة إلى علمي الشريعة والحقيقة، فهو حامل لواء الظاهر والباطن، وإمام العلم الشرعي والحقيقي.

وعن شيخنا العبدري بالإسناد إلى الإمام عبد الكريم الرافعيّ قال: «سألت الشيخ العارف بالله ركن الدين بن نبهان الشيباني، عن سبب اشتهار السيد أحمد الرفاعي بأبي العلمين. فقال: لأن عَلَمَ الغوثية العظمى، والقطبية الكبرى، رُفع له مرتين في الأكوان؛ وهو أن الغوث أحمد بن خلف البلخي الحسيني، نزيل بغداد، لما مات، رفع لواء الغوثية للسيد أحمد الكبير، فوقف في باب الله، وتذلل وتململ على عتبة جده رسول الله ﷺ، وقال: العفو العفو. فقبل الحق منه مقاله، فتمكن في مقام غوثيته بالترقي، فرُفع لواء الغوثية إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني، وهو في صحراء العراق، وله من العمر خمس وثمانون سنة، فأقام ببغداد، وظهر أمره، وتصدر على بساط الغوثية العظمى، ثمان سنين على الصحيح، وقيل ستًا، وتوفي ببغداد، سنة إحدى وستين وخمس مائة، فرفع علم الغوثية مرةً ثانيةً للسيد أحمد، فلزم الباب ممتثلًا، وامتدت مدة غوثيته الثانية ستة عشر سنة وأشهرًا على

(١) هو ﷺ في قبره الشريف من غير أن يخرج، الله يقرّب المسافات البعيدة والوديان والجبال والأشجار ويجعل كل هذه الحواجز كالبلّوْر فيراه الوليّ وهو في بلده أو حيث هو والنبيّ في قبره، وهذا يحصل لبعض خواصّ الأولياء لا لكلهم.

الصحيح، فلهذا اشتهر بين أولياء الله بأبي العلمين»[1].

والمتصفح للجانب السلوكي عند مولانا القطب الرفاعي يرى أقباسًا من الضياء تتوهج، وصفحات من النور تزخر بطاعة هذا العارف لربه، وشغله به وتفانيه في عبادته. وقد كان السيد أحمد في ليله ونهاره يختم القرءان الكريم، وكان ورده وذكره قراءة القرءان، فإنه أفضل الذكر.

ولقد نقل عن كنز العارفين سيدي أحمد الزاهد رضي الله عنه أنه كان يقول: «المشايخ عددهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألف شيخ، وأعظمهم وأبرعهم في باب المشيخة والولاية ثلاثمائة شيخ، وأفضل الثلاثمائة سبعون شيخًا، وأفضل السبعين سبعة شيوخ، وأفضل السبعة أربعة شيوخ، وأفضل الأربعة شيوخ ثلاثة شيوخ، وأفضل الثلاثة واحد، واصطلاح القوم والأصحاب هذا الواحد هو قطب الأقطاب سيدي أحمد الرفاعيّ الكبير».

مر بالإمام الرفاعي جماعة من فقراء الصوفية في صغره، فوقفوا ينظرونه، فقال أحدهم: «لا إلـه إلا الله محمدٌ رسول الله»، ظهرت هذه الشجرة المباركة. فقال الثاني: «تتفرع لها فروع». فقال الثالث: «عن قليل يشتمل ظلها». فقال الرابع: «عن قليل يكثر ثمرها ويشرق قمرها». فقال الخامس: «عن قليل ترى الناس منها العجب، ويكثر نحوها الطلب». فقال السادس: «عن قليل يعلو شأنها ويظهر برهانها». فقال السابع: «كم يغلق لها باب وكم يظهر لها أصحاب»[2].

زهده وعبادته رضي الله عنه:

وأما عن جانب الزهد والعبادة عند سيدي أحمد رضي الله عنه، فقد كان لا يجمع بين قميصين شتاء وصيفًا، ولا يأكل إلا بعد يومين أو ثلاثة أكلة

---

(١) **البراهين على صدق حادثة مد اليمين** (ص/ ١٨٥-١٨٦).

(٢) **جامع كرامات الأولياء** (١/ ٤٩٠).

واحدة، ويستغفر كل يوم ألفين، يقول: «لا إلـه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين»[1].

وكان رضي الله عنه إذا شرع في الصلاة، يصفر لونه الشريف، وإذا فرغ من صلاة الصبح، يستمر في مكانه جالسًا بالذلة والمسكنة يقرأ الأوراد إلى ضحوة النهار العالية، وإذا فرغ من ذلك صلى صلاة الإشراق، وصلاة الضحى، ثم يتوجه إلى أم عَبيدة، ويجاهد نفسه الغيورة الكريمة على العبادة، وكان يقول: «إذا كنت في الخلوة يحصل عندي التأسف والتحسر كثيرًا». وكان دائمًا يرى في الخلوة واقفًا على قدميه، ويجاهد نفسه وينشد هذا البيت ويقول[2]:

والله لو علمت روحي بمن علقت قامت على رأسها فضلًا عن القدم

وكان طعام سيدي أحمد الرفاعيّ الكبير الخبز والأَرُز، وما يفضل من اللباب والكسر، وفضلات موائد الواردين والضيفان؛ وما أكل الخبز الساخن في عمره قط، وكان إذا أفطر من الصوم، لا يفطر إلا على لباب المائدة الفاضل منها.

وروي عن سيدي يحيى أنه قال: «إن سيدي أحمد الرفاعي ما أكل الخبز السمين في عمره أبدًا، وما نام أبدًا في الليل، وما ضحك أبدًا في زمن الطفوليّة، وما لعب مع الأولاد قط. وكان وهو طفلٌ، من عوائده الحسنة أن يجمع الخبز ويعطيه لهم، ويتقيد بخدمتهم، وكان من عوائده أن يزور المهجور من المساجد، ويزور المقابر. ومن حين كان طفلًا، كل من صاحبه أو حادثه لا يتصاحب معه إلا بالنصيحة والفوائد. وكان الناس يتمنى الواحد منهم أن يصاحبه لحظةً لشدة محبتهم له؛ وكل من ينصحه من هؤلاء المصاحبين لا يروح إلا وهو من الفائزين من تلك النصيحة رضي الله عنه» اهـ.

---

(١) **الكواكب الدرية** (١/ ٦٥٧). **قلادة الجواهر في ذكر الغوث الرفاعي وأتباعه الأكابر** (ص/ ٦٦).

(٢) **طبقات الأولياء** (ص٩٦).

وحكى أنّ السيد عليّ ابن السيد أحمد الصيّاد، ابن السيد عبد الرحيم قال: «إنّ مولانا السيد الكبير ولد في أوائل رجب، فأراد سيدي منصور الرباني أن يسميه بشيبة الحمد، فسمع هاتفًا يقول له إنّ اسمه أحمد الرفاعيّ، وهذا الذي تسميه به، وكان يشرب اللبن كل يوم من حين ولدته أمّه، فتقيد بعدم شربه اللبن فيه، وحين جاء العيد شربه في أول يومه وأفطر مع الناس فيه.

والحاصل أنه كان غالب أيام السنة صائمًا، من حين برز إلى الوجود، إلى وقت خروجه من الدنيا، وكان يقوم الليل كله. فرحمه الله ونفعنا ببركاته، وبركات خلواته، وصلواته ونفحاته، وأسراره في الدنيا والآخرة»[1].

وكان متجردًا من الدنيا، وما ادخر شيئًا قط؛ وكان لا يجمع بين لبس قميصين، لا في صيفٍ ولا في شتاء، مع أن ريع أملاكه، وحباس رواقه الشريف، أكثر من ريع أملاك الأمراء والكبراء. وكلّ ما يحصل منها ينفقه في سبيل الله تعالى، على فقراء الرواق، وورادية من المسلمين، ويبقي أولاده لا يملكون شيئًا من عرض الدنيا، بل هم كآحاد فقراء الرواق[2].

قال الشيخ عبد الصمد الحربوني، أحد وكلاء الرواق الأحمديّ العامر: «في سنة ٥٦٧هـ، بلغ ريع أملاك السيد أحمد، وأوقافه المحبوسة على رواقه هذه السنة، تسعمائة ألف درهم فضة ديواني، وعشرين ألف قطعة ذهب. وجاءه في هذه السنة من الأقاليم ثمانون ألف رداء، وخمسون ألف تمشكة، وعشرون ألف

---

(١) **النجم الساعي** (ص/ ٤٩-٥٠).

(٢) لم يكن سيدنا الغوث الرفاعي ملكًا ولا أميرًا ولم يكن بيت مال المسلمين تحت يده ومع ذلك رضي الله عنه كان يصرف ويبدد أملاكه وأمواله على الفقراء والمستحقين من طلبة العلم وفقراء الرواق والأيتام والأرامل وابن السبيل وكان بالبركة التي أعطاه الله يطعم كل ليلة عشرين ألفًا وفي ليلة واحدة في السنة تسمى ليلة المحيا يطعم فيها مائة ألف نفس وتسمى بذلك لأنه رضي الله عنه هو وأتباعه يحيونها بقراءة القرءان والصلاة ومذاكرة العلم والأذكار والأوراد إلى الفجر.

مسح عجمي، واثنتان وثلاثون ألف عمامة كتان، وإحدى عشرة ألف قطعة ذهب دوانيقيّة، وألف وسبعمائة كساء هندي، وها هو اليوم غسل ثوبه بشاطئ نهر الرواق، واستتر بفوطته، وأخذ ثوبه على عصا ينشفه ليلبسه، ولم يكن في خزانة رواقه ولا درهم واحد؛ وكلّ الذي ذكرته لك تصدق به على الضعفاء، ووهبه للمستحقين، والسائلين، والفقراء والمساكين.

وكان يقول: «الزهد أساس الأحوال المرضيّة والمراتب السنيّة وهو أوّل قدم القاصدين إلى الله عزّ وجلّ، والمنقطعين إلى الله، والراضين عن الله، والمتوكلين على الله». وكان يقول: «كم طيرت طقطقة النعال حول الرجال من رأس، وكم أذهبت من دِين». وكان إذا رأى على فقير جبة صوف، يقول له: «يا ولدي، انظر بزيّ من تزييت، وإلى من قد انتسبت، لبست لبسة الأنبياء، وتحليت بحلية الأتقياء، هذا زيّ العارفين، فاسلك فيه مسالك المقربين وإلا فانزعه»، وكان لا يجازي قطّ السيئة بالسيئة، وكان يقول: «لا يحصل للعبد صفاء الصدر حتى لا يبقى فيه شيء من الخبث لا لعدو ولا لصديق ولا لأحد من خلق الله عزّ وجلّ». وكان يقول: «طريقي دين بلا بدعة، وعمل بلا كسل، ونية بلا فساد، وصدق بلا كذب، وحال بلا رياء»[1].

وعن الشيخ يعقوب قال[2]: وسئل عن أوراد سيدي أحمد، فقال: كان يصلّي أربع ركعات بألف ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾. ويستغفر الله كل يوم ألف مرّة، واستغفاره أن يقول: لا إلـه إلاّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، عملت سوءًا، وظلمت نفسي، وأسرفت في أمري، ولا يغفر الذنوب إلّا أنت، فاغفر لي، وتب عليّ، إنك أنت التوّاب الرحيم. يا حيّ يا قيّوم، لا إلـه إلّا أنت. وذكر غير ذلك. وكان يترنّم بهذا البيت وكان يقول:

---

(١) **لواقح الأنوار في طبقات الأخيار** (١/ ١٤١).

(٢) في كتابه **تاريخ الإسلام** (ص ١٠٥).

ومستخبر عن سرّ ليلى تركته بعمياء من ليلى بغير يقين
يقولون: خبّرنا، فأنت أمينها وما أنا إن خبّرتهم بأمينِ

ويقول:

أرى رجالًا بدون العيش قد قنعوا وما أراهم رَضُوا الدنيا على الدّينِ
إذا رأيت ملوك الأرض أجمعها بلا مراء ولا شك ولا مينِ
وقيل هُوْ فوقَهم في الناسِ مرتبةً فقل نعم ملك في زي مسكينِ
ذاك الذي حسنت في الناس سيرته وصار يصلح للدنيا وللدينِ

ويقول:

أغار عليها من أبيها وأمّها ومن كل من يرنو إليها وينظرُ
وأحذر من حدّ المراة بكفّها إذا نظرت منك الذي أنا أنظرُ

ومنه:

إذا تذكّرت من أنتم وكيف أنا أجللت ذكركم يجري على بالي
ولو شريت بروحي ساعةً سلفت من عيشتي معكم ما كان بالغالي

وكان كثير التعظيم لخاله سيدي الشيخ منصور، ويقول للفقراء: أنا ملّاح لسفينة الشيخ منصور، فاسألوا ربّنا به في حوائجكم. وكان يقول: إلى أن ينفخ في الصور لا يأتي مثل طريق الشيخ منصور. وعن ابن كراز: سمعت يوسف بن صقير المحدّث يقول: كنّا في قرية الصريّة مع سيدي أحمد، وقد غنّى ابن هديّة:

لو يسمعون كما سمعت حديثها خرّوا لعزّه ركّعًا وسجودًا

فقام سيدي وتواجد، وردّد البيت، ولم يزل حتى كادت قلوب الفقراء تنفطر. وكان ذلك في بدايته بعد موت الشيخ منصور. وعنه قال: ذكر الشيخ جمال الدين أبو الفرج ابن الجوزي أن سبب وفاة سيدي أحمد أبيات أنشدت بين يديه، تواجد عند سماعها تواجدًا كان سبب مرضه الذي مات فيه. وكان المنشد لها الشيخ عبد الغني بن نقطة حين زاره، وهي:

إذا جنّ ليلي هـام قلبي بذكركم أنـوح كما نـاح الحـمام المطوّقُ

وفوقي سحاب يمطر الهمّ والأسى وتحـتي بحـار بالدمـوع تدفّـقُ

سلوا أمّ عمرو كيف بات أسيرها تفكّ الأسـارى دونه وهو مُوْثَقُ

فلا أنا مقتول ففـي القتل راحة ولا أنـا ممنـون عـليّ فَأُعْتَـقُ

قال: وتوفي يوم الخميس ثاني عشر جمادى الأولى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة. حكى الشيخ محمَّد بن أبي بكر ابن أبي طالب الصوفي أنه سمع جدّه عفيف الدين أبا طالب يقول: سمعت الشيخ عبد الرحمٰـن شملة يقول: سمعت سيدي عليًّا يقول: لما حضرت الوفاة سيدي أحمد قبلها بأيام قلت: أي سيدي، ما نقول بعدك، وأيش تورّثنا فقال: أي عليّ، قل عنّي إنه ما نام ليلةً إلا وكلّ الخلق أفضل منه، ولا رأى لنفسه قيمةً قطّ. وأما ما أورثه فيا ولدي تشهد أن لي مالا حتى أورثكم إنما أورثكم قلوب الخلق. فلما سمعت من سيدي خرجت إلى الشيخ يعقوب بن كراز فأخبرته، فقال: لك حسب، أو لذريّتك معك فعدت إلى سيدي فقلت له فقال: لك ولذريّتك إلى يوم القيامة البيعة عامّة، والنعمة تامّة، والضمين ثقة، هي اليوم مشيخة وإلى يوم القيامة مملكة بمشيخة. نقلت أكثر ما هنا عن يعقوب من كتاب مناقب ابن الرفاعي رضي الله عنه. جمع الشيخ محيي الدين أحمد ابن سليمان، الحسيني، الرفاعي، شيخ الرواق المعمور بالهلاليّة، بظاهر القاهرة، سمعه منه الشيخ أبو عبد الله محمَّد ابن أبي بكر ابن الشيخ أبي طالب الأنصاري، الرفاعي الدمشقي، ويعرف بشيخ

حطّين، بالقاهرة سنة ثمانين وستمائة. وقد كتبه عنه مناولةً وإجازةً المولى شمس الدين أبو عبد الله محمَّد بن إبراهيم الجزري، وأودعه تاريخه في سنة خمس وسبعمائة، فأوّله قال: ذكر ولادته. ثم قال: قال الشيخ أحمد بن عبد الرحمٰن ابن الشيخ يعقوب بن كراز وأكثر الكتاب عن الشيخ يعقوب، وهو نحو من أربعة كراريس. وهو ثمانية فصول في مقاماته وكراماته، وغير ذلك. وإنما المشيخة في أولاد أخيه. قال القاضي ابن خلّكان: كان رجلًا صالحًا، شافعيًّا، فقيهًا، انضم إليه خلق من الفقراء، وأحسنوا فيه الاعتقاد، وهم الطائفة الرفاعية، ويقال لهم الأحمدية. ويقال لهم البطائحية. ولهم أحوال عجيبة من عدم تأثير سمّ الحيّات فيهم، والنزول إلى التنانير وهي تضرم نارًا، والدخول إلى الأفْرنة، وينام الواحد منهم في جانب الفرن والخبّاز يخبز في الجانب الآخر. وتوقد لهم النار العظيمة، فيرقصون عليها إلى أن تنطفئ. ويقال إنهم في بلادهم يركبون الأسود ونحو ذلك وأشباهه. ولهم أوقات معلومة يجتمع عندهم من الفقراء عالم لا يحصون ويقومون بكفاية الجميع. والبطائح عدّة قرى مجتمعة في وسط الماء بين واسط والبصرة اهـ.

ذكر بعض حكمه رضي الله عنه:

قال سيدنا الغوث أحمد الرفاعي الكبير في «البرهان المؤيد»: «أيْ سادة الزهدُ أوَّلُ قَدَمِ القاصدينَ إلى الله عز وجل، وأساسُه التّقوى وهي خوفُ الله رأسُ الحكمة» اهـ.

وقال أيضًا: «فعامِلوا اللَّهَ بحُسنِ النيات واتّقوه في الحركاتِ والسكنات وصونوا عقائدَكم بظاهرِ ما تشابه منَ الكتابِ والسنة لأنّ ذلك من أصولِ الكفر. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [سورة ءال عمران/ ٧]».

ذكر بعض كراماته رضي الله عنه:

قال الإمام عبد الكريم الهندي رحمه الله تعالى: «أخبرني الشيخ عبد الله

الهندي قال: أخبرني أبو الفتح الواسطي قال كنا مع سيدنا أحمد الكبير الرفاعي على شاطئ نهر أم عبيدة في جم غفير من أصحابه فقال نشتهي اليوم أن نأكل سمكا، فما استتم كلامه حتى خرج إلى شاطئ النهر من الأسماك ما لم ير مثله قبل ذلك اليوم فأخذه الفقراء وشووه وأكلوا حتى شبعوا، وبقي من هذه السمكة رأسها ومن هذه بعضها، فقال بعض أصحابه: أي سيدي، ما علامة الرجل المتمكن؟ قال: علامته أن يقول لهذه الأسماك التي في الطواجن قومي واسعي بإذن الله فتقوم وتسعى، ثم التفت إلى الطواجن وأشار إلى بقيّة الأسماك وقال: أيتها العظام، عودي كما كنت بإذن الله، فوثبت الأسماك صحيحة حية كما كانت وذهبت في الماء من حيث أتت» اهـ. وهذا السائل عن علامة الرجل المتمكن هو عمر الفاروثي ومدح الإمام الرفاعي في ذلك المجلس بأبيات منها:

جاءت الأسماك تسعى نحوه مذ دعاها بين قوم عرفا

أكلوا من لحمها ثم غدت حية والأمر ما فيه خفا

ومن أشهر كراماته رضي الله عنه الحادثة المشهورة بحادثة مد اليمين حيث مد النبي ﷺ يده الشريفة من القبر فقبلها السيد الجليل أحمد قال الشيخ عبد القادر الجيلاني في مدرسته: «رأيت يد النبي ﷺ كيف مدت للسيد أحمد ابن الرفاعي فسح الله في حياته وبجانبي أبو الفضل عبد الله المنصوري وابن النهرملكي وهي والله مزية يغبطه عليها الملأ الأعلى». اهـ

وقال خادم القبّة المباركة الأحمدية، الشيخ الصالح الورع العابد، أبو الرضا الصلحي رحمه الله تعالى، أنه نعس ذات يوم وهو في القبّة الطاهرة الرفاعية، وذهبت به همّته إلى النوم، وفي يده الكتاب وزجاجة الزيت بجانبه فرأى السيد أحمد في المنام وهو يقول يا أبا الرضا تنبه، لولا أني صنت لك الكتاب، لأخذه الزيت. فتنبهت، فرأيت الكتاب في جانب، وزجاجة الزيت في جانب ءاخر[1].

---

(١) **المعارف المحمدية في الوظائف الأحمدية** (ص/ ٤٠).

ومن كراماته رضي الله عنه، أنه كان إذا صعد الكرسيّ، سمع حديثه القريب كالبعيد، حتى إن أهل القرى الذين حول بلده، يسمعونه كالذين بزاويته، وكان الأصمّ إذا حضره سمع كلامه فقط.

ومنها ما نقل أنه قدم جماعة من الفقراء إلى أم عبيدة فاحتاجوا إلى شيء يأكلونه فقصدوا إلى موضع وأنفذوا شخصًا منهم يطلب لهم من السوق طعامًا، فمضى وليس معه شيء، فلم يعط شيئًا، فرجع وتكلموا في ما بينهم وقالوا: هؤلاء لا يعطون إلا من يأتيهم بشيء من الدنيا، ثم قاموا وقصدوا الرواق فالتقاهم السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنه قبل أن يجلسوا وقال رضي الله عنه لهم: أي فقراء، إلى يومنا هذا ما فرقنا بين من يأتي بشيء ومن لا يأتي، ومن يساعد ومن لا يساعد، كيف تقعدون في المواضع وتتكلمون، أي أنه كاشفهم وأخبرهم بما تكلموا به فيما بينهم قبل أن يدخلوا عليه[1].

وفاته رضي الله عنه:

كانت وفاته دامت بركاته بأم عبيدة يوم الخميس ثاني عشر جمادى الأولى سنة ٥٧٨هـ عن ست وستين عامًا وكان يومًا مشهودًا وكان ءاخر كلامه: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله» ودفن في قبّة جدّه لأمه الشيخ يحيى الكبير النجاري الأنصاري.

---

(١) **جلاء الصدا في سيرة إمام الهدى** (ص/ ٩٩).

إسناد عقيدة الإمام أحمد الرفاعي

قال أبو الفتح بن محمد الواسطي:

وروي عنه رحمه الله: ما وجدته مكتوبا في كتاب من تأليف: (عمر بن أحمد) رحمه الله، عن الثقات من أصحاب سيدي أحمد [عزّ الدين الصياد] رحمه الله أنه قال: سألت أخي سيدي محمدا [شمس الدين رمانة القبان] رحمه الله عن هذه المسألة، فقال: سألت والدي سيدي عبد الرحيم [مهذب الدولة والدين] رحمه الله عن هذه المسألة وقلت له: الناس يسألوني عن عقيدتي فما أقول لهم؟ فقال رحمه الله:

كل ما عدا الخالق فهو مخلوق

قال المؤلف رحمه الله: أي عبد الرحيم، اعلم أن كل ما عدا الخالق فهو مخلوق؛ الليل والنهار، والضوء والظلام، والسموات السبع وما فيها من النجوم، والشمس والقمر، والأرض وما عليها من جبل وبحر وشجر، وأنواع النبات وأصناف النبات والحيوانات، والضار منها والنافع، لم يكن شيء من ذلك إلا بتكوين الله. ولم يكن قبل تكوين الله للأشياء أصل ولا مادة.

الشرح: بدأ الإمام الرفاعيّ كلامه بخطاب مريده بقوله: «أي -يعني يا- عبد الرحيم اعلم أن كل ما عدا الخالق فهو مخلوقٌ الليل والنهار...» فابتدأ بالتوحيد لأنه أوّل خطاب يجب على المكلفين وبه نزلت الكتب السماوية وإليه دعا الأنبياء والرسل. وهو أشرف العلوم لكونه متعلّقًا بأشرف المعلومات التي هي أصول الدّين أي معرفة الله ورسوله. قال الله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [سورة محمد/ ١٩] قدّم الأمر بمعرفة التوحيد على الأمر

بالاستغفار لتعلّق التوحيد بعلم الأصول، وتعلق الاستغفار بعلم الفروع. فالفقه في أصول الدين أشرف من الفقه في فروعه، ولهذا المعنى سمّى الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه كتابه الذي حوى علوم التوحيد والكلام ب»الفقه الأكبر». وقد قال الشافعيّ رضي الله عنه[1]: «أحكمنا ذلك قبل هذا»، أي علم التوحيد قبل فروع الفقه.

روى أبو نعيم[2] أنه جاء يهوديٌّ إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال له: «متى كان الله؟»، فقال له سيدنا عليّ: «لا يقال عن الله تعالى متى كان، إنما يقال متى كان عمّا لم يكن ثمّ كان، أما الله تعالى هو قبل القبل وبعد البعد[3]». هذا اليهوديّ أراد الامتحان لأنه كان اطلع في التوراة على هذا الكلام فلما أجابه عليٌّ بهذا الجواب الذي هو مذكور في توراتهم الأصلية، الرجل ما تمالك نفسه عن أن يسلم فتشهد في المجلس، قال في نفسه: «عليٌّ ما له اطلاع على التوراة من أين عرف الجواب لولا أن دينه صحيحٌ» اهـ.

اعلم أن العالم بجميع أركانه وأجسامه وما يشتمل عليه من أنواع النبات والحيوانات وجميع الأفعال والأقوال والاعتقادات كلها مخلوق كائن عن أوّل، حادث بعد أن لم يكن شيئًا ولا عينًا ولا ذاتًا ولا جوهرًا ولا عرضًا.

والدليل على حدوث الأجسام أنها تتغير عليها الصفات وتخرج من حال إلى حال، وحقيقة التغيرات أن تبطل حالة وتحدث أخرى. فأما الحالة التي حدثت: فحدوثها معلوم بالضرورة والمشاهدة وما كان ضروريا لم يفتقر إلى الاستدلال عليه. ولا يجوز أن يقال إنها انتقلت من باطن الجسم إلى ظاهره لاستحالة الانتقالات على الصفات. وأما الحالة التي بطلت: لو كانت قديمة لم

---

(١) **تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الأشعري** (ص/ ٣٤٢).

(٢) **حلية الأولياء** (١/ ٧٢).

(٣) معناه الله تعالى كان قبل الزمان وهو باق من غير أن يجري عليه الزمان.

تبطل فبطلانها يدل على حدوثها لأن القديم لا يبطل، وإنما قلنا إن القديم لا يبطل لأن خروج الذات عن صفة واجبة له في حالٍ محالٌ، لأنه لو جاز خروجها عن تلك الصفة لصارت جائزة الوجود وما كان واجب الوجود لا يصير جائز الوجود كما أن جائز الوجود لا يصير واجب الوجود بحال لأنهما صفتان متناقضتان. وإذا تقرر أن صفات الأجسام مخلوقة ثبت أن الأجسام مخلوقة لأن ما لا يخلو من الحوادث لا يسبقها، وما لا يستحق أن يكون محدِثا كان محدَثا مثلها.

وقد نبه الله تعالى في كتابه على تحقيق هذه الدلالة وأثنى عليها، وسمَّاها حجّةً ومَنَّ على الخليل إبراهيم ﷺ بإلهام هذه الدلالة إياه وجعلها سببا لرفع درجته حيث قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾ إلى قوله: ﴿ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴾ [سورة الأنعام/ ٨٣] استدل بالتغير على حدوث الكواكب والشمس والقمر، ثم إن الله تعالى نَبَّهَ على هذه الطريقة من الاستدلال والاحتجاج فقال: ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [سورة ءال عمران/ ١٩٠] وقال: ﴿ وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ [سورة البقرة/ ١٦٣- ١٦٤].

والمخلوق لا بد له من خالق، لأن الأجسام لو كانت بأنفسِها مع تجانُسِ ذواتها لم تختلف بالصفات والأوقات والأحوال والمحالّ، فلما اختلفت عَلِمْنَا أن لها مخصصا قدّم ما قدّم وأخّر ما أخّر وخصّ كل واحد منها بما اختص به من الصفات، لولاه لم يقع الاختصاص في شيء من الأوصاف لأن الاختصاص بأحد الجائزين يقتضي مخصصا لولاه لم يقع التخصيص به.

وقد نَبَّهَ الله تعالى على أصل هذه الدلالة بقوله: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [سورة الطور/ ٣٥] معناه أم خُلِقوا مِن غير خالقٍ خلَقَهم، فأنكَرَ تعالى أن يكونوا وُجِدوا مِن غير خالقٍ خَلَقَهم لاستحالة وُجود مخلوقٍ مِن غير خالقٍ خَلَقَ وصانعٍ دَبَّرَ وصَنَعَ.

لم يكن قبل تكوين الله للأشياء أصل ولا مادة:

أراد الإمام الرفاعيّ رضي الله عنه إبطال قول الفلاسفة، حيث قاسوا الخالق على المخلوق، فقالوا: «كما أن البنّاء يحتاج في البناء إلى مادة وهي الطين، والنجار يحتاج في النجارة إلى مادة وهي الخشب، كذلك الصانع يحتاج في صنعه إلى مادة وهي الهيولى عندهم». ويقولون بأن الصورة تضاف إلى الهيولى فيكون الجسمُ. والصور عندهم بعضها أزليّة وبعضها حادثة. فالمادة عندهم شيء مجرد عن الصورة والشكل والكميّة، ويقولون بأزليّتها فقد وصفوها بما لا يوصف به إلا الخالق جلّ وعزّ. وأما أهل السنّة فيقولون: «هو الأوّل والآخر» هو الأوّل، أي هو وحده الأوّل، كما أفاده تعريف طرفي الجملة المبتدإِ والخبر، فلا أزليّ سواه، بل كلّ شيء سواه له ابتداء، كان معدومًا ثم وجد.

تنبيه:

نقل المحدّث الأصولي بدر الدين الزركشي في تشنيف المسامع اتفاق المسلمين على كفر من يقول بأزليّة نوع العالم فقال بعد أن ذكر أن الفلاسفة قالوا: «إن العالم قديم بمادته وصورته» وبعضهم قال: «قديم المادة محدث الصورة» ما نصه[1]: «وضلّلهم المسلمون في ذلك وكفّروهم» اهـ.

قال المؤلف رحمه الله: وكذلك الجنة والنار، والعرش والكرسي، واللوح والقلم، والملائكة والإنس، والجن والشياطين، لم يكن منها شيء إلا

(١) تشنيف المسامع (٤/ ٧٠).

بتكوين الله تعالى. وكذا صفات هذه الأشياء من الحركة والسكون، والاجتماع والافتراق، والإطعام والمشروب والروائح، والجهل والعلم، والعجز والقدرة، والسمع والصمم، والبصر والعمى، والنطق والبكم، والصحة والسقم، والحياة والموت، كل ذلك من مخلوقات الله تعالى.

الشرح: الجنة وهي دار أعدها الله لنعيم المسلمين سقفها العرش، والنار وهي دار أعدها الله لعذاب الكفار وبعض عصاة المسلمين وأسفلها الفرش، والعرش هو أكبر مخلوقات الله وهو سرير كبير له أربعة قوائم ليس كسريرنا يحمله أربعة من الملائكة خلقه الله إظهارًا لقدرته ولم يتخذه مكانًا لذاته، اللوح والقلم جرمان عظيمان علويان ليسا كأقلامنا وألواحنا. واللوح ورد في وصفه[1] أنه من درة بيضاء حافتاه ياقوتة حمراء ومساحته مسيرة خمسمائة عام. وقد ورد أن القلم الأعلى من نور لكن ليس ثابتا[2] ومعناه أنه يشبه النور، لأن النور لم يخلق في ذلك الوقت ولا الظلام، والملائكة وهم عباد الله المكرمون خلقهم من نور، لا ذكر فيهم ولا أنثى لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، والبشر الذين خلقهم الله من طين، والجن الذين خلقهم من مارج من نار كلهم وجدوا بخلق الله تعالى على وفق علمه وإرادته. فكلها حادثة لم يكن شيء منها إلا بتكوين الله.

وكذلك صفات المخلوقات كلها: من حركة وسكون واتصال وانفصال[3]

---

(١) رواه الطبراني في **المعجم الكبير** (١٢/ ٥٧) من دون ذكر مساحته.

(٢) رواه ابن حبان في **المجروحين** (١/ ٣٥٥) في ترجمة السري بن عاصم بن سهل الهمداني وقال فيه: «كان ببغداد يسرق الحديث ويرفع الموقوفات لا يحل الاحتجاج به»اهـ، رواه الطبراني في **المعجم الكبير** (١٢/ ٥٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ وأبو نعيم في **الحلية** (٤/ ٣٠٥) من طريق الطبراني، وحسّنه السيوطي في **الجامع الصغير** (١/ ٢٦٥).

(٣) هذه الأربعة يسميها المتكلمون بالأكوان الأربعة.

وحرارة وبرودة كلها مخلوقة. وقد نبّه المصنف رحمه الله بذلك على أن العالم كلّه –وهو ما سوى الله– حادثٌ ويستحيل كونه أزليًّا. وذلك أن العالم أجسام وصفاتٌ لهذه الأجسام. فالأجسام المذكورة والتي لم تذكر كلها مخلوقة، وكذلك صفات الأجسام حادثة لها بداية.

وإن أردنا بسط الكلام في ذلك قلنا الأعيان حادثة ملازمة للصفات لا تنفك عنها، بدليل الشاهد، ولأنه لا يعقل جسم منفكٌّ عن حركة وسكون، أي جسم لا هو متحركٌ ولا ساكنٌ، وما لا ينفك عن الحادث فهو حادث، إذ لا يمكن أن يسبقها، فإذا كان للأعراض ابتداء كان للملازم أي الأعيان ابتداء أيضًا، وهذا حقيقة الحدوث.

والقول بقدم النوع مع حدوث الأشخاص باطلٌ، وهو أن يكون قبل الحادث الحاضر حادثٌ وقبله حادث وهكذا لا إلى نهاية في جهة الماضي، أي لا إلى أوّل. وهذا القول قول الفلاسفة وبعض أدعياء الإسلام فتنبّه.

ووجه إبطاله أن يقال لنفرض من الحوادث سلسلة من الآن إلى ما لا نهاية له في جانب الماضي، ثم لنفرض سلسلة أخرى من زمن الطوفان إلى ما لا نهاية له في جانب الماضي أيضًا ثم لنطبق السلسلتين، بأن نجعل الأوّل من السلسلة الأولى بإزاء الأوّل من السلسلة الثانية والثاني بإزاء الثاني وهكذا فإن كان بإزاء كل واحد من الأولى واحد من الثانية لزم مساواة الناقص للزائد وهو محال. وإن لم يكن بأن وجد في الأوّل ما لا يوجد بإزائه شيء من الثانية لزم أن تنقطع الثانية وتتناهى، ويلزم منه تناهي الأولى لأنها لا تزيد على الثانية إلا بقدر متناه وهو الذي من الآن إلى زمن الطوفان، والزائد على المتناهي بقدر متناه يكون متناهيًا بالضرورة.

فإن قالوا: هذا منقوض بمراتب العدد بأن تطبق جملتان منه إحداهما بتضعيف الواحد مرات غير متناهية والثانية بتضعيف الاثنين كذلك بأن يكون كل فرد من أفرادها اثنين لا إلى نهاية فيجعل الواحد من إحداهما بإزاء

الاثنين من الأخرى فتكون إحداهما أزيد من الأخرى قطعًا ولم يلزم من ذلك تناهي إحداهما ولا المساواة المدعى امتناعها.

قلنا: إن التطبيق المستدل به على بطلان التسلسل إنما اعتبر بين الأمور الموجودة كالأعراض لا العدمية الوهمية المحضة كالأعداد لأنها منقطعة بانقطاع الوهم.

وقولهم الأعداد لا نهاية لها تخييل لكونها لا تقف عند حد، بل ما من عدد إلا ويُتصور فوقه عدد ءاخر وأما كل ما وُجد بالفعل منها في نفس الأمر خارجًا أو ذهنًا فمتناهٍ.

وأيضًا نقول لو كان أفراد العالم التي دخلت في الوجود لا نهاية لها لكان لا يخلو عددها عن أن يكون زوجًا وفردًا معًا أو لا زوجًا ولا فردًا ومحال أن يكون زوجًا وفردًا جميعًا ولا زوجًا ولا فردًا فإن في ذلك جمعًا بين النفي والإثبات وهما ضدان إذ في إثبات أحدهما نفي الآخر وفي نفي أحدهما إثبات الآخر، ومحال أن يكون زوجًا فقط لأن الزوج يكون فردًا بزيادة واحد فكيف يعوز ما لا نهاية له واحد، ومحال أن يكون فردًا فقط لأن الفرد يكون زوجًا بزيادة واحد عليه فكيف يعوز واحدٌ ما لا نهاية له فحصل من هذا أن العالم لا يخلو من الحوادث فهو إذًا حادث وإلا لزم استحالة وجود الحادث الحاضر لأنه لازم وجود حوادث لا أوّل لها لكن الحادث الحاضر ثابت فانتفى ملزومه وهو وجود حوادث لا أوّل لها فلانتفاء وجود حوادث لا أوّل لها انتفى ملزومه وهو كون ما لا يخلو من الحوادث قديمًا فثبت نقيضه وهو ما لا يخلو من الحوادث حادث فتبيّن وجوب انتهاء الحوادث التي دخلت في الوجود إلى أوّل.

وروى البخاريّ وابن الجارود والبيهقيّ[1] من حديث عمران بن الحصين رضي الله عنه قال «أتى أناس من أهل اليمن إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا رسول الله جئناك لنتفقه في الدين فأنبئنا عن بَدْءِ هذا الأمر ما كان قال: «**كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السموات والأرض**». أجاب الرسول ﷺ أن الله لا بداية لوجوده أي أزليّ ولا أزليّ سواه، وبعبارة أخرى ففي الأزل لم يكن إلا الله، والله تعالى خالق كلّ شيء أي مُخرِجُه من العدم إلى الوجود.

فائدة:

قوله ﷺ: «**وكان عرشه على الماء**» معناه أنه خلق الماء سابقًا ثم خلق العرش على الماء. وقد وقع في قصة نافع بن زيد الحميريّ[2] بلفظ «كان عرشه على الماء ثم خلق القلم فقال اكتب ما هو كائن ثم خلق السموات والأرض وما فيهن» عزاه في الإصابة لابن شاهين في الصحابة.

وقد روى مسلم من حديث عبد الله بن عمرو عن النبيّ ﷺ: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء**»[3]. وقد روى أحمد وغيره من حديث أبي هريرة أن النبيّ ﷺ قال: «**كلّ شيء خلق من الماء**»[4]. ولفظ ابن حبان «قلت يا رسول الله إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرّت عيني فأنبئني عن كل شيء قال ﷺ: «**كل شيء خلق**

---

(١) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب **بدء الخلق**: باب ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾، والبيهقي في **الأسماء والصفات** (ص/ ٣٧٥).

(٢) **جامع الأحاديث** (٢٠/ ١٤٨).

(٣) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب القدر: باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام.

(٤) رواه أحمد في **مسنده** (١٤/ ٤٩).

من الماء»[1].

قال الحافظ ابن حجر[2]: «وروى السّدي في تفسيره بأسانيد متعددة عن جماعة من الصحابة: «**إنّ الله لم يخلق شيئًا مما خلق قبل الماء**». وأما ما رواه أحمد والترمذي[3] من حديث عبادة بن الصامت عن النبيّ ﷺ قال: «**أوّل ما خلق الله القلم ثم قال اكتب فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة**». فجمع بينه وبين ما قبله بأن أوّليّة القلم بالنسبة إلى ما عدا الماء والعرش أو بالنسبة إلى ما صدر منه من الكتابة أي إنه قيل له أوّل ما خلق» اهـ.

فحديث أوّليّة القلم صحيح لكن يتعين حمله على الأوّليّة النسبية عملًا بقاعدة الجمع بين الحديثين الثابتين. ويعيّن ذلك قوله ﷺ في قصة نافع بن زيد الحميري «**وكان عرشه على الماء ثم خلق القلم**».

قال الحافظ ابن حجر[4]: «وأما حديث «أوّل ما خلق الله العقل» فليس له طريق ثبتٌ». وقال السيوطي في شرح الترمذي[5]: «وأما حديث «أوّليّة النور المحمدي» فلم يثبت» اهـ.

وأما قول ابن حجر الهيتمي المكيّ: «إن أوّليّة النور المحمدي أوّليّة مطلقة وأوّليّة ما سواه من الماء والعقل والقلم فنِسبِيَّة» فباطل[6] لأنه جعل الحديث

---

(١) رواه ابن حبان في **صحيحه**: كتاب الصلاة: باب ذكر إيجاب دخول الجنان للقائم في سواد الليل يتملق إلى مولاه.

(٢) **فتح الباري** (٦/ ٢٨٩).

(٣) رواه الترمذي في **سننه**: كتاب التفسير: باب ومن سورة ن، وقال: «هذا حديث حسن»، وأحمد في **مسنده** (٥/ ٣١٧).

(٤) **فتح الباري** (٦/ ٢٨٩).

(٥) عزاه له اللكنوي في **الآثار المرفوعة في الأخبار الموضوعة** (ص/ ٤٣).

(٦) والقاعدة الحديثية أن الضعيف إذا عارض الصحيح فلا حاجة إلى تأويل الصحيح من أجل الضعيف.

الصحيح «حديث أوّليّة الماء» تابعًا مرجوحًا لحديث أوّليّة النور الذي هو غير ثابت. بل قال الحافظ أبو الفضل أحمد الغماري في «المغير على الجامع الصغير»[1]: «إنّ حديث «أوّل ما خلق الله تعالى نور نبيك يا جابر خلقه الله من نوره قبل الأشياء» موضوع» اهـ، وهو جدير بكونه موضوعًا، قال السيوطي[2]: «ليس له إسناد يعتمد عليه» اهـ ومثله ما ذكر في كتاب «مولد العروس» المنسوب لابن الجوزي: «إن الله قبض قبضة من نوره فقال كوني محمدًا فكانت محمدًا»، فما أعظم ضرر هذا الحديث المفترى على العامة فقد اعتقدوا بسببه أن الله جسم نوراني وأن الرسول جزءٌ منه، فكأن هؤلاء لم يسمعوا قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [سورة الكهف/ ١١٠]. وهذا منشؤه ترك النص الثابت الصحيح من أجل الخبر السقيم والموضوع. واغترّ كثير من الناس بشهرة قول «إن أوّل خلق الله نور محمد ﷺ» في كتب المدائح والموالد. وقد شهر نسبة ذلك إلى عبد الرزاق مع أنه لا وجود له في مصنفه[3].

وأما حديث: «**كنت أوّل النبيّين في الخلق وءاخرهم في البعث**» فضعيف كما نقل ذلك العلماء[4] منهم البيهقيّ في الأسماء والصفات، والطبراني في المعجم الكبير، وفيه بَقِيَّة بن الوليد وهو مدلس، وسعيد بن بشير وهو ضعيف. ولو صح لم يكن فيه أنه أوّل خلق الله وإنما فيه أنه أوّل الأنبياء ومعلوم أن البشر أوّلهم ءادم الذي هو ءاخر الخلق باعتبار أنواع العوالم.

وأيضًا يقال لو صح لكان معناه أن روحه ﷺ أوّل أرواح البشر، وفرقٌ بين أن يقال «أوّل أرواح البشر» وبين أن يقال «أوّل خلق الله» لأن بين كتابة القلم

---

(١) **المغير** (ص/ ٧).

(٢) **الحاوي في الفتاوي** (١/ ٣٢٥).

(٣) **مرشد الحائر لبيان وضع حديث جابر** (ص/ ٢٨).

(٤) **أسنى المطالب** (ص/ ٢٤٢)، **المقاصد الحسنة** (ص/ ٥٢٠)، **كشف الخفا** (٢/ ١٧٠- ١٦٩).

على اللوح المحفوظ وبين خلق السموات والأرض خمسين ألف سنة كما مر. فإذا ثبت أوّليّة الماء فالماء الذي هو أوّل العالم ومادته هو الماء الذي تحت العرش، ففي حديث طويل رواه ابن عساكر في الاستسقاء من حديث ابن عباس[1] رضي الله عنهما «**اللهم أرسل السماء علينا مدرارًا نافعًا مغزورًا من تحت عرشك**». قال السيوطي[2]: «رواته ثقات». فمن الماء خلق الله النور والنار وغير ذلك.

وأما حديث مَيْسَرَةَ الفَجْرِ أنه قيل يا رسول الله متى كنت نبيًّا؟ قال: «**كنت نبيًّا وآدم بين الروح والجسد**»[3] فلا يدل على أوّليته ﷺ بالنسبة لجميع الخلق وإنما يدل على أن الرسول ﷺ كان مشهورًا بوصف الرسالة بين الملائكة في الوقت الذي لم يتم تكوّن جسد ءادم بدخول الروح فيه، فليس فيه دليل على ما يدّعونه.

تنبيه:

«كان» في قوله ﷺ: «**كان الله ولم يكن شيء غيره**» للأزليّة كما أنها في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [سورة النساء/ ٩٦] ونحوه كذلك أي لم يزل غفورًا رحيمًا كما قال ابن عباس[4] رضي الله عنهما، فلا يتوهم أن معناه لم يكن كذلك ثم كان لأن التحول والحدوث على الله محال. قال الحافظ ابن حجر[5]: «والمراد بكان في الأوّل الأزليّة وفي الثاني الحدوث» اهـ.

---

(١) **جامع الأحاديث** (٢٠/ ١٤٨) عزاه لابن عساكر (٨/ ٤٣٦-٤٣٤).

(٢) **جامع الأحاديث** (٢٠/ ١٤٨).

(٣) رواه أحمد في **مسنده** (٥/ ٥٩)، قال الحافظ ابن حجر في **الإصابة** (٣/ ٤٧٠): «وهذا سند قوي».

(٤) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب التفسير: باب سورة حم السجدة.

(٥) **فتح الباري** (٦/ ٢٨٩).

قال المؤلف رحمه الله: وكذلك أفعال العباد واكتسابهم والأمر والنهي والوعد والوعيد كل ذلك مخلوقات الله تعالى، خلق كل شيء وكل ما لم يكن مخلوقا وسيخلق فهو من مخلوقات الله تعالى لقوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم﴾ [سورة فاطر/٣].

الشرح: الله تعالى تمدّح بأنه خالق كل شيء، خالق أجسامنا وحركاتنا وسكناتنا وغيرها من كل فعل ظاهريٍّ وكل صفة باطنيّةٍ كالتفكير والخواطر التي تخطر ببال العبد ولا يستطيع أن يدفعها وكل كائن دخل في الوجود قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [سورة الزمر/ ٢٦]، ولو لم يكن خالق ذلك كله بل كان خالق الأجسام فقط لم يكن في ذلك تمدّحٌ له، لأنه كان معنى ذلك أن ما يخلقه العباد أكثر مما يخلقه الله.

روي عن الجنيد إمام الصوفية العارفين عندما سئل عن التوحيد أنه قال[1]: «اليقين» ثم استفسر عن معناه فقال: «إنه لا مكوّن لشيء من الأشياء من الأعيان والأعمال خالقٌ لها إلا الله تعالى» اهـ، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الصافات/ ٦٩] أي خلق ذواتكم وأعمالكم حركاتكم وسكناتكم هو خلقها، ونياتنا هو خلقها.

قال الرسول ﷺ: «**إن الله صانع كل صانعٍ وصنعته**»[2]، الصنعة في هذا الحديث المراد بها العمل الذي يعمله العبد حركاته وسكونه، والمعنى أن الله خالق كل عامل وعمله. وفي هذا إبطال لقول المعتزلة القائلين بأن العبد

---

(١) **حلية الأولياء** (١٠/ ٢٥٦).

(٢) رواه الحاكم في **المستدرك** (١/ ٣٢-٣١) بلفظ: «**إن الله خالق كل صانع وصنعته**» وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي في تلخيص **المستدرك** (١/ ٣٢)، ورواه البيهقي في **الأسماء والصفات** (ص/ ٢٦) بلفظ: «**إن الله عز وجل صنع كل صانع وصنعته**»، والبخاري في **خلق أفعال العباد** (ص/ ٤٦) بلفظ: «**إن الله يصنع كل صانع وصنعته**».

يخلق أفعاله بقدرة خلقها الله فيه. فالإنسان جسمه واحد، وأما أعماله حركاته وسكناته تعد بالملايين، فلو كان الله خالقا للجسم فقط والعبد يخلق حركاته وسكناته لكان مخلوق العبد أكثر من مخلوق الله.

قال الإمام أبو حنيفة في «الوصيّة»[1]: «والعبد مع أعماله وإقراره ومعرفته مخلوق. فلما كان الفاعل مخلوقًا فأفعاله أولى أن تكون مخلوقة». وقال في «الفقه الأكبر»[2]: «وجميع أفعال العباد من الحركة والسكون كسبهم على الحقيقة والله تعالى خالقها».

وقال الجاحظ والنَظَّام من زعماء المعتزلة بأن العبد يخلق شيئًا واحدًا وهو القصد. نقل ذلك الإمام عبد القاهر التميمي[3].

وكأن ما في كتاب «المسايرة»[4] للكمال بن الهُمَام وكتابه «التحرير» مأخوذ من قول الجاحظ والنظام إذ فيهما أن العبد يخلق شيئًا واحدًا وهو العزم المصمّم وأنه يخص به عموم قول الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ [سورة الزمر/ ٢٦] ليصح التكليف»، فليُحذر من ذلك فإنه خروج عن مذهب أهل الحق قاطبة[5]. وماذا بعد الحق إلا الضلال؟ وقد نسب إليه ذلك ملا علي القاري وردَّه[6].

---

(١) **إشارات المرام** (ص/ ٢٥٢).

(٢) **شرح الفقه الأكبر** (ص/ ٨٩).

(٣) **أصول الدين** (ص/ ٨٤).

(٤) **المسايرة** (ص/ ١١٤- ١١٣).

(٥) قال شيخنا الهرري رحمه الله في كتابه **التحذير الشرعي الواجب**: وهذا الكلام المذكور على ما في نسخة من كتاب «**المسايرة**» وكتاب «**التحرير**» يحتمل أن لا يكون هذا في أصل المؤلف الكمال بن الهمام، فيحتمل أن يكون مدسوسًا عليه لأنه معروف بالتحقيق.

(٦) **الفقه الأكبر بشرح ملا علي القاري** (ص/ ٥٢).

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الأنعام/ ١٦٢]، معناه أَعلِم قومك يا محمد بأنك لا تشرك بالله لا في صلاتك ولا في نسكك، والنسك هو ما يذبح تقربًا إلى الله من الذبيحة كالأضحية، كذلك في الحج إذا أخذ الإنسان من بلده إبلًا أو بقرًا أو غنمًا فذبحه ضمن حدود الحرم تقربًا إلى الله فهذا الذبح لله أي ملك لله، وخلقٌ له، ومحياي أي حياتي، ومماتي ملك لله لا أشرك به في ذلك شيئًا، أما المحيا والممات فهما من الأفعال غير الاختيارية وهي خلق لله قال تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [سورة الملك/ ٢] فإذًا الأعمال الاختيارية وغير الاختيارية خلق وملك لله، ساق الله الصلاة والنسك والمحيا والممات في مساقٍ واحد وجعلها ملكًا له. فكما أن الله خالق الحياة والموت كذلك الله خالقٌ للأعمال الاختيارية كالصلاة والنسك، والحركات الاضطرارية من باب الأولى.

ولكن الفرق بين الأعمال الاختيارية وغير الاختيارية أن الاختيارية مكتسبة لنا، وأما غير الاختيارية فهي غير مكتسبة لنا. فالأعمال الاختيارية هي محل التكليف أي هي التي يحاسب العبد على فعلها فما كان منها خيرًا يثاب عليه وما كان منها شرًا يؤاخذ عليه.

وأما الأعمال التي هي غير اختيارية فليست محل التكليف. إنما نسأل عن أعمالنا الاختيارية، وأما المصائب التي تصيب المؤمن كالأمراض ونحوها كوفاة القريب فيثاب عليها ويكفر بها السيئات وترفع بها الدرجات فإن نفس المرض ليس من الأفعال الاختيارية وإنما الصبر من الأعمال الاختيارية.

والعبد كاسبٌ لعمله والله تعالى خالقٌ لعمل هذا العبد الذي هو كسب له. فالكسب أمر دون الخلق وهو العزم المصمم على فعل الشيء، عندما يوجّه ويعلق العبد قصده وإرادته بشيء يخلق الله ذلك الشيء، والكسب على مفهوم أهل السنّة والجماعة شيء غامض من أغمض المسائل في علم الكلام.

وأما قوله تعالى: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾ أي من عمل الخير أي تنتفع بذلك،

وقوله: ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [سورة البقرة/ ٢٨٦] أي من المعاصي، أي عليها وبال ما اكتسبته من المعاصي، أي تستحق العقوبة عليه، ففي هذه الآية إثبات الكسب للعبد. فكل أعمال العبد مخلوقة لله أي هو يوجدها من العدم إلى الوجود ولا يستثنى من ذلك شيء.

تنبيه:

إن الإنسان ليس مجبورًا لأنه لو كان مجبورًا لم يكن مكلفًا، والمجبور هو من لا اختيار له، ومعنى المجبور أن يكون مثل الريشة المعلقة في الهواء تأخذها الرياح يمنة ويسرةً من غير اختيار لها في ذلك، فلو كان العبد مثل هذه الريشة لم يؤمر بالأوامر ولم ينه عن المناهي.

والمعتزلة والجبرية طائفتان متباينتان تباينًا شديدًا، فالجبرية تقول العبد مجبور كالريشة المعلقة في الهواء، والمعتزلة تقول العبد يخلق أعمال نفسه استقلالًا بقدرةٍ خلقها الله فيه، وأهل السنّة لا من هؤلاء ولا من هؤلاء بل هم وسط بين الاثنين.

أما أهل السنّة فهم وسط بين المذهبين، مذهب الإفراط ومذهب التفريط، يقولون الإنسان عندما يقدم على الشيء باختياره أي بميله فهو مختار ظاهرًا، لكن إن نظرنا إلى أن الله علم منه أنه سيفعل هذا الفعل الذي هو طاعة أو غيرها فلا بد أن يفعله لأن علم الله لا يتغير، فيفهم أن العباد مختارون ظاهرًا مجبورون باطنًا، العباد مختارون اختيارًا ممزوجًا بجبر، فالإنسان له اختيار تابع لمشيئة الله، مختارٌ تحت مشيئة الله. ويقال العبد مختارٌ لا مجبورٌ في الأعمال التكليفية. ولا تقال هذه العبارة التي شاعت بين العوام: «العبد مُسَيَّرٌ أو مُخَيَّرٌ»، لأن الاختيار والتسيير ليسا معنيين متقابلين بل يجتمعان، العبد له اختيار، ومعنى مسيرٌ أنه يمكّنه الله من السير قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [سورة يونس/ ٢٢] هذه العبارة التي يلهج بها العوام وبعض من يدّعي العلم فاسدة لغةً ومخالفةٌ للشرع وهي شائعة بين العوام وأشباه العلماء.

المعتزلة القائلون بأن العبد يخلق أعماله كفروا لأنهم كذبوا القرءان، كذّبوا قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [سورة الرعد/ ١٦] وءايات كثيرة وهم يقولون اللَّه خالق الأعيان أي الأجسام فقط والأعمال خلقها العبد، وتستّروا بقولهم «بقدرةٍ خلقها اللَّه فيه» ولا ينفعهم قولهم هذا. وهم قائلون باستقلال العبد في أفعاله حتى قال متأخروهم «إن اللَّه كان قادرًا على خلق حركاتنا وسكناتنا قبل أن يعطينا القدرة عليها فلما أعطانا القدرة عليها صار عاجزًا عنها» ذكر عنهم هذا إمام الحرمين وأبو سعيد[١] المتولي[٢] وأبو الحسن شيث بن إبراهيم[٣] في كتابه الذي ألفه في الرد على المعتزلة وسماه حزّ الغلاصم في إفحام المخاصم وغيرهم، قال أبو الحسن[٤]: المعتزلة جعلت اللَّه كما يقول المثل: «أدخلته داري فأخرجني منها»، فهل بعد هذا تردٌّ في تكفيرهم. وقال ابن عباس رضي اللَّه عنهما[٥]: «كلام القدرية كفر» لأنهم قالوا المعاصي تحصل بدون مشيئة اللَّه وإن أعمالنا نحن نخلقها، لذلك سمّوا القدرية.

فائدة:

اعلم أن العبد لا يكلّف بما ليس في وسعه لقول اللَّه تعالى ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ [سورة البقرة/ ٢٨٦] وسواء في ذلك ما كان ممتنعًا في نفسه

---

(١) كنيته «أبو سعد» **طبقات الشافعية الكبرى** (٥/ ١٠٦)، **الوافي بالوفيات** (١٦/ ٦١)، **وفيات الأعيان** (٣/ ١٣٣)، وغيرها. إلا أن في كتب الشافعية يذكر تارة «أبو سعيد» كما في **المجموع** (١/ ٨٠) وغيره، وتارة يذكر «أبو سعد».

(٢) **الإرشاد** (ص/ ١٧٣)، **الغنية** (ص/ ١١٧).

(٣) **حزم الغلاصم** (ص/ ٤٥).

(٤) رواه الحافظ ابن حجر في **تهذيب التهذيب** (٦/ ٣٨٣) في ترجمة عبد المجيد ابن عبد العزيز بن أبي رواد وقال: «قال الدارقطني: تفرد به عبد المجيد، قلت بقية رجاله ثقات».

(٥) **تهذيب التهذيب** (٦/ ٣٨٣).

كجمع الضدين أو ممكنًا في نفسه لكن لا يمكن للعبد كخلق الجسم فإن هذين كليهما لا يصح تكليف العبد بهما.

وأما ما يمتنع بمعنى أن الله تعالى علم وأراد خلافه كإيمان الكافر وطاعة العاصي فلا نزاع في وقوع التكليف به لكونه مقدورًا للمكلف بالنظر إلى نفسه فيصح تكليف العبد به وإن كان بالنسبة لما في نفس الأمر وقوع هذا الشيء منه وعدم وقوعه المرجع فيه إلى موافقة الإرادة والعلم من الله تعالى وذلك لكونه مقدورًا للمكلف بالنظر إلى نفسه.

وما يوجد من الألم في المضروب عقيب ضرب إنسان والانكسار في الزّجاج عقيب كسر إنسانٍ وما أشبهه كلّ ذلك مخلوق لله تعالى لا صنع للعبد في تخليقه؛ لأن هذا داخل في الإمكان العقلي وما كان داخلًا في الإمكان العقلي يستحيل حصوله بغير تخليق الله تعالى فيمتنع من العبد أن يُحدثه من العدم فعلى ذلك يكون الألم الذي يحصل في المضروب عقيب ضرب الضارب بخلق الله تعالى ليس بخلق العبد وكذلك الانكسار في الزجاج عقيب كسر إنسان فهو إنما يقع بتخليق الله تعالى ليس من العبد بمعنى الإحداث من العدم وكذلك ما أشبهه كالموت عقيب القتل فإذا قتل إنسان شخصًا فهذا الموتُ ليس القاتلُ أَحْدَثَه بمعنى الإخراج من العدم بل هو بفعل الله تعالى وتكوينه وذلك لما ثبت أن الله تبارك وتعالى هو المنفرد بالإحداث من العدم إلى الوجود[1].

---

(١) هذا القتل الذي باشره العبد فعل للعبد بمعنى الكسب أي أن العبد اكتسبه فحصل بكسبه وأما من حيث الخروج من العدم إلى الوجود فهو بخلق الله ليس بفعل العبد، ولذلك إذا إنسان ضرب بحجر زجاجا فحصل الكسر فهذا الكسر بخلق الله ليس بخلق العبد، فالعبد اكتسبه فقط أي وجّه إرادته إليه والله بمشيئته الأزلية وقدرته الأزلية أخرجه من العدم إلى الوجود وجعله حاصلا بعد أن لم يكن موجودا والعبد والحجر والزجاج والكسر والانكسار كل بخلق الله فقولنا كسر فلان الزجاج بحجر معناه أن العبد اكتسب هذا ليس معناه أنه أوجده من العدم. ثم هذا الصرف صرف القصد من العبد نحو الشيء واختياره مخلوق لله، العبد واختياره وما يحصل بعد=

قال المؤلف رحمه الله: والله تعالى خلق كلّ شيءٍ ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ [سورة القمر/٥] علم العباد أو لم يعلموا، لقوله تعالى: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [سورة الأنبياء/٢٣] يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

الشرح: ليعلم أن الله لا يخلق شيئًا عبثًا، ومن اعتقد أن الله يخلق شيئًا عبثًا بلا حكمةٍ فقد كفر كالذي يقول إن الله لَمّا خلق فلانًا أراد أن يملأ به الفراغ.

الله سبحانه وتعالى حكيم في جميع أفعاله، وحقيقة الحكمة في أفعاله سبحانه وتعالى وقوعها موافقة لعلمه وإرادته وهو الحكمة في أفعال الحكماء في الشاهد لأن من فعل فعلًا لا يقع على وفق إرادته يقال إنه لم يرتّبه على حكمة منه فيه فإذا حصل مراده فيه يقال إنه حكيم في فعله، ولا يمكن أن يقال في شيء من أفعاله إنه كان ينبغي أن يوقعه على خلاف ما أوقعه لأنه يتصرف في ملكه ومن تصرف في ملكه لم يتقرر عليه الاعتراض في فعله. ولهذا قلنا إن شيئا من أفعاله لا يكون ظلما وإنه سبحانه يستحيل الظلم في وصفه لأنه لا يتصرف في غير ملكه، ومن تصرف في ملكه فليس بظالم في أفعاله. قال الله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [سورة فصلت/ ٢٤] وقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [سورة الأحزاب/ ٤٠] وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [سورة المؤمنون/ ١١٥].

روى مسلم في صحيحه[1] والبيهقيّ في كتاب القدر[2] عن أبي الأسود الدؤليّ قال: قال لي عمران بن الحصين: أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشيءٌ قضي عليهم ومضى عليهم من قدرٍ قد سبق أو فيما يستقبلون به مما أتاهم

= اختياره من المسببات مخلوقات لله. وهذا يرجع إلى قول من قال العبد مختار ظاهرا مجبور باطنا، في الظاهر الإنسان له اختيار لكنه في الباطن مجبور مع هذا يصح تكليفه.

(١) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب القدر: باب كيفية خلق الآدمي.

(٢) **القضاء والقدر** (ص/ ١٢٣).

به نبيّهم وثبتت الحجة عليهم؟ فقلت: بل شيء قضي عليهم ومضى عليهم، فقال: أفلا يكون ظلمًا، قال: ففزعت من ذلك فزعًا شديدًا وقلت: كلّ شيء خلقُه وملكُ يدِه لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، قال: فقال لي: يرحمك الله إني لم أرد بما سألتك إلا لِأَحْزِرَ عقلَك، إن رجلين من مزينة أتيا رسول الله فقالا: يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون به ممّا أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم؟ فقال: «بل شيء قضي عليهم ومضى عليهم، ومصداق ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [سورة الشمس/ ٧-٨].

هذا الحديث رواه البيهقيّ في كتاب القدر[1] من حديث يحيى بن يعمر الذي هو أوّل من نقّط المصاحف، عن أبي الأسود الدؤليّ الذي هو معروف بأنه من ثقات التابعين أخذ الحديث عن سيدنا عليّ كرم الله وجهه وغيره، وكان هو أوّل واضع للنحو بإشارة سيدنا عليّ، عن عمران ابن الحصين الذي هو أحد فقهاء الصحابة المجتهدين المشهورين بالعلم حتى قيل إنه لم يدخل البصرة أفقه منه، أي أنه أفقه من دخل البصرة من أصحاب رسول الله ﷺ. وعمران ابن الحصين هو أيضًا من أولياء الصحابة، الملائكة كانوا يزورونه ثم ذات مرّة استعمل الكيّ من أجل البواسير، والتداوي بالكيّ مكروه لم يكن يحبّه رسول الله ﷺ، فانقطعت عنه الملائكة ثم بعد برهة عادوا لزيارته[2].

ومعنى قوله: «أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه»، أي يسعون إليه، أي أعمالهم حركاتهم وسكناتهم، وقوله: «أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدرٍ قد سبق»، معناه هل هو شيء قدّره الله تعالى أنه سيحصل منهم أي باختيارهم ومشيئتهم الحادثة بعد مشيئة الله الأزليّة وعلمه الأزليّ الأبديّ،

---

(١) **القضاء والقدر** (ص/ ١٢٣).

(٢) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب الحج: باب جواز التمتع.

وقوله: «أو فيما يستقبلون به»، معناه أم هو شيء جديد لم يسبق به قدرٌ ولم يسبق في علم الله في الأزل أنه يحصل منهم إنما هم يعملونه من تلقاء أنفسهم من غير أن يكون لله تصرّف فيه، أو هل هم ليس لهم اختيار بل هم مَسْلُوبُو الاختيار بالمرّة.

ومعنى قوله: «**مما أتاهم به نبيّهم وثبتت الحجّة عليهم**»، أي أريد منك نصًّا شرعيًّا.

ومعنى قوله: «**بل شيء قضي عليهم ومضى عليهم**»، أي أن حركات العباد وسكناتهم كلّها شيء حصل من العباد بقضاء الله.

ومعنى قوله: «**أفلا يكون ظلمًا**»، أي أنه أراد أن يزيد في امتحانه فقال: أفلا يكون ظلمًا، والمعنى إن كان الإنسان يعمل فيما قدّر الله تعالى، يعمل على حسب مشيئة الله وعلمه ثم حاسَبَهُ في الآخرة على هذا العمل فعاقبه ألا يكون ظلمًا، قال: «ففزعت من ذلك فزعًا شديدًا وقلت: كلّ شيء خلقُه وملكُ يده لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون».

ألهم الله تعالى أبا الأسود الصواب فأجاب بما معناه أن الله لا يحكمه أحد هو فعّالٌ لما يريد، جعل الأعمال أماراتٍ أي علامات، ووفَّقَ بعضَ الناس بأن يختاروا الهدى والصالحات من الأعمال وينساقوا إليها باختيارهم على حسب مشيئته وعلمه فيكونوا من أهل النعيم المقيم، وأن ينساق قسمٌ منهم باختيارهم إلى ما نهى الله عنه من غير أن يخرجوا عن تقدير الله وعلمه، فإذا حاسب العصاة وعاقبهم لا يكون ظالِمًا لأنه هو الحاكم ليس له حاكم، هو الآمر ليس له ءامرٌ، تصرّف فيما له فيما يملكه ملكًا حقيقيًّا ولم يتصرّف فيما ليس له، لأن «الظلم» في لغة العرب هو أن يتصرّف بما ليس له، والله تعالى كلّ شيء خلْقُه وملكه، لا يُسأل عما يفعل وهم أي العباد يُسألون.

وقول عمران: «يرحمك الله إنّي لم أرد بما سألتك إلا لِأَحْزِرَ عقلك»، معناه أنه لَمّا وُفِّقَ للجواب الصحيح دعا له وصوّب جوابه وقال له: لم أرد بما سألتك

إلا لِأَحْزِرَ عقلك أي أردت أن أمتحن فهمك للدين.

ثم قال عمران: «إن رجلين من مزينة – قبيلة من قبائل العرب– أتيا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدرٍ قد سبق أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيّهم وثبتت الحجّة عليهم»، معناه نريد منك دليلًا وحجّة من الشرع، فقال ﷺ: «**بل شيء قضي عليهم ومضى عليهم ومصداق ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾** [سورة الشمس/ ٧-٨]، المعنى أن كل ما يعمل العباد من حركات وسكنات، حتى النوايا والقصود تكون على حسب مشيئة الله الأزليّة وعلمه وتقديره، ثم يجزيهم على الحسنات الثواب وعلى السيئات العقاب، والرسول ﷺ استدل بالآية المذكورة وأيّد جوابه لهما لأن الله أقسم بالنفس وما سواها على أن الله تبارك وتعالى هو الذي يلهم النفوس فجورها وتقواها، أي أنه لا يكون شيء من أعمال العباد خيرها وشرها إلا بخلق الله تعالى فيهم ذلك.

فيعلم من ذلك أن أعمال العباد كلّها خلقٌ لله تعالى وكسبٌ للعباد، أي نحن نوجّه إليها القصد والإرادة والقدرة التي هي حادثة، وأما حصول ذلك الشيء ووجوده فهو بخلق الله، قال الله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [سورة البقرة/ ٢٨٦] المعنى أن العباد يثابون على كسبهم للحسنات ويعاقبون على كسبهم للسيئات. فإثابة الطائعين فضلٌ من الله وعقاب العاصين عدلٌ منه.

فإن قال قائل: إذا كان الله شاء لنا أن نفعل كذا من الكفر والمعاصي فماذا نفعل؟ فالجواب أن يقال: المستقبل غيبٌ عنا، ما بعد هذه اللحظة غيبٌ عنا، فالذي علينا أن نسعى لأن نكون قائمين بحقوق الله تعالى وحقوق عباده التي أمرنا بها، ونعتقد في الوقت نفسه أنه إن كان الله علم وشاء أننا نسعى للخيرات كان ذلك علامة على أننا من الذين شاء الله لهم أن يكونوا من أهل النعيم المقيم في الآخرة، وإن لم يتيسر لنا ذلك فلا نكون من أولئك فلا نستحق ذلك

بل نخشى أن نكون من الذين أراد الله بهم أن يكونوا من أهل العذاب المقيم، كما أن الإنسان يبذر البذر وهو لا يعلم علم يقين أنه يدرك محصول هذا الزرع فإما أن يموت قبله وإما أن تحدث ءافةٌ وعاهةٌ لهذا البذر فتتلفه وتفسده فلا يدرك الانتفاع بهذا الزرع، إنما نشرع فيه على الأمل أي على احتمال أننا نعيش حتى ينبت هذا البذر وندركه فيصير حبًّا قوتًا أو ثمارًا ينتفع بها، كذلك أحدنا إذا أصيب بمرض يتداوى على الأمل لا يقطع بأنه يتعافى بهذا الدواء بل يقول يحتمل أن أتعافى بهذا الدواء ويحتمل أن لا أتعافى به، وهذه أمور الآخرة كذلك العواقب عنّا مستورة ومحجوبة إنما نعلم ما حصل قبل هذا فنقول هذا حصل بمشيئة الله أما ما لم يقع بعد فإنه غيب عنا، وكما لا يجوز للإنسان أن يقعد ويقول ما قدّر الله تعالى لا بدّ أن يصل إلى جوفي ولا يسعى بوجهٍ من الوجوه في طلب القوت بل يعرّض نفسه للتلف بالجوع، كذلك لا يجوز أن يقول الإنسان أنا إن كان الله كتب أَنِّي سعيدٌ لا بدّ أن أكون سعيدًا وإن كان كتب لي غير ذلك لا أكون سعيدًا ثم يقعد من غير أن يسعى لأن يكون من أهل النجاة.

ثم يقال: فعل الله لا يقاس على فعل المخلوق، أمامنا أمرٌ يوافق عليه المؤمن والملحد وذلك الانتفاع بهذه البهائم، هذه البهائم خلقٌ كما أننا خلقٌ، هي تحسّ باللذّة والألم كما أننا نحس باللذة والألم، فهل يعترض أحدٌ منا على ذبح هذه الذبائح للانتفاع بها، هل هو محل اعتراض؟ هل يقول أحد منا أو منهم: هذه البهائم لها أرواح كما أن لنا أرواحًا وتحسّ بألمٍ كما أننا نحس بألمٍ فإذًا لا يجوز لنا أن نقضي عليها للوصول إلى لذّاتنا، فيقال لهم: كما أنه لا اعتراض لكم في هذه ليس لكم اعتراض على أن الله تبارك وتعالى يوفّق من يشاء ويخذل من يشاء فيكون الذين وفّقهم من أهل النعيم المقيم في الآخرة ويكون الذين لم يوفقهم بل خذلهم من أهل العذاب المقيم.

وليعلم العاقل أن أمر الدين لا يتمّ إلا بالتسليم لله، أما أن يقاس الخالق على المخلوق فهذا ضلال وخسرانٌ.

اللَّه سبحانه وتعالى لا اعتراض عليه في جميع ما يأتيه أو يذره، لا يقال فيما فعله لم فعله ولا فيما تركه لِمَ تركه، لأن الاعتراض إنما يتوجّه إلى من صَدَرَ قولُه عن أَمْرِ ءامرٍ ونهي ناه وزجر زاجر، وإنما يتوجه الأمر على من إذا خالف كان للعقوبة إليه سبيل ولا سبيل للعقوبة إلى اللَّه تعالى فلا يتوجّه عليه الأمر وإذا لم يتوجه عليه الأمر استحال عليه الاعتراض. ولهذه النكتة قلنا إنه لا يجوز عليه سبحانه حظر ولا وجوب. وقد نبّه اللَّه سبحانه وتعالى على هذا المعنى بقوله: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ﴾ [سورة القصص/ ٦٨] وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة القصص/ ٧٠] وقال سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ [سورة الأعراف/ ٥٤] وقال سبحانه وتعالى: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [سورة الأنبياء/ ٢٣].

نحن مأمورون باتباع أوامره تعالى واجتناب نواهيه وإن لم نعرف الحكمة منها، قال تعالى: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [سورة الأنبياء/ ٢٣] اللَّه تعالى لا يُسأل عما يفعل وهم أي العباد يُسألون، فلا يجوز أن نقيس اللَّه على أنفسنا، نحن نتصرف بما أذن به الشرع فإذا خرجنا عن ذلك الإذن تكون علينا مسؤوليّةٌ، أما هو فلا يتوجّه إليه أمرٌ، لا يقال كيف يعذّب اللَّه العصاة على المعاصي التي شاء وقوعها منهم باختيارهم، فمن قال هذا يعدّ معترضًا على اللَّه، والمعترض على اللَّه كافرٌ، فربّنا لا يُسأل عما يفعل. أما غير المؤمن فيقال له اللَّه يتصرّف في ملكه الذي هو يملكه حقيقةً لا مجازًا، فكيف يعترض عليه؟!.

وأما إذا أراد واحدٌ أن يفهم الحكمة ليردّ على المفسدين وليس إنكارًا فقال: لماذا شاء اللَّه كفر الكافرين وقد كتب أنهم يدخلون جهنم خالدين فيها فليس حرامًا.

صفتا القدرة والإرادة

قال المؤلف رحمه الله: والطاعات والمعاصي بقضاء الله تعالى وقدره، وعبادتُه بإرادته ومشيئته؛ فإن الطاعة مقدّرة من الله تعالى بقضائه وقدره، وكذا المعصية، والمعاصي مكوّنة مقدّرة بقضاء الله تعالى وقدره ومشيئته، لكنها ليست برضائه ومحبته ولا بأمره.

الشرح: أهل السنّة على أن «أفعال العباد كلها بإرادته ومشيئته وحكمه وقضائه وتقديره» أي أن أفعال العباد بإرادة الله حاصلةٌ أي بتخصيص الله تعالى لها بالوجود وهذا معنى الإرادة والمشيئة. ومعنى «وحكمه» أي حاصلةٌ بحكم الله والمراد بالحكم هنا الإرادة التكوينيّة ويقال إن الحكم هنا الخطاب التكوينيّ[1] وليس الخطاب التكليفيّ لأن الله تعالى لا يكلف العباد بمعاصيه ولا بالمباحات ومعنى «وقضائه» أي بخلقه أي أن أفعال العباد كلها بخلق الله وتكوينه حصلت. ولا يقال لو كان الكفر والمعصية بقضاء الله تعالى لوجب الرضا به لأن الرضا بالقضاء واجب واللازم باطل، لأن الرضا بالكفر كفر، أي فليسا بتقدير الله.

نقول في الجواب القضاء يأتي بمعنى الصفة ويأتي بمعنى المقضي فيجب على المكلف أن يرضى بالقضاء الذي هو صفة الله وأما المقضي فإن كان طاعة وجب الرضا به وإن كان معصية فلا يجب الرضا به بل يجب كراهيته.

قال الإمام أبو حنيفة رحمه الله في الفقه الأكبر[2]: «وهي أي أفعال العباد كلها بمشيئته وعلمه وقضائه وقدره والطاعات كلّها ما كانت واجبة بأمر الله تعالى وبمحبته وبرضائه وعلمه ومشيئته وقضائه وتقديره والمعاصي كلها بعلمه

---

(١) قال بعضهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة يس/ ٨٢] معناه أن دخول الأشياء في الوجود بخطاب الله التكويني، بقول الله في الأزل كن أي بالخطاب الأزلي المعبر عنه بكن.

(٢) **الفقه الأكبر** (ص/ ٤).

وقضائه وتقديره ومشيئته لا بمحبته ولا برضاه ولا بأمره» اهـ.

وقال في الفقه الأكبر[1]: «وهو الذي قدّر الأشياء وقضاها ولا يكون في الدنيا ولا في الآخرة شيء إلا بمشيئته وعلمه وقضائه وقدره» اهـ

وقال الباقلانيّ: «فما يتصف به الله لا يتصف به الخلق، وما يتصف به الخلق لا يتصف به الله، وكما لا يقال لله إنه يكتسب كذلك لا يقال للعبد إنه يخلق» اهـ.

قال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [سورة النحل/ ٣٦] اهـ. اعلم أن في اختلاف أحوال الخلق دليلا على كمال قدرته ونفاذ مشيئته لأن في اختلاف أحوالهم مزيد معرفة للعباد بكمال قدرة الصانع الحكيم، فيزدادون من خوفه وإجلاله.

الطاعة والمعصية مقدرة من الله تعالى:

دليله من القرءان قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [سورة القمر/ ٤٩] وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [سورة الفرقان/ ٢] و﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [سورة ءال عمران/ ١٦٦] أي بقضاء الله وقدره. وقوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [سورة الحديد/ ٢٢]. وقوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [سورة الأنبياء/ ٣٥]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ [سورة الرعد/ ١١]. وأما من الحديث فقد روى مسلم[2]: «**كل شيء بقدرٍ حتى العجز والكيس**» أي البلادة والذكاء. وأما من العقل فإن فعل العبد ممكن من الممكنات العقليّة وكل ممكن مقدور له تعالى ففعل العبد مقدوره ولا يحصل شيء من مقدوره إلا بإيجاده لأن قدرته عامّة كما أن إرادته

---

(١) **شرح الفقه الأكبر** (ص/ ٧٢-٧٤).

(٢) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب القدر: باب كل شيء بقدر.

عامّة شاملة ولو قصرت قدرته عن بعض الممكنات لكان ذلك بمانعٍ غالبٍ ولا يجوز أن يمنع اللَّهَ شيءٌ بل هو غالب على أمره.

دليل ءاخر: إنه لما ثبت أنه مريد لكل كائن دخل في الوجود – لأن المصحّح لتعلق إرادته بالخير والطاعة إنما هو إمكانها والإمكان مشترك بين الجميع – وجب أن يكون شائيًا للممكنات كلّها وهو المطلوب. وثبت أنه خالقٌ لجميعها خيرها وشرها.

دليل ءاخر: إنه لو كان فعل العبد بخلق العبد لكان عالِمًا به على وجه الإحاطة ضرورة أنه مختار والاختيار فرع العلم لكنه لا يحيط علمًا بفعله؛ لما يجد كل عاقل عدم علمه حال قطعه لمسافة معيّنة بالأجزاء والأحياز والحركات التي بين المبدَإِ والمنتهى وكذا حالة نطقه بالحروف يجد كل عاقل من نفسه عدم العلم بالأعضاء التي هي ءالتها والمحالّ التي فيها مواقعها وعدم العلم بهيئاتها وأوضاعها وكل ذلك ظاهر.

دليل ءاخر: لو كان فعل العبد مخلوقًا بقدرته لزم اجتماع مؤثّرين حقيقيين على أثر واحد وهو محال لما يلزم عليه من اجتماع النقيضين وهو الاستغناء وعدم الاستغناء. وبيان الملازمة أن فعل العبد ممكن وكلّ ممكن واقع بقدرة الله تعالى ضرورة أن الإمكان هو المحوج للمرجّح المعيّن، لأن غير المعيّن لا تحقق له، والإمكان معقول واحد في جميع الممكنات فيلزم افتقار جميع الممكنات إلى ذلك المرجح المعيّن، وإلا لزم الترجيح بلا مرجّح ولا جائز أن يكون ذلك المرجح ممكنًا وإلا لزم التسلسل فيه فيكون واجب الوجود هو صانع العالم فيكون، جميع الممكنات واقعة بقدرته فلو كان فعل العبد واقعًا بقدرته –أي العبد– لزم المحال المذكور فثبت المطلوب.

دليل ءاخر: لو جاز أن يكون فعل العبد واقعًا مخلوقًا بقدرته لجاز أن يكون الجواهر وسائر الأعراض بقدرته وذلك باطل بالاتفاق بيننا وبين المعتزلة. فيكون وقوع فعل العبد بخلقه باطلًا محالًا. وبيان الملازمة أن المحوج لفعل

العبد إلى مرجّح هو الإمكان والحدوث، وكلٌّ منهما حقيقة واحدة في جميع الممكنات.

فإذا وضح ذلك لزم القول بأن أفعال العباد مستندة في بروزها من العدم إلى قدرة الله، وذلك لا يخرجها عن كونها مقدورة للعباد على وجه الكسب، بل الله تعالى خلق قدرة العبد الحادثة ومقدوره جميعًا وإرادته ومراده جميعًا فالحركة خلقٌ لله وكسبٌ للعبد.

فإن قال المعتزليّ: إن ذلك جبرٌ منافٍ للتكليف. قلنا: لا يكون ذلك جبرًا محضًا والعبد يدرك بالضرورة التفرقة الضروريّة بين الحركة المقدورة والرعدة الضروريّة، وكيف يكون خلقًا للعبد وهو لا يحيط علمًا بتفاصيل الحركات المكتسبة وأعدادها.

فإذا بطل الطرفان لم يبق إلا الأخذ بالأمر بين الأمرين والاقتصاد في الاعتقاد لا جبرٌ محضٌ ولا اعتزال. وهو أن فعل العبد مخلوق بقدرة الله ومكتسب للعبد بمعنًى دون الخلق أي الإحداث من العدم. فمذهب أهل الحق خَرَجَ من بين فرث ودم لبنًا خالصًا سائغا للشاربين.

قال الزركشيّ[1]: «وهو من لوازم القول بخلق الأفعال كلها. وهي مسألة القضاء والقدر التي لا يتمّ الإيمان إلا بها ويعتقد أن كل شيء من الطاعة والعصيان والنفع والضرّ بخلق الله وإرادته، خلافًا للمعتزلة فإنهم يعتقدون أن الأمر مستأنفٌ بمشيئة العبد مستقلٌّ به من غير سبق قضاء وقدر، ولذلك قيل لهم القدرية لأنهم نفوا القدر عن الله وأثبتوه لأنفسهم. وجاء في الحديث «**القدرية مجوس هذه الأمة**»[2] يعني أنهم يجعلون أنفسهم مستبدين بالفعل والله

---

(١) **تشنيف المسامع** (٤/ ٩٢-٩٣).

(٢) رواه أبو داود في **سننه**: كتاب السنة: باب القدر. وللحديث طرق أخرى منها حديث أنس عند الطبراني في **الأوسط** (٤/ ٤٦٤)، قال الهيثمي في **مجمع الزوائد**=

تعالى فاعل وهم فاعلون لا يسندون أفعال العباد إلى قدر الله فكأنهم يثبتون خالقِين في الحقيقة كما أثبت المجوس خالقَين خالق الخير وخالق الشر».

وقد التزم الأستاذ أبو إسحاق ظاهر الخبر فقال: «لا تنكح نساؤهم ولا تؤكل ذبائحهم وفي قتل الواحد منهم دية مجوسي». حكاه عنه الآمديّ في «الأبكار»[1].

وقد ألجمهم الشافعيّ حيث قال: «القدرية إذا سلموا العلم خصموا» اهـ، وإذا سلموا أن الله تعالى علم أن زيدًا يموت وليس بقادر على الكفر إلا بما خلق له من القدرة فأيّ صلاح في خلق ما هو السبب المؤدي إلى الكفر. وكذلك خلقه في نفسه لأنه تعالى لو شاء لم يخلقه فأيّ صلاح له في خلقه.

فعندنا أن الله تعالى مالك الخير ومالك الشر، ولا خالق للخير والشر من أعمال العباد إلا الله، ليس العباد يخلقونه ولا النور ولا الظلمة يخلقان ذلك كما قالت المانويّة وهم قوم يقولون: النور والظلمة قديمان أزليّان ثم تمازجا فحدث عن النور الخير وعن الظلمة الشر وقد كذّبهم المتنبي الشاعر في قوله:

وَكَمْ لِظَلَامِ اللَّيْلِ عِنْدِيَ مِنْ يَدٍ تُخَبِّرُ أَنَّ الْمَانَوِيَّةَ تَكْذِب

أكلوا من لحمها ثم غدت حية والأمر ما فيه خفا

واعلم أنّ خلق الله للمعصية لا يقبح منه كما لا يقبح منه خلق القبيح من الأشخاص، ولا يقبح منه أيضًا مشيئة القبيح بخلاف العبد فإن مشيئة القبيح منه قبيحة، لأن الله لا يتصور منه ظلمٌ ولا سفهٌ إذ لا يتوجه إليه أمرٌ ولا نهي من غيره بل هو الآمر الناهي، لا ءامر ولا ناهي له إذ لا مالك حقيقيّ غيره، ولا

= (٧/ ٢٠٥): «رجاله رجال الصحيح غير هارون بن موسى الفردي وهو ثقة»، وحسّنه الحافظ السيوطي في **اللآلئ** (١/ ٢٥٩) بعد أن ذكر طرقه.

(١) **أبكار الأفكار** (٥/ ٩٨).

يخلو تصرّفه من الحكمة إذ لا تخفى عليه العواقب. ويقال لمن قال لا يخلق الله الأعمال وإنما يخلق الأجساد فقط يلزم من قولكم أن يكون مخلوق العبد أكثر من مخلوق الله بمرّات كثيرة لأن أعمال العباد أكثر من أجسادهم.

تنبيه:

قال الخطابيّ[1]: «يتوهّم كثير من الناس أن معنى القدر من الله والقضاء منه الإجبار والقهر للعبد على ما قضاه وقدّره وليس كذلك وإنما معناه الإخبار عن تقدم علم الله بما يكون من أفعال العباد واكتسابها وصدورها عن تقدير منه وخلقه لها خيرها وشرّها» اهـ.

المعاصي مكونة بقضاء الله، لكنها ليست برضائه ومحبته ولا بأمره:

إيمان المؤمنين وطاعاتهم وكفر الكافرين كلٌّ بخلق الله تعالى ومشيئته، إلا أن الخير والإيمان والطاعة بخلق الله ومشيئته ورضاه، والشر أي الكفر والمعاصي بخلق الله تحصل من العباد لا برضاه بل نهاهم عن ذلك، والله سبحانه وتعالى فعّال لما يريد لا يُسأل عما يفعل. ولا يجوز قياس الخالق على الخلق كالذي يقول كيف يكون خالق الشرّ فينا ثم يحاسبنا في الآخرة على الشر، فقد قاس الخالق على الخلق وذلك ضلال بعيد، لا يتمّ أمر الدين إلا بالتسليم لله فمن سلّم لله سَلِمَ، ومن ترك التسليم له فاعترض لم يَسْلَمْ.

فإن قيل أليس الله تبارك وتعالى قال: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ [سورة ءال عمران/ ٢٦] اقتصر على ذكر الخير ولم يقل والشر فكيف يجوز أن يقال إنه خالق الخير والشر، فالجواب: في مواضع أخرى من القرءان ما يفيد أن الله تعالى خالق كلّ شيء، والشيء يشمل الخير والشر قال الله تبارك وتعالى لنبيّه محمد: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [سورة ءال عمران/ ٢٦]

(١) معالم السنن (٤/ ٢٩٧).

فعلمنا من قوله تعالى: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ أنه هو خالق الخير والشر لأنه هو الذي ءاتى، أي أعطى الملك للمُلوك الكَفَرَة كفرعون والملوك المؤمنين كذي القرنين، فليس في ترك ذكر الشر مع الخير في قوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ دليل على أن الله تعالى ليس خالقًا للشر، وهذا عند علماء البيان يسمى الاكتفاء أي ترك ذكر الشيء للعلم بما يقابله.

وأما قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [سورة النساء/ ٧٩] فأحسن ما قيل فيه أنه محكيٌّ عن المشركين بتقدير محذوف وهو: «يقولون» فيكون التقدير: يقولون لمحمد ما أصابك من حسنة أي نعمة فمن الله وما أصابك من سيئة أي مصيبة فمنك يا محمد أي من شؤمك، وقرره علماء منهم السيوطي الشافعي والقونوي الحنفي[1].

تنبيه:

قد يطلق القدر على المقدور كما يطلق بمعنى التقدير. فالأوّل هو المراد بالقدر في الحديث المروي عن عمر عن النبيّ ﷺ المعروف بحديث جبريل[2]: «**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره**» لأن المقدور هو الذي ينقسم إلى الخير والشر لا تقديره تعالى فالقدر قد يطلق على ما صدر مقدّرًا عن فعل القادر كالهدم والقبض اسم لما صدر عن فعل الهادم والقابض. ويقال: قدرت الشيء بتخفيف الدال وتشديدها بمعنى واحد فافهم ذلك رحمك الله بتوفيقه.

قال المؤلف رحمه الله: وما أراد الله أن يكون كان بلا محالة، طاعة كان أو معصية، وهذا معنى قولنا: «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن».

الشرح: أن الله شاء كل ما يحصل من العباد من خير أو شرّ، فالله تعالى يحبّ

---

(١) **القلائد في شرح العقائد** (ص/ ٢٩٩-٣٠٠).

(٢) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب الإيمان: باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان.

من أعمال العباد الحسنات ويكره المعاصي وكلٌّ دخل في الوجود بتخصيص الله تعالى لولا تخصيص الله تعالى للحسنات بالوجود ما وجدت، وكذلك الكفريّات والمعاصي لولا تخصيص الله تعالى لها بالوجود ما وجدت. وليس خلق القبيح قبيحًا من الله، وإرادة وجود القبيح ليس قبيحًا من الله إنما القبيح فعله، وإرادته من الخلق قبيحٌ، كما أن خلقه للخنزير ليس قبيحا إنما الخنزير قبيحٌ لما فيه من الصفات القبيحة.

روى البيهقيّ في مناقب الشافعي بإسناده إلى الربيع[1] المرادي: سئل الشافعي عن القدر فقال:

مَـا شِـئْتَ كَانَ وَإِنْ لَمْ أَشَـأْ ... وَمَـا شِـئْتُ إِنْ لَمْ تَشَـأْ لَمْ يَكُـنْ

خَلَقْـتَ الْعِبَـادَ عَلَى مَـا عَلِمْتَ ... فَفِـي الْعِلْمِ يَجْرِي الْفَتَى وَالْمُسِـن

عـلى ذا مَنَنْـتَ وهـذا خذَلْـتَ ... وهـذا أعَنْـتَ وذا لم تُعِـنْ

فمِنهُـم شـقِيٌّ ومنهـم سـعِيدٌ ... وهـذا قَبِيـحٌ وهـذا حسَـنْ

يقول الشافعي رضي الله عنه مخاطبًا الله تبارك وتعالى: «ما شئت»، أي يا ربنا «كان» أي ما سبقت به[2] مشيئتك في الأزل لا بدّ أن يوجد. «وإن لم أشأ» أي وإن لم أشأ أنا أي أنا العبد حصوله، لأن مشيئة الله نافذة لا تتغير، والمعنى أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله فهي مخلوقة حادثة، فكلُّ مشيئة في العباد حصلت فإنما حصلت فينا لأن الله تعالى شاء في الأزل أن نشاء فتنفذت مشيئة الله تعالى فينا أن نشاء. وقوله: «**وما شئت إن لم تشأ لم يكن**» معناه إن أنا شئت حصول شيءٍ بمشيئتي الحادثة إن أنت يا ربي لم تشأ حصوله بمشيئتك الأزليّة لا يحصل.

---

(١) **مناقب الشافعي** (١/ ٤١٢-٤١٣).

(٢) أي ما شئت وجوده في الأزل.

ومعنى قوله رضي الله عنه: «خلقت العباد على ما علمت»، معناه أن الله تبارك وتعالى يبرز عباده من العدم إلى الوجود على حسب ما سبق في علمه الأزليّ لا على خلاف علمه الأزليّ، لأن تخلُّف العلم في حقّ الله تعالى مستحيلٌ يجب تنزيه الله عنه. وقوله: «**ففي العلم يجري الفتى والمسن**»، في هذا الكلام حكمةٌ كبيرةٌ، أي أن سعي الفتى أي الشاب والمسن أي العجوز كلٌّ سعيه في علم الله تبارك وتعالى أي لا يخرج عن علم الله، هذا الفتى الذي هو ذو قُوَّةٍ ونشاط، وهذا المسن الذي هو ذو عجز وضعف كلّ منهما لا يحصل شيء منه من الحركات والسكنات والنوايا والقصود والإدراكات إلا على حسب علم الله الأزليّ.

قال رضي الله عنه: «على ذا مننت وهذا خذلت» أي هذا مننت عليه أي وفقته للإيمان والهدى والصلاح وعلو القدر في الإيمان. ومعنى توفيق الله لعبده أن يجعله يصرفُ قدرتَه واختياره إلى الخير. ومعنى: «وهذا خذلت»، أي وهذا ما وفقته فلم يهتد للحقّ ولم يقبل الحقّ، ومعنى خذلان الله لعبده أن يجعله يصرفُ قدرتَه واختياره للشر. وقال: «وهذا أعنت وذا لم تعن»، أي هذا أعنته على الأعمال التي ترضيك، والآخر ما أعنته على ما يرضيك.

وليس معنى قول الشافعي: «وهذا أعنت وذا لم تعن» أن الله لا يعين على الشرّ بل يعين على الخير فقط، فأهل السنّة متفقون على أن الله هو المعين على الخير وهو المعين على الشرّ، والإعانة التمكين أي أن الله هو الذي يمكن العبد لفعل الخير وهو الذي يمكنه لفعل الشر، صرح بذلك إمام الحرمين وأبو سعيد المتولّي قبله والشيخ محمد الباقر النقشبنديّ والأمير الكبير المالكيّ صاحب المجموع.

قال رضي الله عنه: «فمنهم شقيٌّ ومنهم سعيد، وهذا قبيح وهذا حسن». المعنى أن من شاء الله له أن يكون شقيًّا أي من أهل العذاب الأليم كان كذلك، ومن شاء الله له أن يكون سعيدًا من أهل النعيم المقيم كان كذلك.

وروى الحافظ أبو نعيم[1] عن ابن أخي الزهريّ عن عمه الزهريّ أن عمر بن الخطاب كان يحبّ قصيدة لبيد بن ربيعة التي منها هذه الأبيات:

إِنَّ تَقْـوَى رَبِّنَـا خَـيْرُ نَفَـلْ وَبِـإِذْنِ اللَّهِ رَيْـثِي وَعَجَـلْ

أَحْمَـدُ اللَّهَ فَـلا نِـدَّ لَـهُ بِيَدَيْـهِ الْخَـيْرُ مَـا شَـاءَ فَعَـلْ

مَـنْ هَـدَاهُ سُـبُلَ الْخَـيْرِ اهْتَدَى نَاعِـمَ الْبَـالِ وَمَـنْ شَـاءَ أَضَلْ

معنى قوله: «**إن تقوى ربنا خير نفل**» أي أن تقوى الله خير ما يؤتاه الإنسان وخير ما يعطاه، والتقوى كلمة خفيفةٌ على اللسان لكنها ثقيلةٌ في العمل، لأنها أداء ما افترض الله على العباد واجتناب ما حرّم عليهم، وهذا أمر ثقيل. وقوله: «**وبإذن الله ريثي وعجل**»، معناه أنه لا يُبْطِئ مبطئ ولا يُسْرِعُ مُسرعٌ إلا بمشيئة الله وبإذنه. أي أن الله تبارك وتعالى هو الذي يخلق في العبد القوّة والنشاط للخير، وهو الذي يخلق فيه الكسل والتواني عن الخير، أي أن الخير والشرّ اللذَين يحصلان من الخلق كلٌّ بخلق الله تعالى ومشيئته.

معنى قوله: «**أحمد الله فلا ندّ له**» أي لا مثل له. وقوله: «**بيديه الخير ما شاء فعل**»، أي أن الله تعالى مالك الخير ومالك الشرّ لا خالق للخير والشرّ من أعمال العباد إلا الله، أي ما أراد الله حصوله لا بدّ أن يحصل وما أراد أن لا يحصل فلا يحصل.

معنى قوله: «**من هداه سبل الخير اهتدى**» أي من شاء له في الأزل أن يكون مهتديًا على الصراط الصحيح المستقيم فلا بدّ أن يكون مهتديًا، أي على دين الله تبارك وتعالى وعلى تقواه.

وقوله: «**ناعم البال ومن شاء أضلّ**» أي مُطمَئِنّ البال للإيمان بالله تعالى وبما جاء عن رسوله ﷺ. الله تبارك وتعالى من شاء في الأزل أن يكون ضالًّا

---

(١) **حلية الأولياء** (٣/ ٣٦٩-٣٧٠).

أضلّه، أي خلق فيه الضلال، وهذا الكلام من أصول العقائد التي كان عليها الصحابة ومن تبعهم بإحسان. فمن شاء الله له الهداية لا بدّ أن يهتدي، الله يلهمه الإيمان والتُّقى فيهتدي باختياره لا مجبورًا، وأما من شاء الله تعالى في الأزل أن يكون على خلاف ذلك، أي أن يكون ضالًّا كافرًا أضلّه الله تبارك وتعالى أي جعله كافرًا، فيختار هذا العبد الكفر. فلِما في هذه الأبيات من التوحيد الخالص كان يُعجب بهنّ عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه، فلتُحفظ فإنهنّ من جواهر العلم في أصول العقيدة.

ومن جملة الأدلة الدالة على أن الله شاء حصول المعاصي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [سورة مريم/ ٣٨] أي تُغريهم وتَدفعهم إلى المعاصي وتُشهّيهم فعلها، هذا دليلٌ لأهل السنّة ونقضٌ لعقيدة المعتزلة القائلين بأن الله ما أراد وقوع المعاصي من خلقه إنما هم خلقوها بمشيئتهم وإرادتهم، وقد قال بعض العلماء: «لو شاء الله أن لا يُعصى ما خلق إبليس»، قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [سورة النور/ ٤٠].

قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [سورة التكوير/ ٢٩] وكلّ شيء يجري بمشيئة الله تعالى وعلمه وقضائه وقدره، غلبت مشيئته المشيئات كلَّها، يفعل ما يشاء وهو غير ظالم أبدا.

ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن:

قد ورد أن النبيّ ﷺ علَّم بعض بناته: «**ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن**» رواه أبو داود في السنن[1] ثم تواتر واستفاض بين أفراد الأمة. فمعنى «**ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن**» أي ما شاء الله في الأزل حصوله سواء كان خيرًا أو شرًّا، طاعة أو معصية، كفرًا أو إيمانًا لا بد أن يحصل، وما لم يشأ الله تعالى حصوله لا يحصل، لأن مشيئة الله لا تتخلف، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا

(١) رواه أبو داود في سننه: كتاب الأدب: باب ما يقول إذا أصبح.

يُرِيدُ ﴾ [سورة هود/ ١٠٧] لا يعجزه شيء ولا يمانعه أحد.

والمعتزلة أنكروا إرادة الله تعالى للشرور والقبائح التي تحصل من العباد حتى قالوا إنه أراد من الكافر والفاسق إيمانه وطاعته لا كفره ومعصيته، زعمًا منهم أن إرادة القبيح منه قبيحة كما أنها منا قبيحة. وجواب أهل الحقّ منع ذلك قالوا: «بل القبيح كسب القبيح والاتصاف به وهذا وصف العبد».

قالت المعتزلة ظلم العباد كائن منهم بلا شك فهو ليس مرادًا لله تعالى بدليل قوله تعالى: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [سورة فصلت/ ٤٦]. وجوابنا عن ذلك أنه تعالى نفى إرادته أن يظلم هو العباد ولم ينف مشيئته ظلم العباد أنفسهم أي ليس المنفيّ في الآية إرادة ظلم بعضهم بعضًا ومشيئته ذلك فإنه مشيء له ومراد.

وأما تمسّكهم بقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ [سورة الزمر/ ٧]، وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ [سورة البقرة/ ٢٠٥] فالجواب أنه لا تلازم بين الرضى والمحبة وبين الإرادة كما أن الواحد منا قد يريد ما يكره تعاطيه لبشاعة طعمه أو مرارته.

قالت المعتزلة: إنكم قلتم إن الله أراد الظلم من العبد ثم يعاقبه عليه في الآخرة وذلك ظلم. نقول في الجواب: إن مشيئته لما يقع من العباد من ظلم بعضهم بعضًا ثم عقابهم على ذلك في الآخرة لا يكون منه ظلمًا، بخلاف العباد فإن مشيئتهم الظلم يكون منهم قبيحًا لأنهم منهيُّون عنه مأمورون بتركه، ولا يتصوّر في فعله تعالى ما هو منهيّ عنه إذ لا يتصوّر له ناهٍ وليس له ءامرٌ، ولأن العالم خَلْقُه وملكُه والمتصرف في ملكه الذي هو خلقه يستحيل وصفه بالظلم وأيضًا فلا يتصوّر الظلم إلا ممن يتصوّر في حقّه الجهل، لأنه وضع الشيء في غير موضعه. وأما من أحاط علمه بالأشياء ومواقعها فلا. والمخالف في هذه المسألة القدريّة أي المعتزلة قالوا: إن القديم يصحّ منه الظلم لكن لا يظلم لكونه قبيحًا.

وحاصل الجواب في هذه المسألة أن الله تعالى هو المالك الحقيقيّ للعباد فلذلك له عليهم الأمر والنهي فيتصوّر منهم الظلم فظلمهم مخالفة أمرِه ونهيِه، وأما هو فلا أحد يستحقّ عليه الأمر والنهي فلا يتصوّر منه الظلم إذا عاقبهم على مخالفة أمرِه ونهيِه. ولا يقاس الله الذي هو مالك كلّ شيء بالعبد الذي إنما يملك ما ملّكه الله وحدّد له التصرف على حسب ما أذن له به فإذا جاوز ذلك الحدّ استحقّ العقوبة. كيف يقاس المالك الحقيقيّ على عبد هو وما يملكه ملك له هيهات هيهات. وقد روى الإمام الشافعيّ والحافظ ابن عساكر[1] عن عبد الله ابن جعفر عن علي رضي الله عنه أنه قال للسائل عن القدر «سِرُّ اللَّهُ فلا تتكلَّف» فلما أَلَحَّ عليه قال له «أما إذ أبيت فإنه أمر بين أمرين لا جبرٌ ولا تفويضٌ» اهـ.

فائدة: قال الإمام أبو منصور الماتريديّ[2]: «وقال أبو حنيفة رحمه الله: «بيننا وبين القدرية الكلام في حرفين أن نسألهم هل علم الله ما يكون أبدًا على ما يكون؟ فإن قالوا لا، كفروا؛ لأنهم جهّلوا ربّهم. وإن قالوا نعم، قيل شاء أن ينفذ علمه كما علم أو لا؟ فإن قالوا لا، قالوا بأن الله شاء أن يكون جاهلًا ومن شاء ذلك فليس بحكيم. وإن قالوا نعم، أقرُّوا بأنه شاء أن يكون كلّ شيء كما علم أن يكون».

ثم قال[3]: «فإن قال قائل إذا قَبُحَ الأمر بالمعاصي لم لا يقبح إرادة كونها». قيل: «لأوجهٍ أحدها التناقض في الأمر وليس ذلك في الإرادة لأن الفعل ربما يصير للأمر فمحال الأمر بالمعصية لأنه يصير بالأمر طاعةً فيبطل معنى المعصية بهذا الأمر، وليست الإرادة كذلك ألا يرى أن كلّ فاعلٍ مختار مريدٌ لفعله ومحال أن يقال أمر نفسه بفعله فثبت أنهما مختلفان ولا قوة إلا بالله.

---

(١) **مناقب الشافعي** (١/ ٤١٧)، تاريخ دمشق (٥١/ ١٨٢-١٨٣).

(٢) **التوحيد** (ص/ ٣٠٣).

(٣) **التوحيد** (ص/ ٣٠٤).

وأيضًا إن الله يوصف بالإرادة في فعله ومحال أن يكون عليه أمر فيه فثبت أن أحد الوجهين ليس هو دليل الآخر» اهـ.

وقد حُكِيَ عن عمرو بن عبيد[1] وهو أحد زعماء المعتزلة القدماء أنه قال ما ألزمني أحد مثل ما ألزمني مجوسي كان معي في السفينة فقلت له لم لا تسلم فقال لأن الله تعالى لم يرد إسلامي فإذا أراد الله تعالى إسلامي أسلمت فقلت للمجوسي إن الله تعالى يريد إسلامك ولكن الشياطين لا يتركونك فقال المجوسي فأنا أكون مع الغالب.

وحكي أيضًا أن القاضي عبد الجبار الهَمدَاني[2] وهو أيضًا من رؤوس المعتزلة دخل على الصاحب ابن عباد وعنده الأستاذ أبو إسحاق الأسفراييني[3] فلما رأى الأستاذ قال: «سبحان من تنزّه عن الفحشاء». فقال الأستاذ على الفور: «سبحان من لا يجري في ملكه إلا ما يشاء». فقال عبد الجبار: «أَيُحِبُّ ربنا أن يعصى؟». فقال الأستاذ: «أيعصى ربنا قهرًا». فقال عبد الجبار: «أرأيت إن منعني الهدى وقضى عليَّ بالردى أحسن إليّ أم أساء؟». فقال أبو إسحاق: «إن منعك ما هو لك فقد أساء وإلا فهو يفعل في ملكه ما يشاء» فسكت عبد الجبار وانقطع[4].

قال المؤلف رحمه الله: وإن أمره لنا بالطاعة وإرادته موافقة لعلمه ولأمره ونهيه، فمن هداه الله تعالى خلق الله فيه فعل الاهتداء، ومن لم يهده لم يهتد، وكل ذلك بمشيئة الله تعالى، كما قال ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [سورة فاطر/٨].

---

(١) هو أبو عثمان عمرو بن عبيد البصري المعتزلي، كان يرى رأي القدر ويدعو إليه، مات سنة ١٤٢هـ.

(٢) هو القاضي عبد الجبار مات سنة ٤١٤هـ، أكبر شيوخ الاعتزال في عصره. كان له كتاب يسمى **المعتمد**، أكبر كتاب ألف في الاعزال.

(٣) كان أشعريا من الرؤوس.

(٤) **عيون المناظرات** (ص/ ٢٥٥-٢٥٦).

الشرح: قال بعض العلماء: القدر هو تدبير الأشياء على وجهٍ مطابقٍ لعلم الله الأزليّ ومشيئته الأزليّة فيوجِدها في الوقت الذي علم أنها تكون فيه فيدخل في ذلك عمل العبد الخير والشر باختياره. ويدلّ عليه قول رسول الله ﷺ إلى جبريل حين سأله عن الإيمان: «**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشرّه**» رواه مسلم[1]. ومعناه أن المخلوقات التي قدرها الله تعالى وفيها الخير والشرّ وجدت بتقدير الله الأزليّ، وأما تقدير الله الذي هو صفة ذاته فهو لا يوصف بالشرّ بل تقدير الله للشر الكفر والمعصية وتقديره للإيمان والطاعة حسنٌ منه ليس قبيحًا، فإرادة الله تعالى نافذةٌ في جميع مراداته على حسب علمه بها، فما علم كونه أراد كونه في الوقت الذي يكون فيه، وما علم أنه لا يكون لم يرد أن يكون، فلا يحدث في العالم شيء إلا بمشيئته ولا يصيب العبد شيءٌ من الخير أو الشرّ أو الصحة أو المرض أو الفقر أو الغنى أو غير ذلك إلا بمشيئة الله تعالى، ولا يُخطئ العبد شيء قدَّر الله وشاء أن يصيبه.

ومشيئة الله لا تتغيّر فهي ليست كمشيئة العباد. العباد مشيئتُهم حادثة مخلوقة لله، نحن تحدث لنا مشيئة بعد مشيئة، وإرادة بعد إرادة وهذا دليل الحدوث. فلو شاء العبد شيئا ولم يشأ الله حصوله لا يحصل مهما بذل الجهد في سبيل تنفيذه. عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشي لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف**»[2]. فالله تعالى شاء حصول الخير وشاء حصول الشر، لكنه أَمَرَ بالخير والطاعات ويرضى بها ولا يأمر بالشرّ والكفر لكن لا يحصلان إلا بمشيئته تعالى وإرادته، ولو لم يشأ الله حصول الكفر والمعاصي لما خلق إبليس، ولو كان الشرّ يحصل بغير مشيئة الله للزم من ذلك اتصافه بالعجز

---

(١) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب الإيمان: باب معرفة الإيمان والإسلام.

(٢) رواه أحمد في **مسنده** (٤/ ٤١٠).

وهذا نقص والنقص محال على الخالق. الله سبحانه وتعالى يعلم بعلمه الأزليّ ما هو كائن وما سيكون وما لم يكن أن لو كان كيف يكون، فعلمه تعالى شامل للأشياء جملة وتفصيلا، لا يخفي عليه من ذلك صغيرة ولا كبيرة حتى أهل الجنة ونعيمهم وأهل النار وعذابهم كلّ ذلك يعلمه الله بعلمه الأزلي.

قال تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [سورة فاطر/ ٨] فالضمير في يشاء راجع إلى الله، وذلك لما ثبت عندهم من البرهان العقليّ مع النقل على أن الله تعالى هو خالق أفعال العباد وأنهم لا يخلقون، والمعتزلة يمنعون ذلك بناء على أن العبد عندهم خالق وأن الهداية لا يصحّ أن تنسب إلى الحقّ إلا بمعنى أنه أعان عليها بخلق القدرة وأن الله لا يضلّ أحدًا وأنه لو أضلّه لظلمه، وإنما الضالّ هو من أضلّ نفسه. والكتاب والسنّة مشحونان بالردّ عليهم. قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [سورة القصص/ ٥٦]، أي يا محمد أنت لا تستطيع أن تخلق الاهتداء في قلب من أحببت اهتداءَه فمن أحببت اهتداءَه لا تهديه ما لم يشأ الله أن يهتدي، وقال تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ﴾ [سورة الجاثية/ ٢٣] وقال تعالى: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ [سورة البقرة/ ١٨] قال الأئمة: سدّ عليهم أبواب الهداية فإن الهدى يدخل إلى العبد من ثلاثة أبواب بما يسمعه بأذنه أو يراه بعينه أو يعقله بقلبه. وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا﴾ [سورة الكهف/ ٢٨] والمعتزلة يتأوّلون ذلك على أنه يهدي ويضلّ بفعل الألطاف أو منعها، ثم إذا قيل لهم: منع الألطاف إما أن يوجب الضلال فيلزمكم المحذور كما لو كان هو الخالق له أو لا يوجبه فلا يؤثّر، قالوا: منع اللطف واسطة بين ما ذكرتم وهو أنه مرجّحٌ للضلال غير موجب له وإنما الموجب له اختيار العبد وفعله. وحينئذٍ يقال لهم: الموجِب له على قولكم فعل المكلّف وحده أو مع منع اللطف؟ الأوّل باطل لأنه إنما فعل شيئًا يرجح وقوعه فاستحال استقلاله به بعد ذلك فتعيَّن الثاني وهو أن الموجب فعل العبد مع منع اللطف فيلزمكم إيقاع المقدور بين قادرين مستقلَّينِ.

قال الزركشّي[1]: «ومِن غريب ما وقع في الآية الأخيرة أن الزمخشريّ لما رءاها قاصمةً لأصله قال قد قطع الله وهم المجبرة بقوله: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [سورة الكهف/ ٢٨] يعني لما عطف بالواو ولم يعطف بالفاء وهو يعني بالمجبرة أهل السنّة وهو في هذا متابع لابن جنّي فإنه ذكره في كتابه «المحتسب» وقال بأنّ المطاوعة لا تكون إلا بالفاء نحو كسرته فانكسر قال: ومن هذا يتبيَّن في قوله تعالى: ﴿أَغۡفَلۡنَا﴾ [سورة الكهف/ ٢٨] أن المراد صادفنا قلبه غافلًا كما يقال أبخلته وأجبنته وليس المعنى جعلناه غافلًا وإلا لقيل فاتبع هواه بالفاء، ونحن نقول قطع الله وهم القدريّة بقوله: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ﴾ [سورة الكهف/ ٢٨] وبما تلوناه من الآي، والمعنى ولا تطع شقيًّا خلقنا له الإعراض واتبع هو هواه بالإغفال، فالإضلال من الله واتباع الهوى من العبد، ونقول لابن جنّي والزمخشريّ ليس اتباع الهوى مطاوعًا لأغفلنا بل المطاوع لأغفلنا غفل، وإن فعل المطاوعة لا يجب عطفه بالفاء» اهـ.

فائدة:

استدلّ أهل الحقّ بقوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞ﴾ [سورة البقرة/ ٧] على إبطال دعوى المعتزلة أن الضلال يخلقه العبد لنفسه، بناءً على تفسيرهم «الختم» بإعراض الكفار عن قبول الحق بوجوهٍ:

أحدها: دليل الوحدانيّة لله لاقتضائه أن لا حادث إلا بقدرة الله. فامتناع الذين ختم الله على قلوبهم عن قبول الحقّ من جملة الحوادث فوجب انتظامه في سلك متعلّقات القدرة العامة التعلق بجميع الممكنات.

والثاني: أن فيه مخالفة الدليل النقليّ كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [سورة الزمر/ ٢٦] وقوله تعالى: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ [سورة فاطر/ ٣] يفهم من الآيتين إضافة الخلق إلى الله تعالى وحده والآية السابقة فيها إسناد

---

(١) تشنيف المسامع (٤/ ١٦٢-١٦٣).

الختم إلى الله، وهذا موافق لما أثبتناه من الدليل العقلي فوجب إبقاء قوله تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴾ [سورة البقرة/ ٧] على ظاهره، بل لو وردت ءاية على خلاف ذلك ظاهرًا لوجب تأويلها بالدليل العقليّ جمعًا بين العقل والنقل.

والثالث: أن فيه الفرار من نسبة ما اعتقدوه تنزيهًا لله على زعمهم عما ظنُّوا أنه نسبةٌ للظلم إليه فوقعوا في القول بأن الشيطان يخلق الختم والكافر يخلقه لنفسه.

قال البيهقيّ[1] في قوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ [سورة الأنعام/ ١٢٥]: «وهذه الآية كما هي حجّةٌ في الهداية والإضلال فهي حجّةٌ في خلق الهداية والضلال لأنه قال يشرح ويجعل» اهـ.

والرابع: أن فيه الغلط باعتقاد أن جميع ما يقبح من العبد فعله يقبح من الله خلقه قالوا فلما كان المنع من قبول الحق قبيحًا في الشاهد أي بالنسبة للعبد كان قبيحًا بالنسبة إلى الله.

والخامس: أن فيه اعتقاد أن ذلك لو فرض وجوده بقدرة الله تعالى لكان ظلمًا وهو منزّه عنه، فيقال لهم: «ومن الظلم الجهل بحقيقة الظلم». وفيه أنهم فَرُّوا من اعتقاد نسبة الظلم إلى الله فتورَّطوا فيه إلى أعناقهم لأنهم قالوا لو كان امتناعهم عن قبول الحقّ بخلق الله تعالى لكان ظلمًا، فيقال لهم وقد قام البرهان على أنه بخلق الله.

فإن قالوا كيف يخلق فيهم الامتناع عن قبول الحقّ ثم يعاقبهم على ذلك أليس هذا قبيحًا في حقّ العباد أن يعاقب أحدهم غيره على ما لم يعمله؟ قيل لهم ويقبح أيضًا في حقّ العبد أن يُمَكِّن خادمه من القبائح والفواحش بمرأى منه

---

(١) شعب الإيمان (١/ ٢٠٨).

ومسمعٍ ثم يعاقبه مع القدرة على ردعه ومنعه من الأوّل، وأنتم معاشر القدريّة تزعمون أن القدرة التي بها يخلق العبد الفواحش لنفسه مخلوقة لله على علم منه عزّ وجلّ أن العبد يخلق بها لنفسه ذلك، فهو على هذا بمثابة إعطاء سيف باترٍ لفاجرٍ يعلم أنه يقطع به السبيل ويسبي به الحريم وذلك من العبد قبيح جزمًا. فسيقولون أجل إنه لقبيح منه ولكن هناك حكمةٌ استأثر الله بعلمها فرقت بين العبد وبين الله فحسن من الله تمكين عبده من الفواحش مع القدرة على أن لا يقع منه شيء وليس ذلك بحسن من العبد.

وفي هذا الموطن تتزلزل أقدامهم وتتنكَّس أعلامهم؛ إذ لاحت لهم قواطع البراهين فيقال: ما المانع أن تكون تلك الأفعال مخلوقة لله تعالى، ويعاقب العبد عليها لمصلحة وحكمة استأثر الله بها، أليس كان السلامة لكم التسليم من الابتداء إلى خالقكم وتلقِّي حجّة الله عليكم بالقبول؟! فإن نازعَتْ أَحَدَكُمْ النفس، وحادثته الهواجس، ورغب في مستند من حيث النظر يأنس به من مفاوز الفكر فَلْيُخْطِرْ بباله ما عُلِمَ عند كلّ عاقل من التمييز بين الحركة الاختياريّة والقَسْرِيَّة فلا يجد عنده في هذه التفرقة ريبًا. قاله بعض المالكية.

تنبيه:

الأمور على أربعة أقسام:

الأوّل: شيء شاءه الله وأمر به: وهو إيمان المؤمنين وطاعة الطائعين.

والثاني: شيء شاءه الله ولم يأمر به: وهو عصيان العصاة وكفر الكافرين، إلا أن الله لا يحبّ الكفر مع أنه خلقه بمشيئته ولا يرضاه لعباده، قال تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [سورة الزمر/ ٧].

الثالث: أمرٌ لم يشأه الله وأمر به: وهو الإيمان بالنسبة للكافرين الذين علم الله أنهم يموتون على الكفر أمروا بالإيمان ولم يشأه لهم.

الرابع: أمرٌ لم يشأه ولم يأمر به: وهو الكفر بالنسبة للأنبياء والملائكة.

كيف يأمر بما لم يشأ وقوعه؟ فالجواب: أنه قد يأمر بما لم يشأ، كما أنه علم بوقوع شيءٍ من العبد ونهاه عن فعله.

والحاصل أن كل ما وقع من العباد من أعمالهم حسنها وقبيحها إنما وقع ووجد بمشيئة الله في الأزل. لا فرق بين ما كان من أعمالهم الاختياريّة أو غير الاختياريّة. فمن شاء الله له السعادة في الأزل لا بد أن يختار الإيمان فيسعد بفضل الله وعونه ومن شاء الله له الشقاوة فلا بد أن يكفر باختياره فيشقَى، فمن قال إن الله شاء السعادة لجميع خلقه فخالف بعض العباد مشيئته فضلّوا على رغم مشيئة الله فقد كفر لأنه جعل الله مغلوبًا حيث لم تتنفّذ مشيئته فيهم، ولأنه خالف قول الله تعالى ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [سورة السجدة/ ١٣] وقوله تعالى ﴿ وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [سورة المائدة/ ٤١] وقوله تعالى في سورة ءال عمران ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [سورة ءال عمران/ ١٧٦].

الأمر غير المشيئة:

من الدليل على أن الأمر غير المشيئة أن الله أمر إبراهيم بالوحي المنامي أن يذبح ابنه ومنام الأنبياء حقٌّ ووحيٌ من الله لكن ما شاء الله أن يذبح إسماعيل بل فُدِيَ إسماعيل بذبحٍ عظيم أي بكبشٍ جاء به جبريل من الجنة. فمن هنا يعلم فساد قول بعضهم: «كلّه بأمره»، لأن معنى قولهم هذا أن كلّ ما يقع من العباد من خير وشرّ فهو بأمر الله وهذا تكذيبٌ للشرع، وإنما الذي يصح قوله: «**كلّ ما يجري فهو يجري بمشيئته وعلمه وتقديره**»، وأما قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ [سورة الإسراء/ ١٦] فقد فسّر أهل العلم ﴿ أَمَرْنَا ﴾ في هذه الآية بكثّرنا، أي نكثّرهم فيصيرون أقوياء فيفسقون ويكفرون ويخرجون عن طاعة الله فيهلكهم، هذا في

الأمم الماضية ظهر تأويله بقوم لوط وقوم هودٍ وقوم صالحٍ وغيرهم، كثروا فكثرت فيهم النعمة ثم فجروا وضلُّوا فأهلكهم الله، أما بعد بعثة الرسول محمد ﷺ فإنه لا ينقطع الإسلام في أمّته، مهما حصل لا بدّ أن يوجد صالحون وفسّاق مع ما يقاسون من اضطهادٍ من المنحرفين وإيذاء ومعارضاتٍ، الله تعالى برحمته يثبتهم على الحقّ فلا ينزل هلاكًا عامًّا كهلاك أولئك الأمم السابقة بعد سيدنا محمد ﷺ. وقال بعض العلماء: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أي بالطاعة ﴿فَفَسَقُوا﴾ أي فخالفوا، وهذا التفسير لا بأس به لكن التفسير الأوّل أحسن.

المخالفون بنوا أصولهم في التعديل والتجويز على عقولهم العاجزة عن درك الربوبيّة ففسد عليهم النظر، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾ ومعنى كره في الآية أنه ما أراد انبعاثهم، فالله تعالى يحبّ الطاعة لكن ما أراد للعاصي حصولها منه. وهذا معنى ما اتفق عليه أهل السنّة أن الله تعالى شاء وقوع المعاصي من العاصين وهو لا يحبُّها فالمحبّة ليست ملازمة للإرادة لأن الله تعالى أمر الكافرين بالإيمان ولم يحصل منهم وهو يحبّ أن لو ءامنوا.

قال المؤلف رحمه الله: والله تعالى يُعطي العبد كما يُريدُ كان فيه صلاحُ العبدِ أو فسادُه، وغايةُ صلاح العبد ليست بواجبة على الله تعالى، بل إن كان فيه صلاح كان منه إحسانًا وتفضُّلًا، وإن لم يكن ذلك كان منه عدلًا، فله الفضل والحمد.

الشرح: الله تعالى فعال لما يريد، هو خالقنا وخالق أفعالنا يتصرف بنا كما يشاء لا يُسأل عما يفعل والعباد يُسألون، روى أبو داود في سننه[1] والإمام أحمد في مسنده[2] عن ابن الديلميّ عن زيد بن ثابت عن رسول الله ﷺ: «**إن الله**

(١) رواه أبو داود في **سننه**: كتاب السنة: باب في القدر.

(٢) رواه أحمد في **مسنده** (٥/ ١٨٩).

لو عذب أهل أرضه وسمواته لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم كانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم». فالله تعالى لا يجب عليه شيء هذه عقيدة أهل السنّة والجماعة. الله تعالى يهدي من يشاء من عباده إلى طاعته ويعصمه أي يحفظه عن معاصيه ويعافيه في دينه ونفسه فضلًا منه تعالى لا لأنه مُلْزَمٌ بذلك، ويضلّ من يشاء من عباده ويخذله أي يترك حفظه ونصرته ويبتليه في نفسه ودينه عدلًا منه تعالى لا ظلمًا وجورًا فعلم بذلك بطلان مذهب المعتزلة وهو قولهم إنه تعالى ملزَمٌ بما هو الأصلح للعباد فإن الله سبحانه له الحقّ أن يتصرف فيهم كيف يشاء لأن العالم ملكه إذ هو المالك الحقيقيّ له فله أن يتصرف في مملوكه كيفما يريد، فإن الظلم هو مخالفة أمر ونهي من له الأمرُ والنهيُ وربنا عزّ وجلّ لا ءامرَ له ولا ناهيَ فلا يتصوّر منه ظلم سبحانه. قال الغزنويّ في شرحه على الطحاوية: «فمن أراد منه الإيمان فهو بفضله لا باستحقاق ومن أراد كفره فهو بعدله لا يكون ظالِمًا، لأن الظلمَ هو التصرّف في غير ملكه وهو متصرّف في ملكه لا يُسأل عما يفعل» اهـ.

وقد خالفت المعتزلة في ذلك فقال البغداديّون كابن مبشر والكعبيّ والخياط وغيرهم إنه يجب على الله تعالى ما هو الأصلح لعباده في الدين والدنيا، وقال البصريّون منهم كواصل بن عطاء وعمرو بن عبيد والنظّام والجاحظ والجبّائيّ إنه يجب على الله تعالى ما هو الأصلح لعباده في الدين فقط.

قال محمد بن يوسف السنوسيّ رحمه الله تعالى في شرح العقيدة الوسطى ردًّا عليهم: «إنه تعالى لو وجب عليه ما فيه صلاحٌ لعبده لما كلّف أحدًا من خلقه بأمرٍ ولا نهيٍ ولما خلق لهم محنةً في الدنيا من الأمراض والأحزان والجوع والعُرْيِ وذوق غصص الموت وفراق الأحبة ونحو ذلك مما هو كثير، ولا في الآخرة من أهوال القبر والموقف والصراط والميزان والعرض للحساب على الله تعالى وأنواع عذاب النار التي لا حصر لها إذ لا خفاء أن الأصلح للعباد أن يخلقهم الله تعالى في الجنة ابتداءً بلا سبق محنةٍ قبلها أصلًا.

فإن قال المعتزلة: بل الأصلح للعباد التكليف والابتلاء بالشدائد والمحن ليعظم ثوابهم ويفوزوا بسبب ذلك بأعلى الدرجات. قلنا لهم: لا خفاء أن مولانا جلّ وعزّ قادرٌ على أن يتفضّل على جميع العباد بأعلى الدرجات وأفضل المنازل ابتداءً بلا محنة تكليفٍ ولا غيره ولا ينقص ذلك من ملكه شيئًا ويتنزّه جلّ وعزّ ويتقدّس عن الحاجة إلى شيء من الأشياء حتى يعوّض عنه، ويتعالى أن يتوقّف فعله على غرض من الأغراض. ثم نقول لهم لا خفاء أن الأصلح في من علم الله تعالى من العباد أنه لا يؤمن ويموت على الكفر أن لا يكلفهم أصلًا إذ التكليف في حقّهم لا يفيدهم إلا العقوبة، ثم الأصلح بعد تكليفهم أن يوفّقهم حتى لا يقع منهم جرائم ولا كفرٌ أصلًا لأنه قادرٌ على ذلك لقوله تعالى في سورة السجدة: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [سورة السجدة/ ١٣]، ثم الأصلح بعد وقوع الجرائم والكفران أن يعفو عنهم ويسامحهم فإن تَحَتُّمَ العقوبةِ والتخليد في أليم العذاب وخسارةَ كلّ خيرٍ والعذاب الشديد الدائم في مقابلة معصيةٍ، أي كبيرةٍ لم يتب منها وقعت من العبد الضعيف المغلوب بالشهوات والدواعي التي لا يملك دفعها في زمنٍ واحدٍ بالنسبة إلى من هو الغنيُّ الغِنَى المطلق عن العباد وعن جميع أعمالهم ولا يتضرّر بشيء منها غير جارٍ على مسلك الناس وعوائدهم في ما يقبحونه ويحسنونه» اهـ.

ثم لو كان واجبًا على الله فعل الأصلح للعباد، لكان فعله عزّ وجلّ على سبيل الوجوب، لا على سبيل الاختيار، لأن أصلح الأمور عندهم واجب صدوره عن الله، صار الله عندهم ملزما باختيار هذا الأصلح، وهذا مقتضاه نفي الاختيار، والله يقول: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [سورة القصص/ ٦٨].

فمقتضى قول المعتزلة أن تكون قدرة الله منتهيةً يعني ليس في قدرة الله ما هو أصلح منه، هو تعجيزٌ لله أن يفعل لعبد أصلح مما فعل، هذا وصف له بالعجز، ثم نردّ عليهم بأن شاهد الوجود يبطل قولهم، فإننا نجد إنسانا يُولد بين أبوين مسلمين يُعَرِّفانه الإيمان ويعلمانه محبةَ الله ورسوله منذ الصغر.

وإنسانا ءاخر يُولد بين كافرين يعلِّمانه بغضَ الله ورسوله منذ الصغر فينشأ هذا محبًّا لله وهذا مبغضًا لله، هذا وُلد في دار الإسلام بين مسلمين إذا أطاع الله شجعوه وحمدوه وإذا ترك طاعة الله نصحوه ونهوه عن المنكر، وذاك إذا لم يفعل الكفر والحرام لاموه، منهم من يلومه أبواه إذا لم يذهب يوم الأحد للكنيسة فينشأ هذا على حال وهذا على حال، وكلّ مؤمن يُقِرُّ بأن الله تفضَّل على الأوّل وتلطَّف به بلطائفَ لم يتلطف بها على الثاني، فيقول المؤمن الحمد لله الذي هداني حتى يقول في الجنة مع أهلها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [سورة الأعراف/ ٤٣].

فيلزم المعتزلة أنهم يقولون الله ترك ما هو واجب عليه أو أنه فعل الأصلح لهذا وهذا فيكون حال الكُفر الذي تَرَبَّى عليه الكافر أصلح حال له فكيف يعذبه بعد ذلك! كلام المعتزلة ساقط، من أسقط ما يكون.

يقول المعتزليّ: لو أنني أتيت باثنين وأردت منهما أن يتسابقا والذي يسبق منهما يربح والذي لم يسبق يخسر يقولون لو أعطى الأوّل حصانًا والآخر حمارًا زمنًا وقال لهما تسابقا فسبق من معه الخيل يقولون فهذا الذي ينظم المسابقة يكون ظالِمًا سفيهًا، لأنه أعطى للأوّل فرصة الربح، فقال المعتزلة فلا بد أن يكون الله أعطى خلقه نفس الشيء حتى لا يكون مائلًا لبعض خلقه عن البعض الآخر وحتى لا يكون سفيهًا، يقال لهم ما هي النبوّة!!! أليست تمييزًا لهم عن غيرهم، أليس هذا بفضل الله عليهم، كيف يقيسون فعل الله على فعل الخلق!

قال التفتازانيّ[1] في الرد على المعتزلة القائلين بوجوب الأصلح: «وإلا لما خلق - أي الله - الكافر الفقير المعذّب في الدنيا والآخرة ولما كان له منّة على العباد واستحقاق شكر في الهداية وإفاضة أنواع الخيرات لكونها أداءً للواجب ولما كان امتنانه على النبيّ ﷺ فوق امتنانه على أبي جهل إذ فعل الله

(١) **شرح العقائد** (ص/ ١٣١).

لكلٍّ منهما غاية مقدوره من الأصلح له -أي فيما يدّعي المعتزلة-، ولما كان لسؤال العصمة والتوفيق وكشف الضراء والبسط في الخصب والرخاء معنًى لأنّ ما لم يفعله في حقّ كلّ واحدٍ فهو مفسدة له يجب على الله تركه - أي عندهم واجب على الله أن يفعل بكلّ شخص ما هو الأصلح له -، ولما بقي في قدرة الله بالنسبة إلى مصالح العباد شيء إذ قد أتى بالواجب ولَعمري إن مفاسد هذا الأصل أعني وجوب الأصلح بل أكثر أصول المعتزلة أظهر من أن تخفى وأكثر من أن يحصى وذلك لقصور نظرهم في المعارف الإلهية ورسوخ قياس الغائب على الشاهد في طباعهم» اهـ، وهذا تقريبٌ وبيان مقالاتهم وبيان السخافة التي اتصفوا بها.

ثم قال التفتازانيّ[1]: «وغاية تشبثهم في ذلك أن ترك الأصلح يكون بُخلا وسفهًا» اهـ وأجاب أهل الحق عن هذه الشبهة بأن هذا لا يكون بخلًا من الله وسفهًا لأنه حكيم في أفعاله ثم ليست كلّ حكمة تظهر لعباده بل منها ما يدركونه ومنها ما لا يدركونه هذا معنى ما أورده التفتازانيّ في ردّ شبهتهم، ونصه في الجواب الذي أورده[2]: «إن منع ما يكون حقَّ المانع الذي قد ثبت بالأدلّة القاطعة كَرَمُهُ وحكمته ولطفه وعلمه بالعواقب يكون محضَ عدل وحكمة له» اهـ أي أن هذا المنع يكون في حقّه محض العدل والحكمة وليس من السفه والبخل.

ثم قال التفتازانيّ[3]: «ثم لَيْتَ شِعري ما معنى وجوب الشيء على الله تعالى إذ ليس معناه استحقاق تاركه الذمّ وهو ظاهر ولا لزوم صدوره عنه بحيث لا يتمكن من الترك بناء على استلزامه محالا من سفه أو جهل أو عبث أو بخل أو نحو ذلك لأنه رفضٌ لقاعدة الاختيار وميلٌ إلى الفلسفة الظاهرة العوار» اهـ.

---

(١) **شرح العقائد** (ص/ ١٣١).

(٢) **المصدر السابق**.

(٣) **المصدر السابق** (ص/ ١٣٢).

وقد ذكر تاج الدين السبكيّ في «طبقاته»[1] عن أبي الحسن الأشعريّ أنه ناظر أبا عليٍّ الجبّائيّ[2] فقال له الأشعريّ: «ما قولك في ثلاثة مؤمن وكافر وصبي»، فقال الجبائي: «المؤمن من أهل الدرجات والكافر من أهل الهلكات والصبي من أهل النجاة»، فقال الأشعريّ: «فإن أراد الصبي أن يرقى إلى أهل الدرجات هل يمكن؟» فقال الجبائي: «لا، يقال له إن المؤمن إنما نال هذه الدرجة بالطاعة وليس لك مثلها»، فقال الأشعريّ: «فإن قال – أي الصبي – التقصير ليس مني فلو أَحْيَيْتَنِي كنت عملت من الطاعات كعمل المؤمن»، قال الجبّائي: «يقول له الله: كنت أعلم أنك لو بقيت لعصيت ولعوقبت فراعيت مصلحتك وأَمَتُّكَ قبل أن تنتهي إلى سنِّ التكليف»، فقال له الأشعريّ رضي الله عنه: «فلو قال الكافر يا ربّ علمت حاله كما علمت حالي فهلّا راعيت مصلحتي مثله» فانقطع الجبّائيّ» اهـ.

قال المؤلف رحمه الله: ومقدور الله تعالى لا نهاية له، وله في قدرته لطف عامٌّ، والطاعةُ والإيمانُ توفيقٌ من الله بمعونته سبحانه وتعالى، وكذلك المعاصي والكفرُ فهي بقضائه وقدره.

الشرح: أراد الإمام الرفاعيّ رحمه الله تعالى الردّ على من قال إن مقدورات الله تتناهى كأبي هُذَيْلٍ وغيره، وقد ذكر أبو المظفر الأسفراييني[3] أن أبا هذيل قال: «إذا انتهت مقدوراته لا يقدر على شيء ولا يقدر أن يقدر عبده على شيء، وإذا دخل ذلك الوقت فَني نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار، حتى لا يقدر البارئ سبحانه وتعالى عندهم على أن يزيد في نعيم أهل الجنة ذرّة ولا أن يزيد في عذاب أهل النار ذرّة. وتفنى قدرة أهل الجنة حتى لو كان قد مَدَّ واحد من

---

(١) **طبقات الشافعية** (٢/ ٢٥٠).

(٢) هو أبو علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي أحد زعماء المعتزلة، مات ببغداد سنة ٣٠٣هـ.

(٣) **التبصير في الدين** (ص/ ٢٥٣).

أهل الجنة يده إلى شيء من ثمارها ودخل تلك الحالة لم يقدر البارئ تعالى أن يوصل تلك الثمرة إلى يده ولا على أن يقدر العبد على أن يُوصل يده إليها. وأهل الجنة كلُّهم يبقون همودا جمودا ساكنين لا يقدرون على حركة ولا على نطق وينقطع عذاب أهل النار في ذلك الوقت». وهذا قول يبطل الرغبة والرهبة ويهدم فائدة الوعد والوعيد.

والذي نقوله نحن أهل السنّة والجماعة هو أن مقدورات الله لا تتناهى ومعنى عدم تناهي المقدورات عدم وقوفها عند حدٍّ فما من مقدور إلا ويتصوّر وراءه مقدور ءاخر إذ لا يمكن تناهي الجائزات في التصور وليس الموجود من المقدورات إلا قدرًا متناهيًا.

فائدة:

قد تقدَّم الردُّ على الفلاسفة القائلين بحوادث لا أوّل لها، فيحسن في الكلام عن مقدورات الله أن نذكر شبهتهم والرد عليها. تقول الفلاسفة ما ألزمتمونا من استحالة وجود حوادث لا نهاية لها يلزمكم مثله في نعيم الجنة إذ قلتم إن حوادث نعيمها ومتجددات أفراحها وسرورها لا نهاية له.

الجواب: أن يقال لهم لبَّستم بلفظ مشتركٍ وهو لفظ «حوادث لا نهاية لها» فإنها تطلق على وجهين. الأوّل: بمعنى لا نهاية لها بحسب المبدأ أي حوادث لا أوّل لها. والثاني: بمعنى لا نهاية لها بحسب الآخر أي حوادث لا ءاخر لها والذي قلتم به ورددنا عليه الأوّل وفيه وُجدت أدلة الاستحالة وانعدم فيه دليل الجواز. وأما ما قلناه في نعيم الجنة من الحوادث فهو من القسم الثاني أي الحوادث التي فيها لا ءاخر لها بمعنى أنها لا تنقطع أبدًا وأما كلّ ما وُجد منها فيما مضى إلى زمن الحال فهو متناهٍ له مبدأٌ ومنتهًى، فلم يلزم فيه الجمع بين الفراغ وعدم النهاية المتناقضين ولا غيره من أنواع الاستحالة كما لزم فيما ادّعيتم، وليس من حقيقة الحادث أن يكون له ءاخر ومن حقيقته أن يكون له أوّل.

والآن سنضرب لما ادّعوه من بطلان حوادث لا أوّل لها ولما ادّعيناه من

صحة حوادث لا ءاخر لها مثالَينِ يَستَبِينُ بهما أمر الاستحالة فيما ادّعوه وأمر الجواز فيما ادّعيناه. فمثلوا الأوّل بملتزم قال لا أعطي فلانًا في اليوم الفلانيّ درهمًا حتى أعطيه درهمًا قبله ولا أعطيه درهمًا قبله حتى أعطيه درهمًا قبله وهكذا لا إلى أوّل، فمن المعلوم ضرورة أن إعطاء الدرهم الموعود به في اليوم الفلانيّ محال لتوقفه على محال وهو فراغ ما لا نهاية له بالإعطاء شيئًا بعد شيء، ولا ريب أن ما ادعوه من حوادث لا أوّل لها مطابق لهذا المثال فإن إعطاء الفاعل للفلك مثلًا الحركة في زماننا هذا وفي غيره من الأزمان الماضية متوقّف على إعطائه قبله من الحركات شيئًا بعد شيء مما لا نهاية له، فالحركة للفلك في الزمان المعين نظيرُ الدرهم الموعود به في الزمن المخصوص والحركات التي لا تتناهى قبلها نظير الدراهم التي لا تتناهى قبل ذلك الدرهم فيكون وجود الحركة للفلك في هذا الزمان مثلًا مستحيلًا كما استحال وجود الدرهم الموعود به في الزمان المعين للشخص. ومثال ما ادعيناه في نعيم الجنة كما لو قال الملتزم لا أعطي فلانًا درهمًا في زمن إلا وأعطيه درهمًا بعده وهكذا لا إلى ءاخر فهذا لا ريب لعاقل في جوازه إذ حاصله التزام الملتزم عدم قطع العطاء بعد ابتدائه فهذا المثال لا تخفى مطابقته لما ادعيناه في نعيم الجنة للمؤمنين.

الطاعة توفيق من الله، والمعاصي بقضائه:

التوفيق خلقُ قدرةِ الطاعةِ ويقابله الخذلان، فمن خلق فيه قدرة الطاعة يقال فيه موفّق، ومن خلق فيه قدرة المعصية يقال فيه مخذولٌ، وليس معنى التوفيق مرادفًا للإعانة لأن الله تعالى يعين العباد على الخير والشرّ كما ذكر ذلكَ الإمام ابنُ فوركَ في جمعه «لمقالات الأشعريّ»[1] والإمام أبو سعيد المتولّي[2]

(١) **مقالات الأشعري** (ص/ ١٠٩).

(٢) **الغنية** (ص/ ١٣٤).

وإمام الحرمين في «إرشاده»[1] وغيرُهم فعلى هذا يقال الله أعان فلانًا على كذا إن كان ذلك الشيء خيرًا أو شرًّا، مَن أعانه الله على الخير أراد به خيرًا ومن أعانه على الشرّ أراد به شرًّا، الإنسان أوّل ما يولد لا يتكلم ثم إن نطق بخير فبعون الله وإن نطق بشرٍّ فبعون الله لكن لا يقال الله وفّقه إلا في الخير، فإذا قيل لشخصٍ وَفَّقَكَ الله معناه أعانك الله على عمل الخير.

وقد صحّ حديث: «**فمن وجد خيرًا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه**» رواه مسلم[2] من حديث أبي ذرّ عن النبيّ عن الله عزّ وجلّ. ومعناه من عمل الحسنات والطاعات وتجنب المعاصي فليحمد الله الذي وفقه لذلك، ومن وجد غير ذلك أي من كان عمله خلاف ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه، أي أن الله ليس ظالِمًا له ولكن هو ظلم نفسه، لا يقال لِمَ لَمْ يجعل كل العباد طائعين كالملائكة، لأنه يفعل ما يريد، فمن قال ذلك اعتراضًا على الله يكفر، أما إذا قال ذلك واحدٌ ليعرف الحكمة فلا يكفر.

أما الأوّل: وهو من وجد خيرًا فلأن الله تعالى متفضِّلٌ عليه بالإيجاد والتوفيق من غير وجوب عليه، فليحمد العبد ربه على تفضُّلِهِ عليه.

وأما الثاني: وهو من وجد شرًّا فلأنه تعالى أبرز بقدرته ما كان من ميل العبد السيئ فمن أضلّه الله فبعدله ومن هداه فبفضله.

من وفقه الله لفعل الخيرات فليحمد الله، وأما من خذله الله، أي الذي ابتلي بالمعاصي فلا يلومنّ إلا نفسه. والله أظهر من العبد الكافر ما سبق في علمِه الأزليّ أن هذا الإنسان مائلٌ إليه فقبل أن يفعل هذا العبد كان مستعدًّا والله أظهره.

لو أن الله خلق الخلق وأدخل فريقًا الجنة وفريقًا النار لسابق علمه أنهم لا

---

(١) **الإرشاد إلى قواطع الأدلة** (ص/ ١٧٩).

(٢) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب البر والصلة والآداب: باب تحريم الظلم.

يؤمنون لكان شأن المعذَّب منهم ما وصف الله بقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ [سورة طه/ ١٣٤] أي لو لم يبعث الله الرسل إلى عباده لِيُبَيِّنُوا لهم ما هو الخير وما هو الشرّ، ثم عاقبهم على عَمَلِهِم السوء لقالوا: لولا أرسلت إلينا رسولًا أي لِمَ لَمْ تُرسل إلينا رسولًا نتّبعه، فقطع الله عليهم العذر بأن أرسل الأنبياء، فالأنبياء وظيفتهم أن يُبيّنوا ما حرّم الله ويُبيّنوا ما هو فرضٌ على العباد مطلوبٌ منهم طلبًا جازمًا أن يفعلوه، هذا وظيفة الأنبياء، ثم الله لو لم يرسل رسلًا فعذّب من شاء لم يكن ظالِمًا لكنه أرسل الرسل فقطع العذر على الكافرين.

فمن اتقى الله فبتوفيق الله له ومن فسق وعصى فبخذلان الله له، وهو معنى «لا حول ولا قوة إلا بالله» أي لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله ولا قوة على طاعة الله إلا بعون الله. فالخير والشرّ والطاعة والمعصية والإيمان والكفر كلّها تحصل بمشيئة الله وعلمه وقضائه وقدره لكن الخير بمحبة الله وبرضاه وبأمره، والشرّ ليس بمحبة الله ولا برضاه ولا بأمره.

فكُفْرُ مَن كَفَرَ باختياره وإنكاره وجهله وإصراره وجحوده وعناده واستكباره، بخذلان الله تعالى بترك نصرته سبحانه إياه، وعدم توفيقه لما يرضاه وهو مقتضى عدله كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [سورة يونس/ ٤٤]. وآمن من ءامن باختياره وانقياده وإذعانه وإقراره بلسانه، وتصديقه بجنانه على وَفْقِ أمرِ الله ومراده، بتوفيق الله تعالى إيَّاه ونصرته له، أي فيما قدَّره وقضاه بمقتضى فضله كما قال الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [سورة غافر/ ٦١].

وهذا لا ينافي كونهما كافرًا ومؤمنًا في علم الله تعالى بحديث: «**فرغ ربكم من العباد فريق في الجنة وفريق في السعير**» رواه أحمد[1] فإن الحديث الجامع

(١) رواه أحمد في مسنده (١١/ ١٢٢).

المانع قوله ﷺ: «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**» رواه البخاريّ[1]. أخرج ذريَّة ءادم ﷺ طبقةً بعد طبقةً إلى يوم القيامة من صُلْبِهِ أوَّلًا ثم أخرج من أصلاب أبنائه وترائب بناته نسلهم على صور الذرّ. فجعلهم عقلاء فخاطبهم أي حين أشهدهم على أنفسهم بقوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [سورة الأعراف/ ١٧٢] وأمرهم بالإيمان والإحسان، ونهاهم عن الكفر والكفران. فأقرُّوا له بالربوبيَّة ولأنفسهم بالعبوديَّة حيث قالوا بلى، فكان ذلك منهم إيمانًا. فهم يولدون على تلك الفطرة يعني كما قال الله سبحانه: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [سورة الروم/ ٣٠] وكما قال ﷺ: «**كلّ مولود يولد على فطرة الإسلام فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه حتى يعرب عنه لسانه إما شاكرًا وإما كفورًا**» وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [سورة الإنسان/ ٣].

والحاصل أن عهد الميثاق ثابت بالكتاب وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [سورة الأعراف/ ٢٧١] الآية وبالسنّة وهو الحديث الثابت المرويُّ في «المصابيح» وغيره وتحقيقهما في كتب التفسير وشروح الحديث على ما بيَّناه في محلِّهما خلافا للمعتزلة وحيث حملوا الآية والحديث على المعنى المجازيّ كما دفعناه في موضعهما هذا.

فائدة:

حديث: «**كلّ مولودٍ يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**» رواه البخاريّ[2] فمعنى يولد على الفطرة أي يكون مستعدًّا متهيّئًا لقبول دين الإسلام، على الفطرة أي على فطرة الإسلام لأنهم يولدون على مقتضى اعترافهم وتوحيدهم الذي حصل يوم أخرجت الأرواح من ظهر ءادم بنعمان

---

(١) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب القدر: باب ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾.

(٢) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب الجنائز: باب ما قيل في أولاد المشركين.

الأراك ورُكِّبَ فيهم العقل وسُئِلُوا ألست بربكم قالوا: «بلى لا إله لنا غيرك»، اعترفوا كلّهم بألوهيّة الله. ثمّ لَمّا دخلت الروح في جسد الولد نسي هذا ويبقَى ناسيًا إلى أن يسمع من أبويه أو من غيرهما الإسلام فيعود إلى ما كان عليه أو يسمع من أبويه أو من غيرهما الكفر فيعتقده فيكون الآن كَفَرَ بالفعل. هذا معنى الحديث وليس معناه أن كلّ مولودٍ يعرف أوّل ما خرج من بطن أمّه الإسلام تفصيلًا فإنه أوّل ما يخرج من بطن أمه لا يعلم شيئًا وهو صريح الآية ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [سورة النّحل/ ٧٨].

صفات الله تعالى

قال المؤلف رحمه الله: والله تعالى قديم ليس لوجوده ابتداء، وباق ليس لبقائه انتهاء، حي لا بروح، عالم لا بقلب وفكرة، قادر لا بآلة، سميع لا بأذن، بصير لا بحدقة، متكلم لا بلسان، إله في الأزل.

الشرح: صفات الله تعالى التي يجب على كلّ مكلفٍ معرفتها بالإجماع ثلاث عشرة صفةً وهي على ثلاثة أقسام:

أحدها: يسمّى «صفةً نفسيةً» وهي الوجود وسمّيت كذلك لأن الذات لا يتحقّق بدونها. والوجود عين الموجود عند الإمام أبي الحسن والماتريديّة بمعنى أنها ليست صفةً زائدةً على الذات، وإنما قيل صفة الوجود لأن الذات يوصف بها في اللفظ فيقال موجودٌ.

والثاني: «صفات المعاني»، لأن كلًّا منها معنًى قائمٌ بذات الله، له وجودٌ زائدٌ على إثبات الأذهان له، بحيث يمكن رؤيته لو كشف الحجاب عن العبد. وهي القدرة والإرادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام والبقاء على خلافٍ في الأخيرة هل هي صفة معنًى أو لا.

والثالث: وهو الصفات الأربع الباقية وهي القِدم والوحدانيّة والقيام

بالنفس والمخالفة للحوادث وتسمّى «صفاتٍ سلبيةً» لأن كلًّا منها هو سلب نقصٍ، أي انتفاء نقصٍ عن الله تعالى. فالقدم هو انتفاء الحدوث، والوحدانيّة هي انتفاء الشريك، والقيام بالنفس هو انتفاء الحاجة، والمخالفة للحوادث هي انتفاء الشبيه والمثيل.

وقال جماعةٌ بأنه يجب معرفة عشرين صفةً فزادوا سبع صفاتٍ وهي: كونه تعالى قادرًا وكونه مريدًا وكونه عالِمًا وكونه حيًّا وكونه سميعًا وكونه بصيرًا وكونه متكلِّمًا، وسمّوها معنويّةً نسبة للمعنى، الذي هو واحد المعاني[1]. والحقّ أن هذا المذهب أي القول «بوجوب معرفة السبع المعنوية عينًا» ضعيفٌ، لأنه إن كان المقصود من تسميتها صفاتٍ والقولِ بوجوب معرفتها إثباتَ الأحوال فالحقّ نفيها والأولى عندئذٍ ترك دعوى وجوب معرفتها، وإن كان المقصود أن يعقل الشخص قيام صفات المعاني بالربّ عزّ وجلّ فهذا يحصل بمعرفة صفات المعاني فلا حاجة للتكرار. قال الدسوقيّ في حاشيته على أم البراهين: «إنّ هذه الصفات المعنوية السبع واجبةٌ له تعالى إجماعًا على القول بثبوت الحال وعلى القول بنفيها، والخلاف إنما هو في معنى قيامها بالذات العليّ فمن قال بنفي الحال قال معنى كونه عالِمًا مَثلًا هو قيام العلم به وليس هناك صفةٌ أخرى زائدةٌ على قيام العلم ثابتةٌ خارج الذهن، ومن قال بالحال قال معنى كونه عالِمًا صفةٌ أخرى زائدةٌ على قيام العلم بالذات، وهذه الصفة ليست موجودةً بالاستقلال ولا معدومةً عدمًا صرفًا بل هي واسطةٌ بين الموجود والمعدوم لم تبلغ درجة الوجود ولكنها ثابتةٌ لم تنحطّ لدرجة العدم» اهـ، والصحيح المعتمد نفي الأحوال وأنه لا واسطة بين الموجود والمعدوم وهو الذي ذهب إليه الإمام أبو الحسن الأشعريّ رحمه الله واعتمده المحققون ومنهم الإمام الطحاويّ.

فتبيَّن أن من قال من أهل السنّة بالصفات المعنويّة لم يرد ما ذهبت

---

(١) القاعدة أنه إذا أريدت النسبة لجمعٍ تنسب لمفرده، وإنما نسبت للمعاني لأنها لازمةٌ لها أي لأنها تابعةٌ لها في التعقّل.

إليه المعتزلة والفلاسفة لأنّ الفلاسفة والمعتزلة ومن تبعهم يقولون: «إنّ الله تعالى ليس له صفةٌ قائمةٌ بذاته»، أي ليس له علمٌ هو متصفٌ به ولا قدرةٌ هو متصفٌ بها ولا كلامٌ هو متصفٌ به، إنما هو عالمٌ لذاته حيٌّ لذاته متكلِّمٌ بمعنى خالق الكلام في غيره. فلا يقولون عالمٌ بعلمٍ أزليّ أبديّ ولا حيٌّ بحياةٍ أزليّة أبديّة ولا متكلمٌ بكلامٍ أزليّ أبديّ أي ولا إنه قادرٌ بقدرة ولا شاءٍ بمشيئةٍ أي مريدٌ بإرادةٍ وكذلك جميع الصفات هم لا يرون أنها صفاتٌ ثابتةٌ للذات المقدّس أزلًا وأبدًا فيثبتون لله تعالى أصل الصفة، أي فلا ينفون كونه عالِمًا مثلًا لكنهم ينفون زيادة الصفة أي ينفون قيام صفة علمٍ أزليّة أبديّة بذاته تعالى. ولأجل إثباتهم أصل الصفة لم يكفّرهم بعض العلماء في هذه المسألة، لكن من الظاهر أن قولهم بأن الله عالمٌ بغير علمٍ وقادرٌ بغير قدرةٍ هو في الحقيقة نفيٌ لكونه عالِمًا ولكونه قادرًا وهكذا في سائر الصفات كما شرحه الإمام أبو الحسن الأشعريّ فنُقل عنه في «المجرد» أنه قال: «لأن العلم بأن الله عالمٌ علمٌ بعلمه والعلم بأنه قادرٌ علمٌ بقدرته ولا ننكر أن يعلم علمه من لا يعلم قدرته أو يعلم قدرته من لا يعلم علمه ولكن الأمّة أجمعت على أنه لا يصحّ أن يكون المكلَّف مؤمنًا كافرًا في حالٍ والجهل بصفة الله تعالى كفرٌ كما أن العلم بصفاته إيمانٌ» اهـ.

إله في الأزل:

ربنا سبحانه وتعالى ليس بعد خلق الخلق استفاد اسم الخالق ولا بإحداثه البريَّة استفاد اسم البارئ، أي لم يتجدد لله تعالى صفة بإحداثه الخلق، فهو تبارك وتعالى خالقٌ قبل حدوث الخلق وبارئٌ قبل حدوث البريّة كما أنه قادر قبل وجود المقدورات أي المخلوقات.

وكذلك لا بد أن تعلم أن ربنا سبحانه وتعالى إله في الأزل والإله هو المعبود بحق. أما المشركون فأطلقوه على ما عبدوه من دون الله، قال الفيّومي في المصباح

المنير[1]: «الإله المعبود وهو الله سبحانه وتعالى ثم استعاره المشركون لما عبدوه من دون الله تعالى» اهـ.

وقال المبرّد: «الإله من له الإلهيّة والإلهيّة قدرة الإبداع والاختراع» اهـ فلا يجوز أن يقال الإله هو من يُعْبَدُ بحقّ أو بباطل، وقد عدّ الإمام أبو منصور البغداديّ «الإله» من أسماء الله الخاصّة[2] وكلّ هذا حجّةٌ على هؤلاء الذين يزعمون أن الإله معناه المعبود إن كان بحق أو بباطل، أما إذا قيّد فلا إشكال فإذا قيل للكفار هذا إلههم بمعنى هذا معبودهم لا بمعنى الموافقة لهم بل بمعنى الذمّ لهم فيجوز.

نقول الإله هو المعبود بحقّ، هو المستحق للعبادة، وليس معناه أنه المعبود مطلقا، بل هو المعبود بحقّ، ومن استعمله في حقّ غير الله فهذا تعدٍّ أي هذا متعدٍّ في الاستعمال لا العكس، أي ليس أن الإله هو المعبود مطلقا والمسلمون خصَّصوا الإله بالمعبود بحقّ! لا، الإله هو المعبود بحقٍّ، والمشركون تعدَّوْا في الاستعمال بناء على اعتقادهم الفاسد، اعتقدوا أن الأصنام هي معبودة بحقّ فسمَّوْها ءالهة. قد يأتي واحد ويقول أليس العرب أطلقوا الإله على غير الله فكيف تقولون الإله هو المعبود بحق فقط؟ قلنا ليس الأمر كذلك، المشركون سموها ءالهة لاعتقادهم أنها تُعبد من دون الله بحقّ! هكذا ظنوا فيها وهذا تعدٍّ في الاستعمال من حيث إنهم سموها بما لا تستحق أن تسمى به، وإلا فمن عرف الحقّ واعترف به قال «لا إله إلا الله»، امتنعوا عن تسميتها بالإله، لأنهم يقولون الإله هو المعبود بحق. وكلام الفيُّوميّ معناه المعبود بحقّ، ثم استعاره المشركون لما عبدوه من دون الله تعالى.

قال السيوطيّ في «نواهد الأبكار وشوارد الأفكار»: «قال الثعلبيّ وغيره عن

---

(١) المصباح المنير (ص/ ٨).

(٢) أصول الدين (ص/ ١٢٢).

الخليل: إن لفظتَي «الإله» و«الله» مخصوصان بالله تعالى»، فقول المصنف: «اسم يقع على كلّ معبود بحقّ أو باطل» ممنوع، بل لا يقع إلا على المعبود بحقّ، فما زال هذا الإطلاق مختصًّا بالله تعالى، ومن أطلقه على غيره حَكَمَ الله بكفره، وأرسل الرسل لدعائه إلى الحقّ، ورجوعه عن هذه الدعوى الباطلة. فإن قيل: الكلام في إطلاق اللفظ، لا في حكم الاعتقاد. قلنا: واللفظ لا يطلق إلا على ما قرَّرناه، وإطلاق الكَفَرَةِ لفظ «الإله» على معبوداتهم الباطلة نظير إطلاق النصارى على عيسى «الله». وقال الشيخ سعد الدين التفتازانيّ: «الإله اسم لمفهوم كُلِّيٍّ، هو المعبود بحقّ، و«الله» علم لذات معيَّن، هو المعبود بالحقّ». وبهذا الاعتبار كان قولنا: «لا إله إلا الله» كلمة التوحيد، أي لا معبود بحقّ إلا ذلك الواحد الحقّ.

ربنا سبحانه وتعالى إله في الأزل كما أنه خالق في الأزل وبارئ في الأزل. وليس الأمرُ كما زعم بعضهم من أنه ليس في الأزل خالقًا حقيقة، وإنما سمي خالقًا حقيقة بعد خلقه لا قبله. قال القونويّ: «فكما يصحّ وصفه بالقادر قبل حدوث هذه المقدورات كذلك يصح وصفه بالخالق قبل حدوث المخلوقات» اهـ، بل الصواب عند الماتريديّة أن الله تعالى متصف بالخالقية قبل أن يخلق خلقه كما هو متّصفٌ بذلك بعدما خلقهم، وكذلك يتصف بكونه محدثًا للبريّة قبل إحداثهم كما هو متصف بذلك بعد إحداثهم لكون صفاته قديمة. وأما عند الأشاعرة أي معظمهم فالفعل ليس أزليًّا لأنه عندهم ليس صفة قائمة بذات الله.

قال المؤلف رحمه الله: والحياة، والعلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والكلام، والخلق هو في التكوين صفات.

الشرح: قدَّمنا الكلام عن الصفات المعنويّة لأن المصنف قدمها. والآن سنتكلم عن الصفات الثلاثَ عشرةَ لأنه جرت عادة العلماء المؤلفين في العقيدة من المتأخرين على قولهم: إن الواجب العينيَّ المفروض على كلِّ مكلَّف، أي البالغ العاقل أن يعرف من صفات الله ثلاث عشرة صفةً. ولَمّا

كانت هذه الصفات ذِكْرُهَا كثيرًا في النصوص الشرعيّة قال العلماء: «يجب معرفتها وجوبا عينيًا». أي على كلّ مكلّف بعينه، ولا يجب حفظ ألفاظها على كلِّ مكلّف بل الواجب اعتقاد معانيها، كما نصَّ على ذلك الإمام أبو حنيفة[1] في «الفقه الأكبر»، والحافظ النوويّ في كتاب «المقاصد»[2]، ومحمّد بن يوسف السنوسيّ[3] وغيرهم، وهي:

١. **الوجود**: أي أن الله تعالى موجود. قال الله تعالى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [سورة إبراهيم/ ١٠].

٢. **الوحدانية**: أي أنه واحد لا شريك له قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [سورة الأنبياء/ ٢٢] أي لو كان لهما أي للسمٰوات والأرض ءالهة غير الله لفسدتا.

٣. **القدم**: أي أنه لا ابتداء لوجوده قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [سورة الحديد/ ٣].

٤. **البقاء**: أي أنه لا نهاية لوجوده لا يموت ولا يهلك ولا يتغير قال الله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [سورة الرحمن/ ٢٧] أي ذاته.

٥. **القيام بالنفس**: أي أنه مستغن عن كلِّ ما سواه وكلُّ ما سواه محتاجٌ إليه، فالعالم لا يَستغني عن الله طرفة عينٍ قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة ءال عمران/ ٩٧].

٦. **القدرة**: فالله قادر على كلِّ شيء أي كلِّ ممكنٍ عقليٍّ وهو ما يجوز عقلًا وجوده وعدمه، فالقدرة صفةٌ أزليّة لله تعالى بها يوجد ويعدم. قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة الملك/ ١].

---

(١) **الفقه الأكبر** بشرح ملا علي القاري (ص/ ٤٧ و٣٣).

(٢) **المقاصد** (ص/ ١٥).

(٣) **أم البراهين** (ص/ ٧٢-٧٣).

٧. **الإرادة**: أي المشيئة وهي تخصيص الممكن العقليّ ببعض ما يجوز عليه من الصفات دون بعض وبوقت دون ءاخر قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة التكوير/ ٢٩].

٨. **العلم**: أي أن الله يعلم كلَّ شيء بعلمه الأزليّ ولا يتجدد له علم، لأن علمه علم واحد شامل لكلِّ المعلومات يعلم به سبحانه ذاته وصفاته وما يحدثه من مخلوقاته يعلم ما كان وما يكون وما لا يكون أن لو كان كيف يكون. قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [سورة الطلاق/ ١٢].

٩. **السمع**: أي أن الله يسمع بسمعه الأزليّ الذي ليس كسمع غيره قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى/ ١١].

١٠. **البصر**: أي أن الله تعالى يرى برؤيته التي ليست كرؤية غيره قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

١١. **الحياة**: أي أن الله حيٌّ بحياةٍ أزليّة أبديّة ليست بروحٍ ولحم ودمٍ قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [سورة البقرة/ ٢٥٥].

١٢. **الكلام**: أي أنه سبحانه وتعالى متكلِّمٌ بكلام واحد أزليّ أبديّ ليس حرفًا ولا صوتًا ولا لغةً قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [سورة النساء/ ١٦٤].

١٣. **المخالفة للحوادث**: أي جميع المخلوقات أي أنه لا يشبه شيئًا من خلقه قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى/ ١١].

تنبيه:

لما كان ذات الله أزليًّا وجب أن تكون صفاته القائمة بذاته أزليّةً لأنه لو كان يحدث في ذات الله تعالى حوادث لوجب أن يكون ذاته حادثًا، لأن قيام الحوادث بذاته معناه أنه يتغيَّر من حالٍ إلى حال والمتغيّر لا يكون إلهًا. فلما

ثبت في العقل قدم الله تعالى وأزليته ثبوتًا قطعيًّا وجب أن تكون صفاته أزليّة، وصفات الله تعالى كلها كاملة، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [سورة الأعراف/ ١٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [سورة النحل/ ٦٠] فيستحيل في حقِّه أيّ نقص. أما صفات الخلق فهي حادثة تقبل التطوُّر من كمال إلى أكمل.

الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام:

قبل الكلام على هذه الصفات نثبت أن الله موجود وأنه لا بداية له ولا نهاية.

الوجود: الله تعالى موجودٌ أزلا وأبدًا فليس وجوده تعالى بإيجاد موجِدٍ. وقد استنكر بعض الناس قول «الله موجود» لكون موجود على وزن مفعول، والجواب أن مفعولا قد يطلق على من لم يقع عليه فعل الغير كما نقول «الله معبود». وهؤلاء ظَنُّوا بأنفسهم أن لهم نصيبًا من علم اللغة وليسوا كما ظنوا. قال الحافظ الفقيه اللغوي الكبير شارح القاموس السيد محمد مرتضى الزبيديّ في «شرح الإحياء» ما نصه[١]: «والبارئ تعالى موجود وكلُّ موجود يصحّ أن يرى» وذكره أيضًا في شرح القاموس[٢]. وقد ذكر الجوهريّ[٣] وغيره من اللغويين أن العرب قد تطلق لفظ المفعول بمعنى الفاعل في كلمات عديدة من ذلك: عُنِيَ بالشيء فهو مَعْنِيٌّ به أي معتن به، وزُهِيَ الرجل فهو مَزْهُوٌّ بمعنى تكبر فهو متكبر.

وقد نقل الإجماع على جواز تسمية الله موجودًا سعد الدين التفتازانيّ[٤]. وليَعلم هؤلاء المتهَوِّرُون أنهم خالفوا الإجماع، وما خالف الإجماع فهو باطل ولو

---

(١) **إتحاف السادة المتقين** (٢/ ١١٩).

(٢) **تاج العروس** (١٠/ ٤٤٤).

(٣) انظر **الصحاح** (٥/ ٢٣٧٠، ٢٤٤٠).

(٤) **شرح العقائد النسفية** (ص/ ٧٠).

هدوا لمعرفة الصواب لعلموا أن اللفظ الذي يعطي المعنى الذي لا يليق بالله هو: «مُوجَدٌ» بفتح الجيم اسم مفعول أَوْجَدَ يُوجِدُ. فالعالم مُوجَد بإيجاد الله والله موجِده بكسر الجيم.

القدم: يجب لله القدم بمعنى الأزليّة لا بمعنى تقادم العهد والزمن، لأن لفظ القديم والأزليّ إذا أطلقا على الله كان المعنى أنه لا بداية لوجوده، فيقال الله أزلي، الله قديم، وإذا أطلقا على المخلوق كانا بمعنى تقادم العهد والزمن، قال تعالى: في القمر: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾ [سورة يس/ ٣٩]، وقال صاحب القاموس الفيروزءابادي[1]: «الهرمان بناءان أزليان بمصر».

الدليل النقليّ على أن الله أزليّ ءايات منها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ﴾ وأما قوله تعالى في القمر: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾ فالعرجون[2] هو عذق النخل وهو شيء في أعلى النخل فإنه إذا مضى عليه زمانٌ يَيْبَسُ فَيَتَقَوَّسُ، فالقمر في ءاخره يصير بهيئة ذلك فهنا القديم جاء بمعنى الشيء الذي مضى عليه زمانٌ طويل.

وأمّا برهان قدمه تعالى فهو أنه لو لم يكن قديما للزم حدوثه فيفتقر إلى محدث فيلزم الدَّوْرُ أو التسلسل وكلٌّ منهما محالٌ، فثبت أن حدوثه تعالى محالٌ وقدمه ثابتٌ.

وأمّا الدَّوْرُ فمعناه: توقّفُ وجود الشيء على ما يتوقف وجوده عليه، كما لو قيل زيدٌ أوجده عمرو وعمرو أوجده بكرٌ وبكرٌ أوجده زيدٌ هذا، معناه فيه وَقْفُ وجود زيدٍ على وجود عمرو وعلى وجود بكرٍ وهذا شيء لا يقبله العقل، لأنه يؤدي إلى القول بأن هذا مخلوقٌ له أي مخلوقٌ لمخلوقه.

وأمّا التّسلسل فهو توقّفُ وجود شيءٍ على شيء يتوقّف وجوده على غيرِه

---

(١) **القاموس المحيط** (ص/ ١٥٠٩).

(٢) **القاموس المحيط** (ص/ ١٥٦٨).

وذلك وجوده يتوقّف على غيره وذلك يتوقف وجوده على غيره، أي كل هؤلاء خالقٌ لما يليه إلى غير انتهاء وهذا لا يقبله العقل.

أما القول بأن الإنسان وغيره خلقه الله، أما الله فلا ابتداء لوجوده فهذا الذي يقبله العقل، فإذا قلنا كلّ الأشياء ترجع في وجودها إلى موجودٍ لا ابتداء لوجوده هذا الذي يقبله العقل.

تنبيه:

إن قيل لم يَثبت أن «القديم» اسم لله تعالى قرءانًا ولا حديثًا وإن ورد في بعض الروايات[1] ذكره في تعداد أسماء الله بإسناد ضعيف. يقال إنه يكتفي لجواز وصف الله به بورود معناه في النص القرءاني قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ وكذلك الأزليّ لم يرد اسمًا لله تعالى لكنه مرادف للأوّل الوارد اسمًا لله تعالى وأجمعت الأمة على جواز إطلاقهما على الله فلا وجه للاعتراض في ذلك.

البقاء: لما ثبت وجوب القدم لله عقلًا وجب له البقاء لأنه لو أمكن أن يلحقه العدم لانتفى عنه القدم، وانتفاء القدم عنه مستحيل فانتفى عنه إمكان الفناء، ولو جاز عليه العدم كما يجوز على الحادثات لجاز عليه سائر ما يجوز عليها وما كان كذلك فهو حادث، والله هو الباقي الذي لا يجوز عليه الفناء فلا باقي لذاته إلا الله، كما أنه لا موجود بذاته إلا الله. وأما الجنة والنار فبقاؤهما ليس بالذات بل بإبقاء الله لهما، فالجنة باعتبار ذاتها يجوز عليها الفناء، وكذلك النار باعتبار ذاتها يجوز عليها الفناء، فلا يطرأ عليهما الفناء لأن الله شاء لهما البقاء بخلاف الناس والملائكة والجن فإنهم يفنون لأن الله لم يشأ بقاءهم، فتبيّن أن المحدثات كلها متساويةٌ في سَبْقِ العدم عليها بالدليل العقليّ وبالدليل النقليّ، ومتساوية أيضًا في عدم وجوب البقاء لها عقلًا فلا موجود أزليّ أبديّ واجب

---

(١) رواه الحاكم في **المستدرك** (١/ ١٧)، وأورده الحافظ البيهقي في **الأسماء والصفات** (ص/ ٧) وضعفه.

الوجود والبقاء إلا الله. فالبقاء الذي هو واجب لله هو البقاء الذاتيّ أي الذي ليس بإيجاب شيء غيره بل هو يستحقه لذاته لا لشيء ءاخر ولا يكون هذا البقاء الذاتيّ لشيء سواه، لكن قال حملة الشرع ببقاء بعض المحدثات بإبقاء الله لها وفناء بعض لورود الخبر الثابت عن المعصوم بذلك.

والدليل من المنقول قول الله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [سورة الرحمن/ ٢٧] أي ذات ربك.

الحياة: الحياة في حق الله تعالى صفةٌ أزليّة أبديّة ليست كحياة غيره بروح ولحم ودم، ولو لم يكن الله حيًّا لم يوجد شيء من هذا العالم لأن من ليس حيّا لا يتصف بالقدرة والإرادة والعلم، ولو كان الله تعالى غير متصف بهذه الصفات لكان متصفا بالضد وذلك نقص والله منزّه عن النقص. من شرط العالِم القادر أن يكون حيًّا، فوضح وجوب الحياة له.

دَلَّنا البرهان على أن العالم فِعْلُه أي مفعوله، ومحال صدور هذا الفعل عن الميت والجماد إذ لو تصور أن يكون قادرًا عالِمًا فاعلًا مدبّرًا دون أن يكون حيًّا لجاز أن يشكّ في حياة الحيوانات عند تعاقب الحركات والسكنات عليها بل في حياة أرباب الحِرَفِ والصناعات، وذلك مكابرة.

العلم: اعلم أن علم الله قديم أزليّ كما أن ذاته أزليّ فلم يزل عالِمًا بذاته وصفاته وما يحدثه من مخلوقاته واعتقاد هذا ضروري فلا يتصف بعلم حادث لأنه لو جاز اتصافه بالحوادث لجاز النقصان عليه، والنقصان عليه محال.

وبيان ذلك أن ذلك الحادث إن كان من صفات الكمال كان الخلو عنه مع جواز الاتصاف به نقصًا. وإن لم يكن من صفات الكمال امتنع اتصاف الله به، لأن كل ما يتصف الله به كمال. وأيضًا لو كان قابلًا له لما خلا عنه أو عن ضده وإلا لزم الترجيح بغير مرجحٍ. وما يضادُّ الحادثَ حادثٌ، وما لا يخلو عن الحادث حادث. ومهما حدثت المخلوقات لم يحدث له علم بها بل حصلت مكشوفة له بالعلم الأزليّ. والأزليّ لا ابتداء لوجوده.

وأما قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدًا﴾ [سورة الجن/ ٢٦-٢٧] فلا حجة فيه لمن يقول إن الرسل يطلعهم الله على جميع غيبه، إنما معناه أن الذي ارتضاه الله من رسولٍ يجعل له رصدًا أي حفظةً يحفظونه من بين يديه ومن خلفه من الشيطان. فـ«إلا» هنا ليست استثنائيةً بل هي بمعنى «لكن»[1]، فيفهم من الآية أن علم الغيب جميعه خاصٌّ بالله تعالى فلا يتطرق إليه الاستثناء فتكون الإضافة في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ﴾ للعموم والشمول من باب قول الأصوليين «المفرد المضاف للعموم» فيكون معنى «غَيْبِهِ» أي جميع غيبه، وليس المعنى أن الله يطلع على غيبه من ارتضى من رسولٍ فإن من المقرّر بين الموحّدين أن الله تعالى لا يساويه خلقه بصفةٍ من صفاته، ومن صفاته العلم بكلِّ شيء قال تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ والعجب كيف يستدل بعض الناس بهذه الآية على علم الرسل ببعض الغيب إنما الذي فيها أن الله هو العالم بكل الغيب ولكن الرسل يجعل الله لهم حرسًا من الملائكة يحفظونهم.

وأما اطلاع بعض خواص عباد الله من أنبياء وملائكة وأولياء البشر على بعض الغيب فمأخوذ من غير هذه الآية كحديث[2] «**اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله**». فلو كان يصحّ لغيره تعالى العلم بكل شيء لم يكن لله تعالى تمدّح بوصفه نفسه بالعلم بكل شيء، فمن يقول إن الرسول يعلم كل شيء يعلمه الله جعل الرسول مساويًا لله في صفة العلم فيكون كمن قال «الرسول قادرٌ على كل شيء» وكمن قال «الرسول مريدٌ لكل شيء» سواءٌ قال هذا القائل إن الرسول عالمٌ بكلِّ شيء بإعلام الله له أو بذاته فلا مَخْلَصَ له من الكفر.

---

(١) **البرهان في علوم القرءان** (٤/ ٢٣٧-٢٣٦)، كتاب **الأزهيَّة في علم الحروف** (ص/ ١٨٤)، **البحر المحيط** (٨/ ٣٥٥)، **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون** (٦/ ٣٩٩-٤٠٠).

(٢) رواه الترمذي في **سننه**: كتاب التفسير: باب ومن سورة الحجر.

ومما يردّ به على هؤلاء[1] قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة الأنعام/ ٥٩] وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ فإنّ الله تبارك وتعالى تمدّح بإحاطته بالغيب والشهادة علمًا.

ومما يردّ به على هؤلاء أيضًا قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [سورة الأحقاف/ ٩] فإذا كان الرسول بنصّ هذه الآية لا يعلم جميع تفاصيل ما يفعله الله به وبأمته فكيف يتجرَّأُ متجرِّئٌ على قول إن الرسول يعلم كل شيء، وقد روى البخاريّ في الجامع حديثًا بمعنى هذه الآية وهو ما ورد في شأن عثمان بن مظعون، فقائل هذه المقالة قد غلا الغلوّ الذي نهى الله ورسوله عنه قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ [سورة المائدة/ ٧٧]، وقال رسول الله ﷺ: «**إياكم والغلوّ فإن الغلو أهلك من كان قبلكم**» رواه ابن حبان[2]، وقد صحّ أن الرسول ﷺ قال: «**لا ترفعوني فوق منزلتي**»[3].

وروى البخاريّ في الجامع[4] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: «**إنكم محشورون حفاةً عراةً غرلًا** ثم قرأ ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [سورة الأنبياء/ ١٠٤] **وأوّل من يُكسى**[5] **يوم القيامة إبراهيم وإنه سيجاء بأناس من أُمّتي فيؤخذ بهم**

---

(١) هذه الفرقة لها وجود في الهند والباكستان، يقولون أحيانًا: «الرسول يعلم كل ما يعلمُهُ الله من باب العطاء والله يعلم كل شيء بعلم ذاتي».

(٢) **الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان** (٦/ ٦٨).

(٣) رواه الطبراني في **المعجم الكبير** (٣/ ١٢٨). قال الحافظ الهيثمي في **مجمع الزوائد** (٩/ ٢١): «وإسناده حسن».

(٤) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب التفسير: باب ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾.

(٥) أي من حللِ الكرامة، حلل فيها مزيد إكرام، وإلا هو يكون كاسيًا.

ذات الشمال فأقول هؤلاء أصحابي فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك إنهم لم يزالوا مرتدّين على أعقابهم منذ فارقتهم، فأقول سُحقًا سُحقًا أقول كما قال العبد الصّالح ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ إلى قوله ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة المائدة/ ١١٧-١١٨].

ومن أعجب ما ظهر من هؤلاء الغلاة لما قيل لأحدهم كيف تقول الرسول يعلم كلّ شيء يعلمه الله وقد أرسل سبعين من أصحابه إلى قبيلةٍ ليعلّموهم الدّين فاعترضتهم بعض القبائل فحصدوهم، فلو كان يعلم أنه يحصل لهم هذا هل كان يرسلهم؟ فقال نعم يرسلهم مع علمه بذلك. وهذا الحديث رواه البخاريّ وغيره[1].

ومثل هذا الغالي في شدة الغلوّ رجل كان يدّعي أنه شيخ أربع طرقٍ فقال الرسول هو المراد بهذه الآية ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة الحديد/ ٣] وهذا من أكفر الكفر لأنه جعل الرسول الذي هو خلقٌ من خلق الله أزليًّا أبديًّا لأن الأوّل هو الذي ليس لوجوده بدايةٌ وهو الله بصفاته فقط.

القدرة: صفة أزليّة ثابتة لذات الله تعالى ويصح أن يقال قائمةٌ بذات الله تعالى لأن المعنى واحد لكن لا يقال ثابتةٌ في ذات الله. وقدرة الله يتأتى بها الإيجاد والإعدام أي يوجد بها المعدوم من العدم ويعدم بها الموجود. والبرهان العقليّ على وجوبها لله تعالى هو أنه لو لم يكن قادرا لكان عاجزًا ولو كان عاجزًا لم يوجد شيءٌ من المخلوقات، والمخلوقات موجودةٌ بالمشاهدة، والعجز نقصٌ والنقص مستحيلٌ على الله، إذ من شرط الإله الكمال.

وأما البرهان النقليّ فقد ورد ذكر صفة القدرة لله تعالى في القرءان الكريم

---

(١) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب المغازي: باب غزوة الرجيع، ومسلم في **صحيحه**: كتاب الإمارة: باب ثبوت الجنة للشهيد.

في عدّة مواضع كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [سورة الذاريات/ ٥٨] والقوة هي القدرة، ولا يجوز التعبير عن الله بالقوة كقول سيد قطب في تفسيره[١]: القوة الخالقة، وهذا إلحاد لأنه جعل الله صفة. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة المائدة/ ١٢٠] والمراد بالشيء هنا الممكنات العقلية، والممكن العقليّ ما يصحّ وجوده تارةً وعدمه تارةً أخرى. فلا تتعلق القدرة بالواجب العقليّ كذات الله وصفاته، ولا بالمستحيل العقليّ أي ما لا يقبل الوجود، لذلك يمتنع أن يقال هل الله قادرٌ على أن يخلق مثله أو على أن يعدم نفسه فلا يقال إنه عاجزٌ عن ذلك ولا يقال قادرٌ على ذلك ولكن يقال: قدرة الله لا تتعلّق بالمستحيلات العقلية.

وخالف في ذلك ابن حزم فقال[٢]: «إن الله عزّ وجلّ قادرٌ أن يتخذ ولدا، إذ لو لم يَقدر عليه لكان عاجزا»، وهذا الذي قاله غير لازم لأن اتخاذ الولد محالٌ على الله والمحال العقليّ لا يدخل تحت القدرة، وعدم تعلّق القدرة بالشيء تارةً يكون لقصورها عنه وذلك في المخلوق، وتارةً يكون لعدم قبول ذلك الشيء الدخول في الوجود أي حدوث الوجود لكونه مستحيلًا عقليّا وتارةً يكون لعدم قبول ذلك الشيء العدم لكونه واجبًا عقليًّا. أما المستحيل العقليّ فعدم قبوله الدخول في الوجود ظاهرٌ وأما الواجب العقليّ فلا يقبل حدوث الوجود لأن وجوده أزليٌّ، فرقٌ بين الوجود وبين الدخول في الوجود، فالوجود يشمل الوجود الأزليّ والوجود الحادث وكلّ يسمى وجودًا. أما الدخول في الوجود فهو الوجود الحادث. فالواجب العقليّ الله وصفاته، فالله وجوده أزليّ وصفاته أزليّة ولا يقال لله ولا لصفاته داخل في الوجود لأن وجودهما أزليّ، فقولنا إن الواجب العقليّ لا يقبل الدخول في الوجود صحيحٌ لكن يقصر عنه أفهام المبتدئين في العقيدة، أما عند من مارس فهي واضحة المراد. والعجز هو الأوّل المنفيّ عن قدرته

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ٤٠).

(٢) المحلى (١/ ٣٣).

تعالى لا الثاني، فلا يجوز أن يقال إن الله قادرٌ على ذلك ولا عاجزٌ.

كما لا يقال عن الحجر عالمٌ ولا جاهلٌ، وكذلك يجاب على قول بعض الملحدين: «هل الله قادرٌ على أن يخلق مثله» وهذا فيه تجويز المحال العقليّ. وبيان ذلك أن الله أزليّ ولو كان له مثيلٌ لكان أزليًّا والأزليّ لا يخلق، فالإله من شرطه أن يكون أزليّا أي وجوده أزليّا ليس له ابتداءٌ فلا يقال هل الله يخلق مثله لأنه تناقضٌ. فكلام هذا السائل ينحل هكذا هل يخلق الأزليّ أزليّا مثله، والأزليّ لا يقال فيه يخلق، وهذا السؤال دليلٌ على سخافة عقل سائله.

السّمع: صفةٌ قديمةٌ قائمةٌ بذات الله أي ثابتةٌ له تتعلق بالمسموعات، وقال بعض المتأخرين تتعلّق بكل موجودٍ من الأصوات وغيرها وهو القول المعتمد. ولا يجوز أن يكون سمعه حادثًا كسمع خلقه، ولا يجوز أن يكون بآلةٍ كسمعنا فهو يسمع بلا أذنٍ ولا صماخ.

وقد وقع بعض من لم يتعلّم عِلْم التنزيه ممن اقتصر على حفظ القرءان من دون تلقٍّ لعلم الدّين تفهّمًا من أفواه أهل العلم الذين تلقّوا ممن قبلهم فقال إن الله له ءاذان، فقيل له: كيف ذلك؟ قال: أليس قال الرسول ﷺ «**لَلَّهُ أشدّ ءاذانًا**»، فقيل له: أنت حرّفت الحديث فالحديث[1] «**لَلَّهُ أشدّ أَذَنًا**» وليس ءاذانًا، والأَذَنُ في اللغة الاستماع[2]، وهذا ظن بنفسه أنه عالمٌ فتجرأ على تحريف هذا الحديث ظنًا منه أنه الصواب،، وهذا من أفحش الكذب على الله لم يقل بذلك أحدٌ حتى من المشبّهة، فسمع الله تعالى أزليّ، ومسموعاته التي هي من قبيل الصوت حادثةٌ، فهو تعالى يسمع هذه الأصوات الحادثة بسمعه الأزليّ الأبديّ الذي ليس لوجوده ابتداءٌ ولا انتهاء بل هو باقٍ دائم كسائر الصفات.

---

(١) رواه ابن ماجه في **سننه**: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها: باب في حسن الصوت بالقرآن. قال الحافظ البوصيري في **مصباح الزجاجة** (١/ ٢٤١): «هذا إسناد حسن».

(٢) **المصباح المنير** (١/ ٩).

البصر: يجب لله تعالى عقلا البصر أي الرؤية، فهو يرى برؤية أزليّة أبديّة المرئيات جميعها ويرى ذاته بغير حدقة وجارحة، لأن الحواس من صفات المخلوقين. والدليل على ثبوت البصر له عقلا أنه لو لم يكن بصيرا رائيا لكان أعمى، والعمى أي عدم الرؤية نقص على الله، والنقص عليه مستحيل.

والبصر صفة أزليّة أبديّة تتعلّق بالمبصرات، وقال بعضهم بصره ليس مختصا بالجواهر وما يقوم بالجواهر من المرئيات بل الله يرى كل موجود بلا استثناء، وهذا هو القول المعتمد، وكلا الرأيين ليس فيه ضرر، فهو تبارك وتعالى يرى نفسه الأزليّ ويرى الحادثات برؤيته الأزليّة.

ودليل السمع والبصر السمعي الآيات والأحاديث، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، وقوله ﷺ في تعداد أسماء الله الحسنى: «**السميع البصير**» وهو في حديث أخرجه الترمذي وحسنه[1].

تنبيه:

لا يقال إنه تعالى رأى العالم في الأزل، لأنّا لو قلنا إنه رأى العالم في الأزل لاقتضى وجود العالم في الأزل وهو محال، وحين وجد العالم نقول بأنه رأى العالم برؤيته الأزليّة، وهذا التغير وقع في المضاف إليه[2] لا في المضاف[3]. فإن قيل إذا جاز أن يكون العالم معلومًا لله في الأزل وإن لم يكن موجودا فَلِمَ لا يجوز أن يكون مرئيًّا له في الأزل وإن لم يكن موجودًا، فالجواب: أن قياس الرؤية على العلم غير مستقيم لأن العلم يتعلق بالمعدوم والموجود أمّا الرؤية فلا تتعلق إلا بالموجود وكما أن المعدوم ليس بمرئي فكذلك ليس بشيء.

الكلام: يجب لله تعالى الكلام وهو صفة أزليّة أبديّة لا يشبه كلام المخلوقين

---

(١) رواه الترمذي في سننه: كتاب الدعوات: باب إن لله تسعة وتسعين اسمًا.

(٢) أي العالم.

(٣) أي الرؤية.

لأن كلام المخلوقين حادث ويُبتدأ ويُختتم ويكون بلغات وحروف، ومنه ما يحصل بتصادم جسمين، ويعبر عن كلام الله بالقرءان وكذلك غيره من الكتب المنزّلة، وليست هذه الكتب المنزّلة عين الكلام الذاتيّ بل هي عبارات عنه.

والدليل على ذلك من حيث العقل أنه لو لم يكن متكلمًا لكان أبكمَ والبَكَمُ نقصٌ والنقص مستحيل على الله، وأمّا دليله النقلي النصوص القرءانية والحديثية ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [سورة النساء/ ١٦٤] أي أسمعه كلامه الأزليّ الأبديّ ففهم منه موسى ما فهم فتكليم الله أزليّ وموسى وسماعه لكلام الله حادث.

التكوين:

قبل أن نتكلم عن التكوين لا بد أن نقدم بمقدمة وهي أن الصفات التي يجب لها القدم اختلف فيها طائفة أهل السنّة، فالأشاعرة[1] قالوا صفات الذات أزليّة وصفات الأفعال حادثة، والماتريديّة[2] قالوا صفات الذات أزليّة وصفات الأفعال أزليّة.

فقال الماتريديّة إنّ الله تعالى أزليّ وصفاته الذاتية والفعليّة أزليّة ومعهم البخاريّ، وبهذا قال الحنابلة كما نقل في الذيل على طبقات الحنابلة عن ابن الزاغونيّ[3] أنه قال: «وهذا مبنيٌّ عندنا على أصلٍ فإنّ صفات الأفعال قديمةٌ

---

(١) نسبة إلى العلامة إمام المتكلمين من أهل السنة والجماعة أبي الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال ابن أبي بردة ابن صاحب رسول الله ﷺ له تآليف عديدة ذكر فيها قواعد مذهب السلف توفي ببغداد سنة ٣٢٤ هـ

(٢) نسبة إلى العلامة إمام المتكلمين من أهل السنة والجماعة محمد بن محمد بن محمود الماتريدي السمرقندي أبي منصور صاحب **التصانيف المفيدة** توفي بسمرقند سنة ٣٣٣ هـ.

(٣) هو علي بن عبيد الله بن نصر بن السري الزاغوني الحنبلي أبو الحسن مات سنة ٥٢٧هـ.

استحقّها الله تعالى في القدم كصفات الذات» اهـ.

وحجة الماتريديّة ظاهرة ما فيها إشكال فقد نقله الحافظ محمد مرتضى الزبيدي في ترجمة محمد بن بدر الدين الشافعيّ من المعجم المختص عن بعضهم من أنّ: «صفات الأفعال عند الأشاعرة أمورٌ اعتباريةٌ وهي عبارةٌ عن تعلق القدرة التنجيزيّ الحادث فيلزم أن يحتاج التعلّق إلى تعلّقٍ وهكذا فيتسلسل وهو محالٌ» اهـ قال بعض الأشاعرة وهو إيرادٌ قويٌّ وأجاب عنه بما لا يخلو من نظرٍ ولذلك قال الحافظ ابن حجرٍ[1]: «إنّ الصائر إلى القول بقدم صفات الأفعال يسلم من القول بحوادث لا أوّل لها» اهـ.

وقال الأشاعرة إنّ صفات الذات أزليّة وأما صفات الأفعال فحادثةٌ لأن صفات الأفعال عندهم ليست صفاتٍ قائمةً بذات الله تعالى إنما هي ءاثار القدرة الأزليّة، وليس ذلك قول جميع الأشاعرة بل هو قول قسمٍ منهم وغلب ذلك على أكثر الأشاعرة المتأخرين، أما المتقدمون فكان منهم من يقول بأزليّة صفات الأفعال أيضًا، قال الحافظ البيهقيّ في الاعتقاد: «وعلى هذه الطريقة يدلّ كلام المتقدمين من أصحابنا» اهـ وفي التعرّف في الباب السابع في اختلافهم في أنه لم يزل خالقًا قال الكلاباذيّ: «إنّ الصوفية اختلفوا في أنه لم يزل خالقًا فقال الجمهور منهم والأكثرون من القدماء منهم والكبار إنه تعالى لم يزل خالقًا بارئًا مصوّرًا غفورًا رحيمًا شكورًا وكذلك جميع صفاته التي وصف بها نفسه يوصف بها كلها في الأزل كما يوصف بالعلم والقدرة والعزّ والكبرياء والقوة كذلك يوصف بالتكوين والتصوير والتخليق» اهـ قال: «والخلق والتكوين والفعل صفات لله تعالى وهو بها في الأزل موصوف. والفعل غير المفعول والتخليق غير المخلوق والتكوين غير المكوّن» اهـ، وهذا ما ذهب إليه الماتريديّة وقسم من الأشاعرة، ثم قال الكلاباذيّ: «ومنع بعضهم من أن يكون في ما لم يزل خالقًا وقال إنه يوجب كون الخلق معه في القدم» اهـ أي منعوا قيام صفةٍ أزليّة به هي

---

(١) فتح الباري (١٣/ ٤٤٠).

صفة التخليق ولم يمنعوا أنه يسمّى خالقًا في الأزل وهو مذهب أكثر الأشاعرة.

وعند الأشاعرة الصفة التي يلزم من نفيها مقابلها فهي من صفات الذات كالحياة يلزم من نفيها الموت وما لا يلزم من نفيه مقابله فهو من صفات الفعل، فلو لم يحي الله أحدًا أو لم يمته لم يلزم من انتفاء ذلك نقيضه.

وعند الماتريديّة كلّ صفةٍ لا يجوز أن يتصف الله بمقابلها هي من صفات الذات كالقدرة والعلم والحياة والعزة والعظمة، وكلّ ما يجوز أن يتصف به وبمقابله فهو من صفات الفعل كالغضب والرحمة والتخليق والترزيق.

وصفات الفعل عند بعض الماتريديّة ترجع إلى صفة التكوين لكن إذا تعلقت بالحياة سمّيت إحياءً وبالموت سمّيت إماتةً وبالصورة سمّيت تصويرًا إلى غير ذلك وقال بعضٌ من علماء ما وراء النهر: «إنّ كلًّا من الصفات الفعليّة صفة حقيقية أزليّة»، قال بعض الحنفية والقول الأوّل أقوى وإليه يشير قول الإمام أبي حنيفة في الفقه الأكبر ما نصه[1]: «وأما الفعليّة فالتخليق والترزيق والإنشاء والإبداع والصنع وغير ذلك من صفات الفعل لم يزل ولا يزال بأسمائه وصفاته لم يَحدث له اسم ولا صفة، لم يزل عالما بعلمه والعلم صفة في الأزل، وقادرا بقدرته والقدرة صفة في الأزل، ومتكلما بكلامه والكلام صفة في الأزل، وخالقا بتخليقه والتخليق صفة في الأزل، وفاعلا بفعله والفعل صفة في الأزل والفاعل هو الله تعالى والفعل صفة في الأزل والمفعول مخلوق وفعل الله تعالى غير مخلوق، وصفاته في الأزل غير محدثة ولا مخلوقة فمن قال إنها مخلوقة أو محدثة أو وقف فيها أو شك فيها فهو كافر بالله تعالى» اهـ.

فالتكوين عند الماتريديّة صفةٌ من الصفات القديمة الأزليّة متعلقةٌ بوجود المقدور، وخلاصة كلامهم في وظيفته ووظيفة القدرة ما أورده أبو عذبة في الروضة البهيّة بقوله: «وأما ادعاء أنهم أي الماتريديّة قالوا القدرة مؤثرةٌ في

---

(١) **الفقه الأكبر بشرح ملا علي القاري** (ص/ ٤٢).

إمكان الشيء فليس بصحيح، وإنما الصحيح عندهم أنّ القدرة متعلقةٌ بصحة وجود المقدور والتكوين متعلق بوجود المقدور وبه يؤثر الله تعالى فيه ونسبة التكوين إلى الفعل الحادث كنسبة الإرادة إلى المراد، والقدرة والعلم لا يقتضيان كون المقدور والمعلوم موجودين بهما والتكوين يقتضيه» اهـ.

ولا يلزم من قدم التكوين قدم المكوّن قالوا كما لا يلزم من قدم القدرة الإلهية قدم المقدورات. فالقدرة أزليّة ومتعلّقها وهو العالم حادثٌ، قالوا كذلك التكوين أزليّ والمكوّنات حادثة ويعبّر عن ذلك أيضًا بالفعل فيقال فعل الله أزليّ ومفعوله حادثٌ فتبيّن وظهر أنه تبارك وتعالى لم يزدد بإحداثه الخلق صفةً حادثةً. فإذا قيل أحيا الله كذا أو أمات كذا فالمعنى أن الله أحيا هذا المخلوق الذي هو جائزٌ عقليٌّ بصفته التي هي أزليّة وهي صفة الإحياء فالْمُحْيَا حادثٌ أما إحياء الله له فهو أزليّ. وكذلك يقال عندهم في إماتة الله لمن يميت من خلقه إماتة الله لهذه الأشياء التي تتصف بالموت قديمة وهذه الأشياء هي المحدثة، وهذا أي قدم صفة التكوين مع حدوث المكوّن لا إشكال فيه لمن فهم المعنى المقصود منه وهو يطّرد في ما أشبه ذلك فإذا قيل الله تعالى أسعدَ السعداءَ من خلقه أو أشقَى الأشقياءَ من خَلْقِهِ فالإسعاد والإشقاء صفتان أزليتان لله من غير لزوم أزليّة الْمُشْقَى أو الْمُسْعَدِ فالعباد الذين يشقيهم الله محدثون وشقاوتهم حادثة وكذلك العباد الذين أسعدهم الله تعالى هم محدثون وسعادتهم حادثة أما إشقاء الله للذين أشقاهم وإسعاد الذين أسعدهم فأزليان.

وهذا الاعتقاد كان هو اعتقاد السلف ولو لم يشتهر هذا التعبير عنهم لكن المعنى كان موجودًا، أي لو لم يعبّروا بنفس العبارات لكن معنى ما قالوا والمذكور هنا واحدٌ. وقد صرّح به كما تقدّم الإمام أبو حنيفة في بعض رسائله فقال: «فعل الله صفةٌ له في الأزل ومفعوله حادث» اهـ وهو في النصف الأوّل من عصر السلف الذي ينتهي بانتهاء ثلاثمائة سنة بعد الهجرة على ما قرّره الحافظ ابن عساكر في تبيين كذب المفتري، وتقدّم أيضًا ما قاله الإمام البخاريّ في ذلك وما نقله الكلاباذيّ عن أكابر الصوفية وقدمائهم.

فلا يقال لو كان هذا معتقد السلف كان يسمع من فلان وفلان من الصحابة ومن التابعين ومن أتباع التابعين ولا يضرُّ مُثْبِتَ القِدم لصفات الأفعال عدمُ ظهور هذا التعبير عنهم، أي القول بأن صفات الأفعال قديمة فاشتهار هذا ليس شرطًا في ثبوت اعتقاد السلف لذلك.

قال الغزنويّ: «اعلم أنّ التكوين والتخليق والإيجاد والإحداث والاختراع كلها أسماء مترادفة معناه إخراج المعدوم من كتم العدم إلى ظهور الوجود» اهـ.

قال التفتازانيّ ما نصه[1]: «ولأنه لو كان - أي التكوين - نفس المكوّن لزم أن يكون المكوّن مخلوقا مكوّنا بنفسه ضرورة أنه مكوّن بالتكوين الذي هو عينه فيكون قديما مستغنيا عن الصانع وهو محال و- يلزم أيضًا - أن لا يكون للخالق تعلّق بالعالم سوى أنه أقدم منه وقادر عليه من غير صنع وتأثير فيه ضرورة تكوّنه بنفسه وهذا لا يوجب كونه خالقا والعالم مخلوقا فلا يصح القول بأنه خالق العالم وصانعه هذا خلف - أي باطل-، و- لزم - أن لا يكون الله تعالى مكونا للأشياء ضرورة أنه لا معنى للمكوّن إلا من قام به التكوين والتكوين إذا كان عين المكوّن لا يكون قائما بذات الله تعالى وأن يصح القول بأن خالق سواد هذا الحجر أسود وهذا الحجر خالق السواد إذ لا معنى للخالق والأسود إلا من قام به الخلق والسواد وهما واحد فمحلهما واحد وهذا كله تنبيه على كون الحكم بتغاير الفعل والمفعول ضروريّا» اهـ.

أما الأشاعرة فأكثرهم يقولون يحيي من شاء أي يحدث فيه الحياة بقدرته فالإحياء عندهم أثر القدرة وليس قائمًا بذات الله ولذلك أقدموا على القول بأنّ الإحياء صفة فعلٍ حادثةٌ فعندهم ليس الإحياء قائمًا بذات الله، أما أن يعتقدوا أن إحياءه صفةٌ قائمةٌ به ومع ذلك هو حادثٌ فحاشاهم أن يقولوا ذلك ولا يجوز أن ينسب إليهم أنهم وصفوا الله بالحدوث ولا أنهم نسبوا إليه صفةً حادثةً

---

(١) **شرح العقائد** (ص/ ١٠١).

قائمةً بذاته. وكذلك قولهم في الإماتة والإسعاد والإشقاء وغيرها من صفات الأفعال.

وليس في اختلاف الأشاعرة والماتريديّة هذا ما يضرّ في أصل الاعتقاد بعد اتفاقهما على أنه لا يقوم بذات الله صفةٌ لم تكن له في الأزل بل كلا الفريقين على هدى، إنما الضرر الأعظم هو أن يقول القائل إن الله تعالى يقوم به صفةٌ حادثةٌ كما قال بعض المشبّهة فإنهم يقولون نقول إنه يتحرك وتقوم به الحوادث والأعراض فما الدليل على بطلان قولنا، ونقول فإن قلتم لنا فقد قلتم بقيام الحوادث بالربّ قلنا لكم نعم، وهذا قولنا الذي دلّ عليه الشرع والعقل.

الجواب: من زعم أنّ المحدَث الذي قام بالبارئ تعالى كمالٌ فَخُلُوُّهُ عنه قبل ذلك نقصٌ وإذا زعم أنه ليس كمالًا فقد ادّعى اتصاف الله سبحانه بغير صفات الكمال، فيكون نسب إلى الربّ النقص. قال الإمام ابن جريرٍ الطبريّ: «فإن زعم أنه خلقه أي الكلام في ذاته فقد أوجب أن تكون ذاته محلًّا للخلق وذلك عند الجميع كفرٌ» اهـ[1]، وفي كتاب الحيدة المنسوب لعبد العزيز الكِنانِيّ وهو من الكتب التي يحتفل بها المشبّهة من أدعياء السلفية في أيامنا حكاية مناظرته لبِشرٍ المريسيّ في مجلس المأمون ومن جملتها قوله: «فإن قال إنّ الله خلق كلامه في نفسه فهذا محالٌ لا يجد السبيل إلى القول به من قياسٍ ولا نظرٍ ولا معقولٍ لأنّ الله تعالى لا يكون مكانًا للحوادث» اهـ[2]. وقال ابن بلبان وهو من متأخّري الحنابلة: «لا تحلّه الحوادث ولا يحلّ في شيء منها» اهـ.

قال المؤلف رحمه الله: وصفاته قائمةٌ بذاتِهِ، والله تعالى قديمٌ بصفاتِهِ، وليس شيءٌ من صفاته محدثًا.

الشرح: الله تعالى له صفات أزليّة قائمة بذاته ولا يقال حالّة بذاته ولا

---

(١) **التبصير في معالم الدين** (ص/ ٢٠٢).

(٢) **الحيدة** (ص/ ١٢٧).

حالّة في ذاته ولا إنها بعض ذاته بل نقول صفات قائمة بذاته، ومعنى قائمة بذاته أي أنها ثابتة له لا تنفكّ عنه كما ينفك الغير عن الغير وليس معنى قولنا قائمة بذاته أنها متصلةٌ بذاته. فيجب اجتناب التعبير بأن صفات الله متصلة بذاته أو حالة في ذاته أو أن يقال هي بعض ذاته فنقول عِلْمُهُ تعالى صفة أزليّة أبديّة قائمة بذاته وقدرته صفة أزليّة قائمة بذاته يتأتى بها الإيجاد والإعدام[1] وإرادته صفة قديمة قائمة بذاته يخصص بها الممكنات ببعض ما يجوز عليها بدل بعض، خصص الجسم الأبيض بالبياض دون السواد وخصص القصير بالقصر دون الطول وخصص الطويل بالطول دون القصر وكان جائزًا في العقل أن نكون طوالا كما كان ءادم ستين ذراعًا[2] فخصصنا الله تعالى بهذا الطول الذي نحن عليه وكان جائزًا أن نكون أطول منه وقد قيل إن قوم عاد[3] كان أحدهم طوله ألف ذراع وقيل مائة ذراع وقيل غير ذلك فكان في العقل جائزًا أن نكون مثل أولئك أو أطول منهم فالله تعالى خصنا بهذا المقدار وهذا التخصيص هو المشيئة وهو الإرادة.

صفات الله ليست عين الذات ولا غير الذات وبقولنا هذا نفينا ما تقوله المعتزلة لو كان لله صفات لكانت أزليّة ولو كانت أزليّة لتعدد القدماء فبطل التوحيد، فلذلك يقولون «الله موجود لا يوصف بصفات قائمة بذاته» فإذا قيل لهم ألا تثبتون القدرة؟ يقولون هو قادر لذاته لا بقدرة لأنّنا لو قلنا قادر بقدرة وعالم بعلم ومريد بإرادة ومتكلم بكلام هو صفة له نكون أثبتنا ءالهة كثيرة وجعلنا هذا العلم إلهًا مع الله مع الذات المقدّس وجعلنا القدرة إلها مع الذات المقدّس.

---

(١) أي وظيفتها الإيجاد والإعدام.

(٢) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب الاستئذان: باب بدء السلام.

(٣) هؤلاء قوم عاد كفروا بنبيّ الله هود ﷺ هو عربي وهم عرب كفروا بنبيهم فبقوا على عبادة الأوثان فسلط الله عليهم الريح فأهلكتهم.

وقال أهل السنّة ذات الله واحد متصف بصفات لا هي عينه ولا هي غيره[1] أي لا يصح انفكاكها عنه كالغيرين[2] ولا هي عينه بل لها مفهوم غير مفهوم الذات لأنك إذا قلت «علم الله» يُفهم من هذه الكلمة غير مفهوم الذات المقدّس وإذا قلت «الله» يُفهم منه الذات فلا يلزم من قولنا الله له علم قديم وقدرة قديمة وإرادة قديمة وسمع قديم وبصر قديم وحياة قديمة وكلام قديم قائمات بذاته إثبات ءالهة بل أثبتنا إلها واحدًا متصفًا بصفات أزليّة بأزليّة الذات.

وحكى أبو محمد التميميّ الحنبليّ عن الإمام أحمد أنه كان يقول: «إنّ صفات البارئ تعالى لا هي هو ولا غيره وكان يقول: «ليست أعراضًا ولا أجسامًا لأنه قد ثبت أنّ الموصوف ليس بعرض ولا جسم فكذلك صفته» اهـ، وقال الكلاباذيّ في الباب السادس من التعرف: «وأجمعوا أي الصوفية أنها أي صفات الخالق سبحانه ليست هي هو ولا غيره» اهـ وقال الإمام الأشعريّ في نقض أصول الجبّائيّ: «ولا يقال لصفاته أي القائمة بذاته هي هو ولا غيره» اهـ ونقله ابن فورك عنه في المجرد. ونصّ على مثل ذلك من لا يحصى.

فصفات الله تعالى ليست عين الذات ولا غير الذات فلا يلزم قدم الغير ولا تَكَثُّرُ ذواتٍ قدماء، فالنصارى وإن لم يصرحوا بالقدماء المتغايرة لكن لزمهم ذلك لأنهم أثبتوا الأقانيم الثلاثة التي هي: «الوجود» و«العلم» و«الحياة»، وسمّوها «الأب» و«الابن» و«روح القدس» فزعموا أن أقنوم[3] العلم قد انتقل

---

(١) أي ليست غيرا منفكا عن الذات بحيث يصح وجودها دون وجود الذات.

(٢) في **الإرشاد** لإمام الحرمين: «والذي ارتضاه المحققون من أئمتنا في حقيقة الغيرين أنهما الموجودان اللذان يجوز مفارقة أحدهما الآخر بزمان أو مكان أو وجود أو عدم».

(٣) الأقنوم عند النصارى صفة جمعه أقانيم ويقولون ذاتٌ وعلمٌ وحياةٌ فيسمون الذات أبًا والعلم ابنًا والحياة روحًا.

إلى بدن عيسى ﷺ فجوّزوا الانفكاك والانتقال على صفات الله فكانت ذواتًا متغايرة وعندنا لا يجوز أن تنتقل صفة الإله لأن الأزليّ لا يطرأ عليه التغير.

فإذا قيل الله واجب الوجود بذاته وصفاته واجبة للذات الواجب ليس في ذلك إشكال يقول التفتازانيّ[1]: «ولصعوبة[2] المقام ذهبت المعتزلة والفلاسفة إلى نفي الصفات والكرامية[3] إلى نفي قدمها» اهـ أما أهل السنّة الماتريديّة والأشاعرة فقد ذهبوا إلى نفي غَيْرِيَّتِهَا وعَيْنِيَّتِهَا فالفلاسفة مذهبهم قريب من مذهب المعتزلة، أما صفاتنا نحن فهي غير الذات لأن وجود ذواتنا بدونها متصوّر معقول لأن الإنسان أوّل ما يوجد يكون على صفات ثم يتطور إلى صفات أخرى والذات هو هو.

---

(١) **شرح العقائد** (ص/ ٧٩).

(٢) في استعمال كلمة صعوبة نظر فإن العقيدة الإسلامية سهلة لكن مراد التفتازاني أن من أهل البدع من صعب عليه المراد لشُبَهٍ تعترض عقيدة أهل السنة عندهم.

(٣) الكرامية طائفة من المبتدعة المجسّمة زعيمهم محمد بن كرَّام السجستانيّ تقول تحدث في الله إرادات وقُدَرٌ وكلام يسبق بعضها بعضا ولا حجة لهم في هذه الآية ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ المراد بكلمات الله كلام واحد لكن للتعظيم عبر في القرآن بلفظ الجمع. كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ ﴾ فالله واحد عبر عنه في القرآن بلفظ الإفراد وبلفظ الجمع. والتعبير بلفظ الجمع هو للتعظيم وكذلك عبر بكلمات الله للتعظيم أهل السنة يقولون الله تعالى له كلام أزلي أبدي واحد هذا الكلام الواحد يوصف بالأمر والنهي والخبر والاستخبار والوعد والوعيد وهو كلام واحد بإجماع الأمة. أما المشبهة يقولون الله له كلمات تحدث من وقت إلى وقت جعلوه كخلقه. الذات الذي يحدث فيه الصفة وتتجدد فيه صفات لا يكون أزليا، فلو كان الله تحدث فيه صفات وتجدد صفة بعد صفة لكان مثلَ خلقه. ولو كان مثلَ خلقه لم يكن خالقا للعالم كما قال الإمام أبو حنيفة: «أنَّى يشبه الخالق مخلوقه» اهـ معناه يستحيل أن يشبه الخالق مخلوقه في أي وجه من الوجوه.

أما صفات اللَّه تعالى قدرته وعلمه وحياته وغير ذلك من صفاته فلا تفارق الذات أي لا يمكن أن تفارق الذات لأن الذات أزليّ فصفاته أزليّة، نحن ذواتنا حادثة فصفاتنا حادثة تذهب وتتغير إلى الزيادة أو إلى النقصان واللَّه صفاته لا تتغير ولا تزيد ولا تنقص، مشيئته مشيئة واحدة أزليّة أبديّة شاملة لكل ما يدخل في الوجود، بمشيئة واحدة أوجد العالم الذي حصل ويوجد الذي سيحصل إلى ما لا نهاية له. ليس اللَّه مثلنا نحن نشاء شيئا ثم نشاء شيئا ءاخر وكذلك علمه وكذلك قدرته بقدرة واحدة خلق اللَّه الأشياء التي حصلت وبتلك القدرة الواحدة توجد أشياء إلى ما لا نهاية له أنفاس أهل الجنة وحركاتهم وحركات أهل النار وأنفاسهم بقدرة واحدة وبمشيئة واحدة وبعلم واحد يوجدها اللَّه تعالى يوجد ما مضى من العالم وما سيحدث.

قد برهنّا في ما مضى أن حدوث الصفة للذات يوجب حدوث الذات وحدوث ذات البارئ محال فثبت أن صفاته أزليّة.

فإن قيل «هذه الصفات لو كانت ثابتة لكانت باقية، ولو كانت باقية؛ فإما أن تكون باقية بلا بقاء أو ببقاء، فإن كانت باقية ببقاء ففيه قيام الصفة بالصفة وقد أنكرتم علينا مسألة بقاء الأعراض وادعيتم استحالته، وإن كانت باقية بلا بقاء فلِمَ لا يجوز أن يكون الذات قادرًا بلا قدرة عالِمًا بلا علم؟».

صفات اللَّه تعالى باقية بصفة البقاء للَّه فالعلم ليس باقيا بنفسه بل بالبقاء القائم بذات اللَّه والبقاء بقاء لنفسه، وكذلك بقاء اللَّه تعالى بقاء له وبقاء لنفسه أيضًا، فيكون اللَّه تعالى به باقيًا وهو بنفسه أيضًا باقٍ». ولا يقال «إن البقاء إذا جعل بقاء للذات يستحيل أن يكون بقاء لنفسه لأنه يؤدي إلى القول بحصول الباقيين ببقاء واحد وهو محال كحصول أسودين بسواد واحد»، لأنا نقول بأن حصول باقيين ببقاء واحد إنما يستحيل إذا لم يكن أحد الباقيين بقاء لنفسه ثم يقوم بالباقي الآخر وإلا كان كلٌّ منهما باقيًا ولم يستحل ذلك.

كلام الله تعالى

قال المؤلف رحمه الله: وكلامُه: ليس في جنس الحروف والأصوات، بل الحروفُ والأصواتُ عبارةٌ عن كلامه ودلالة عليه.

الشرح: لا بد من وجوب الكلام لله تعالى، ومعنى الكلام أن له صفة هو بها متكلم ءامرٌ ناهٍ واعدٌ متوعدٌ ليس ككلام غيره بل أزليّ بأزليّة الذّات لا يشبه كلام الخلق وليس بصوت يحدث من انسلال الهواء أو اصطكاك الأجرام ولا بحرف ينقطع بإطباق شفة أو تحريك لسان، ونعتقد أن موسى سمع كلام الله الأزليّ بغير حرف ولا صوت كما يرى المؤمنون ذات الله في الآخرة من غير أن يكون جوهرًا ولا عرضًا، لأن العقل لا يحيل سماع ما ليس بحرف ولا صوت. وكلامه تعالى الذّاتيّ ليس حروفًا متعاقبة ككلامنا. وإذا قرأ القارئ منا كلام الله فقراءته حرف وصوت ليست أزليّة، لأن ما يقوم بالمخلوق لا يعقل أن يكون أزليًّا وأما مقروء العبد الذي تدل عليه القراءة التي يقرأها فليس بحروف ولا صوت.

عن أبي حنيفة رضي الله عنه وهو من السلف أدرك شيئا من المائة الأولى ثم توفي سنة مائةٍ وخمسين هجريّة قال[1]: «والله يتكلّم لا بآلةٍ وحرفٍ ونحن نتكلّم بآلةٍ وحرفٍ» اهـ فليفهم ذلك، وليس الأمر كما تقول المشبّهة بأن السلف ما كانوا يقولون بأن الله متكلمٌ بكلامٍ ليس بحرفٍ وإنما هذه بدعة الأشاعرة، وهذا الكلام من أبي حنيفة ثابتٌ ذكره في إحدى رسائله الخمس.

الأصوات أعراض حادثة مشروط لحدوثها حدوثُ بعضها بانقضاء البعض، لأن امتناع التكلم بالحرف الثاني بدون انقضاء الحرف الأوّل بديهيّ فهذا شيء معقول بالضرورة بلا تفكير. فإذا قلت «باسم الله» فمعلوم أن الباء تأتي ثم تنقضي ثم تأتي السين ثم تنقضي ثم تأتي الميم وهكذا، والله تعالى منزّه

---

(١) **الفقه الأكبر بشرح ملا علي القاري** (ص/ ٥٨).

عن أن تقوم به صفات حادثة فهؤلاء المشبّهة ويقال لهم الصوتيّة لا يبالون بإطلاق هذا القول فالمخالفون لأهل الحق في قولهم «ليس من جنس الحروف والأصوات» هم مجسّمة الحنابلة مثل القاضي أبي يعلى[1] وابن الزاغوني والكراميّة يقولون «كلامه تعالى عرض من جنس الأصوات والأعراض لا غير ومع ذلك فهو قديم» فهؤلاء كأنهم لم يفهموا معنى القديم.

ومما استدلّ به أهل الحقّ على أنّ كلام الله تعالى ليس حرفًا ولا صوتًا ءايات منها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾ [سورة الأنعام/ ٦٢] وقالوا لو كان الله تعالى يتكلم بحرفٍ وصوتٍ كخلقه لجاز عليه كلّ صفات الخلق من الحركة والسكون وغير ذلك وهذا محالٌ، فلذلك وجب أن يكون كلام الله غير حرف وصوت، ويدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾ [سورة الأنعام/ ٦٢] وذلك لأن الله يكلم كل إنسانٍ يوم القيامة فيُسمعه كلامه ويحاسب من يحاسبه منهم به، فيفهم العبد من كلام الله السؤال عن أفعاله وأقواله واعتقاداته، وينتهي الله عزّ وجلّ من حسابهم في ساعة أي وقت قصير من موقفٍ من مواقف القيامة، ويوم القيامة كلّه خمسون ألف سنة.

فلو كان حساب الله لخلقه من إنسٍ وجنّ بالحرف والصوت ما كان ينتهي من حسابهم في مائة ألف سنة لأن الخلق كثيرٌ ويأجوج ومأجوج وحدهم يوم القيامة البشر كلّهم بالنسبة لهم كواحدٍ من مائة، وفي روايةٍ كواحدٍ من ألفٍ، وبعض الجن يعيشون ءالافًا من السنين، فلو كان حساب الخلق بالحرف والصوت

---

(١) هو أبو يعلى محمد بن الحسين بن محمد بن خلف الفراء البغدادي، قال الحافظ ابن الأثير في **الكامل** في حوادث سنة ٤٢٩هـ ما نصه: «وفيها أنكر العلماء على أبي يعلى بن الفراء الحنبليّ ما ضمنه كتابه من صفات الله سبحانه وتعالى المشعرة بأنه يعتقد الجسم» اهـ، وقال في حوادث ٤٥٨هـ: «وفيها توفي أبو يعلى الفراء الحنبلي وهو مصنف كتاب **الصفات** أتى فيه بكل عجيبة، وترتيب أبوابه يدل على التجسيم المحض، تعالى الله عن ذلك» اهـ.

لكان إبليسُ وحده يأخذُ حسابه وقتًا كثيرًا لأن إبليس يجوز أن يكون عاش مائة ألف سنة ولا يموت إلى يوم النفخة، وحساب العباد ليس على القول فقط بل على القول والفعل والاعتقاد. وكذلك الإنس منهم من عاش ألفَي سنة ومنهم من عاش ألفًا وزيادة ومنهم من عاش مئات من السنين فلو كان حسابهم بالحرف والصوت لاستغرق حسابهم زمانًا طويلًا جدًّا ولم يكن الله أسرع الحاسبين بل لكان أبطأ الحاسبين، والله تعالى يقول: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [سورة الأنعام/ ٦٢]، ثم الحروف تتعاقب مهما كانت سريعةً تأخذ شيئًا من الوقت. أما الله تعالى فكلامه أزليّ أبديّ ليس حرفًا ولا صوتًا ولا يُبتدأُ ولا يُختتمُ ولا يزيد ولا ينقص، فمعنى قولنا القرءان كلام الله ليس بمعنى أن الله نطق به كما نحن نقرؤه، إنما معناه أنه يدلّ على كلام الله الذي ليس حرفًا ولا صوتًا، على هذا المعنى نقول القرءان كلام الله.

الله تعالى خلق صوتًا بحروف القرءان فأسمع جبريل ذلك الصوت وجبريل تلقفه ونزل به على سيدنا محمد ﷺ بأمر الله[1]، فَعَلَّمَهُ ﷺ لأمّته وكذلك وجد جبريل حروف القرءان مكتوبة في اللوح المحفوظ. فيفهم من هذا أن جبريل لم يسمع القرءان الذي هو كلام الله الأزليّ وإنما سمع صوت القرءان الذي خلقه الله له فَتَلَقَّفَهُ.

أما الدليل على أن العباد يسمعون كلام الله الأزليّ يوم القيامة فمأخوذٌ من حديث رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحدٍ إلا سيكلمه ربّه يوم القيامة ليس بينه وبينه ترجمانٌ ولا حاجبٌ يحجبه**» رواه البخاريّ[2].

فإن قالت المشبّهة: دليلنا على أن كلام الله بالحرف والصوت قوله تعالى:

---

(١) **الإتقان في علوم القرءان** (١/ ٢٦٤)، **الفواكه الدواني شرح رسالة القيرواني** (١/ ٥٩).

(٢) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب **التوحيد**: باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.

﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة يس/ ٨٢] فالجواب: لو كان الأمر كما تدّعون لتناقضت هذه الآية مع غيرها من الآيات والقرءان يتعاضد ولا يتناقض.

وإنما معنى هذه الآية أن الله يخلق العالم بقوله أي بحكمه الأزليّ بوجوده أي أن الله حكم في الأزل بوجود العالم فوُجد بذلك الحكم. والحكم قول وليس المعنى أن الله ينطق بالكاف والنون. ثم «كن» لغةٌ عربيّةٌ والله تعالى كان قبل اللغات كلِّها وقبل أصناف المخلوقات فعلى قول المشبّهة يلزم أن يكون الله ساكتًا قبلُ ثم صار متكلّمًا وهذا محالٌ لأن هذا شأن البشر وغيرِهم، وقد قال أهل السنّة: لو كان يجوز على الله أن يتكلم بالحرف والصوت لجاز عليه كل الأعراض من الحركة والسكون والبرودة واليبوسة والألوان والروائح والطعوم وغير ذلك وهذا محالٌ.

وقال بعض أهل السنّة إن قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة يس/ ٨٢] هو عبارة عن إيجاد الشيء في الوقت الذي شاء وجوده فيه من غير تأخير ولا ممانعة من أحد وقد تقدم كل ذلك فالتفسيران اللذان ذهب إليهما أهل السنّة موافقان للعقل والنقل.

أما ما ذهبت إليه المجسّمة من أن الله ينطق بالكاف والنون عند خلق كلّ فرد من أفراد المخلوقات هو سفهٌ لا يقول به عاقل، لأنهم إن قالوا قبل إيجاد المخلوق ينطق الله بهذه الكلمة المركّبة من كاف ونون فيكون خطابًا للمعدوم، وإن قالوا إنه يقول ذلك بعد إيجاد الشيء فلا معنى لإيجاد الموجود.

ويقال لهم الكاف والنون مخلوقان ما كانا موجودين في الأزل ولا يتصف بكلام حادث ولا بقدرة حادثة لأنه لو كان يتصف بصفة حادثة لكان مثلَ خلقه لأن الخلق يتصفون بصفة حادثة. فالإنسان أوّل ما يخرج من بطن أُمِّهِ لا يتكلم ولا يعلم شيئًا ثم يحدث له علم وكلام. المشبّهة بسخافة عقولهم جعلوا الله مثل خلقه لأن كلّ حادث مخلوق والخالق لا يجوز أن يكون حادثًا ولا يجوز أن يتصف بصفة حادثة.

ثم إنه يلزم على قول المجسّمة بشاعة كبيرة وهي أن الله تبارك وتعالى لا يتفرّغ منَ النطق بكلمة «كن» وليس له فعل إلا ذلك، لأنه في كلّ لحظة يخلق ما لا يدخل تحت الحصر. فكيف يصح في العقل أن يخاطب الله كل فرد من أفراد المخلوقات بهذا الحرف؟ كيف يعقل أن ينطق الله تعالى بالكاف والنون بعدد كل مخلوق يخلقه؟ فإن هذا ظاهر الفساد لأنه يلزم عليه أن يكون الله ليس له كلام إلا الكاف والنون. فما أبشع هذا الاعتقاد المؤدّي إلى هذه البشاعة. فالتفسيران الأوّلان أحدهما وهو الأوّل قال به الأشاعرة كالبيهقيّ والثاني قال به الإمام أبو منصور الماتريدي.

ثم إن الله ما وصف نفسه بالنطق إنما وصف نفسه بالكلام أي بأنه متكلم فلو كان كلام الله نطقًا لجاءت بذلك ءاية من القرءان. والموجود في القرءان الكلام والقول وهما عبارة عن معنًى قائم بذات الله أي ثابتٍ له معناه الذكر والإخبار وليس نطقًا بالحروف والصوت. وقد ألّف الحافظ أبو الحسن علي بن أبي المكارم المقدسي جزءًا في تضعيف أحاديث الصوت على وجه التحقيق[1]، وصرّح البيهقيّ رحمه الله بأنه لا يصح حديث في نسبة الصوت إلى الله تعالى[2].

الكلام على أحاديث الصوت:

من قال: إن الله يتكلم بصوت وقال: إنه صوت أزليّ أبديّ أي صفة أزليّة أبديّة ليس فيه تعاقب الحروف فلا يكفّر إن كان نيته كما يقول، وإلا فهو كافر كسائر المشبّهة. وأما أحاديث الصوت فليس فيها ما يحتج به في العقائد، وقد ورد حديث مختلف في بعض رواته وهو عبد الله بن محمد بن عقيل[3]،

---

(١) **نجم المهتدي ورجم المعتدي** (ص/ ٢٤٧).

(٢) **الأسماء والصفات**: باب قول الله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ (ص/ ٢٧٣).

(٣) قال ابن الجوزي: «عبد الله بن محمد بن عقيل بن أبي طالب أبو محمد المديني يروي عن ابن عمر وجابر وأنس قال يحيى ضعيف وقال الترمذي هو صدوق لكن=

روى حديثه البخاريّ[1] بصيغة التمريض، قال: «ويذكر»، وفيه: «**فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك أنا الديان**»، وإنما ذكره البخاريّ بصيغة التمريض من أجل راويه هذا، قال الحافظ ابن حجر[2]: «ونظر البخاريّ أدق من أن يعترض عليه بمثل هذا فإنه حيث ذكر الارتحال فقط جزم به لأن الإسناد حسن وقد اعتضد، وحيث ذكر طرفًا من المتن لم يجزم به لأن لفظ الصوت مما يتوقف في إطلاق نسبته إلى الربّ ويحتاج إلى تأويل، فلا يكفي فيه مجيء الحديث من طريق مختلف فيها ولو اعتضدت» اهـ أي لا يكفي ذلك في مسائل الاعتقاد وإن كان البخاريّ ذكر أوّله في كتاب العلم[3] بصيغة الجزم لأنه ليس فيه ذكر الصوت، إنما فيه ذكر رحيل جابر بن عبد الله إلى عبد الله بن أنيس من المدينة إلى مصر.

والحديث الآخر[4] عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبيّ ﷺ: «**يقول الله يوم القيامة: يا ءادم، فيقول: لبّيك وسعديك، فينادَى بصوت: إن الله يأمرك أن تُخرج من ذريتك بعثًا إلى النار**»، هذا اللفظ رواه رُوَاةُ البخاريّ على وجهين، بعضهم رواه بكسر الدال وبعضهم رواه بفتح الدال، قال الحافظ

= تكلم فيه بعضهم من قبل حفظه قال البخاري كان أحمد وإسحاق والحميدي يحتجون بحديثه وقال ابن حبان كان رديء الحفظ يحدث على التوهم فيجيء بالخبر على غير سننه فوجبت مجانبة أخباره» اهـ. (**الضعفاء والمتروكين** لابن الجوزي ٢/ ١٤٠).

(١) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب التوحيد: باب قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾.

(٢) **فتح الباري** (١/ ١٧٤-١٧٥).

(٣) رواه البخاري في **صحيحه** تعليقًا: كتاب العلم: باب الخروج في طلب العلم.

(٤) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب **التوحيد**: باب قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ الآية.

ابن حجر[1]: «ووقع فينادي مضبوطًا للأكثر بكسر الدال، وفي رواية أبي ذرّ بفتحها على البناء للمجهول، ولا محذور في رواية الجمهور، فإن قرينة قوله: «**إن الله يأمرك**» تدلّ ظاهرًا على أن المنادِي مَلَكٌ يأمره الله بأن ينادي بذلك» اهـ. وهذا الحديث رواه البخاريّ موصولًا مسندًا، لكنه ليس صريحًا في إثبات الصوت صفة لله فلا حجّة فيه لذلك للصوتية.

قال الحافظ ابن حجر[2]: «قال البيهقيّ: اختلف الحفاظ في الاحتجاج بروايات ابن عقيل لسوء حفظه، ولم يثبت لفظ الصوت في حديث صحيح عن النبيّ غير حديثه، فإن كان ثابتًا فإنه يرجع إلى غيره في حديث ابن مسعود[3] وفي حديث أبي هريرة أن الملائكة يسمعون عند حصول الوحي صوتًا، فيحتمل أن يكون الصوت للسماء أو للملك الآتي بالوحي أو لأجنحة الملائكة، وإذا احتمل ذلك لم يكن نصًّا في المسألة، وأشار - يعني البيهقيّ - في موضع ءاخر إلى أن الراوي أراد فينادي نداء فعبر عنه بصوت» اهـ.

قال الكوثريّ في مقالاته ما نصه[4]: «ولم يصح في نسبة الصوت إلى الله حديث» اهـ. وكذا قال البيهقيّ في الأسماء والصفات[5]، فليس فيها ما يصح

---

(١) **فتح الباري** (١٣/ ٤٦٠).

(٢) **فتح الباري** (١٣/ ٤٥٨).

(٣) يعني به قوله: «إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السموات شيئًا، فإذا فُزّع عن قلوبهم وسكن الصوت عرفوا أنه الحقّ، ونادوا ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق» رواه البخاري، وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا قضى الله الأمر= = في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله كأنه سلسلة على صفوان، قال علي: وقال غيره «صفوان» ينفذهم ذلك، فإذا فزّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق وهو العلي الكبير» رواه البخاري.

(٤) **المقالات** (ص/ ٣٢).

(٥) **الأسماء والصفات** (ص/ ٢٧٣).

الاحتجاج به لإثبات الصفات لأن حديث الصفات لا يقبل إلا أن يكون رواته كلهم متفقًا على توثيقهم، وهذه الروايات المذكورة في فتح الباري في كتاب التوحيد[1] ليست على هذا الشرط الذي لا بدّ من حصوله لأحاديث الصفات كما ذكره صاحب الفتح في كتاب العلم[2]. لكنه خالف في موضع بما أورده في كتاب التوحيد من قوله[3]: «إذ الصوت قد يكون من غير مخارج، وإذا ثبت ذكر الصوت بهذه الأحاديث الصحيحة وجب الإيمان به ثم إما التفويض وإما التأويل». ويردّ كلامه بأن القول بأن من الصوت ما هو قديم ومنه ما هو حادث جمع بين متناقضين فهو كالقول بأن الله جسم لا كالأجسام وقد كفّر الإمام أحمد بن حنبل قائل ذلك كما ذكر ذلك صاحب الخصال من الحنابلة[4].

ثم قال الكوثري[5]: «وقد أفاض الحافظ أبو الحسن المقدسي شيخ المنذري في رسالة خاصة في تبيين بطلان الروايات في ذلك زيادة على ما يوجبه الدليل العقلي القاضي بتنزيه الله عن حلول الحوادث فيه سبحانه، وإن أجاز ذلك الشيخ الحراني تبعًا لابن ملكا اليهودي الفيلسوف المتمسلم، حتى اجترأ على أن يزعم أن اللفظ حادث شخصًا قديم نوعًا، يعني أن اللفظ صادر منه تعالى بالحرف والصوت فيكون حادثًا حتمًا، لكن ما من لفظ إلا وقبله لفظ صدر منه إلى ما لا أوّل له فيكون قديمًا بالنوع، ويكون قدمه بهذا الاعتبار في نظر هذا المخرف،

---

(١) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب **التوحيد**: باب قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾.

(٢) **فتح الباري** (١/ ١٧٤).

(٣) **فتح الباري** (١٣/ ٤٥٨).

(٤) **تشنيف المسامع** (٤/ ٨٥).

(٥) **مقالات الكوثري** (ص/ ٥٩).

تعالى الله عن إفك الأفّاكين، ولم يدر المسكين بطلان القول بحلول الحوادث في الله جلّ شأنه وأن القول بحوادث لا أوّل لها هذيان، لأن الحركة انتقال من حالة إلى حالة، فهي تقتضي بحسب ماهيتها كونها مسبوقة بالغير، والأزل ينافي كونه مسبوقًا بالغير، فوجب أن يكون الجمع بينهما محالًا، ولأنه لا وجود للنوع إلا في ضمن أفراده، فادعاء قدم النوع مع الاعتراف بحدوث الأفراد يكون ظاهر البطلان. وقد أجاد الرد عليه العلّامة قاسم في كلامه على المسايرة» اهـ.

قلت: وقد ذكر الفقيه المتكلم ابن المعلم القرشي في كتابه نجم المهتدي ورجم المعتدي أثناء ترجمة الحافظ ناصر السنّة أبي الحسن علي بن أبي المكارم المقدسي المالكي ما نصه[1]: «كان صحيح الاعتقاد مخالفًا للطائفة التي تزعم أنها أثريّة، صنف كتابه المعروف بكتاب الأصوات أظهر فيه تضعيف رواة أحاديث الأصوات وأوهاهم، وحكى الشيخ تقي الدين شرف الحفاظ عن والده مجد الدين قال بأنه بلغ رتبة المجتهدين» اهـ.

فلا يصحّ حمل ما ورد في النصّ من النداء المضاف إلى الله تعالى في حديث[2]: «**يحشر الله العباد فيناديهم بصوت**» على الصوت على معنى خروجه من الله، فتمسُّك المشبّهة بالظاهر لاعتقاد ذلك تمويه لا يروج إلا عند سخفاء العقول الذين حُرِموا منفعة العقل الذي جعل الشرع له اعتبارًا، وهل عرفت المعجزة أنها دليل على صحة نبوّة من أتى بها من الأنبياء إلا بالعقل؟!

وقال الكوثريّ في تعليقه على «السيف الصقيل» ما نصه[3]: «وحديث جابر المعلق في صحيح البخاريّ مع ضعفه في سياق ما بعده من حديث أبي

---

(١) **نجم المهتدي ورجم المعتدي** (ص/ ٢٤٩).

(٢) رواه البخاري في **صحيحه** معلقًا بصيغة التمريض: كتاب **التوحيد**: باب قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾.

(٣) **السيف الصقيل** (ص/ ٥٢).

سعيد ما يدلّ على أن المنادي غير الله حيث يقول»... **فينادى بصوت إن الله يأمرك**... «فيكون الإسناد مجازيًّا، على أن الناظم[1] ساق في «حادي الأرواح» بطريق الدارقطني حديثًا فيه: «**يبعث الله يوم القيامة مناديًا بصوت**...» وهذا نص من النبيّ ﷺ على أن الإسناد في الحديث السابق مجازيّ، وهكذا يخرب الناظم بيته بيده وبأيدي المسلمين، وللحافظ أبي الحسن المقدسي جزء في تبيين وجوه الضعف في أحاديث الصوت فليراجع ثمة» اهـ.

وهناك حديث ءاخر[2]: «**إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السموات شيئًا**» رواه البخاريّ، و رواه أبو داود بلفظ[3]: «**سمع أهل السماء للسماء صَلْصَلَةً كَجَرِّ السِّلْسِلَةِ عَلَى الصَّفْوَانِ**»، وهذا قد يحتج به المشبّهة وليس لهم فيه حجة لأن الصوت خارجٌ من السماء، فالحديث فسر الحديث بأن الصوت للسماء، فتبيّن أن قول الحافظ ابن حجر في موضع من الشرح: إن إسناد الصوت إلى الله ثبت بهذه الأحاديث الصحيحة فيه نظر فليتأمّل.

قال الشيبانيّ في «شرح الطحاوية» ما نصه: «والحرف والصوت مخلوق، خلق الله تعالى ليحصل به التفاهم والتخاطب لحاجة العباد إلى ذلك – أي الحروف والأصوات –، والبارئ سبحانه وتعالى وكلامه مستغن عن ذلك – أي عن الحروف والأصوات –، وهو معنى قوله – أي الطحاوي – ومن وصف الله تعالى بمعنى من معاني البشر فقد كفر» اهـ.

فنقول أجمع أهل السنّة على أن كلام الله الذّاتيّ الذي ليس بحرف وصوت وهو أزليّ أبديّ لا يتجزّأ ولا يتبعّض كحياته فهو كلام واحد لأن ما يتجزّأ

---

(١) يعني ابن زفيل وهو ابن قيم الجوزية

(٢) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب التوحيد: باب قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ الآية.

(٣) رواه أبو داود في **سننه**: كتاب السنة: باب في القرءان.

ويتبعّض حادث والله لا يتّصف بصفة حادثة فكما أن حياته حياة واحدة أزليّة أبديّة لا تتجزّأ كذلك صفة الكلام والقدرة والإرادة والسمع والبصر والعلم كل صفة من هؤلاء صفة واحدة. أما القرءان بمعنى اللفظ المنزل الذي قرأه جبريل على النبيّ فهو مخلوق لله تعالى لأن الحرف والصوت مخلوقان ومع هذا لا يقال القرءان مخلوق على هذا المعنى أدبًا، لكن يُذكر في مقام التعليم أن القرءان بمعنى اللفظ المنزل مخلوق لله.

وأما الكتب المنزلة فعبارة عن الكلام الذّاتيّ الأزليّ الأبديّ ودلالة عليه، ولا يلزم من كون العبارة حادثا كون المعبَّر عنه حادثا ألا ترى أننا إذا كتبنا على لوح أو جدران «الله» فقيل هذا الله فهل معنى هذا أن أشكال الحروف المرسومة هي عين ذات الله؟! لا يتوهم هذا عاقل إنما يفهم من ذلك أن هذه الحروف عبارة عن الإله الذي هو موجودٌ معبودٌ خالقٌ لكل شيء؛ ومع هذا لا يقال القرءان مخلوقٌ لكن يبيّن في مقام التعليم أن اللفظ المنزّل ليس قائما بذات الله بل مخلوقٌ لأنه حروفٌ يسبق بعضها بعضا حادثٌ مخلوقٌ قطعًا. لكنه ليس من تصنيف ملكٍ ولا بشرٍ فهو عبارةٌ عن الكلام الذّاتيّ الذي لا يوصف بأنه عربيٌّ، ولا بأنه عبرانيٌّ، ولا بأنه سريانيٌّ، وكلٌّ يطلق عليه كلام الله، أي أن صفة الكلام القائمة بذات الله يقال لها كلام الله، واللفظ المنزّل الذي هو عبارة عنه يقال له كلام الله.

تنبيه:

ذكر التفتازانيّ[1] في شرحه أن قولنا لموسى كليم الله ليس لأنه سمع الكلام الذّاتيّ إنما معناه سمع صوتا دالًا على كلام الله تعالى بغير واسطة ملك أو غيره لذلك سُمِّيَ كليم الله، وهذا غير مستحسن وذَكَرَ أنه لا يجوز أن يُسمعَ ما ليس

(١) **شرح العقائد** (ص/ ٩٤).

بصوت وينقل هذا عن الماتريديّ وينسبه إليه[1]، لكن الماتريدي لا يقول إن الكلام الذّاتيّ الذي هو غير صوت لا يصح أن يسمع أما فيما يتعلق بموسى فيحتمل أنه وجد ذلك في بعض عبارات الماتريديّ فشهروا عنه هذا القول، ونحن نقول سماع ما ليس بحرف ولا صوت جائز ممكن فكما أنه يصح أن يسمع الحرف والصوت كذلك يصح سماع الكلام الذي ليس بحرف ولا صوت إذا أزال الله المانع من العبد.

قال المؤلف رحمه الله: والقرءانُ كلامُ اللهِ تكلَّم به البارئ جلَّت عظمتُه قبل خلق المخلوقين جميعا.

الشرح: قال الزركشيّ[2]: «القرءان لفظ مشترك يطلق ويراد به المقروء وهو صفةٌ قديمةٌ قائمةٌ بذات الله تعالى وليست من قبيل الحروف والأصوات، ويدلّ عليه قول السلف قاطبة القرءان كلام الله وهو غير مخلوق. وكما نعقل متكلمًا لا مخارج له ولا أدوات كذلك نعقل كلامًا ليس بحروفٍ ولا أصواتٍ. والدليل عليه أنّ كلامه صفةٌ موجودةٌ، والحروف إن كانت كتابةً فهي أجسامٌ وإن كانت حركاتِ أدواتٍ فهي أعراضٌ، ومحالٌ قيام الأجسام والأعراض بالبارئ تعالى عن ذلك، ويلزم القائلَ بذلك القولُ بخلق القرءان.

ويطلق ويراد به العبارات الدّالّة على الصفة القديمة التي هي القراءة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [سورة القيامة/ ١٧] أي قراءته إذ ليس

---

(١) شُهِرَ ذلك عند الماتريدية ووافقهم بعض الأشاعرة بأن الكلام الذاتي لا يُسمع وإنما يسمع دليله لامتناع سماع ما ليس بصوت، ولكن المعتمد أنه يصح أن يُسمع إذا أزال الله من العبد المانع فإنه يسمع ولا يلزم حدوثه لحدوث السامع فالكلام الأزلي الذي ليس حروفًا متعاقبةً العبدُ يسمعه ويسمَعُهُ الله، كما أنه يرى الذات المقدس المنزه عن الاقتران بالزمان والمكان والشكل والهيئة، وذلك الذات المقدس ربنا تبارك وتعالى يجوز عقلًا أن يُرى للعباد.

(٢) **تشنيف المسامع** (٤/ ٦٨٠).

للقرءان قرءانٌ ءاخر، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ [سورة القيامة/ ١٨] أي قراءته، وقوله تعالى: ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ﴾ [سورة الإسراء/ ٧٨] وقوله عزّ وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [سورة القصص/ ٨٥] أي القراءة، ومنه حديث: «**ما أذن الله لشيء كأذنه لنبي حسن الترنم يتغنّى بالقرءان**» ومعناه بالقراءة رواه أحمد في مسنده، ويدل عليه قول السّلف القرءان معجزة رسول الله ﷺ، فيستحيل أن يكون القديم معجزة إذ لا اختصاص للصفة الأزليّة ببعض المتحدّين، وسمى الرب تعالى الصلاة قرءانًا لاشتمالها على القراءة فقال تعالى: ﴿ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [سورة الإسراء ٧٨]» اهـ.

وإن قصد به اللفظ المنزّل فمنه ما هو باللغة العِبريّة ومنه ما هو باللغة السّريانية وهذه اللغات وغيرها من اللغات لم تكن موجودةً فخلقها الله تعالى فصارت موجودةً والله تعالى كان قبل كل شيء، وكان متكلّما قبلها ولم يزل متكلّما وكلامه الذي هو صفته أزليّ أبديّ وهذه الكتب المنزّلة كلّها عباراتٌ عن ذلك الكلام الذّاتيّ الأزليّ الأبديّ، ولا يلزم من كون العبارة حادثة كون المعبَّر عنه حادثا.

والإطلاقان من باب الحقيقة لأن الحقيقة إما لغويّةٌ وإما شرعيّةٌ وإما عرفيّةٌ. فاللفظ من ألفاظ اللغة العربية إذا كان يستعمل لمعنىً واحد أو لأكثر من معنى فإذا استعمل في معناه الحقيقي يقال له حقيقة لغوية، وإن نقل إلى معنى ءاخر فذلك المعنى الآخر مجازٌ بالنسبة لهذا اللفظ.

وأمّا الحقيقة الشرعيّة فالمراد بها أن حملة الشرع يستعملون تلك الكلمة في معنى معروف عندهم اصطلحوا عليه، فهذا الإطلاق الذي اصطلحوا عليه يقال له حقيقة شرعيّة بحيث إذا أطلق هذا اللفظ يتبادر منه هذا المعنى الذي يعرفه أهل الشرع.

وأما الحقيقة العرفيّة فالمراد بها عرف الناس وعاداتهم، مثال ذلك كلمة الدابة في الأصل معناها كل ما يدبّ على وجه الأرض من إنسان وبهائم

وحشرات، ثم الناس جعلوه للحمار وشبه ذلك، فعلى الحقيقة العرفية هذه الكلمة معناها الحمار وشبه ذلك.

فإذًا القرءان قد يراد به اللفظ المنزل الذي هو عبارة عن كلام الله الذاتي وليس هو عين كلام الله لأن كلام الله الذاتي ليس حرفا ولا صوتا ولا لغة كما تقدم. وتقريب ذلك أنه يصح أن يقال تلفّظت «الله» أي بلفظ يدلّ على ذات الله المقدّس، ويقال كتبت «الله» أي أشكال الحروف الدالة على الذّات القديم، فإن قيل إذا لم يكن اللفظ المنزّل عين كلام الله الذّاتيّ فكيف كان نزوله على سيدنا محمد؟ فالجواب ما قاله بعض العلماء: إن جبريل وجده مكتوبًا في اللوح المحفوظ فأنزله بأمر الله له على سيدنا محمد قراءةً عليه لا مكتوبا في صحفٍ، ويدلّ لذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [سورة الحاقة/ ٤٠] أي مقروء جبريل فلو كان هذا اللفظ المنزل عين كلام الله الذّاتيّ لم يقل الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ أي جبريل لأن جبريل هو المراد بالرسول الكريم.

قال الزركشيّ[1]: «واعلم أن الناس في كلام الله تعالى ثلاث فرق:

أهل السنّة يقولون إن كلامه تعالى معنى نفسانيّ قائم بذاته تعالى قديم منزّه عن الحرف والصوت، وما يأتينا من الحروف والأصوات الدالة عليه على لسان الرسل حادث ولكن نتجنب إطلاق هذا الاسم عليه أدبًا إلا عند الحاجة إلى البيان ليعلم، ويطلق أن كلام الله منزلٌ غير مخلوق تأسيًا بالسلف الصالح وحذرًا من إيهام نفي الكلام الأزلي.

والفرقة الثانية المعتزلة لا يثبتون كلام النفس[2].

والثالثة الحشويّة القائلون بأنه يتكلم بحرف وصوت قائمٍ بذاته، وهم قسمان: قسم يلتزمون حلول الحوادث بذاته، تعالى الله عن قولهم. وشرذمة

---

(١) **تشنيف المسامع** (٤/ ٦٨٢).

(٢) أي لا يثبتون كلامًا ثابتًا لذات الله أزليا أبديا.

يقولون الحروف والأصوات قديمة، وهؤلاء لا يفهمون ما يقولون لأنا نعلم ضرورة وحسًّا بأن الكاف قبل النون ولا يجتمعان في زمنٍ واحدٍ، ثم يلزمهم ما لزم النصارى في اعتقادهم أن صفة من صفات الله القديمة وجدت بالمسيح إما كلامه أو علمه فأثبتوا قدمه وكفّرهم جميع المسلمين وتبرؤوا منهم وبينوا أن الصفة الواحدة يستحيل أن توجد في موصوفين كما لا يصح أن يوجد جوهر واحد في مكانين[1]، وكيف يستقيم بعد ذلك أن يقال إن صفة الله التي هي كلامه القديم وجدت في المصاحف والمحدثات، بل هذا شر من قول النصارى لقصرهم ذلك على المسيح وحده، وهؤلاء يقولون إن كلام الله تعالى وجد في أكثر المخلوقات، ولقد كثر تشنيعهم على الأشاعرة في هذه المسألة ولو تنبهوا لشرّ مقالتهم لعلموا أنها الأشنع[2]» اهـ.

ثم إن الألفاظ المستعملة فيما يتعلق بالقرءان: القراءة والمقروء والقرءان، فالقراءة فعل العبد أي جبريلَ والنبِيّ وسائرِ المؤمنينَ الذين يقرؤونه، وقد ورد إسناد القراءة إلى الله تعالى مرادًا به قراءة جبريل؛ لأنها بأمر الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [سورة القيامة/ ١٨] ومعنى ذلك أن جبريل يقرؤه على النبيّ بأمر الله تعالى له بذلك، وأما أن يكون الله تعالى يقرؤه بذاته على النبيّ شيئًا فشيئًا كما يقرأ الأستاذ المقرئ على الطالب شيئًا فشيئًا فهو تشبيه لله بخلقه، فتعيّن المصير إلى أن قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [سورة القيامة/ ١٨] إسنادٌ منه لقراءة جبريل التي هي بأمره إلى نفسه لكونه الآمرَ جبريلَ بذلك[3].

---

(١) عين ذلك الجوهر مستحيل أن يوجد في مكانين أما هذا التطور الذي يحصل لبعض الأولياء فهو ليس عندهم الجسد الأصلي عينه يوجد في مكانين فأكثر، إنما يكون له مِثالٌ للأصلي مع كون الروح تُدَبرُ الجسدين.

(٢) أي أن مقالة المشبهة هي الشنيعة لا مقالة الأشاعرة.

(٣) وقد ورد عن بعض السلف تفسير لهذه الجملة بالجَمع، أي فإذا جمعناه في صدرك=

وأمّا المقروء فهو كلام اللَّه الذي هو صفته، والمراد بقولهم إنه مقروءٌ قراءة الألفاظ التي هي عبارة عنه، فهو أي الكلام الذّاتيّ مقروءٌ بالتعبير عنه بالألفاظ التي هي عبارةٌ عنه، فاللَّه تبارك وتعالى يسمّى متكلّمًا لأنه متّصفٌ بكلامٍ قائمٍ بذاته أزليّ أبديّ ليس يحدث ثم ينقضي ثم يحدث ثم ينقضي ثم يحدث ثم ينقضي إلى ما لا نهاية له.

وأما القرءان فتارةً يطلق على القراءة التي هي مخلوقةٌ قال اللَّه تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ [سورة الإسراء/ ٧٨] أي القراءة في صلاة الفجر، وتارة يطلق على المصحف دون القراءة روى أحمد في مسنده أن النبيّ ﷺ قال: «**لا تسافروا بالقرءان**[1] **إلى أرض العدو**[2]» نهي عن المسافرة بالمصحف إلى أرض الكفّار صيانةً له من الاستخفاف به ولم يُرِدْ به النهي عن القراءة، ويُعَرَّفُ القرءان بمعنى اللّفظ بقولهم اللفظ المنزّل على سيّدنا محمد للإعجاز بأقصرِ سورةٍ منه. ثمّ إطلاق القرءان على الكلام الذّاتيّ حقيقةٌ عقلًا وشرعًا، وإطلاق القرءان على اللفظ المنزّل حقيقة شرعيّةٌ فقط، فإذا ذكر لفظ القرءان مع قرينة تدلّ على الحدوث والحلول نحو أن يقال قرأت جزءًا من القرءان أو نصف القرءان، أو ثلثه،

= فاتبع قرآنه فاعمل به وهذا التفسير أحسن ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [سورة القيامة/ ١٦-١٨]. كان الرسول ﷺ يحرك لسانه في أثناء قراءة جبريل عليه حتى لا تفلت منه الكلمة فأنزل الله تعالى أن لا يفعل ذلك ووعده بأنه يجمعه له في صدره لا يفلت منه شيء مما يقرؤه جبريل عليه، قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ معناه أنا كافل لك لجمعه في صدرك وقراءته باللسان أي ضمِنًّا لك حفظه وقراءته باللسان فترك رسول الله تحريك لسانه بعد هذا.

(١) هنا المراد بالقراءن المصحف، ومراد النبيّ ﷺ بهذا الحديث تحريم حمله إلى بلاد الكفار إن كان يخشى من استهانة الكفار به بأن يمزقوه ويرموا به في القاذورات، أما إذا أمن ذلك فحمله إلى بلاد الكفار والمسافرة به جائزة.

(٢) **مشاكل الآثار** (٢/ ٣٦٩)، وأبو نعيم في **الحلية** (٨/ ٢٦٥).

أو ربعه يحمل على القراءة والمصحف، وإذا ذكر مطلقًا يحمل على الصفة الأزليّة القائمة بالذّات.

فتبيّن أنّه لا يجوز أن يقال القرءان مخلوقٌ على الإطلاق، وهذا كما إذا قال الرجل «الله» مطلقًا عن القيد يفهم من إطلاقه الذّات المقدّس جلّ جلاله، وإذا قرنته بقرينةٍ تدلّ على الحدوث نحو أن تقول: «كتبت الله» أو «تلفظت الله» يحمل على هذه الحروف المنقوشة والحروف المقطعة.

قال أبو القاسم الأنصاريّ في مسئلة الكلام ما نصه[1]: «فأما المقروء بالقراءة فهو المفهوم منها المعلوم وهو الكلام القديم الذي يدلّ عليه العبارات وليس منها، والمقروء لا يحل القارئ ولا يقوم به، وسبيل القراءة والمقروء كسبيل الذِّكر والمذكورِ[2]» اهـ، فالذِّكرُ يرجع إلى أقوال الذّاكرِ والربُّ المذكورُ المسبّحُ الممجدُ غيرُ الذِّكرِ والتّسبيحِ والتّمجيدِ.

والذي يدلّ على ما قلناه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ [سورة فاطر/ ٢٩] وقوله للنبي ﷺ: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [سورة العنكبوت/ ٤٥]، ففرّق بين التلاوة وبين المتلوّ.

لا بد أن نتنبه لأمر وهو أن القرءان بمعنى الصفة الأزليّة غير مخلوق لاستحالة قيام المخلوق بذات القديم تبارك وتعالى واستحالة كون الحروف المؤلفة المركبة قديمةً كما ذهب إليه المجسّمة وقد مرّ ذكر أن الله تعالى متكلم من غير أن يكون كلامه أصواتًا وحروفًا.

فمن أراد أن يُفهمهم ما معنى القديم إذا قيل عن الله أو عن القرءان أو عن صفة من صفات الله تعالى يقول لهم القديم ما ليس لوجوده ابتداء والله تعالى

---

(١) **شرح الإرشاد** (ق/ ١٦١-١٦٣).

(٢) التالي يذكر الله فالعبد ذاكِرٌ والله مذكور ولا يُفهم من ذلك حلول الله في الذاكر ولا حدوث المذكور.

ليس لوجوده ابتداء، كذلك علمه وكلامه الذّاتيّ ليس له ابتداء، والقرءان بهذا المعنى أي بمعنى الكلام الذّاتيّ فهو قديم لا ابتداء لوجوده، أما اللفظ المنزل على سيدنا محمد ﷺ فهذا لوجوده ابتداء لأنه مخلوق للَّه وجبريل الذي نزل به مخلوق والنبيّ الذي أنزل عليه مخلوق، وهم يشاهدون حسًّا أن الرجل كان في بدء أمره ساكتا ثم يقول «بسم اللَّه الرحمن الرحيم» يأتي بالباء ثم تنقضي ثم بالسين ثم تنقضي ثم بالميم فتنقضي وهكذا إلى ءاخر القرءان كيف يقولون عن هذا اللفظ «غير مخلوق» كما يقول هؤلاء الصوتيّون القرءان غير مخلوق، ومن قال «مخلوق» ولو كان قصده اللفظ أي أن اللفظ خلقه اللَّه فهو كافر عندهم نعوذ باللَّه من فساد الفهم فإنه من أعظم المصائب.

وما ينقل عن الأئمة من أن القرءان كلام اللَّه غير مخلوق فالمراد به الصفة القديمة الأزليّة ليس اللفظ المنزل المتألف من الحروف، لأن هذا لا يصح إطلاق القديم عليه بمعنى ما لا بداية له، فهو أي اللفظ في اعتقاد المؤمنين مخلوق للَّه تعالى ولكن يمتنع إطلاق قول «القرءان مخلوق» ولو قصد ذلك المعنى أي اللفظ.

قال ابن أبي بكر السعدي الحنبليّ في كتابه «الجوهر المحصل»[1]: «وصح عن الإمام أحمد أنه كان يبدّع من يقول بأن اللفظ بالقرءان غير مخلوق قال العلامة ابن رجب في» الطبقات»[2]: «والصحيح الصريح عنه أنه كان يبدّع قائل ذلك» اهـ. وقد روى ابن الجوزي[3] عن الإمام أحمد رضي اللَّه عنه أنه غضب غضبًا شديدًا على من نسب إليه رضي اللَّه عنه أنه قال لفظي بالقرءان غير مخلوق وأمره بأن يمحوه أشدّ المحو، ومثله نقل الإمام البيهقيّ في «الأسماء

---

(١) **الجوهر المحصل في مناقب الإمام أحمدبن حنبل** (ص/ ٥٩).

(٢) **الذيل على طبقات الحنابلة** (٣/ ٣٠٩).

(٣) **مناقب الإمام أحمد** (ص/ ١٥٥).

والصفات»[1] أن الإمام أحمد كان ينكر هذه العبارة، وقال البخاريّ في كتابه خلق أفعال العباد[2]: «المعروف عن أحمد وأهل العلم أن كلام الله غير مخلوق وما سواه مخلوق وأنهم كرهوا البحث والتنقيب عن الأشياء الغامضة وتجنّبوا أهل الكلام والخوض والتنازع إلا فيما جاء فيه العلم وبيّنه رسول الله ﷺ» اهـ.

تنبيه:

يتلخص مما ذكر أن الذين قالوا القرءان مخلوق من غير أن يعتقدوا أنه ليس لله كلامٌ إلا ما يخلقه في غيره كالمأمون والمعتصم بالله فإنهما لم يساعدا المعتزلة إلا على هذه العبارة القرءان مخلوق ولم يعتقدا أنه ليس لله كلام إلا ما يخلقه في غيره كما هو معتقد المعتزلة فلا يتناول هؤلاء الخلفاء حكم الأئمة بالتكفير على من قال هذه العبارة فبطل ما زعمه بعض الناس من الاحتجاج لترك تكفير المعتزلة بما حصل للخليفة المأمون ومن تبعه من الخلفاء العبّاسيين من موافقة المعتزلة على هذه العبارة، فتبيّن أن قول الأئمة منصبٌّ على المعتزلة القائلين بأنه ليس لله كلامٌ إلا ما يخلقه في غيره وإطلاقهم القول بأن القرءان مخلوق على هذا الوجه.

قال المؤلف رحمه الله: وهو مقدَّسٌ ومنزَّهٌ عما يقول المبتدعون والظالمون والجاحدون، كتابٌ بيَّن الله فيه لعباده الحلال والحرام، والوعد والوعيد، والضرَّ والنفع، وهو الفرقان المبين: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [سورة فصلت/٢٤].

الشرح: مما يدلّ على صحة القرءان وبطلان ما تدّعيه المبتدعة فيه من النقصان والفساد ما صح وثبت من شدّة نصرة السلف للرسول ﷺ، وبذل أموالهم وأنفسهم والجهاد بين يديه، وقتلِهم لآبائهم وإخوانهم في نصرته وتَشْيِيد

---

(١) **الأسماء والصفات** (ص/ ٢٦٥-٢٦٦).

(٢) **خلق أفعال العباد** (ص/ ٤٣).

دعوته وإقامة دينه وشريعته، وما كان من هجرتهم الهجرتين وما احتملوا من العذاب في الله، وحملوا أنفسهم عليه من مفارقة العزّ والأهل والأوطان والدّعة، إلى القلة واحتمال الهوان والضّيم والانتقال عن الديار، وأنّ مَن هذه صفته وسبيله لا يجوز عليه أن يقصد إفساد ما نصره، وإبطال ما أيّده، والقدح فيما دان به.

فإذا استقر ذلك: فاعلم أنّ ما تقوله المبتدعة من أنه حُرّف أو كُتم من قرآن أو غيره هو مما لا فائدة فيه، ولا طائل منه، ولا هو مما يتعلّق بولاية أحدٍ والبراءة من غيره، ولا تقتضي تفضيل تَيْمٍ وعدِيٍّ وبني أُمَيّةَ على بني هاشم، ولا ينقص الولاء ولا يفسد البراءة، ولا يوجب رئاسةً، ولا يقتضي عاجل نفعٍ ورئاسة، ولا يعود بصلاح عاجلةٍ ولا ءاجلةٍ في النفس ولا في العاقبة والذرية. وإذا كان كذلك ثبت أنّ من هذه سبيله لا يجوز أن يحمل عاقلٌ ليس بذي دين نفسه عليه، فضلًا عن أهل الوقار والدين وحسن النسك. فمن التغيير الذي ادّعوه ولا غرض لعاقلٍ منه قولهم إن أبا بكرٍ وعمر وعثمان وغيرهم فصلوا بين الكلام المتصل المتناسب وعُضوه حتى صار منبترًا غير مقيد، وقدّموا المدنيّ على المكيّ في الكتابة والرسم، فالله سبحانه بزعمهم قدّم المكّي على المدني في التأليف والترتيب، ونقصوا قوله: «**وهي صلاة العصر**» من قوله: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [سورة البقرة/ ٢٣٨] وحذفوا قوله: «**ونوائب الدهر، وإن فيه إلى ءاخر الدهر**» من سورة العصر، وأسقطوا قوله: «والشيخ والشيخة فارجموهما ألبتة بما قضيا من اللذة نكالا من الله، والله عزيز حكيم»، أثبتوا مع ذلك الحكم فرضَ الرجم على المحصنين، وأبدلوا مكان قوله: «صراط من أنعمت عليهم» بـــ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [سورة الفاتحة/ ٧]، وحذفوا من قوله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾ [سورة البقرة/ ١٩٦] «متتابعات» ذكر التتابع، وحذفوا من قوله: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [سورة الكهف/ ٩٧]. قوله: «صحيحة»، وأبدلوا مكان قوله: «ولقد نصركم الله ببدر وأنتم ضعفاء» بقوله: ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [سورة ءال عمران/ ١٢٣]. وأسقطوا

من قوله: «حتى تسلّموا وتستأنسوا» ذكر الاستئناس، وأسقطوا من قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [سورة النمل/ ٤٠] «أنا أنا أنظر في كتاب ربي الله، ثم ءاتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك» في أمثالٍ لهذه الترّهات التي قد رويت رواية الآحاد عن قومٍ من السلف يطول تتبُّعها، قد نقلوها من تصانيف أصحاب الحديث ورواة الشواذّ، وعلّقوها على الصحابة، وادّعوا أنّ الأئمة والعترة الهادية وقفتهم على حذف القوم لها وقصدهم إلى نقصانها، وهي بأسرها موجودةٌ في كتب من صنف القراءات وذكر الشواذّ من الروايات، وقصد إلى الإلباس على العامة من أتباعهم، ولا غرض لعاقلٍ في هذا الباب ولا نفع في عاجل ولا ءاجل يجري بذلك إليه. وإذا كان كذلك ثبت كذب هذه الروايات وكذب من ادّعى على القوم اعتمادهم التخليط في التأليف ونقصان ما لا غرض في حذفه.

فإن قال المبتدع: ما أنكرتم أن يكونوا إنما قصدوا بذلك الإفساد للشريعة وإيقاع الخلل والتخليط في الكتاب معاندةً للدِّين والرسول فقط، قيل لهم: ما قدمناه من وصف دينهم وتشددهم وعظيم عنائهم ونصرتهم وإنفاقهم وجهادهم في تأييد الدين ونصرة الرسول وإقامة كلمة الحق ينفي ذلك عنهم، وكيف يقصد مثلَ هذا من قتل أباه وأخاه وعشيرته في نُصرة الدين وموردِه، وأنتم إلى التهمة بإفساد الدين والطعن على الشريعة والقرءان وإيقاع التخليط والإلباس فيما يتعلق بالدين أقرب، فلذلك تُقدِمون على قذف الصحابة والجلّة من الأئمة بمثل هذه الأمور، ليحمل العامة أنفسهم على ثَلْب السلف، ثم ثَلْب من قدّمهم الله وأجلّهم وأظهر إكرامهم.

كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان

قال المؤلف رحمه الله: والله تعالى كان ولا مكان، ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض، ولا على مكانٍ ولا في مكانٍ، بل كان جلَّت عظمتُهُ ولا زمانَ ولا مكانَ.

الشرح: روى البخاريّ والبيهقيّ[1] من حديث عمران بن الحصين رضي الله عنه قال «أتى أناس من أهل اليمن إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا رسول الله جئناك لنتفقَّه في الدين فأنبئنا عن بَدْءِ هذا الأمر ما كان قال ﷺ: «**كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء ثم خلق السموات والأرض**». وفي رواية ابن الجارود «أخبرني عن أوّل هذا الأمر»، وهو أيضًا رواية للبخاري[2]، وفي رواية البيهقيّ[3] من طريق أبي معاوية «**كان الله قبل كل شيء**».

فقوله ﷺ: «**كان الله**» أي لم يزل موجودا في الأزل ليس معه غيره؛ لا ماء ولا هواء ولا أرض ولا سماء ولا كرسيّ ولا عرش ولا إنس ولا جن ولا ملائكة ولا زمان ولا مكان ولا جهات فهو تعالى موجود قبل المكان بلا مكان، وهو الذي خلق المكان فليس بحاجة إليه، فكما صحّ وجود الله تعالى بلا مكان وجهة قبل خلق الأماكن والجهات، فكذلك يصح وجوده بعد خلق الأماكن بلا مكان وجهة، وهذا لا يكون نفيا لوجوده تعالى كما زعمت المشبّهة.

تنبيه:

قوله ﷺ: «**كان الله ولم يكن شيء غيره**» هو إحدى روايات هذا الحديث وهي أصرح في إثبات الأزليّة لله تعالى من رواية «كان الله ولم يكن شيء قبله»، وتؤيّدها رواية أبي معاوية «**كان الله قبل كل شيء**»، ورواية «**كان الله ولا شيء معه**»، بخلاف رواية «**ولم يكن شيء قبله**» وفي ذلك ردٌّ لما زعم بعضهم من

---

(١) **صحيح البخاري**: كتاب بدء الخلق: باب ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾، والبيهقي في **الأسماء والصفات** (ص/ ٣٧٥).

(٢) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب التوحيد: باب وكان عرشه على الماء.

(٣) **الأسماء والصفات** (ص/ ٢٣١).

ترجيح رواية «**ولم يكن شيء قبله**» محتجّين لذلك بحديث «**أنت الأوّل فليس قبلك شيء**». والذي دعاهم إلى ذلك أنهم يقولون بحوادث لا أوّل لها فرأَوْا أن رواية «ولم يكن شيء قبله» تناسب معتقدهم هذا. مع أن قضيّة الجمع بين الروايتين تقتضي حمل هذه على التي في بدء الخلق – يعني رواية «ولم يكن شيء غيره» – لا العكس. والجمع يُقَدَّمُ على الترجيح بالاتفاق كما قال ذلك الحافظ ابن حجر[1].

ليس بجوهر:

اللَّه تعالى ليس بجوهر يتحيّز أي يشغل حيزًا بل يتعالى ويتقدس عن مناسبة الحيّز أي المكان.

وتقرير البرهان أن يقال: إن كلّ جوهر متحيّزٌ فهو مختص بحيّزه ولا يخلو من أن يكون ساكنًا فيه أو متحركًا عنه فلا يخلو عن الحركة والسكون، وهما حادثان وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث. ولو تصوّر جوهر متحيّز قديم لكان يعقل قِدم جواهر العالم وهو باطل.

ولم يَرِدْ إطلاق لفظ «الجوهر» على اللَّه لا لغة ولا شرعًا وفي إطلاقه إيهامٌ، تعالى اللَّه عن أن يتطرّق إليه نقص. فإن الجوهر يطلق على الجزء الذي لا يتجزّأ وهو أصغر الأشياء مقدارًا واللَّه منزّه عن ذلك فليس هو جوهرًا، وليس تعالى جسمًا مؤلّفًا من جوهرين أو أكثر فإنه إذا بطل كونه جوهرًا مخصوصًا متحيّزًا بطل كونه جسمًا، لأن كل جسم مختصّ بحيّز ومركب من جواهر والجوهر يستحيل خلوّه عن الاجتماع والافتراق والحركة والسكون والهيئة والمقدار وهذه سِمات الحدوث. ولو جاز أن يعتقد أن صانع العالم جسم لجاز أن يعتقد الألوهيّة للقمر أو لشيء ءاخر من أقسام الأجسام.

---

(١) **فتح الباري (١٣/ ٤١٠).**

ليس بعرض:

وكذلك يستحيل عليه تعالى أن يكون عرضًا، أي ما يقوم بالجسم كقيام بياض الجسم بالجسم فكلّ جسم حادث وما يقوم بالجسم حادث. فكيف يكون حالًّا في الجسم وقد كان موجودًا في الأزل وحده ولم يكن معه غيره ثم أحدث الأجسام والأعراض، ولأنه قادر عالم مريد خالق والأعراض لا تتصف بهذه الصفات. فتحصّل مما ذكرنا أنه تعالى ليس جوهرًا ولا عرضًا، وأن العالم جواهر وأعراض وأجسام، فإذًا لا يشبه شيئًا ولا يشبهه شيء ليس كمثله شيء وأنَّى يشبه المخلوق خالقه والمقدَّر مقدِّره.

ثم إن العرض منه ما يبقى زمانين كاللون، ومنه ما لا يبقى زمانين كالحركة ولا يكون الخالق إلا باقيًا. وأيضًا فإن العرض لا يقوم بنفسه ولا يكون الخالق إلا قائمًا بنفسه. ودليله من كتاب الله تعالى فإنه سبحانه أطلق اسم العرض على شيء يقلّ بقاؤه أو لا يعدّ باقيًا في العرف والعادة، حيث قال تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ [سورة الأنفال/ ٦٧] وقال تعالى: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [سورة الأحقاف/ ٢٤].

ليس جسمًا:

الله تعالى ليس جسمًا، وقد قال سيف الدين الآمدي في كتابه «غاية المرام في علم الكلام» ما نصه[1]: «فإن قيل ما نشاهده من الموجودات ليس إلا أجسامًا وأعراضًا وإثبات قسم ثالث مما لا نعقله. وإذا كانت الموجودات منحصرة فيما ذكرناه فلا جائزٌ أن يكون البارئ عرضًا، لأن العرض مفتقر إلى الجسم والبارئ لا يفتقر إلى شيء وإلا كان المفتقر إليه أشرف منه وهو محال. وإذا بطل أن يكون عرضًا بقي أن يكون جسمًا.

---

(١) **غاية المرام في علم الكلام** (ص/ ١٨٦-١٨٥).

قلنا منشأ الخبط ههنا إنما هو من الوهم بإعطاء الغائب[1] حكم الشاهد، والحكم على غير المحسوس بما حكم به على المحسوس وهو كاذب غير صادق فإن الوهم قد يَرْتَمي إلى أنه لا جسم إلا في مكان بناءً على الشاهد، وإن شهد العقل بأن العالم لا في مكان[2] لكون البرهان قد دلّ على نهايته بل وقد يشتدّ وَهْمُ بعض الناس بحيث يقضي به على العقل وذلك كمن ينفر عن المبيت في بيتٍ فيه ميت لِتَوَهُّمِهِ أنه يتحرك أو يقوم وإن كان عقْله يقضي بانتفاء ذلك، فإذًا اللبيب من ترك الوَهْمَ جانبًا ولم يتخذ غير البرهان والدليل صاحبًا. وإذا عرف أن مستند ذلك ليس إلا مجرد الوهم فطريق كشف الخيال إنما هو بالنظر في البرهان. فإنّا قد بيّنا أنه لا بد من موجود هو مبدئ الكائنات وبيّنا أنه لا جائز أن يكون له مِثْلٌ من الموجودات شاهدًا ولا غائبًا[3]، ومع تسليم هاتين القاعدتين يتبيّن أن ما يقضي به الوهم لا حاصل له، ثم لو لزم أن يكون جسمًا كما في الشاهد للزم أن يكون حادثًا كما في الشاهد وهو ممتنع لما سبق» اهـ.

وقد ذكر الله تعالى في صفة الجسم الزيادة فقال: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى

---

(١) مراده بالغائب الغائبُ عن الحس أي الذي لا يُدرَك بالحس. وفي التحرير لابن الهمام وشرحه لتلميذه ابن أمير الحاج تقبيح التعبير عن الله بالغائب. (**التقرير والتحبير على التحرير** ٣/ ١٦٧).

(٢) أي جملة العالم لا في مكان لأنه لو كان في مكان لاقتضى التسلسل. سأل سائل القاضي أبا بكر ابن الطيب الأشعريّ: هل الخلق في مكان أم لا فقال: يحتمل قولك أمرين: أحدُهما هل الإنس والجن والملائكة وكذا وكذا مما حصل في السماوات والأرض وما بينهما في مكان وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [سورة الأنبياء/ ٣٣] وقال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [سورة هود/ ٦]. والثاني أن تريدَ العالمَ فإن أردت ذلك فمحال أن يكون في مكان لتسلسله وبُطلانه، نقلها السكوني في كتابه **عيون المناظرات**، في المناظرة ١١٧.

(٣) ولا يقال عن الله «يا حاضرًا ليس يغيب»، كما لا يقال «يا غائب» لأن الحضور والغياب صفة المخلوق.

ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ﴾ [سورة البقرة/ ٢٤٧] فبيّن أن ما كان جسمًا جازت عليه الزيادة والنقصان، ولا تجوز الزيادة والنقصان على البارئ سبحانه.

من صفات الإله أنه مستغن عن كل ما سواه، وكل ما سواه محتاج إليه، ومن كان محتاجا إلى مكان يستقرّ أو يتحيّز فيه فإنه ليس إلهًا. روى الحافظ أبو نعيم في كتاب «حلية الأولياء»[1] بالإسناد أن عليًّا رضي الله عنه قال: «من زعم أن إلهنا محدود فقد جهل الخالقَ المعبود» اهـ. ومعنى كلامه أن الله ليس له حجم صغير ولا كبير، ليس كأصغر حجم وهو الجزء الذي لا يتجزّأ ولا كأكبر حجم كالعرش وليس حجمًا أكبر من العرش قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ [سورة الرعد/ ٨] فالله منزّه عن المقدار أي الحدّ والكميّة، فمن قال إنه حجم كبير بقدر العرش أو كحجم الإنسان فقد خالف الآية، كما أنه خالف قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [سورة الشورى/ ١١] لأنه لو كان له حجم لكان له أمثال لا تحصى ولو كان متحيّزا في جهة فوق لكان له أمثال لا تحصى، فالجهات كلها بالنسبة لذات الله على حد سواء، ولذلك يوصف الله بالقريب فلو كان متحيِّزًا فوق العرش لكان بعيدًا ولم يكن قريبًا. قال الإمام زين العابدين رضي الله عنه علي بن الحسين في الصحيفة السجّادية: «سبحانك أنت الله لا إله إلا أنت لا يحويك مكان لا تحس ولا تمس ولا تجس» اهـ، رواه الحافظ محمد مرتضى الزبيدي في كتاب «إتحاف السادة المتقين»[2] بالإسناد المتصل منه إلى زين العابدين.

الوهم يتصوّر أشياء لا حقيقة لها ومثال ذلك لو نظر إنسان إلى البحر عند الغروب وَهْمُهُ يقول له إن السماء ملتصقة بالبحر وإن الشمس تنزل في البحر لكن الواقع غير ذلك، فنحن ننظر إلى العقل ولا ننظر إلى الوهم. وإذا قال المشبّهة كيف يقال الله ليس متصلًا بالعالم ولا منفصلًا عنه هذا لا يقبله العقل. يقال لهم: العقل يقبله لكن الوهم لا يتصوّره، كما لا يتصوّر الوهم عدم وجود النور

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٧٣).

(٢) إتحاف السادة المتقين (٤/ ٣٨٠).

ولا الظلمة في الأزل، وقد أخبر الله أنهما مخلوقان، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [سورة الأنعام/ ١].

وقال العلامة محمد بن أحمد المشهور بميّارة المالكي في كتابه «الدر الثمين»[١]: «مسألة سئل الإمام العالم أبو عبد الله سيّدي محمد بن جلال هل يقال المولى تبارك وتعالى لا داخل العالم ولا خارج العالم فسأله السائل: هكذا نسمعه من بعض شيوخنا واعترضه بعضُهم بأن هذا رفعٌ للنقيضين، وقال بعض فقهائنا في هذه المسألة: هو الكلّ أي الذي قام به كل شيء، وزعم أنه للإمام الغزالي، وأجاب بعضهم أنّ هذا السؤال مُعضِل ولا يجوز السؤال عنه، وزعم أن ابن مِقْلاش هكذا أجاب عنه في شرحه على الرسالة[٢] فأجاب[٣] بأنّا نقول ذلك ونجزم به ونعتقد أنه لا داخلَ العالم ولا خارج العالم، والعجز عن الإدراك إدراك لقيام الدلائل الواضحة على ذلك عقلا ونقلا. أما النقل فالكتاب والسنّة والإجماع، أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [سورة الشورى/ ١١] فلو كان في العالم أو خارجًا عنه لكان مماثلا[٤] وبيان الملازمة واضح، أما في الأوّل فلأنه إن كان فيه صار من جنسه فيجب له ما وجب له. وأما الثاني فلأنه إن كان خارجًا لزم إما اتصاله وإما انفصاله وانفصاله إما بمسافة متناهية أو غير متناهية وذلك كله يؤدّي لافتقاره إلى مخصص[٥]. وأما السنّة فقوله ﷺ: «**كان الله ولا شيء معه**». وأما

---

(١) **الدر الثمين** (ص/ ٣٧-٣٨).

(٢) أي رسالة ابن أبي زيد.

(٣) أي أبو عبد الله سيدي محمد بن جلال.

(٤) لأنه على كلا القولين يلزم أن يكون له مثل وذلك باطل وما أدى إلى الباطل باطل.

(٥) لو قيل إنه بمسافة فإما أن تكون المسافة بعيدة أو قصيرة وعلى كلا الحالين يستلزم هذا أن يكون لله مخصص خصصه بمسافة بعيدة أو قصيرة، والله لا يجوز أن يكون له مخصص لأن ما يحتاج إلى مخصص فهو حادث.

الإجماع فأجمع أهل الحقّ قاطبةً على أن الله تعالى لا جهة له فلا فوقَ له ولا تحتَ ولا يمينَ ولا شمال ولا أمام ولا خلف. وأما العقل فقد اتضح لك اتّضاحًا كُليًّا مما مر في بيان الملازمة في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى/ ١١] والاعتراض بأنه رفع للنقيضين ساقط لأن التناقض إنما يعتبر حيث يتصف المحل بأحد النقيضين ويتواردان عليه، وأما حيث لا يصح تواردهما على المحل ولا يمكن الاتصاف بأحدهما فلا تناقض كما يقال مثلًا الحائط لا أعمى ولا بصير[١]، فلا تناقض لصدق النقيضين فيه لعدم قبوله لهما على البدليّة[٢] وكما يقال في البارئ أيضًا لا فوقَ ولا تحتَ وقِسْ على ذلك. وقول من قال «إنه الكل» زاعمًا أنه للغزاليّ فقضيّةٌ تنحو منحى الفلسفة أخذ بها بعض المتصوفة وذلك بعيد من اللفظ، وما أجاب به بعضهم أنه مُعضِل لا يجوز السؤال عنه ليس كما زعم لوضوح الدليل على ذلك وإن صحّ ذلك عن ابن مِقْلاش فلا يُلتفت إليه في هذا لعدم إتقانه طريقَ المتكلّمين إذ كثير من الفقهاء ليس له خبرة به فضلا عن إتقانه» اهـ.

وقد قال علي رضي الله عنه: «كان الله ولا مكان وهو الآن على ما عليه كان» رواه أبو منصور البغدادي[٣]. قوله «كان الله» أي في الأزل «ولا مكان» أي ولم يكن مكان «وهو الآن» أي بعد أن خلق المكان «على ما عليه كان» أي لم يزل موجودا بلا مكان لأنه لا يجوز عليه التغيّر والتطور والانتقال من حال إلى حال.

الله منزّه عن التمكن في مكان لأن التمكن عبارة عن نفوذ بُعدٍ في بُعدٍ ءاخر متوهَّم أو متحقَّق يسمونه المكانَ، والبُعد عبارة عن امتداد قائم بالجسم

---

(١) كما يصح أن يقال عنه لا عالم ولا جاهل.

(٢) بخلافه في الإنسان فإنه يصح نفي العلم عنه مع وصفه بالجهل كما يصح نفي الجهل عنه مع وصفه بالعلم لأن الإنسان يقبل أحد هذين الأمرين بدل الآخر أما لو قيل لا عالم ولا جاهل لكان فيه رفع للنقيضين.

(٣) **الفرق بين الفرق** (ص/ ٣٣٣).

أو بنفسه عند القائلين بوجود الخلاء والله منزّه عن الامتداد والمقدار لاستلزامه التجزؤ.

والدليل على ذلك أنه لو تحيّز فإما في الأزل فيلزم قدم الحيّز أو لا فيكون محلًا للحوادث وكل ذلك مستحيل وأيضًا إما أن يساوي الحيّز أو ينقص عنه فيكون متناهيًا أو يزيد عليه فيكون متجزّئًا، وإذا لم يكن في مكان لم يكن في جهة لا علوٍ ولا سفل ولا غيرهما لأنها إما حدود وأطراف للأمكنة أو نفس الأمكنة باعتبار عروض الإضافة إلى شيء.

ذكر المحدث الحافظ محمد مرتضى الزبيدي في الاستدلال على ذلك أيضًا ما نصه[1]: «وتحقيقه أنه تعالى لو استقر على مكان أو حاذى مكانًا لم يخل من أن يكون مثل المكان أو أكبر منه أو أصغر منه فإن كان مثل المكان فهو إذًا متشكل بأشكال المكان حتى إذا كان المكان مربَّعًا كان هو مربَّعًا أو كان مثلَّثًا كان هو مثلَّثًا وذلك محال. وإن كان أكبر من المكان فبعضه على المكان ويشعر ذلك بأنه متجزِّئ وله كلٌّ ينطوي على بعض وكان بحيث ينتسب إليه المكان بأنه ربعه أو خمسه، وإن كان أصغر من ذلك المكان بقدر لم يتميّز عن ذلك المكان إلا بتحديد وتتطرّق إليه المساحة والتقدير وكلّ ما يؤدِّي إلى جواز التقدير على البارئ تعالى فتجويزه في حقِّه كفرٌ من معتقده. وكل من جاز عليه الكون بذاته على محلٍّ لم يتميّز عن ذلك المحل إلا بكونٍ وقبيحٌ وصف البارئ بالكون[2] ومتى جاز عليه موازاة مكانٍ أو مماسّته جاز عليه مباينته - يعني مباينة مسافية -، ومن جاز عليه المباينة والمماسّة لم يكن إلا حادثًا، وهل علمنا حدوث العالم إلا بجواز المماسّة والمباينة على أجزائه. وقصارى الجهلة قولهم كيف يتصور موجودٌ لا في محل؟» اهـ.

---

(١) **إتحاف السادة المتقين** (٢/ ١٠٩).

(٢) المراد بالكون الحركة والسكون والاجتماع والافتراق.

ثم قال: «والذي يدحض شبههم أن يقال لهم قبل أن يخلق العالم أو المكان هل كان موجودًا أم لا؟ فمن ضرورة العقل أن يقول بلى فيلزمه لو صح قوله لا يعلم موجود إلا في مكان أحد أمرين: إما أن يقول المكان والعرش والعالم قديم. وإما أن يقول الربّ تعالى محدث وهذا مآل الجهلة والحشوية ليس القديم بالمحدث والمحدث بالقديم» اهـ.

اللَّه تعالى لا يجري عليه زمان، والزمان عند أهل السنّة عبارة عن متجدد يقدّر به متجدد ءاخر. وهو عند الفلاسفة عبارة عن مقدار حركة الفلك واللَّه منزّه عن ذلك جميعًا.

تنبيه:

حكم من يقول: «إن اللَّه تعالى في كل مكان أو في جميع الأماكن» التكفير إذا كان يفهم من هذه العبارة أن اللَّه بذاته منبثٌّ أو حالٌّ في الأماكن، أما إذا كان يفهم من هذه العبارة أنه تعالى مُسيطر على كل شيء وعالم بكل شيء فلا يكفر، وهذا قصد كثير ممن يَلهَجُ بهاتين الكلمتين، ويجب النهي عن هذ الكلام على كل حال، لأنه ليس صادرا عن السلف بل عن المعتزلة ثم استعمله جهلة العوام. وقد أنكر الإمامان أبو منصور الماتريديّ وأبو منصور البغداديّ[1] هذه المقالة أي «اللَّه موجود بكل مكان» ونسباها إلى المعتزلة، فتبيّن أنها ليست من مقالات أهل السنّة كما يزعم كثير من جهلة المتصوفة.

السماء قبلة الدعاء

قال المؤلف رحمه اللَّه: ورفع الأيدي إليه في الدنيا إلى السماء تعبُّدٌ، لا إليه أنَّهُ في السماء، بل كالتوجه إلى الكعبة في الصلاة، فالكعبةُ قبلةُ الصلاة،

(١) أصول الدين (ص/ ٧٧-٧٨).

والسماءُ قبلةُ الدعاء.

الشرح: الله تعالى متنزه عن الجهات والأماكن إذ الجهات والأماكن خلقه أحدثها بعد أن لم تكن فلا يوصف تعالى بفوقية الحيز والمكان، فلو كان فوق العالم بالحيز والمكان لكان محاذيًا له والمحاذي للجسم إما أن يكون مثله أو أصغر منه أو أكبر منه مساحة وما يقدر بالمساحة محتاج لمن خصه بها والمحتاج حادث ولو كان مقدَّرًا بالمساحة لصحّت الألوهية للشمس ونحوها من الكواكب، وقد تقدم الكلام عن هذا مفصّلًا.

وأما رفع الأيدي إلى السماء فلأنّ السماء قبلة الدعاء إذ منها يُتوقّع الخيرات ويُستنزل البركات لقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [سورة الذاريات/ ٢٢] وليس لأن الله يسكنها، تنزه ربي عن المكان والجهات، هذا كما أنهم أُمروا بالتّوجّه في الصلاة إلى الكعبة وليس هو في الكعبة، وأُمروا برمي أبصارهم إلى موضع سجودهم حالة القيام في الصلاة بعد نزول قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ [سورة المؤمنون/ ١-٢] بعدما كانوا يصلّون شاخصةً أبصارهم نحو السماء وليس هو في الأرض، وكذا حالة السجود أمروا بوضع الوجوه على الأرض وليس هو تعالى تحت الأرض، فكذا هذا. وكذا المتحرّي[1] يصلي إلى المشرق واليمن والشام وليس هو تعالى في هذه الجهات. ويحتمل أنه تعالى أمر بالتوجه إلى هذه المواضع المختلفة عند اختلاف الأحوال ليندفع وهم تحيّزه في جهة ويصير ذلك دليلًا لمن عرفه أنه ليس بجهةٍ منّا.

ومما يُردّ به على هؤلاء أنه ثَبتَ عن الرسولِ ﷺ[2] أنه استسقَى، أي طلب

---

(١) أي من لم يعرف القبلة. قد يصلي لغير القبلة وتصح صلاته ولكن يعيد على بعض الأقوال.

(٢) أخرجه مسلم في **صحيحه**: كتاب صلاة الاستسقاء: باب رفع اليدين بالدعاء في الاستسقاء.

المطر وجعل بَطْنَ كفَّيه إلى الأرض وظاهرَهما إلى السماء، وبأنه ﷺ كان يرفع إصبعه المسبحة[1] عند قول «إلا الله» في التحيات ويحنيها قليلا فلو كان الأمرُ كما تقول المشبهة ما كان يحنيها بل يرفعُها إلى السماءِ وكلُّ هذا ثابتٌ حديثًا عند المحدِّثين. فماذا تفعلُ المشبهةُ؟! ونسمّي المساجد بيوت الله لا لأن الله يَسكنُها بل لأنها أماكنُ مُعَدَّة لذكرِ الله وعبادتِهِ، ويقالُ في العرشِ إنه جرمٌ أعدَّه الله ليطوف به الملائكة كما يطوف المؤمنون في الأرض بالكعبة.

وأما مد اليدين فمعناه استنزال الرحمة والله لا يخيب القاصدين بحق، فهذا الداعي الذي دعا الله تعالى وكان مادًّا يديه إلى السماء ليستنزل الرحمات من الله تعالى، إذا مسح بعد إنهاء الدعاء باليدين وجهه معنى ذلك أن هذه اليد نزلت عليها رحمات، وبمسحه وجهه بهما أصابت هذه الرحمات وجهه.

المشبّهة القائلون الله في السماء لا ينجيهم من الضلال قولهم إننا نحمل كلمة في السماء بمعنى أنه فوق العرش، لأنه يلزم أن يكون الله محاذيًا للعرش بقدر العرش أو أوسع منه أو أصغر، وكل ما جرى عليه التقدير حادث محتاج إلى من جعله على ذلك المقدار، والعرش لا مناسبة بينه وبين الله كما أنه لا مناسبة بينه وبين شيء من خلقه، ولا يتشرف الله بشيء من خلقه ولا ينتفع بشيء من خلقه. قال الحافظ الفقيه اللغوي مرتضى الزبيدي[2]: «من جعل الله تعالى مقدّرا بمقدار كفر» اهـ، أي لأنه جعله ذا كميّة وحجم والحجم والكميّة من موجبات الحدوث، وهل عرفنا أن الشمس حادثة مخلوقة من جهة العقل إلا لأن لها حجما، ولو كان لله تعالى حجم لكان مثلا للشمس في الحجميّة ولو كان كذلك ما كان يستحق الألوهية كما أن الشمس لا تستحق الألوهية. فلو طالب هؤلاء المشبّهةَ عابدُ الشمس بدليل عقليّ على استحقاق الله الألوهية وعدم استحقاق الشمس الألوهية لم يكن عندهم دليل، وغاية ما يستطيعون

---

(١) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان (٣/ ٢٠٢).

(٢) إتحاف السادة المتقين (٢/ ١٠٩).

أن يقولوا قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ [سورة الزمر/ ٢٦] فإن قالوا ذلك لعابد الشمس يقول لهم عابد الشمس: أنا لا أُؤمن بكتابكم أعطوني دليلًا عقليًّا على أن الشمس لا تستحق الألوهية فهنا ينقطعون.

ثم إن بعض المجسّمة إذا أُثبت لهم برهان وجوب تنزّهه تعالى عن المكان يقولون جهة العلو غير جهة السفل جهة السفل نقص عليه يجب تنزيهه عنها، وأما جهة العلو فكمال ولا يدلّ العقل على نفيها عن الله. فالجواب أن يقال لهم الجهات كلّها لا تقتضي الكمال في حدِّ ذاتها، لأن الشأن ليس في علوّ المكان بل الشأن في علوّ القدر، بل قد يختصّ الشخص من البشر بالمكان العالي ومن هو أعلى منه قدرًا يكون في المكان المنخفض ويحصل ذلك للسلاطين، فإن حرسهم يكونون في مكان عالٍ وهم أسفل منهم فلم يكن في علوّ الجهة وعلوّ المكان شأن. ثم الأنبياء مستقرّهم في الدنيا الأرض وفي الآخرة الجنة وهم أعلى قدرًا من الملائكة الحافِّين حول العرش، والذين هم في أعلى من مستقرّ الأنبياء من حيث الجهة وكون مستقرّ أولئك أي حملة العرش فوق مستقرّ الأنبياء من حيث الجهة لم يكن دليلًا على أنهم أكمل من الأنبياء بل ولا يساوُونهم.

قال ابن المعلم[1]: «قال الإمام أبو عبد الله محمد بن عمر الأنصاريّ القرطبيّ رضي الله عنه: والذي يقتضي بطلان الجهة والمكان مع ما قررناه من كلام شيخنا وغيره من العلماء وجهان:

أحدهما: أن الجهة لو قدّرت لكان فيها نفي الكمال وخالق الخلق مستغنٍ بكمال ذاته عمّا لا يكون به كاملًا.

والثاني: أن الجهة إما أن تكون قديمة أو حادثة فإن كانت قديمة أدَّى إلى محالين: أحدهما: أن يكون مع البارئ في الأزل غيره، والقديمان ليس أحدهما بأن يكون مكانًا للثّاني بأولى من الآخر فافتقر إلى مخصّصٍ ينقل الكلام إليه، وما

(١) نجم المهتدي ورجم المعتدي (ص/ ٥٤٦).

يفضي إلى المحال محال» اهـ.

حديث الجارية:

وأمّا ما في مسلمٍ[1] من أنّ رجلًا جاء إلى رسول الله ﷺ فسأله عن جاريةٍ له قال قلت يا رسول الله أفلا أعتقها، قال: «**ائتني بها**» فأتاه بها فقال لها «**أين الله**» قالت في السماء، قال «**من أنا**» قالت أنت رسول الله، قال: «**أعتقها فإنّها مؤمنةٌ**». فليس بصحيحٍ لأمرين:

الأمر الأوّل: أنه مضطرِبٌ سندًا ومتنًا لا يصحّ عن رسول الله ﷺ، ولا يليق برسول الله ﷺ أن يقال عنه إنّه حَكم على الجارية السّوداء بالإسلام لمجرّد قولها «الله في السماء»، فإنّ من أراد الدّخول في الإسلام يدخل فيه بالنّطق بالشّهادتين وليس بقول الله في السماء. أمّا المشبّهة فقد حملوا حديث الجارية على غير مراد الرّسول ﷺ. والمعنى الحقيقيّ لهذا الحديث عند من اعتبره صحيحًا لا يخالف تنزيه الله عن المكان والحدّ والأعضاء.

وقد ورد هذا الحديث بعدّةِ ألفاظٍ منها أنّ رجلًا جاء فقال: يا رسول الله إنّ لي جاريةً ترعَى لي غنمًا فجاء ذات يومٍ ذئبٌ فأكل شاةً فغضبت فصككتها[2] قال: أريد أن أعتقها إن كانت مؤمنةً فقال: «ائتني بها»، فأتى بها فقال لها الرّسول: «**أين الله**» فأشارت إلى السماء، وروي بلفظ[3] «**من ربّك**» فقالت: «الله» رواه النّسائيّ في سننه، وبلفظ[4] «**أتشهدين أن لا إله إلّا الله**» قالت: «نعم»، قال: «**أتشهدين أني رسول الله**» قالت: «نعم».

ومعنى قوله ﷺ: «**أين الله**» أي ما اعتقادك في الله من التّعظيم ومن العلوّ

---

(١) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب المساجد: باب تحريم الكلام في الصلاة.

(٢) أي ضربتها على وجهها.

(٣) رواه النسائي في **سننه**: كتاب الوصايا: باب فضل الصدقة عن الميت.

(٤) رواه أحمد في **مسنده** (٣/ ٤٥١)، والبيهقي في **السنن الكبرى** (٧/ ٣٨٨).

ورفعة القدر، لأنّ أين تأتي للسّؤال عن المكان وهو الأكثر وتأتي للسّؤال عن القدر. وأمّا قول الجارية: «في السماء»، وفي روايةٍ: «فأشارت إلى السماء»، أرادت به أنّه رفيع القدر جدًّا، وقد فهم الرّسول ﷺ ذلك من كلامها أي على تقدير صحّة تلك الرواية. أي هذا عند من صحّح هذا الحديث من أهل السنّة.

ونقول للمشبّهة: لو كان الأمر كما تدّعون من حملِ اية: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [سورة طه/ ٥] على ظاهرها وحملِ حديث الجارية على ظاهره لتناقض القرءان بعضه مع بعضٍ والحديث بعضه مع بعضٍ، فما تقولون في قوله تعالى: ﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة/ ١١٥] فإمّا أن تجعلوا القرءان مناقضًا بعضه لبعضٍ والحديث مناقضًا بعضه لبعضٍ فهذا اعترافٌ بكفركم لأنّ القرءان ينزّه عن المناقضة وحديث الرّسول ﷺ كذلك، وإن أوّلتم اية: ﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِ﴾ ولَمْ تُؤوّلوا اية الاستواء فهذا تحكّمٌ أي قولٌ بلا دليلٍ.

والأمر الثاني: أنّ رواية «**أين الله**» مخالفةٌ للأصول، لأن من أصول الشريعة أن الشخص لا يحكم له بقول «الله في السماء» بالإسلام، لأنّ هذا القول مشترَكٌ بين اليهود والنصارى وغيرهم. وإنما الأصل المعروف في شريعة الله ما جاء في الحديث المتواتر[1]: «**أمرت أن أقاتل النّاس حتى يشهدوا أن لا إله إلّا الله وأني رسول الله**» رواه خمسةَ عشرَ صحابيًّا. وهو من أصح الصحيح، ووجه المعارضة أنّ حديث الجارية فيه الاكتفاء بقول «الله في السماء» للحكم على قائله بالإسلام، وحديث ابن عمر رضي الله عنه: «**حتى يشهدوا أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّدًا رسول الله**» فيه التصريح بأنه لا بدّ للدخول في الإسلام من النطق بالشهادتين. فحديث الجارية لا يقوى لمقاومة هذا الحديث لأن فيه اضطرابًا في روايته. ولفظ رواية مالكٍ[2] «**أتشهدين**» موافقٌ للأصول.

---

(١) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم: باب قتل من أبى قبول الفرائض وما نُسِبوا إلى الردة.

(٢) **الموطأ** (ص/ ٦٦٦).

فإن قيل كيف تكون رواية مسلمٍ «**أين الله**» فقالت: في السماء إلى ءاخره مردودةً مع إخراج مسلمٍ لها في كتابه وكلّ ما رواه مسلمٌ موسومٌ بالصحّة، فالجواب: أنّ عددًا من أحاديث مسلم ردّها علماء الحديث وذكرها المحدثون في كتبهم كحديث أنّ الرّسول ﷺ قال لرجلٍ[1]: «**إنّ أبي وأباك في النّار**»، وحديث[2] إنّه يعطى كلّ مسلم يوم القيامة فداءً له من اليهود والنصارى، وكذلك حديث أنسٍ[3]: «**صلّيت خلف رسول الله وأبي بكرٍ وعمر فكانوا لا يذكرون بسم الله الرّحمن الرّحيم**». فأما الأوّل فضعّفه الحافظ السيوطيّ[4]، والثاني ردّه البخاريّ[5]، والثالث ضعّفه الشافعيّ وعددٌ من الحفّاظ[6].

فهذا الحديث على ظاهره باطلٌ لمعارضته الحديث المتواتر المذكور وما خالف المتواتر فهو باطلٌ إن لم يقبل التّأويل. اتّفق على ذلك المحدثون والأصوليّون، لكنّ بعض العلماء أوّلوه على هذا الوجه قالوا معنى «أين الله» سؤالٌ عن تعظيمها لله وقولها «في السماء» معناه عالي القدر جدًّا أما أخذه على ظاهره من أنّ الله ساكن السماء فهو باطل مردود لما تقرّر في علم مصطلح الحديث أن ما خالف المتواتر باطل إن لم يقبل التّأويل فإن ظاهره ظاهر الفساد فإن ظاهره أن الكافر إذا قال الله في السماء يحكم له بالإيمان.

وحمل المشبّهة رواية مسلمٍ على ظاهرها فضلّوا، ولا ينجيهم من الضلال قولهم إننا نحمل كلمة في السماء بمعنى إنه فوق العرش، لأنهم يكونون بذلك

---

(١) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب الإيمان: باب بيان أن من مات على الكفر فهو في النار.

(٢) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب التوبة: باب قبول توبة القاتل.

(٣) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب الصلاة: باب حجة من قال لا يجهر بالبسملة.

(٤) **الحاوي للفتاوى** (٢/ ٣٩٣).

(٥) **فتح الباري** (١١/ ٣٩٨).

(٦) **السنن الكبرى** (٢/ ٥٢).

أثبتوا له مثلًا وهو الكتاب الذي كتب الله فيه «**إنّ رحمتي سبقت غضبي**»[1] فوق العرش فيكونون أثبتوا المماثلة بين الله وبين ذلك الكتاب. لأنهم جعلوا الله وذلك الكتاب مستقرَّين فوق العرش فيكونون كذّبوا قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى/ ١١] وهذا الحديث رواه ابن حبّان بلفظ[2] «**مرفوعٌ فوق العرش**»، وأما رواية البخاريّ فهي[3] «**موضوعٌ فوق العرش**»، وقد حمل بعض الناس فوق بمعنى تحت وهو مردودٌ برواية ابن حبّان «**مرفوعٌ فوق العرش**» فإنه لا يصحّ تأويل فوق فيه بتحت. ثمّ على اعتقادهم هذا يلزم أن يكون الله محاذيًا للعرش بقدر العرش أو أوسع منه أو أصغر، وكلّ ما جرى عليه التقدير حادثٌ محتاجٌ إلى من جعله على ذلك المقدار، والعرش لا مناسبةَ بينه وبين الله كما أنه لا مناسبة بينه وبين شيء من خلقه، ولا يتشرّف الله بشيء من خلقه ولا ينتفع بشيء من خلقه. وقول المشبّهة الله قاعدٌ على العرش شتمٌ لله لأن القعود من صفة البشر والبهائم والجن والحشرات وكلّ وصفٍ من صفات المخلوق وصف الله به شتمٌ له.

فلا يوجد فوق العرش شيء حيٌّ يسكنه إنما يوجد كتاب فوق العرش مكتوب فيه «إنّ رحمتي سبقت غضبي» أي إنّ مظاهر الرّحمة أكثر من مظاهر الغضب، الملائكة من مظاهر الرّحمة وهم أكثر عددًا من قطرات الأمطار وأوراق الأشجار، والجنة من مظاهر الرّحمة وهي أكبر من جهنّم بآلاف المرّات.

وكون ذلك الكتاب فوق العرش ثابتٌ أخرج حديثه البخاريّ والنسائيّ في

---

(١) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب التوحيد: باب قول الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾.

(٢) **الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان** (٨/ ٥).

(٣) رواية البخاري «بلفظ وضع عنده على العرش»، وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني في **فتح الباري** (٣/ ٣٨٥): «وضع بفتح فسكون أي موضوع ووقع كذلك في الجمع للحميدي بلفظ موضوع وهي رواية الإسماعيلي».

السنن الكبرى وغيرهما[1]، ولفظ رواية ابن حبان[2] «**لمّا خلق الله الخلق كتب في كتابٍ يكتبه على نفسه**[3] **وهو مرفوعٌ فوق العرش إنّ رحمتي تغلب غضبي**». فإن حاول محاول أن يؤوّل «فوق» بمعنى «دون» قيل له تأويل النصوص لا يجوز إلا بدليل نقليٍّ ثابت أو عقليٍّ قاطع وليس عندهم شيء من هذين، ولا دليل على لزوم التّأويل في هذا الحديث، كيف وقد قال بعض العلماء إن اللوح المحفوظ فوق العرش لأنه لم يرد نصٌّ صريحٌ بأنه فوق العرش ولا بأنه تحت العرش فبقي الأمر على الاحتمال أي احتمال أن اللوح المحفوظ فوق العرش واحتمال أنه تحت العرش، فعلى قول المشبّه إنه فوق العرش يكون جعل اللوح المحفوظ معادلا لله أي أن يكون الله بمحاذاة قسمٍ من العرش واللوح بمحاذاة قسمٍ من العرش وهذا تشبيهٌ له بخلقه لأن محاذاة شيء لشيء من صفات المخلوق. ومما يدلّ على أن ذلك الكتاب فوق العرش فوقيّةً حقيقيّةً لا تحتمل التّأويل الحديث الذي رواه النسائيّ في السنن الكبرى[4]: «**إنّ الله كتب كتابًا قبل أن يخلق السّموات والأرض بألفي سنةٍ فهو عنده على العرش وإنّه أنزل من ذلك الكتاب ءايتين ختم بهما سورة البقرة**»، وفي لفظٍ لمسلمٍ[5] «**فهو موضوعٌ عنده**» فهذا صريحٌ في أن ذلك الكتاب فوق العرش فوقيّةً حقيقيّةً لا تحتمل التأويل.

وكلمة «عند» للتشريف ليس لإثبات تحيّز الله فوق العرش لأنّ «عند» تستعمل لغير المكان قال الله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ

---

(١) تقدم تخريج البخاري، وأما النسائي فقد رواه في **السنن الكبرى**: كتاب النعوت: باب ٥١ و٥٢، وأحمد في **مسنده** (٢/ ٢٥٨).

(٢) **الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان** (٨/ ٥).

(٣) معناه وَعَدَ.

(٤) رواه النسائي في **صحيحه**: كتاب عمل اليوم والليلة: باب ٢٢٨.

(٥) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب التوبة: باب في سعة رحمة الله.

مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ﴾ [سورة هود/ ٨٢-٨٣] أي على قبيلة لوط أمطر الله عليهم حجارةً كانت مسوّمةً أي معلّمةً كلّ واحدة عليها علامةٌ على من تنزل عليه، وقد جمع الله عليهم عذابًا بأن قلب جبريل قراهم وزادهم تلك الحجارة، أما قول الله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ [سورة هود/ ٨٣] إنما تدلّ «عند» هنا أن ذلك بعلم الله وليس المعنى أن تلك الحجارة مجاورةٌ لله تعالى في المكان. فمن يحتجّ بمجرّد كلمة عند لإثبات المكان والتقارب بين الله وبين خلقه فهو من أجهل الجاهلين، وهل يقول عاقلٌ إن تلك الحجارة التي أنزلها الله على أولئك الكفرة نزلت من العرش إليهم وكانت مكوّمةً بمكانٍ في جنب الله فوق العرش.

قد روى البخاريّ[1] أن النبيّ ﷺ قال: «**إذا كان أحدكم في صلاته فإنّه يناجي ربّه فلا يبصقنّ في قبلته ولا عن يمينه فإنّ ربّه بينه وبين قبلته**»، وهذا الحديث أقوى إسنادًا من حديث الجارية. ومناجاة الله معناه الإقبال على الله بدعائه وتمجيده، والمعنى أن المصلي تجرّد لمخاطبة ربه انقطع عن مخاطبة الناس لمخاطبة الله، فليس من الأدب مع الله أن يبصق أمام وجهه، وليس معناه أن الله هو بذاته تلقاء وجهه. وأما قوله ﷺ: «**فإنّ ربّه بينه وبين قبلته**» أي رحمة ربه أمامه، أي الرحمة الخاصّة التي تنزل على المصلّين.

وأخرج البخاريّ[2] أيضًا عن أبي موسى الأشعريّ أن رسول الله ﷺ قال: «**اربعوا على أنفسكم فإنّكم لا تدعون أصمّ ولا غائبًا، إنّكم تدعون سميعًا قريبًا، والذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلة أحدكم**» أي هَوّنُوا على أنفسكم ولا تجهدوها برفع الصّوت كثيرًا، «**فإنّكم لا تدعون أصمّ ولا غائبًا**» أي الله تعالى يسمع بسمعه الأزليّ كلّ المسموعات قويّةً كانت أم

---

(١) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب الصلاة: باب إذا بدره البزاق فليأخذ بطرف ثوبه.

(٢) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب الجهاد والسير: باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير.

ضعيفةً في أيِّ مكانٍ كانت، وأما قوله «**ولا غائبًا**» فمعناه أنه لا يخفي عليه شيء، وقوله: «**إنّكم تدعون سميعًا قريبًا والذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلة أحدكم**»، ليس معناه القرب بالمسافة لأن ذلك مستحيلٌ على الله فالعرش والفرش الذي هو أسفل العالم بالنسبة إلى ذات الله على حدٍّ سواءٍ ليس أحدهما أقرب من الآخر إلى الله بالمسافة، وإنما معناه أن الله أعلم بالعبد من نفسه وأن الله مطّلِعٌ على أحوال عباده لا يخفى عليه شيء.

ويقال للمشبهة: ثم إنه يلزم على ما ذهبتم إليه من حمل النصوص التي ظاهرها أن الله متحيّزٌ في جهة فوقٍ على ظاهرها كون الله تعالى بعيدا لا قريبًا لأنّ بين العرش وبين المؤمنين الذين يذكرون الله في الأرض مسافةً تقرب من مسيرة خمسين ألف سنةٍ[1] وفي خلال هذه المسافة أجرامٌ صلبةٌ وهي أجرام السّموات وجرم الكرسيّ، فلا يصحّ على موجب معتقدكم قول رسول الله إنه قريبٌ بل يكون بعيدا، أما على قول أهل السنّة فكونه قريبًا لا إشكال فيه، فما أشدّ فساد عقيدةٍ تؤدّي إلى هذا.

فيقال للمعترض: إذا أخذت حديث الجارية على ظاهره وهذين الحديثين على ظاهرهما بطل زعمك أن الله في السماء وإن أوّلت هذين الحديثين ولم تؤوّل حديث الجارية فهذا تحكّمٌ - أي قولٌ بلا دليلٍ -، ويصدق عليك قول الله في اليهود: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [سورة البقرة/ ٨٥]. وكذلك ماذا تقول في قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة/ ١١٥] فإن أوّلته فلم لا تؤوّل حديث الجارية. وقد جاء في تفسير هذه الآية عن مجاهدٍ تلميذ ابن عبّاسٍ[2]: «قبلة الله»، ففسّر الوجه بالقبلة أي لصلاة النّفل في السّفر على الراحلة.

---

(١) **تفسير البغوي معالم التّنزيل** (٤/ ٤١٩ و٥/ ٤٤٩).

(٢) **تفسير الطبري** (١/ ٥٠٤-٥٠٥).

فمعنى ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ أي فهناك قبلة الله أي أن الله تعالى رخّص لكم في صلاة النفل في السفر أن تتوجّهوا إلى الجهة التي تذهبون إليها هذا لمن هو راكبٌ الدابّة.

إبطال دعوى من يقول الله في السماء متمسكًا ببعض الأحاديث:

وأما الحديث الذي رواه الترمذيّ[1] وهو «**الرّاحمون يرحمهم الرّحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**»، وفي روايةٍ أخرى[2] «**يرحمكم أهل السماء**»، فهذه الرواية تفسّر الرواية الأولى لأنّ خير ما يفسّر به الحديث الوارد بالوارد كما قال الحافظ العراقيّ في ألفيّته: «وخير ما فسّرته بالوارد». ثم المراد بأهل السماء الملائكة، ذكر ذلك الحافظ العراقيّ في أماليه عقيب هذا الحديث[3]: «واستدلّ بقوله «**أهل السماء**» على أن المراد بقوله: ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ الملائكة» اهـ لأنه لا يقال لله «أهل السماء». و«من» تصلح للمفرد وللجمع فلا حجّة لهم في ءاية: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، ويقال مثل ذلك في الآية التي تليها وهي ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [سورة الملك/ ١٧] فمن في هذه الآية أيضًا أهل السماء، فإن الله يسلط على الكفّار الملائكةَ إذا أراد أن يحلّ عليهم عقوبته في الدنيا كما أنهم في الآخرة هم الموكّلون بتسليط العقوبة على الكفّار لأنهم خزنة جهنّم وهم يجرّون عنقًا من جهنّم إلى الموقف ليرتاع الكفّار برؤيته. وتلك الرواية التي أوردها الحافظ العراقيّ في أماليه لفظها: «**الرّاحمون يرحمهم الرّحيم ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء**».

وأمّا قوله ﷺ: «**ارحموا من في الأرض**» معناه بإرشادهم إلى الخير بتعليمهم

---

(١) رواه الترمذي في **سننه**: كتاب البر والصلة عن رسول الله: باب ما جاء في رحمة المسلمين. وقال «هذا حديث حسن صحيح».

(٢) رواه أحمد في **مسنده** (٢/ ١٦٠).

(٣) **أمالي العراقي** (ص/ ٧٧).

أمور الدين الضّروريّة التي هي سببٌ لإنقاذهم من النار وبإطعام جائعهم وكسوة عاريهم ونحو ذلك. وأما قوله ﷺ: «**يرحمكم أهل السماء**»، فأهل السماء هم الملائكة وهم يرحمون من في الأرض أي أن الله يأمرهم بأن يستغفروا للمؤمنين، وينزلون لهم المطر وينفحونهم بنفحات خيرٍ ويمدّونهم بمدد خير وبركة ويحفظونهم على حَسَبِ ما يأمرهم الله تعالى.

فالذي يفسر ﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي على السماء، نقول له: إن قلت الله في السماء أي على السماء فالجواب العلوّ يأتي للعلوّ الحسيّ والعلوّ المعنويّ فإن أردت العلوّ المعنويّ أي رفيع القدر جدًّا فلا بأس، وإن أردت العلوّ الحسيّ فقد كفرت لأن الذي يكون في جهةٍ يكون محدودًا والمحدود بحاجةٍ لمن حدّه بهذا الحدّ والمحتاج إلى شيء لا يكون إلهًا.

ويردّ عليهم بإيراد الآية ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [سورة الزّمر/ ٦٨] فيقال لهم: هل تَزعمون أنّ الله يَصْعَقُ، وكذا يردّ عليهم بإيراد الآية ﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ [سورة الأنبياء/ ١٠٤].

ثمّ لو كان اللَّهُ ساكنَ السماءِ كما يزعم البعض لكان الله يزاحم الملائكة وهذا محالٌ، فقد ثبت حديث[١] أنّه «**ما في السّموات موضع أربع أصابع**» وفي لفظٍ[٢] «**شبرٍ**» «**إلّا وفيه ملكٌ قائمٌ أو راكعٌ أو ساجدٌ**».

وكذلك الحديث الذي رواه البخاريّ ومسلمٌ[٣] عن أبي سعيدٍ الخدريّ أن

---

(١) رواه الترمذي في **سننه**: كتاب الزهد: باب في قول النبي لو تعلمون ما أعلم. وقال: «هذا حديث حسن غريب».

(٢) رواه البزّار في **مسنده** (٨/ ١٧٧).

(٣) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب المغازي: باب بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد إلى اليمن، ومسلم في **صحيحه**: كتاب الزكاة: باب ذكر الخوارج وصفاتهم.

الرسول ﷺ قال: «**ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء يأتيني خبر من في السماء صباح مساء**» فالمقصود به الملائكة أيضًا وإن أريد به الله فمعناه الذي هو رفيع القدر جدًّا. وقوله: «**وأنا أمين من في السماء**» أي مؤتمنٌ مصدّقٌ عند الملائكة[1].

الكلام على قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [سورة طه/ ٥]:

الله تعالى خلق العرش إظهارًا لقدرته ولم يتخذه مكانًا لذاته، كما تقدم ولا بد أن ننبه على مسألة وهي أن استواء الله على العرش ورد في القرءان في تسعة مواضع كلها بلفظ «**ثم استوى**»، إلا ءاية طه فهي ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾. فيجب الإيمان بذلك بلا كيف فليس بمعنى الجلوس أو الاستقرار أو المحاذاة للعرش لأن ذلك كيفٌ والله منزّه عن الاستواء بالكيف لأنه من صفات الأجسام بل نقول «استوى على العرش استواء يليق به» هو أعلم بذلك الاستواء.

وثبت عن مالك ما رواه البيهقيّ بإسناد جيد[2] من طريق عبد الله بن وهب قال كنا عند مالك فدخل رجل فقال: يا أبا عبد الله، الرحمن على العرش استوى كيف استوى فأطرق مالك فأخذته الرُّحَضَاء ثم رفع رأسه فقال: الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه ولا يقال كيف وكيف عنه مرفوعٌ وما أراك إلا صاحب بدعة أخرجوه.

فقول مالك: «وكيف عنه مرفوع» أي ليس استواؤه على عرشه كيفًا أي هيئة كاستواء المخلوقين من جلوس ونحوه.

وهذا معنى ما نُقِلَ عن بعض السلف: «الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول». أي غير مجهول وروده، إذ روي أيضًا «الاستواء مذكور». وقولهم غير معقول معناه أن الاستواء بمعنى الكيف أي الهيئة كالجلوس لا يعقل أي لا يقبله

---

(١) معناه يعتقدون أنّه أمينٌ صادقٌ في إبلاغ الوحي.

(٢) **الأسماء والصفات** (ص/ ٤٠٨).

العقل لكونه من صفات الخلق لأنّ الجلوس لا يصح إلا من ذي أعضاء أي كأليةٍ وركبةٍ وتعالى الله عن ذلك. وعلى هذا اتفاق أهل السنّة، فقد نقل البيهقيّ في كتاب «الأسماء والصفات»[1] عن الإمام أبي سليمان الخطابي أنه قال: «إن الذي يجب علينا وعلى كل مسلم أن يعلمه أن ربنا ليس بذي صورة ولا هيئة فإن الصورة تقتضي الكيفيّة وهي عن الله وعن صفاته منفية» اهـ.

قال أبو حنيفة في كتاب الوصية ما نصه[2]: «ونقر بأن الله على العرش استوى من غير حاجة إليه واستقرار عليه، وهو الحافظ للعرش وغير العرش من غير احتياج، فلو كان محتاجا لما قدر على إيجاد العالم وتدبيره كالمخلوق ولو كان محتاجًا إلى الجلوس والقرار فقبل خلق العرش أين كان الله تعالى، تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا» اهـ.

وما روي عن ابن عباس أنه فسر الاستواء بالاستقرار فهو من رواية السدي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح قال البيهقيّ[3]: «رواية منكرة» اهـ، وهذا السند يسمى سلسلة الكذب.

فهؤلاء أوَّلُوا إجمَالًا وأما من أوَّل تفصيلًا من أهل السنّة، فبعد اتفاقهم على عدم جواز الاستقرار عليه تعالى اختلفت أقوالهم، فمنهم من قال: «معناه قهر وحفظ وأبقى». قال الإمام المحدث أبو نصر القشيري[4]: «قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ قهر وحفِظَ وأبقى» اهـ، «ولو أشعر ما قلنا تَوَهُّمَ غلبته لأشعَرَ قوله ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾ بذلك أيضًا حتى يقال كان مقهورًا قبل خلق العباد هيهات! إذ لم يكن للعباد وجود قبل خلقه إياهم بل لو كان الأمر على

---

(١) **الأسماء والصفات** (ص/ ٢٩٦).

(٢) **الفقه الأكبر بشرح ملا علي القاري** (ص/ ٧٠).

(٣) **الأسماء والصفات** (ص/ ٤١٢).

(٤) **إتحاف السادة المتقين** (٢/ ١٠٨).

ما توهمه الجهلة من أنه استواء بالذّات لأشعر ذلك بالتغير واعوجاج سابق على وقت الاستواء فإن البارئ كان موجودًا قبل العرش» اهـ.

ومنهم من قال: «معناه علا». قال البيهقي[1]: «حكى الأستاذ أبو بكر بن فورك هذه الطريقة عن بعض الأصحاب أنه قال: «استوى بمعنى علا» ثم قال: «ولا يريد بذلك علوًّا بالمسافة والتحيز والكون في مكان متمكنًا فيه ولكن يريد معنى قول الله عزّ وجلّ ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [سورة الملك/ ١٦] أي من فوقها على معنى نفي الحدّ عنه. وأنه ليس مما يحويه طبق أو يحيط به قطرٌ، وهو على هذا من صفات الذّات.

ومنهم من قال هو صفة فعل كتقي الدين السبكيّ حيث قال٢: «واعلم أن الله تام الملك أزلا وأبدا وما تحته حادث فأتى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [سورة الأعراف: ٥٤] لحدوث العرش لا لحدوث الاستواء». أي فالاستواء صفة قديمة لا حادثة. وقد نقل البيهقيّ[3] عن الأشعريّ أنه قال: وجوابي هو الأوّل وهو أن الله تعالى مستو على عرشه وأنه فوق الأشياء بائن منها بمعنى أنها لا تحله ولا يحلها ولا يمسها ولا يشبهها وليست البينونة بالعزلة تعالى الله ربنا عن الحلول والمماسة علوًّا كبيرًا» اهـ.

مخالفة الله تعالى للحوادث

قال المؤلف رحمه الله: والله تعالى ليس بصورة، وكل ما تصور في فهمك ووهمك فالله تعالى خالقه ومكوّنُهُ، والله تعالى لا يشبه شيئًا مما خَلَقَ، ولا تُشبه ذاتُهُ ذات المخلوقين، ولا صفاته صفات المخلوقين كما قال تعالى:

---

(١) الأسماء والصفات (ص/ ٤١١).

(٢) إتحاف السادة المتقين (٢/ ١٠٧).

(٣) الأسماء والصفات (ص/ ٤١٢).

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى/١١].

الشرح: البرهان النقليّ لوجوب مخالفته تعالى للحوادث ءاياتٌ منها قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى/ ١١] وهو أوضح دليل نقليّ في ذلك جاء في القرءان، لأن هذه الآية تفهم التنزيه الكليّ لأن الله تبارك وتعالى ذكر فيها لفظ شيءٍ في سياق النفي، والنّكرة إذا أوردت في سياق النفي فهي للشمول، فالله تبارك وتعالى نفى بهذه الجملة عن نفسه مشابهة الأجرام والأجسام والأعراض.

والدليل العقليّ على ذلك أنه لو كان يشبه شيئًا من خلقه لجاز عليه ما يجوز على الخلق من التغيّر والتطور ولو جاز عليه ذلك لاحتاج إلى من يغيّره والمحتاج إلى غيره لا يكون إلهًا فوجب أنه لا يشبه شيئًا.

وقال الحافظ محمد مرتضى الزبيدي ما نصه: «ذكر النسفيّ في الاعتماد أن المماثلة عند الفلاسفة والباطنيّة تثبت بالاشتراك في مجرد التسمية فلا يوصف البارئ عندهم بكونه حيًّا عالِمًا قادرًا سميعًا بصيرًا على الحقيقة لاتصاف الخلق بها وهو باطل لأنها لو ثبتت به لتماثلت المتضادّات إذ السواد والبياض يشتركان في اللونيّة والعرضيّة والحدوث، وعند المعتزلة تثبت المماثلة بالاشتراك في أخص الأوصاف إذ لا مماثلة بين السواد والبياض مع اشتراكهما في اللونيّة والعرضيّة والحدوث لأنها أوصاف عامة، فلما جاء الاشتراك في السوادين ثبتت المماثلة لأنه أخص الأوصاف؛ وهذا لأن المماثلة إنما تقع بما تقع به المخالفة، والسواد يخالف البياض لكونه سوادًا لا لكونه لونًا وعرضًا وحادثًا دلّ أنه إنما يماثل السواد لكونه سوادًا؛ فلو كان البارئ متّصفًا بالعلم لثبت التماثل إذ العلم يماثل العلم لكونه علمًا لا لكونه صفة فكذا هذا، وهو فاسد لأن المحدث يخالف القديم بصفة الحدوث، وينبغي أن تثبت المماثلة بين كلّ مشتركين في صفة الحدوث فتكون المتضادات كلّها متماثلة لاشتراكها في صفة الحدوث، ولأن القدرة على حمل منٍّ تساوي القدرة التي يحمل بها غيره

مائة منٍ في أخص أوصافها ولا تماثلها. وعندنا هي تثبت بالاشتراك في جميع الأوصاف لأن المثلين هما اللذان يسدّ أحدهما مسدّ الآخر وينوب منابه؛ ثم إن كان أحدهما ينوب مناب صاحبه ويسدّ مسدّه من جميع الوجوه كانا مثلين من جميع الوجوه، وإن كان من بعض الوجوه فهما متماثلان من ذلك الوجه ولكن إذا استويا من ذلك الوجه... إذ لو كان بينهما تفاوت في ذلك الوجه لما ناب أحدهما مناب صاحبه ولا سدّ مسدّه».

فالحاصل أنه يجوز أن يكون الشيء مماثلًا للشيء من وجه مخالفًا من وجه فإن أحدًا من أهل اللغة لا يمتنع من القول بأن زيدًا مثل عمرو في الفقه إذا كان يساويه فيه ويسد مسده وإن كانت بينهما مخالفة بوجوه كثيرة ونسبة ذلك إلى الأشعريّ فيها نظر فإنه لا تُحْفَظُ له عبارة صريحة في ذلك فالمتعارف في المخاطبات في اللغة يقضي بجواز إطلاق المثلية من غير اشتراط ذلك كما جاء في الحديث[1]: «**الحنطة بالحنطة مِثلًا بمثلٍ**» أي في الكيل لا في جميع الأوصاف. ولو اشتركا في الفقه والكلام ولكن لا ينوب أحدهما مناب صاحبه ولا يسد مسده يمتنع من أن يقول إنه مثل له في كذا. تحقيقه أن المماثلة جنس يشتمل على أنواعه وهي المشابهة والمضاهاة والمشاكلة والمساواة وإطلاق اسم الجنس على كل نوع من أنواعه جائز فإن الآدميّ يقال له حيوان وكذا الفرس وغيره، ثم قد يختصّ شيئان بثبوت المساواة بينهما وهي الاشتراك في القدر مع عدم المشاكلة والمضاهاة والمشابهة وكذا كلّ نوع من سائر أنواعه وعند عدم الأنواع الأُخر تثبت المخالفة من ذلك الوجه ومع ذلك لا يمتنع أهل اللغة من إطلاق لفظ المماثلة لثبوت ما ثبت من هذه الأنواع، مع أن علمنا عرض محدث جائز الوجود ومستحيل البقاء غير شامل على المعلومات أجمع وهو ضروريّ أو استدلاليّ وعلمه تعالى أزليّ واجب الوجود شامل على المعلومات أجمع ليس بعرض ولا مستحيل البقاء ولا ضروريّ ولا استدلاليّ وكذا

---

(١) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب المساقاة: باب الصرف وبيع الذهب بالورق نقدا.

حياتنا وقدرتنا وسائر الصفات فإذًا لا مماثلة بين علمه تعالى وعلم الخلق وكذا في سائر الصفات، ولأن القول بعالم لا علم له وقادر لا قدرة له كالقول بمتحرّك لا حركة له وأسود لا سواد له وهو تناقض ظاهر.

قال الفقيه المؤرخ ابن المعلم القرشيّ ما نصه[1]: قال القشيريّ في عقيدته[2]: قال شيوخ هذه الطريقة على ما يدلّ عليه متفرّقات كلامهم ومجموعاتها ومصنفاتهم في التوحيد إن الحق سبحانه مُوجِدٌ[3] قديم واحد حليم قادر عليم ماجد[4] رحيم مريد سميع مجيد رفيع متكلم بصير متكبر قدير حيّ باق أحد صمد وإنه عالم بعلم قادر بقدرة مريد بإرادة سميع بسمع بصير ببصر متكلم بكلام حي بحياة باق ببقاء ثم قال فيها: وإنه أحديّ الذّات لا يشبه شيئا من المصنوعات ولا يشبهه شيء من المخلوقات ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض ولا صفاته أعراض لا يُتصوّر في الأوهام ولا يُتَقدّر في العقول ولا له جهة ولا مكان» اهـ.

كل ما تتصوّره في الوهم من: مكان وزمان من جوهر وعرض وجسم والاتصال والانفصال وصورة وحدّ وتركيب وجزء وكيفيّة وماهيّة وتناه وجهة وغير ذلك من صفات المخلوقين، ينبغي أن تعتقد أن صانع العالم بخلافه. وإلى هذا المعنى أشار الصديق رضي الله عنه بقوله: «العجز عن درك الإدراك إدراك»[5]. ومعناه إذا صح عندك أن الصانع لا يمكن معرفته بالتصوير والتركيب والقياس على الخلق صحّ عندك أنه خلاف المخلوقات، وتحقيقه أنك إذا عجزت عن

---

(١) **نجم المهتدي ورجم المعتدي** (ص/ ١٩٩).

(٢) **الرسالة القشيرية** (ص/ ٧).

(٣) في **الرسالة القشيرية**: «موجود».

(٤) في **الرسالة القشيرية**: «قاهر».

(٥) **تشنيف المسامع** (٤/ ٨٠).

معرفته بالقياس على أفعاله صح معرفتك له بدلالة الأفعال على ذاته وصفاته. وقد تقدّم الكلام عن بعض هذه الأمور فلينظر، والآن سنبطل الباقي.

ليس بصورة:

اللَّه تبارك وتعالى يستحيل أن يكون مصوَّرًا أي ذا صورة وشكل مثل صورة الإنسان أو الفرس أو غيرهما لأن ذلك من خواصّ الأجسام تحصل لها بواسطة الكميّات والكيفيّات وإحاطة الحدود والنهايات. وقد وصف اللَّه سبحانه وتعالى نفسه بقوله: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾ [سورة الحشر/ ٢٤] وما كان مصوِّرا لم يكن مصوَّرا كما أن من كان مخلوقا لم يكن خالقا.

نقل البيهقيّ في الأسماء والصفات[١] عن الحافظ المحدث الفقيه أبي سليمان الخطابي أنه قال: «إن الذي يجب علينا وعلى كل مسلم أن يعلمه أن ربنا ليس بذي صورة ولا هيئة فإن الصورة تقتضي الكيفيّة وهي عن اللَّه وعن صفاته منفية» اهـ.

وقال البيهقيّ في الأسماء والصفات ما نصه[٢]: «لأن المماسّة والمباينة التي هي ضدّها والقيام والقعود من أوصاف الأجسام، واللَّه عزّ وجلّ أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، فلا يجوز عليه ما يجوز على الأجسام، تبارك وتعالى» اهـ.

وقال البيهقيّ[٣]: «باب ما ذكر في الصورة. الصورة هي التركيب والمصوّر هو المركّب قال اللَّه عزّ وجلّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [سورة الإنفطار/ ٦-٨]. ولا يجوز أن يكون البارئ تعالى مصوَّرًا ولا أن يكون له صورة لأن الصورة مختلفة

---

(١) **الأسماء والصفات** (ص/ ٢٩٦).

(٢) **الأسماء والصفات** (ص/ ٤١٠-٤١١).

(٣) **الأسماء والصفات** (ص/ ٢٨٩).

والهيئات متضادّة ولا يجوز اتصافه تعالى بجميعها لتضادها ولا يجوز اختصاصه ببعضها إلا بمخصّصٍ لجواز جميعها على من جاز عليه بعضها فإذا اختصّ ببعضها اقتضى مخصّصًا خصّصه به وذلك يوجب أن يكون مخلوقًا وهو محال فاستحال أن يكون مصوَّرًا وهو الخالق البارئ المصوِّر» اهـ.

قال الإمام أبو القاسم الأنصاري النيسابوري في «شرح الإرشاد» لإمام الحرمين بعد كلام في الاستدلال على نفي التحيز في الجهة عن الله تعالى ما نصه[1]: «فإذا زالت الأوهام عن كثير من الموجودات فكيف يطلب بها القديم سبحانه الذي لا يشبهه المخلوقات فهو سبحانه لا يتصوّر في الوهم فإنه لا يُتصوّر إلا صورةٌ[2] ولا يُتَقَدَّر إلا مُقَدّرٌ[3] قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى/ ١١] ومن لا مثل له لا يُتمثّل في الوهم فمن عرفه عرفه بنعت جلاله بأدلّة العقول وهي الأفعال الدالة عليه وعلى صفاته وقد قيل في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [سورة النجم/ ٤٢] إليه انتهى فكر من تفكّر، هذا قول أبيّ بن كعب وعبد الرحمن بن أبي نُعْم[4]، وروى أبيّ بن كعب عن النبيّ ﷺ[5]:

---

(١) **شرح الإرشاد** (ق/ ٥٨-٥٩).

(٢) أي أن الوهم لا يمكنه أن يتصور إلا ما كان صورة أي شكلا.

(٣) الشيء الذي ليس له مقدار لا يُتَقَدَّر في العقل، العقل يتصور الشيء الذي له مقدار إما حجم صغير وإما كبير أما ما ليس حجما لطيفا ولا كثيفا ولا مقدار له فلا يدركه الوهم ولا يتصوره.

(٤) هو عبد الرحمن بن أبي نُعْم حبسه الحجاج خمسة عشر يوما ورسم أن لا يدخل عليه طعام ولا شراب وطَيَّنَ عليه الباب ثم فتح الباب بعد خمسة عشر يوما فوجده قائما يصلي (**الثقات** ٥/ ١١٢).

(٥) رواه مرفوعًا الدارقطني في **الأفراد** (١/ ٣٩٧)، والبغوي في **تفسيره** (٥/ ٢٦٥)، وابن كثير في **التفسير** (٤/ ٢٥٩). ورواه أبو الشيخ في **العظمة** (ص/ ٣١) عن سفيان الثوري من قوله.

«**لا فكرة في الرّب**»[1]، وروى أنس أن النبيّ ﷺ قال[2]: «**إذا ذكر الله تعالى فانتهوا**» وقال[3]: «**تفكّروا في الخلق ولا تتفكّروا في الخالق**».

يستحيل على الله عقلًا أن يكون صورة كالإنسان وغيره لأنه لو كان صورة لاحتاج إلى مصوِّر. روى مسلم[4] من حديث أبي هريرة عن النبيّ ﷺ: «**إذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه فإن الله خلق ءادم على صورته**»، المراد بهذا الحديث إن أعيد الضمير إلى الأخ أن الله خلق ءادم على صورة المضروب[5] وإن أعيد الضمير إلى الله كان على معنى الملك فتكون الإضافة للتشريف[6] فكأنه قال خلقه على الصورة التي هي ملكٌ له مشرّفة عنده. وهكذا يقال في حديث[7] «**لا تقبّحوا الوجه فإن الله خلق ءادم على صورة الرحمن**»[8].

ولا يصحّ تفسير الحديث بما قال بعضهم من أن المراد أنه خلقه على

---

(١) معناه أن الله لا يدركه الوهم لأن الوهم يدرك الأشياء التي أَلِفَها أو هي من جنس ما ألفها.

(٢) أورده ابن عدي في **الكامل** (٣/ ١١٩٣).

(٣) عزاه الزبيدي في **شرح الإحياء** (٦/ ٥٣٦) لأبي الشيخ من حديث أبي ذر. وله شاهد موقوف على ابن عباس رواه البيهقي في **الأسماء والصفات** (ص/ ٤٢٠) بلفظ: «**تفكروا في كل شيء ولا تفكروا في ذات الله عزّ وجل**»، قال الحافظ ابن حجر في **فتح الباري** (١٣/ ٣٨٣) وعزاه للبيهقي وقال: «موقوف وسنده جيد».

(٤) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب البر والصلة: باب النهي عن ضرب الوجه.

(٥) **الأسماء والصفات** (ص/ ٢٩٠)، **الباز الأشهب** (ص/ ٦٤)، **مشكل الحديث** (ص/ ٥٠).

(٦) **الأسماء والصفات** (ص/ ٢٩١)، **الباز الأشهب** (ص/ ٦٥).

(٧) **الأسماء والصفات** (ص/ ٢٩١)، والطبراني في **المعجم الكبير** (١٢/ ٤٣٠).

(٨) فمعنى صورة الرحمن صورته التي خلقها وشرَّفها كما قال: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [سورة ص/ ٧٥] وكالإضافة في قوله: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [سورة هود/ ٦٤].

صفاته تعالى من السمع والبصر والعلم فإن صفات الله لا تفارق ذاته. ولا يصحّ عقلًا أن يتصف العبد بصفة من صفاته تعالى لأن الحادث لا يتصف بالأزليّ. فلا يكون الحادث أزليًّا ولا الأزليّ حادثًا.

تنبيه:

عندما نقول «الله لا يُتصور» ليس معناه أن له صورة ولكنك لا تتصوّره لأنك ما رأيته، لا!!! بل حتى بعد أن يرى المؤمن ربّه لا يتصوّره، لأن الصورة حادثة فلا يتصوّر الله.

ولا محدودٍ:

الله تعالى منزّه عن أن يكون ذا حدّ ونهاية كسائر الأجسام لأنها محدودة، فالعرش الذي هو أكبر الأجرام محدود وكذا الذرّة محدودة لأن الفرق بينهما من حيث كثرة الأجزاء وقلّتها، والذرة عند أهل اللغة والمتكلمين تطلق على النملة الصغيرة الحمراء، قال الحافظ اللغويّ مرتضى الزبيدي ما نصه[1]: «الذرّ صغار النمل مائة منها زنة حبّة شعير وقيل الذرة ما ليس لها وزن ويراد بها ما يرى في شعاع الشمس الداخل في النافذة قالوا الذرّ النمل الأحمر الصغير الواحدة ذرّة» اهـ.

فالعرش أجزاؤه كثيرة والذرة أجزاؤها قليلة، فلا يتوهّم متوهّم غافل عن تنزيه الله تعالى أن مرادهم بنفي المحدودية عن الله أنه شيء لا تحصى أجزاؤه كالعرش وأنه ليس شيئًا صغيرًا قليل الأجزاء بحيث يدخل تحت الحصر. فينبغي الاهتمام ببيان هذه العبارة لطلاب العلم على الوجه الذي ينفي عنهم تَوَهُّمَ المعنى الفاسد المذكور لأنه قد يتوهم بعض الجهال إذا قيل الله ليس له حد أو ليس بمحدود أن معناه جرم كبير، واعتقاد الجرم في الله كفر فمن اعتقده جرمًا

---

(١) تاج العروس (٣/ ٢٢٣).

صغيرًا أو اعتقده جرمًا كبيرًا كالعرش أو أوسع منه فهو جاهل بالله غير عارف بربّه.

فالله تعالى منزّه عن الحدود أي لا يجوز عليه عقلا ولا شرعًا أن يكون له حدٌّ، ولا يجوز أن يقال «إن له حدّا لا نعلمه بل هو يعلمه» كما قال بعض، وذلك لأن المحدود يحتاج إلى من حدّه والمحتاج إلى غيره محدثٌ والمحدث لا يكون إلهًا لأن الإله من شرطه الأزليّة والقِدم.

ويكفي لنفي الحدّ والحجم عن الله تعالى من حيث النص الشرعيّ قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى/ ١١] لأنه لو كان حجمًا لكان له أمثال لا تحصى وهذا من الأوّليّات في مفهومات هذه الآية. لأن الشيء ذكر في الآية في معرض النفي فيشمل كل ما سواه من حجم كثيف وحجم لطيف، فقول مشبّهة العَصْرِ إن معنى الآية ليس له مثل فيما نعرفه زيغٌ من القول لا يلتفت إليه.

ولا معدودٍ:

الله هو الواحد الذي لا شريك له في ذاته ولا صفاته ولا أفعاله، الله لا شريك له في الذّات، هذه عبارة كثير من علماء أهل السنّة، من العلماء لا سيّما المتأخرون منهم من فصلوا في الكلام على هذه المسألة مسألة الوحدانيّة وقالوا إثبات الوحدانيّة لله يقتضي نفي الكمّ عن الله تعالى، ثم قالوا الكموم الخمسة منفيّة عن الله، الكمّ المتصل في الذّات والكمّ المتصل في الصفات، والكمّ المنفصل في الذّات والكمّ المنفصل في الصفات والكمّ المنفصل في الفعل.

أوّلا: حين يقولون الكمّ المتصل في الذّات هو أن يكون ذاته مركبا، التركيب في الذّات يقتضي إثبات كميّة له، فنحن ننفي عنه الكمّ المتصل في الذّات، يعني ذات الله ليس متركّبًا.

ثانيا: الكمّ المنفصل في الذّات، نفي أن يكون ذاتٌ كذاته.

ثالثا: الكمّ المتصل في الصفات هو تعدّد كلّ صفة من صفاته وهذا أيضًا منفيّ، يعني أن الله تعالى عالم بعلم واحد فلا نقول الله له علمان أو علوم بل له علم واحد يعلم به كل شيء فلا تعدّد في علم الله ولا في قدرة الله. لله قدرة واحدة هو بها قادر على كل شيء، وإرادته إرادة واحدة، وهو حيّ بحياة واحدة ويسمع بسمع واحد، بصفة أزليّة أبديّة لا بسمع متجدّد، يسمع كلّ المسموعات حال وجودها بسمع واحد لا بسمع يتجدّد عند حدوث المسموع. وكذلك كلام الله واحد فلا تعدّد في كل صفة من صفات الله تعالى، فهذا نفي الكمّ المتصل في الصفات.

رابعا: الكمّ المنفصل في الصفات وهو أن يكون لغيره صفة كصفته، فلا يتصف غير الله بكونه عالِمًا بعلم شامل لكلّ المعلومات، أو بكونه قادرًا على كل المقدورات.

خامسا: نفي الكمّ المنفصل في الفعل: فعل الله خلقُه، فلا يتصف غير الله بالفعل بمعنى الخلق.

ولا متبعضٍ ولا متجزّئ ولا متركبٍ:

الله تعالى ليس ذا أبعاض ولا أجزاء، وهو تبارك وتعالى منزّه عن أن يكون متركبًا من أجزاء لأن هذا يوجب الاحتياج المنافي للقدم فما له أجزاء يسمى باعتبار تأليفه منها متركبًا وباعتبار انحلاله إليها متبعّضًا ومتجزئًا.

فائدة:

قال سيف الدين الآمدي في كتاب «غاية المرام في علم الكلام» ما نصه[1]: «فالرأي الحق والسبيل الصدق والأقرب إلى التحقيق أن يقال لو جاز قيام الحوادث به لم يخل عند اتصافه بها إما أن توجب له نقصًا أو كمالًا أو لا نقصا ولا كمالا. لا جائزٌ أن يقال بكونها غير موجبة للكمال ولا النقصان، فإن

(١) **غاية المرام في علم الكلام** (ص/ ١٩١-١٩٢).

وجود الشيء بالنسبة إلى نفسه أشرف له من عدمه، فما اتصف بوجود الشيء له وهو مما لا يوجب فوات الموصوف ولا فوات كمال له وبالجملة لا يوجب له نقصًا فلا محالة أن اتصافه بوجود ذلك الوصف له أولى من اتصافه بعدمه، لضرورة كون العدم في نفسه مشروفًا بالنسبة إلى مقابله من الوجود والوجود أشرف منه وما اتصف بأشرف الأمرين من غير أن يوجب له في ذاته نقصًا تكون نسبة الوجود إليه فيما يرجع إلى النقص والكمال على نحو نسبة مقابله من العدم، ولا محالة أن كانت نسبته إلى وجود ذلك الوصف أشرف منه بالنسبة إلى عدمه. ولا جائز أن يقال إنها موجبة لكماله وإلا لوجب قدمها لضرورة أن لا يكون البارئ ناقصًا محتاجًا إلى ناحية كمال في حال عدمها. فبقي أن يكون اتصافه بها مما يوجب القول بنقصه بالنسبة إلى حاله قبل أن يتصف بها وبالنسبة إلى ما لم يتصف بها من الموجودات ومحال أن يكون الخالق مشروفًا أو ناقصًا بالنسبة إلى المخلوق ولا من جهةٍ ما كما مضى» اهـ.

ولا متناوٍ:

القديم سبحانه لا يتناهى في ذاته على معنى نفي الجهة والحدّ عنه، أي أن الله لا جهة له ولا حدّ وليس معناه أنه جسم ممتدّ لا نهاية له. ولا يتناهى في وجوده على معنى نفي الأوّليّة عنه فإنه أزليّ أبديّ صمديّ وكذلك صفات ذاته لا تتناهى في ذاتها ووجودها ومتعلّقاتها إن كان لها تعلّقٌ[1]، ومعنى قولنا لا تتناهى في الذات قيامها بذات لا نهاية له ولا حدّ ولا منقطع ولا حيث، وقولنا لا تتناهى في الوجود إشارة إلى أزليّتها ووجوب بقائها وأنها متعلّقة بما لا يتناهى كالمعلومات والمقدورات والمخبرات.

---

(١) كالعلم والقدرة والرؤية والسمع بخلاف الوجود والحياة والقيام بالنفس مثلاً فلا يقال لها متعلق.

قال الإمام أبو القاسم الأنصاري النيسابوريّ[1]: «أما الجوهر فهو متناهٍ في الوجود والذّات، لأنه لا يشغل إلا حيّزًا له حكم النهاية وهو حادث له مفتتح ويجوز عدمه. والعرض متناه في الذّات من حيث الحكم على معنى أنه لا ينبسط على محلّين ومتناهٍ في الوجود على معنى أنه لا يبقى زمانين[2] ويتناهى في تعلّقه فإنه لا يتعلق بأكثر من واحد.

أما المجسّمة فإنهم أثبتوا للقديم سبحانه الحدّ والنهاية، فمنهم من أثبت له النهايات من ست جهات، ومنهم من أثبتها من جهة واحدة وهي جهة تحت، ومنهم من لا يطلق عليه النهاية. واختلفوا في لفظ المحدود فمنهم من أثبته ومنهم من منعه وأثبت الحدّ وإثبات النهاية من جهة واحدة يوجب إثباتها من جميع الجهات، ولأن النهاية والانقطاع من الجهة الواحدة تقدح في العظمة بدليل أنه لو لم يتناه لكان أعظم مما كان فلما تناهى فقد صغر ويجب نفي الصغر عنه كما وجب إثبات العظمة له. يوضح ما قلناه أنهم قالوا إنما منعنا كونه وسط العالم لأنه يوجب اتصافه بالصغر فإثبات النهاية من جانب يفضي إلى النهاية من جميع الجوانب فقد تحقق إذًا بنفي النهاية والحدّ عنه استحالة الاتصال والانفصال والمحاذاة عليه لاستحالة الحجمية والجثّة عليه بل هو عظيم الذّات لانتفاء النهايات والصغر عنه لا لجسامةٍ ولا لصورة وشبحٍ» اهـ.

ولا يوصف بالماهيّة ولا بالكيفيّة:

الله تعالى لا يوصف بالمجانسة للأشياء وذلك مأخوذ من قولهم «ما هو» أي من أيّ جنس هو. وكذلك لا يتصف بالكيفيّة بمعنى الهيئة، لذلك قال

---

(١) **شرح الإرشاد** (ق/ ٦٠).

(٢) هذا يصح في قسم من الأعراض كالحركة فإن الحركة الواحدة لا تبقى زمانين، وإنما الذي يتكرر مثالها لكنه لا يصح في كل الأعراض، فإن منها ما يبقى زمانين بلا شك كالعلم المخلوق واللون، فتعميم القول بأن العرض لا يبقى زمانين مذهب مرجوح.

بعض أهل السنّة إن الله تعالى منزّه عن الكميّة والكيفيّة، كما قال صاحب القاموس في تفسير الهيُّولى[1]، والكميّة معناه الحجم. أما الكيفيّة فهي الصفات التي تقوم بالجرم، فهو تعالى منزّه عن كل ذلك، فإذا ذكرت كلمة الكيفيّة بهذا المعنى مضافة إلى الله كان ذلك تشبيهًا له بخلقه، وأما من ذكر لفظ الكيفيّة في بعض العبارات بمعنى الحقيقة فليس في ذلك تشبيه لله بخلقه كهذا البيت الذي يذكره بعض المؤلفين من أهل السنّة كابن الجوزيّ[2]:

كَيْفِيَّةُ الْمَرْءِ لَيْسَ الْمَرْءُ يُدْرِكُهَا فَكَيْفَ كَيْفِيَّةُ الْجَبَّارِ فِي الْقِدمِ

وفي رواية: حقيقة النفس ليس العبد يدركها. فقوله: «فكيف كيفيّة الجبار في القدم» معناه فكيف حقيقة الجبار. قال بعض العلماء لو غُيِّر هذا البيت فقيل:

حَقِيقَةُ المَرْءِ لَيْسَ المَرْءُ يُدْرِكُهَا فَكَيْفَ يُدْرِكُ كُنْهَ الخَالِقِ الأَزَلِي

لكان ذلك سالمًا.

وقال بعض الكرامية: إن لله تعالى كيفيّة لا يعرفها إلا هو، وهو قول فاسدٌ لأنها عبارةٌ عن الهيئات وذلك مستحيلٌ عليه. ولا يوصف أيضًا بالماهية، لأنها عبارة عن المجانسة وذلك لأن كل ذي جنس شبيه بذي جنسه، فكان القول بالماهيّة قولا بالتشبيه، ومن روى عن أبي حنيفة أنه قال: «إن لله تعالى ماهيّة لا يعرفها إلا هو» فقد افترى عليه. ولا يوصف تعالى أيضًا بالتبعُّض خلافًا لليهود، ولا بالتناهي خلافًا لبعض الكرامية فإنهم يقولون إنه غير متناه من خمس جهات متناه من جهة واحدة وهي الجهة السفلى التي تلاقي العرش.

---

(١) **القاموس المحيط**، مادة (هـ ا ل) (ص/ ١٣٨٦).

(٢) **الباز الأشهب** (ص/ ٦٢).

قال نعيم بن حماد ما نصه[1]: «من شبّه الله بشيء من خلقه فقد كفر، ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر» اهـ، وقال الحافظ إسحاق بن راهويه[2]: «من وصف الله فشبه صفاته بصفات أحد من خلق الله فهو كافر بالله العظيم» اهـ، وقال الإمام الطحاويّ في عقيدته التي سماها ذكر بيان عقيدة أهل السنّة والجماعة[3]: «ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر فقد كفر» اهـ أي أن من وصف الله تعالى بوصف من أوصاف البشر فقد كفر لإثباته المماثلة بينه تعالى وبين خلقه وذلك منفيٌّ بالنص وهو قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى/ ١١] وبالقضيّة العقليّة وهي أنه لو كان متصفًا بصفة من أوصاف البشر لكان يجوز عليه ما يجوز على البشر من حدوث وفناء وتطوّر وتغيّر ونحو ذلك ومن جاز عليه ذلك فلا يصلح أن يكون مكوّنًا للحادثات تعالى الله عن ذلك.

وحكي عن الإمام الشافعيّ رضي الله عنه أنه قال[4]: «من انتهض لمعرفة مدبّره فانتهى إلى موجود ينتهي إليه فكره فهو مشبّه، وإن اطمأنّ إلى العدم الصرف فهو معطل، وإن اطمأنّ إلى موجود واعترف بالعجز عن إدراكه فهو موحد» اهـ.

ونقل الحافظ البيهقيّ في «الأسماء والصفات» عن الحافظ المحدث الفقيه أبي سليمان الخطابيّ أنه قال[5]: «إن الذي يجب علينا وعلى كل مسلم أن يعلمه أن ربنا ليس بذي صورة ولا هيئة فإن الصورة تقتضي الكيفيّة وهي عن الله وعن صفاته منفيّة» اهـ.

---

(١) **شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة** (٣/ ٥٨٧).

(٢) **المصدر السابق** (٣/ ٥٨٨).

(٣) **العقيدة الطحاوية مع شرحها إظهار العقيدة السنية** (ص/ ١٢٤).

(٤) **البرهان المؤيد** (ص/ ٢٣).

(٥) **الأسماء والصفات** (ص/ ٢٩٦).

قال الإمام البيهقيّ في كتابه «الأسماء والصفات» في نفي الوصف بالحركة والسكون عن الله تعالى ما نصه[1]: «الله تعالى لا يوصف بالحركة لأن الحركة والسكون يتعاقبان في محل واحد وإنما يجوز أن يوصف بالحركة من يجوز أن يوصف بالسكون وكلاهما من أعراض الحدث وأوصاف المخلوقين والله تبارك وتعالى متعال عنهما ليس كمثله شيء» اهـ.

لا يوصف بالجهة:

لا تحوي الله تعالى الجهات الست كما تحوي جميع المخلوقات إذ المخلوقات لا تخلو عن التحيّز في إحدى الجهات الستّ لأن الحادث لا بدّ أن يكون بمكانٍ، وقال أهل الحقّ إن الله ليس بمتمكّن في مكان أي لا يجوز عليه المماسة للمكان والاستقرار عليه، وليس معنى المكان ما يتصل جسم به على أن يكون الجسمان محسوسين فقط بل الفراغ الذي إذا حلّ فيه الجرم وشغل غيرَهُ عن ذلك الفراغِ مكان له، كالشمس مكانها الفراغ الذي تسبح فيه.

قال الشيخ أبو الفضائل منكوبرس في شرح الطحاوية[2]: «وأما قولهم لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات» فإنما قالوا ذلك بالنصوص المحكمة والبراهين القاطعة أما النصوص فنحو قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى/ ١١] نفى عن نفسه مشابهة العالم إياه، ففي التحيز بجهةٍ من الجهات مشابهة الأجسام والجواهر، وفي التمكن في مكانٍ مماثلة للجواهر المتمكنة في الأمكنة، ففي وصفه بالجهات قول بالانحصار فيها، وفي القول بالتمكن في المكان إثبات الحاجة إلى المكان، وفي كلّ ذلك إيجاب حدوثه وإزالة قدمه وذلك كلّه محالٌ في حقّ القديم، ومن تلك النّصوص قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [سورة الإخلاص/ ٤] والكفو المساوي والمماثل فنفى

---

(١) **الأسماء والصفات** (ص/ ٤٥٤-٤٥٥).

(٢) **شرح الطحاوية** (ص/ ٧٠).

عن نفسه المماثلة والمساواة، ومنها قوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [سورة الصافات/ ١٥٩] وقوله: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [سورة الطور/ ٤٣] فوجب تنزيهه عن صفات الخلق ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [سورة العنكبوت/ ٦] فأثبت لنفسه الاستغناء عن جميع العالمين والجهات والأمكنة من أجزاء العالم فوجب إثبات تعاليه واستغنائه عن العالمين وعن كلّ وصف من صفات المحدثين.

ومن البراهين القاطعة أن الجهات الستّ محدثةٌ وهي أوصاف للعالم المحدث، والله تعالى قديم لم يزل كان ولا مكان ولا حينٌ ولا زمان ولا فوق ولا تحت ولا قدّام ولا يمين ولا شمال. فلما أحدث العالم وأخرجه من العدم إلى الوجود صار العالم محصورًا بجهات ست، فما قطعه من أعلى صار فوقًا وما قطعه من أسفلٍ صار تحتًا وما تقدمه صار أمامًا وما تأخر عنه صار خلفًا وما تيامُن عنه صار يمينًا وما تياسر عنه صار شمالا فصار العالم محصورًا بالجهات. وصانع العالم قديم لم يزل دائم لا يزال وهو بكل شيء محيط لا كإحاطة الحُقَّةِ باللؤلؤة بل بالعلم والقدرة والقهر والسلطان لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وكل شيء تحت حكمه وقهره وسلطانه» انتهى.

شهادتا التوحيد

قال المؤلف رحمه الله: والله تعالى واحدٌ أحدٌ فردٌ صمدٌ، لا شريك له، ولا وزير له، ولا شبيه له، ولا ضدَّ له، ولا ندَّ له، ولا نظير له، ولا مثيل له، ولا أوّل له، ولا ءاخر له، ولا ولد له، ولا والدة له، ولا والد له.

الشرح: أخرج البيهقيّ[1] عن ابن عباس: أن اليهود أتوا إلى النبيّ ﷺ فقالوا: يا محمد صِف لنا ربك الذي تعبده. فنزلت «قل هو الله أحد»، إلى ءاخر السورة

(١) **الأسماء والصفات** (ص/ ٢٧٩).

قال رسول الله ﷺ: «**هذه صفة ربي عزّ وجلّ**». وقد كان سؤالهم عنادًا لا حبًّا للعلم واسترشادًا به.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص/ ١] أي الذي لا يقبل التعدد والكثرة وليس له شريكٌ في الذّات أو الصفات أو الأفعال، وليس لأحدٍ صفةٌ كصفاته.

صانع العالم واحد فلا يمكن أن يصدق مفهوم واجب الوجود إلا على ذات واحد، قال الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه في الفقه الأكبر[1]: «والله تعالى واحد لا من طريق العدد ولكن من طريق أنه لا شريك له لا يشبه شيئًا من الأشياء من خلقه ولا يشبهه شيء من خلقه» اهـ.

الدليل على أن خالق العالم واحد من القرءان قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [سورة الأنبياء/ ٢٢] وقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [سورة الإسراء/ ٤٢]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [سورة الأنبياء/ ١٠٨].

والبرهان العقلي:

هو أنه لو كان اثنين ولم يقدر أحدهما على كتمان شيء عن صاحبه كانت قدرتهما ناقصة متناهية، وإن قدر أحدهما على كتمان شيء عن صاحبه كان علم كل واحد منهما ناقصا متناهيا، ومن كان علمه متناهيا أو قدرته متناهية لم يكن إلها صانعا بل كان مخلوقا مصنوعا.

ولأن الواحد إما أن يكون في تدبير العالم وتخليقه كافيًا أو لا، فإن كان كافيًا كان الآخر زائدا غير محتاج إليه وذلك نقص والناقص لا يكون إلهًا، وإن لم يكن كافيًا فهو ناقص.

---

(١) **الفقه الأكبر بشرح ملا علي القاري** (ص/ ٣٠-٣٢).

ولأن العقل يقتضي احتياج المفعول إلى فاعل والفاعل الواحد كافٍ وما وراء الواحد فليس عدد أولى من عدد فيفضي ذلك إلى وجود أعداد لا نهاية لها وذا محال.

فالقول بوجود إلهين محال، لأنا لو فرضنا معدومًا ممكن الوجود فإن لم يقدر واحد منهما على إيجاده كان كل واحد منهما عاجزًا والعاجز لا يكون إلهًا، وإن قدر أحدهما دون الآخر فالآخر لا يكون إلهًا، وإن قدرا جميعًا فإما أن يوجداه بالتعاون فيكون كلّ واحد منهما محتاجًا إلى إعانة الآخر فيكون كلّ واحد منهما عاجزًا، وإن قدر كلّ واحد منهما على إيجاده بالاستقلال فإذا أوجده أحدهما فإما أن يبقى الثاني قادرًا عليه وهو محال، لأن إيجاد الموجود محال، وإن لم يبق فحينئذ يكون الأوّل مزيلًا قدرة الثاني فيكون عاجزًا ومقهورًا تحت تصرفه فلا يكون إلهًا.

فإن قالوا: الواحد إذا أوجد مقدور نفسه فقد زالت قدرته فيلزمكم أن يكون هذا الواحد قد جعل نفسه عاجزًا.

قلنا: الواحد إذا أوجد مقدور نفسه فقد نفذت قدرته، ومن نفذت قدرته لا يكون عاجزا، وأما الشريك فما نفذت قدرته بل زالت قدرته بسبب قدرة الآخر فكان ذلك تعجيزًا.

قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ [سورة الإخلاص/ ٢] والصمد في اللغة على معنيين: أحدهما أنه لا جوف له، وهذا يوجب أن لا يكون جسما ولا جوهرا لأن ما لا يكون بهذه الصفة جاز أن يكون له جوف. والمعنى الثاني للصمد هو السيد الذي يرجع إليه في الحوائج، وهذا يتضمّن إثبات كلّ صفة لولاها لم يصحّ منه الفعل كما نذكره فيما بعد لأن من لا تصحّ منه الأفعال المختلفة لم يصحّ الرجوع إليه في الحوائج المتباينة.

اللَّه تعالى مستغنٍ عن كلّ شيءٍ وكلّ شيءٍ يحتاج إليه فيقصده العباد عند الشدة بجميع أنواعها، معنى ذلك أن اللَّه لا ينتفع بخلقه، ولا يجتلب نفعًا منهم

لنفسه ولا يدفع ضررًا بهم عن نفسه فهم لا ينفعونه ولا يضرونه، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [سورة الذاريات/ ٥٦-٥٨] فقوله تعالى: ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ معناه إلا لآمرهم بعبادتي.

قوله تعالى: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ [سورة الإخلاص/ ٣] نفيٌ للماديّة والانحلال وهو أن ينحلّ منه شيءٌ أو أن يحلّ هو في شيءٍ.

فقوله: ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ لأنه لا يجانس حتى تكون له من جنسه صاحبة فيتوالدا، وقد دل على هذا المعنى بقوله: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ﴾ [سورة الأنعام/ ١٠١]، فالبارئ سبحانه وتعالى يستحيل عليه الولد والزوجة، لأن ذلك لا يكون إلا بالاتصال والمماسة وذلك يوجب الحدّ والنهاية، والله سبحانه وتعالى يستحيل عليه ذلك.

وقوله: ﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ لأن كلّ مولود محدث وجسم وهو قديم لا أوّل لوجوده إذ لو لم يكن قديمًا لكان حادثًا لعدم الواسطة بينهما، ولو كان حادثًا لافتقر إلى محدث، وكذا الثاني والثالث فيؤدّي إلى التسلسل وهو باطل.

وليس بجسم لأنه اسم للمتركّب ولا يخلو حينئذ من أن يتصف كلّ جزء منه بصفات الكمال فيكون كلّ جزء إلهًا فيفسد القول به كما فسد بإلهين، أو غير متصف بها بل بأضدادها من سمات الحدوث وهو محال.

قوله تعالى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [سورة الإخلاص/ ٤] ولم يكافئه أحد أي لم يماثله، سألوه أن يصفه لهم فأوحى إليه ما يحتوي على صفاته تعالى.

الله تعالى لا يجوز الشريك له في الملك، لما قد بينا من أن الخالق واحد لا ثاني له والمملوك يستحيل أن يكون خارجا من ملك الخالق. وهذا تحقيق قوله: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ [سورة الإسراء / ١١١].

اللَّه تعالى منزّه عن أن يكون له أنداد، وهو مرتفع بالعظمة والكبرياء لا بالمكان عن الأضداد والأنداد، فليس معناه أنّ اللَّه مرتفعٌ على العرش الذي لا يصل إليه أحدٌ من أعدائه. والأنداد جمع ندٍ وهو المثل المنازع يقال ناددت الرجل بمعنى نافرته، من ندّ ندودًا إذا نفر[1]، فاللَّه منزّه عن أن يكون له أمثال.

وأما الأضداد جمع ضدّ والمعنى أنه سبحانه منزّه عن أن يكون له مضادون والمضادّ من يتصرف تصرفًا يريد على زعمه أن يغلب اللَّه به إذ اللَّه تبارك وتعالى ليس له مغالب لأنّ كل شيء في قبضته وكل شيء ملكه، فلا يكون له أضدادٌ أي من يتصرف على خلاف إرادته، وفي الصّحاح[2]: الضدّ النظير فقولهم لا ضدّ له معناه لا نظير له، والأشهر استعماله بمعنى ما لا يجتمع مع مقابله، وعلى الثاني يكون الجمع بين الأنداد والأضداد زيادة تأكيد.

وربنا سبحانه وتعالى قديم لا أوّل له أزليّ لا بداية له مستمر الوجود لا ءاخر له أبديّ لا نهاية له.

فلا بد أن تعلم أن خالق الخلق قديم، لأنه لو كان محدثا لافتقر إلى محدث وكان حكم الثاني والثالث وما انتهى إليه كذلك وكان كلّ خالق يفتقر إلى خالق ءاخر لا إلى نهاية وكان يستحيل وجود المخلوق والخالق جميعا لأن ما شرط وجوده بوجود ما لا نهاية له من الأعداد قبله لم يتقرّر وجوده لاستحالة الفراغ عما لا نهاية له لِتَنْتَهِيَ النوبة إلى ما بعد.

وأصل هذه الدلالة في القرءان وهو قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة الحديد/ ٣] فبيّن أنه كان قبل ما يشار إليه بأنه محدَث، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [سورة البقرة/ ٢٥٥] والقيّوم مبالغة من القيام وهو الثبات والوجود وهذا دليل على اتصافه بالوجود

---

(١) **القاموس المحيط**، مادة (ن د د) (ص/ ٤١١).

(٢) **الصحاح** (١/ ٥٠١).

في جميع الأحوال وأنه لا يجوز وصفه بالعدم بحال وذلك حقيقة القدم، وقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة الملك/ ١] وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [سورة الفرقان/ ١] فإن البركة هي الثبات وأصله من البَرك والبرَكَة والبُروك وتبارك مبالغة في معناه وهذا يوجب له الوجود في جميع الأحوال لم يزل ولا يزال. وقد ورد في خبر عمران بن حصين أن النبيّ ﷺ قال: «**كان الله ولم يكن معه شيء**» وهذا يوجب الكون في جميع الأحوال.

صانع العالم باق، لأنا قد دلّلنا على أنه قديم ولا يكون القديم إلا باقيًا. وقد ورد في أسمائه البديع الباقي، وورد في أسمائه الحيّ القيّوم والقيّوم مبالغة من القيام وذلك يتضمن كونه باقيا.

قال النسفي[1]: «قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ إشارة إلى أنه خالق الأشياء وفاطرها، وفي طيّ ذلك وصفه بأنه قادر عالم لأن الخلق يستدعي القدرة والعلم لكونه واقعًا على غاية إحكام واتساق وانتظام، وفي ذلك وصفه بأنه حيّ لأن المتصف بالقدرة والعلم لا بد وأن يكون حيًّا، وفي ذلك وصفه بأنه سميع بصير مريد متكلّم إلى غير ذلك من صفات الكمال، إذ لو لم يكن موصوفًا بها لكان موصوفًا بأضدادها وهي نقائص وذا من أمارات الحدوث فيستحيل اتصاف القديم بها.

وقوله: ﴿أَحَدٌ﴾ وصف بالوحدانيّة ونفي الشريك، وبأنه المتفرّد بإيجاد المعدومات والمتوحّد بعلم الخفيات.

وقوله: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ وصف بأنه ليس إلا محتاجًا إليه وإذا لم يكن إلا محتاجًا إليه فهو غنيّ لا يحتاج إلى أحد ويحتاج إليه كل أحد.

وقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾نفي للشبه والمجانسة، وقوله: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ نفي للحدوث ووصف بالقدم والأوّليّة.

---

(١) **تفسير النسفي** (٣/ ٦٩٥).

وقوله: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ نفي أن يماثله شيء.

ومن زعم أن نفي الكفء وهو المثل في الماضي لا يدلّ على نفيه للحال فقد تاه في غيّه، لأنه إذا لم يكن فيما مضى لم يكن في الحال ضرورة إذ الحادث لا يكون كفؤًا للقديم، وحاصل كلام الكفرة يَؤُول إلى الإشراك والتشبيه والتعطيل، والسورةُ تدفع الكلّ كما قررنا» اهـ.

قال المؤلف رحمه الله: وهو الأوّل والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، عالم بأمور خلقه من مبتداهم إلى منتهاهم، وكل مخلوق بخلقته شاهدٌ عادلٌ على أنه: لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

الشرح: قال النسفي[1]: قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [سورة الحديد/ ٣]. معنى: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ ﴾ هو القديم الذي كان قبل كلّ شيء، ﴿ وَٱلْآخِرُ ﴾ الذي يبقى بعد هلاك كلّ شيء، ﴿ وَٱلظَّٰهِرُ ﴾ بالأدلّة الدالّة عليه، ﴿ وَٱلْبَاطِنُۖ ﴾ لكونه غير مدرك بالحواس وإن كان مرئيًّا، وقيل الظاهر العالي على كلّ شيء الغالب له، من ظهر عليه إذا علاه وغلبه. والباطن الذي بطن كل شيء أي علم باطنه ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

روى مسلم[2] أن الرسول ﷺ قال: «**اللّهمّ أنت الأوّل فليس قبلك شي وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عنّا الدّين وأغننا من الفقر**» الله تعالى ظاهر من حيث الدلائل العقلية التي قامت على وجوده وقدرته وعلمه وإرادته، لأنه ما من شيء إلا وهو يدلّ دلالة عقليّة على وجود الله كما قال أبو العتاهية:

---

(١) **تفسير النسفي** (٣/ ٤٣٢).

(٢) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب الذكر والدعاء: باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع.

فَيَـا عَجَبًـا كَيْـفَ يُعْـصَى الْإِلَهُ أَمْ كَيْـفَ يَجْحَـدُهُ الْجَاحِـدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَـهُ ءايَـةٌ تَـدُلُّ عَـلَى أَنَّـهُ وَاحِـدُ

معناه أن جميع الكائنات وحركاتها وسكناتها تدل دلالة عقلية على وجود الله تعالى وكأنها تنطق نطقا بذلك، فما كان منها نُطقا كالملائكة والمؤمنين من الإنس والجن فتلك شهادة حسيّة، وأما ما لا ينطق منها حسًّا فهي شهادة معنويّة كأن لسان حالها ينطق ويقول أنا من صُنع حكيمٍ عليم قادر مريد منزّه عن النقص هو الله.

وأما الباطن من أسماء الله فمعناه على ما قال بعض العلماء[1]: «الذي يعلم حقائق الأمور»، وبعضهم قال[2]: «الذي لا تدركه الأوهام» أي لا تبلغه تصوّرات العباد.

أما حقيقة الله لا يصل إليه أحد مهما شغل فكره، فلذلك نُهِينَا عن التفكر في ذات الله وأُمرنا بالتفكر في مخلوقاته، فليتفكر الإنسان منا في نفسه كيف يدخل الطعام والشراب من مدخل واحد ثم يخرجان من مخرجين مختلفين، وفي غير ذلك من صفات ذاته[3]، فبهذا التفكر يصل إلى معرفة أنه أوجده موجدٌ لا يشبهه بوجه من الوجوه أي أنه ليس حجما ولا متصف بصفات الحجم. والتفكر في مصنوعات الله واجب أمرنا الله تبارك وتعالى به، أما التفكر في ذات الله فهو محرّم لأنك لا تصل إلى نتيجة لأنه موجود لا كالموجودات.

بكل شيء عليم:

لا يغيب عن علم ربنا شيء يعلم ما كان وما يكون وما لا يكون، ولا

---

(١) **الاعتقاد والهداية** (ص/ ٣٧).

(٢) **الاعتقاد والهداية** (ص/ ٣٧).

(٣) الضمير يعود إلى الإنسان.

يقبل علمه الزيادة ولا النقصان فهو سبحانه وتعالى محيطٌ علمًا بالكائنات التي تحدث إلى ما لا نهاية له، حتى ما يحدث في الدار الآخرة التي لا انقطاع لها يعلم ذلك جملةً وتفصيلًا، قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطًا﴾ [سورة النساء/ ١٢٦]. وعلم الله تعالى أعمّ من الإرادة والقدرة، فالإرادة والقدرة تتعلّقان بالممكنات العقليّة، أما علمه يتعلّق بالممكنات العقليّة والمستحيلات وبالواجب العقليّ. وهو على كل شيء قدير، لا يعجزه شيء ولا يمانعه أحد فما شاء الله لا بد أن يكون على الصفة التي شاءها الله وفي الوقت الذي شاءه الله.

علمه سبحانه عامّ في جميع المعلومات وقدرته عامّة في جميع المقدورات وإرادته عامّة في جميع المرادات، علِمها على ما هي عليه وأراد أن يكون ما علم أن يكون وأراد أن لا يكون ما علم أن لا يكون، ولا يجري في مملكته ما لا يريد كونه لأن شيئًا من صفاته هذه لو اختص ببعض لما صحّ أن يكون عامًّا وما كان مختصًّا به متناهيًا في ذاته اقتضى مخصّصًا يخصّصه بما اختصّ به وذلك علم الحدوث. ومما يدلّ على أوصافه من كتاب الله تعالى قوله: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ﴾ [سورة يونس/ ٦١] وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾ [سورة الأحزاب/ ٤٠] وقوله تعالى في معنى القدرة: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [سورة البقرة/ ٢٨٤] وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [سورة الزمر/ ٢٦] وهل يكون الخلق إلا بالقدرة، وذلك يدلّ على عموم القدرة في جميع المقدورات.

وإذ قد علمت ما تقدم قبل من أنه مهما حدثت المخلوقات لم يحدث له علم بها بل حصلت مكشوفةً له بالعلم الأزليّ. والأزليّ لا ابتداء لوجوده، فاعلم أن المحوج لتجدد العلم بتجدد المعلوم هو ذهاب العلم بالغفلة عنه وعزوبه فلو فرض عدم العزوب بأن خلق لنا علم بقدوم زيد عند طلوع الشمس ودام ذلك تقديرًا ولم يعزب بل استمرّ بعينه حتى طلعت الشمس، لكان قدوم زيد عند طلوع الشمس معلومًا لنا بذلك العلم من غير تجدد علم ءاخر. وعلم الله تعالى بالأشياء قديم فاستحال لقدمه عزوبه لأنه عدمه وما ثبت قدمه استحال عدمه. فثبت علمه بنعيم الجنة وأحوال أهلها وأنفاسهم، وأنواع ءالام أهل النار

وأنفاسهم التي لا انقطاع لها تفصيلًا بعلمه الأزليّ. فبما قدمنا من بيان أنه لا يلزم التغير في علم الله بتغير أحوال المعلومات الجزئيّة بطل تمويه الفلاسفة الذي بنوا عليه إنكار علم الله بالجزئيّات فإذا ثبت أنه لا يجوز تجدّد علمه تعالى فما أوهم التجدّد من الآيات القرءانيّة فليس المراد به ذلك كقوله تعالى: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾ [سورة الأنفال/ ٦٦]. ويُجاب بأن قوله «وعلم» ليس راجعًا لقوله «الآن» بل المعنى لأنه علم أن فيكم ضعفًا بعلمه السابق في الأزل، وقوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [سورة محمد/ ٣١] فمعنى نعلم نميز للخلق من يجاهد ويصبر وكان هو عالِمًا قبل، كما نقل البخاريّ[1] ذلك عن أبي عبيدة معمر بن المثنى[2]. وهذا شبيه بقوله: ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ [سورة الأنفال/ ٣٧].

وجاء في عموم الإرادة قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [سورة النحل/ ٤٠] وفي هذه الآية دليل على عموم إرادته وعلى أن كلامه قديم، لأنه بيّن أنه لا يخلق شيئًا إلا أن يقول له كن ولو كان ذلك محدثًا لكان مفعولًا له بكن وكذلك الثاني والثالث ويتسلسل ذلك إلى ما لا نهاية له. ومما يدل على عموم كلامه في متعلقاته ونفي النهاية عنه قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [سورة الكهف/ ١٠٩]، وإذا تقرّر عموم قدرته وعلمه فاعلم أنه يجوز أن يقال في وصفه سبحانه إنه عالم بكلّ شيء كما يجوز أن يقال إنه عالم بجميع المعلومات ويجوز أن يقال إنه سبحانه وتعالى قادر على جميع المقدورات، ويستحيل أن يقال إنه قادر على كلّ شيء على هذا الإطلاق لأن القديم شيء يستحيل أن

---

(١) قال البخاري في **صحيحه**: ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ﴾ علم اللهُ ذلك، إنما هي بمنزلة فليميز الله، كقوله: ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾» (**فتح الباري**، ٨/ ٥١٠).

(٢) **البرهان في علوم القرءان** للزركشي (٤/ ٢٣٧-٢٣٦)، **الأزهيَّة في علم الحروف** لعلي الهروي (ص/ ١٨٤).

يتعلق به القدرة، والذي جاء في القرءان من إطلاق القول بأنه على كل شيء قدير دخله ضرب من التخصيص ومعناه على كل شيء مقدورٍ قديرٌ، ولهذا قال أهل المعرفة إن ءاية العلم لم يدخلها التخصيص وآية القدرة دخلها تخصيص، فأما كون العلم والقدرة لم يدخلهما التخصيص فبمعنى أن يقال في العلم إنه عامّ في جميع المعلومات وفي القدرة إنها عامّة في جميع المقدورات.

على كل شيء قدير:

إذا تقرر استحالة التخصيص على صفاته القائمة بذاته ووجوب عمومها في متعلّقاتها ثبت به عموم قدرته في جميع مقدوراتها وثبت أنه سبحانه قادر على إماتة جميع الخلق وإبطال جميع الموجودات وعلى أن يخلق أضعاف ما خلق كيف شاء ومتى شاء وأين شاء، وأنه سبحانه وتعالى قادر على بعث الرسل وإنزال الكتب وإظهار المعجزات الدالة على صدقهم فإنه قادر على الحشر والنشر وثواب أهل الطاعات وعقاب أهل المعاصي كما قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ [سورة الروم/ ٧٢] وقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ [سورة الإنفطار/ ٤] وقال جلّ جلاله: ﴿ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾ [سورة يس/ ٧٨] وقال تعالى: ﴿ وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [سورة الكهف/ ٤٧] وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة/ ٢٨١] وقال تعالى: ﴿ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُمْ مَّوْعِدًا ﴾ [سورة الكهف/ ٤٨].

كل المخلوقات دالة على الخالق:

كل مخلوق بخلقته شاهد عدل على أنه لا إله إلا هو الرحمن الرحيم قال الله تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ

لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [سورة البقرة/ ١٦٣-١٦٤] ذكر الله عزّ وجلّ خلق السموات بما فيها من الشمس والقمر والنجوم المسخرات، وذكر خلق الأرض بما فيها من البحار والأنهار والجبال والمعادن، وذكر اختلاف الليل والنهار وأخذ أحدهما من الآخر، وذكر الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وذكر ما أنزل من السماء من المطر الذي فيه حياة البلاد، وبه وبما وضع الله في اختلاف الليل والنهار من الحر والبرد يتم رزق العباد والبهائم والدواب، وذكر ما بث في الأرض من كل دابة مختلفة الصور والأجساد مختلفة الألسنة والألوان، وذكر تصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض وما فيهما من منافع الحيوانات وما في جميع ذلك من الآيات البيّنات لقوم يعقلون، ثم أمر في ءاية أخرى بالنظر فيهما فقال لنبيه ﷺ: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [سورة يونس/ ١٠١] يعني والله أعلم من الآيات الواضحات، والدلالات النيرات، وهذا لأنك إذا تأملت هيئة هذا العالم ببصرك واعتبرتها بفكرك وجدته كالبيت المبني المعد فيه جميع ما يحتاج إليه ساكنه من ءالة وعتاد. فالسماء مرفوعة كالسقف، والأرض مبسوطة كالبساط، والنجوم منضودة كالمصابيح، والجواهر مخزونة كالذخائر، وضروب النبات مهيأة للمطاعم والملابس والمآرب، وصنوف الحيوان مسخرة للمراكب مستعملة في المرافق، والإنسان كالمملّك البيت المخوّل ما فيه، وفي هذا دلالة واضحة على أن العالم مخلوق بتدبيرٍ وتقديرٍ ونظام، وأن له صانعًا حكيمًا تام القدرة بالغ الحكمة.

وحثهم على النظر في أنفسهم والتفكر فيها فقال: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [سورة الذاريات/ ٢١] يعني لما فيها من الإشارة إلى ءاثار الصنعة الموجودة في الإنسان من يدين يبطش بهما ورجلين يمشي عليهما وعين يبصر بها وأذن يسمع بها ولسان يتكلم به وأضراس تحدث له عند غناه عن الرضاع وحاجته إلى الغذاء يطحن بها الطعام ومعدة أعدت لطبخ الغذاء وكبد يسلك إليها صفوه وعروق ومعابر تنفذ فيها إلى الأطراف وأمعاء يرسب إليها ثفل الغذاء ويبرز عن أسفل البدن، فيستدل بها على أن لها صانعًا حكيمًا عالِمًا قديرًا.

ثم إنا رأينا أشياء متضادة من شأنها التنافر والتباين والتفاسد مجموعة في بدن الإنسان وأبدان سائر الحيوان وهي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة فقلنا إن جامعًا جمعها وقهرها على الاجتماع وأقامها بلطفه ولولا ذلك لتنافرت ولتفاسدت، ولو جاز أن تجتمع المتضادات المتنافرات وتتقاوم من غير جامع يجمعها لجاز أن يجتمع الماء والنار ويتقاوما من ذاتهما من غير جامع يجمعهما ومقيم يقيمهما وهذا محال لا يتوهّم، فثبت أن اجتماعها إنما كان بجامع قهرها على الاجتماع والالتئام وهو الله الواحد القهار، وقد حكي عن الشافعي رحمه الله أنه احتج بقريب من هذا المعنى حين سأله المرِيسِيّ عن دلائل التوحيد في مجلس الرشيد.

وقد بيّن الله تعالى في كتابه العزيز تحول أنفسنا من حالة إلى حالة وتغيرها ليستدل بذلك على خالقها ومحوّلها فقال: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ [سورة نوح/ ١٣-١٤] وقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ [سورة المؤمنون/ ١٢-١٥] فالإنسان إذا فكّر في نفسه رءاها مدبّرة وعلى أحوال شتى مصرفة كان نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم لحمًا وعظمًا فيعلم أنه لم ينقل نفسه من حال النقص إلى حال الكمال لأنه لا يقدر أن يحدث لنفسه في الحال الأفضل التي هي حال كمال عقله وبلوغ أشده عضوًا من الأعضاء ولا يمكنه أن يزيد في جوارحه جارحة، فيدله ذلك على أنه في حال نقصه وأوان ضعفه عن فعل ذلك أعجز، وقد يرى نفسه شابًّا ثم كهلًا ثم شيخًا وهو لم ينقل نفسه من حال الشباب والقوة إلى الشيخوخة والهرم ولا اختاره لنفسه، ولا في وسعه أن يزايل حال المشيب ويراجع قوة الشباب فيعلم بذلك أنه ليس هو الذي فعل هذه الأفعال بنفسه وأن له صانعًا صنعه وناقلًا نقله من حال إلى حال، ولولا ذلك لم تتبدل أحواله بلا ناقل ولا مدبّر، ثم يعلم أنه لا يتأتى الفعل المحكم المتقن

ولا يوجد الأمر والنهي ممن لا حياة له ولا علم ولا قدرة ولا إرادة ولا سمع ولا بصر ولا كلام فيستدل بذلك على أن صانعه حي عالم قادر مريد سميع بصير متكلم، ثم يعلم استغناء المصنوع بصانع واحد وعلو بعضهم على بعض أن لو كان معه ءالهة وما يدخل من الفساد في الخلق أن لو كان معه ءالهة فيستدل بذلك على أنه إله واحد لا شريك له.

قال المؤلف رحمه الله: وأنّ محمدا ﷺ عبده ورسوله، وصفيه وحبيبه وأمينه، وخيرته من خلقه، أرسله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، سيّد المرسلين، وخاتم النبيّين ﷺ.

الشرح: اعتقاد أن لا إله إلا الله فقط لا يكفي ما لم يقرن باعتقاد أن محمدًا رسول الله قال تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [سورة ءال عمران/ ٣٢]، معنى ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ ﴾ أي بالإيمان بهما ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ أي أعرضوا عن ذلك ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي فهم كفار لا يحبهم الله ولو أحبهم لرزقهم الإيمان.

لا بد أن تعلم أن محمّدًا ﷺ عبده المصطفى ونبيّه المجتبَى ورسوله المرتضى. والمصطفي والمجتبى معناهما واحد، وكذلك المرتضى متّحدٌ في المعنى معهما، لكن المصطفى والمجتبى فيهما زيادة مدح على المرتضى أي الله رضيه فاختاره لأنه الصفوة، أما المرتضى فيدل على أنه مرضيّ عند الله وليس فيه المعنى الزائد الذي هو أنه الصفوة فاختاره الله.

ثم إرسال الرسل ليس واجبًا على الله بل الله تبارك وتعالى متكرّم بذلك ولو لم يرسل لم يكن ذلك نقصًا على الله تعالى[1]، وقالت البراهمة وبعضٌ غيرهم:

---

(١) ومع ذلك يطلق بعض الحنفية على ذلك الوجوب فيقولون: «إن إرسال الرسل واجب»، لا بمعنى أن الله ملزَم بذلك بل بمعنى أن الحكمة تقتضيه لما فيه من الحكم والمصالح.

إرسال الرسل محالٌ قالوا لأن الرسول لو أتى بما اقتضاه العقل فبالعقل عما أتى به غُنْيَةٌ فيكون خاليًا عن الجدوى فيكون عبثًا وهو لا يليق بالحكيم، ولو أتى بما يأباه العقل فهو مردودٌ لأن العقل حجّةُ اللهِ تعالى إجماعًا فلا تتناقض حججه، فما يأباه العقل يكون باطلًا، قال أهل الحق: الأنبياء يأتون بما قصر العقل عن معرفته لأن الرسالة سفارةٌ بين الله تعالى وبين ذوي الألباب من خليقته، ليزيل بها علَلَهُم فيما قصرت عنه عقولهم، وهذا لأن العقل إن وقف على الواجب والممتنع العقليّين لا بدّ أن يتوقف في الجائز إذ كلا طرفي الجواز يتساويان في قضيّة العقل، وربما تتعلق به العاقبة الذميمة وليس في العقول إمكان الوقوف على ذلك، فلا بدّ من البيان ممن له الاطلاع على العواقب ليميّز بالعقل فيقبل على ما له العاقبة الحميدة ويعرض عما له العاقبة الذميمة.

ووجه دلالة المعجزة أنه لما ادّعى الرسالة، وقال: ءايةُ صدقِ دعوايَ أن يظهر الله على يدي المعجزات فإظهار الله تعالى ذلك يكون منه تصديقًا في دعواه الرّسالة كقوله له عقيب دعواه صدقتَ، إذ التصديق بالفعل كالتصديق بالقول، فيستحيل من الحكيم تعالى تصديق الكاذب.

ثم السبيل إلى معرفة النبيّ المعجزة وهي أمر خارق للعادة صالح للتحدّي موافق للدعوى سالم من المعارضة بالمثل يظهر على يد من ادّعى النبوّة كانفجار الماء الزُّلال من بين أصابع النبيّ ﷺ وعدم إحراق النار لإبراهيم ﷺ.

اعلم أنه ﷺ ادعى النبوّة مقرونة بالمعجزة فهو رسول الله قطعًا. أما أنه ادعى الرسالة فبالمشاهدة للمعاصر، ولغيره بالتواتر اللفظيّ والمعنويّ. ثم معجزاته قسمان:

١. باقية دائمة يشاهدها من كان في عصره ومن سيكون بعده وذلك هو القرءان العظيم.

٢. وغير دائمة وهو ما صدر عنه من الخوارق الفعليّة. فمنها ما رواه عبد الله بن عمر قال: «كنّا مع رسول الله ﷺ في مسير فأقبل أعرابيّ فلما دنا

منه قال رسول الله ﷺ: «**أين تريد؟**» قال: إلى أهلي قال «**هل لك إلى خير؟**» قال: ما هو؟ قال: «**تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله**» قال: هل من شاهد على ما تقول؟ قال ﷺ: «**هذه الشجرة**»، فدعاها رسول الله ﷺ وهي في شاطئ الوادي فأقبلت تخدُّ الأرض خدًّا حتى قامت بين يديه فاستَشهدها ثلاثًا فشهدت أنه كما قال ثم رجعت إلى منبتها فرجع الأعرابيّ إلى قومه وقال إن يتبعوني أتيتك بهم وإلا رجعت إليك وكنت معك» رواه ابن حبان والبيهقيّ وغيرهما[1].

وروى ابن حبان والبيهقيّ أيضًا[2] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال «جاء رجل من بني عامر إلى النبيّ ﷺ كأنه يداوي ويعالج فقال يا محمّد إنك تقول أشياء هل لك أن أداويك؟ قال فدعاه رسول الله ﷺ إلى الله، ثم قال له: «**هل لك أن أريك ءايةً**» وعنده نخل وشجر فدعا رسول الله ﷺ عذقًا[3] منها فأقبل إليه وهو يسجد ويرفع رأسه ويسجد ويرفع رأسه حتى انتهى إليه ﷺ فقام بين يديه ثم قال له رسول الله ﷺ «**ارجع إلى مكانك**»، فرجع إلى مكانه فقال العامريّ والله لا أكذبك بشيء تقوله أبدا.

وروى البخاريّ ومسلم[4] من حديث جابر رضي الله عنه من طريق سالم[5] عنه قال: «عطش الناس يوم الحديبية فكان رسول الله ﷺ بين يديه ركوة يتوضأ منها وجهش الناس حوله فقال: «**ما لكم**» فقالوا يا رسول الله ليس

---

(١) **الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان** (٨/ ١٥٠)، **دلائل النبوة** (٦/ ١٤-١٥).

(٢) **الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان** (٨/ ١٥٨)، **دلائل النبوة** (٦/ ١٥).

(٣) العَذق: كل غصن له شُعب، والعَذْق أيضًا النخلة (**لسان العرب** ١٠/ ٢٣٨).

(٤) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب المناقب: باب علامات النبوة في الإسلام، ومسلم في **صحيحه**: كتاب الإمارة: باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال.

(٥) هو سالم بن أبي الجعد الكوفي.

عندنا ما نتوضّأ به ولا ما نشربه إلا ما بين يديك، فوضع ﷺ يده في الركوة وجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون فشربنا وتوضأنا، قلت كم كنتم قال لو كنا مائة ألف لكفانا كنا خمس عشرة مائة».

وأخرج البيهقيّ في دلائل النبوّة[1] أن قتادة بن النعمان خرجَت حدقة عينه فردها رسول الله ﷺ فصارت أحسن من عينه الأخرى. فمعجزته ﷺ في نبع الماء من بين أصابعه الذي كفى هذا الجيش الكثير أعجب من تفجير موسى الماء من الحجر حين ضربه موسى بعصاه لأن خروج الماء من الحجر معهود بخلاف نبع الماء الزُّلال من بين الأصابع.

وفي هاتين المعجزتين قال بعض المادحين:

إن كانَ موسى سَقَى الأسباطَ من حَجَر ... فإنَّ في الكفِّ معنًى لَيْسَ في الحَجَرِ

إن كانَ عيسى بَرَا الأعمى بدعوَتِهِ ... فَكَمْ بِرَاحَتِهِ قَدْ رَدَّ مِنْ بَصَرِ

وأمّا معجزة حنين الجذع إليه ﷺ فهي متواترة تفيد العلم فقد رواها البخاريّ والبيهقيّ[2] من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما «كان النبيّ ﷺ يخطب إلى جذعٍ فلما اتخذ المنبر تحوّل إليه فحنّ الجذع فأتاه فمسح يده عليه».

قال البيهقيّ[3]: «وأمر الحنانة - أي الجذع الذي حنّ - من الأمور الظاهرة والأعلام النيرة التي أخذها الخلف عن السلف ورواية الأحاديث فيه كالتكلف» اهـ.

---

(١) **دلائل النبوة** (٣/ ٩٩-١٠٠).

(٢) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب المناقب: باب علامات النبوة في الإسلام، والترمذي في **سننه**: كتاب صلاة الجمعة: باب ما جاء في الخطبة على المنبر، والبيهقي في **دلائل النبوة** (٢/ ٥٥٥-٥٥٦).

(٣) **دلائل النبوة** (٢/ ٥٦٣).

وقد نقل ابن أبي حاتم في كتاب مناقب الشافعي[1] عن أبيه عن عمرو ابن سوّاد عن الشافعي قال: «ما أعطى الله نبيًّا ما أعطى محمدًا»، فقلت: أعطى عيسى إحياء الموتى. قال «أعطى محمدًا حنين الجذع حتى سمع صوته، فهذا أكبر من ذلك» اهـ.

وهو ﷺ إمام الأتقياء أي إنه ﷺ يكون مقدّمهم في الآخرة حيث إنّهم يكونون تحت لوائه. وكلّ من اتبعه واقتدى به فهو تقيٌّ.

وسيّد المرسلين أي أفضلهم ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [سورة ءال عمران/ ١١٠] فلما كانت أمّته خير الأمم كان هو أفضل الأنبياء، وهذا متّفقٌ عليه عند العلماء وهو مأخوذٌ من حديث «**أنا سيد ولد ءادم يوم القيامة ولا فخر**»[2] أي لا أقول ذلك افتخارًا إنما أقول تحدّثًا بنعمة الله. وهذا يشمل الأنبياء لأنهم من الناس وفي حديث الترمذيّ[3] «**ما من نبي ءادم فمن سواه إلا تحت لوائي**» وورد في حديث الشفاعة أن الناس يأتون ءادم ثم نوحًا ثم عيسى ثم موسى ثم إبراهيم ثم محمدًا عليهم الصلاة والسلام فيقول سيدنا محمد ﷺ أنا لها، وورد أن أمّته أوّل من تدخل الجنة وغير ذلك مما جاء في الأحاديث والقرءان مما يدلّ على تقدّمه على غيره من الأنبياء فإذا كان كذلك والأنبياء هم أفضل الخلق، دلّ هذا على أنه أفضل الخلق فشمل ذلك الملائكة والجن.

ويؤخذ من حديث «**أنا سيد ولد ءادم يوم القيامة ولا فخر**»[4] جواز وصفه ﷺ بأنّه سيّد البشر، ويعرف من ذلك جواز قول: «اللهم صلِّ على

---

(١) **ءاداب الشافعي ومناقبه** (ص/ ٨٣).

(٢) رواه الترمذي في سننه: كتاب المناقب: باب فضل النبي ﷺ.

(٣) **المصدر السابق.**

(٤) **المصدر السابق.**

سيدنا محمّد» وإن لم يَرِدْ في حديث الصّلاة على النبيّ إلّا «**قولوا اللّهمّ صل على محمّدٍ**»[1]، لأنّ هذه زيادة لفظٍ يناسب الأصل فهو جائزٌ، فقد كان عبد الله ابن عمر يزيد في التّشهّد «وحده لا شريك له» ويقول «وأنا زدتها»، أي أنا زدت وحده لا شريك له؛ رواه أبو داود[2]، أي ما سمعها من الرسول ﷺ ولا بلغته عنه وإن كان غيره أثبتها عن رسول الله ﷺ، لكنّ أكثر الروايات خاليةٌ عن وحده لا شريك له.

وحبيب رب العالمين أي محبوبه، وذلك لأخبار ثابتة منها قوله ﷺ: «**وأنا حبيب الله ولا فخر**» رواه الترمذيّ[3]. حبيب على وزن فعيل، في هذا السياق يراد أن الله يحبّ النبيّ محمدا ﷺ. المشبّهة تقول لا نقول محمد ﷺ حبيب الله بمعنى أن الله يحبه، قالوا لأنه خليل الله والخليل أعلى، -أي أعلى مراتب المحبة- ولكن هذا لا ينفي أن محمدًا ﷺ حبيب الله، وخليل الله، محمد ﷺ عبد الله ونبيّ الله ورسول الله، وإن كان الوصف بكونه رسولًا أعلى من الوصف بكونه نبيًّا وهو أعلى من وصفه بأنه عبد الله، ومع هذا نثبت الأوصاف الثلاثة، لا يقال «خليل الله» إلا عن سيدنا محمد وسيدنا إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، هما من اختصّ بهذه المرتبة من محبّة الله لهما. هما أعلى خلق الله تعالى. على أنه ورد في الحديث «**وأنا حبيب الله**» رواه الترمذيّ[4] وحسنه، ولكن هم يطعنون بهذا.

وكلّ دعوى نبوّةٍ بعد نبوّته فغيٌّ وهوًى، أي من ادّعى النبوّة بعده ﷺ فدعواه باطلة وضلالٌ وخيبةٌ وهوى لقوله ﷺ: «**لا نبي بعدي**» رواه البخاريّ والحاكم

---

(١) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب التفسير: باب ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾.

(٢) رواه أبو داود في **سننه**: كتاب الصلاة: باب التشهد.

(٣) رواه الترمذي في **سننه**: في أول كتاب المناقب.

(٤) رواه الترمذي في **سننه**: كتاب المناقب: باب فضل النبي ﷺ.

في المستدرك[1]، ومعنى هوًى أي ميلٌ نفسانيّ مذموم لأن الهوى عبارة عن شهوة النفس وميلها إلى الباطل قال الله تعالى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [سورة النازعات/ ٤٠] فتكون تلك الدعوى بسبب هوى النفس لا عن دليل، ويطلق الهوى بمعنى المحبّة إن كان في خير أو شرّ. فالقاديانيّة يقولون: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة الحج/ ٧٥]، ﴿يَصْطَفِى﴾ فعل مضارع، فيقال لهم: يصطفي فعل مضارع وضع موضع الماضي بالنسبة للمُصْطَفَين أما بالنسبة لله تعالى الفعل يتجرد عن الزمان الماضي والمضارع والحال لأن فعله أزليّ لا محالة، لا يقال عن الأزليّ مضى وانقطع. ويقال لهم: لذلك نظائر كثيرة في القرءان كقوله تعالى: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [سورة البقرة/ ٨٧] تقتلون أي قتلتم، فعُبّر عن المستقبل بصيغة الماضي. فالاستدلال الذي استدلوا به يسقط بهذا.

الإيمان برسالة الأنبياء والرسل

قال المؤلف رحمه الله: وأن الله أرسل قبله رسله أولهم ءادم وخاتمهم محمد ﷺ، وكلهم جاؤوا بالحقِّ، وتكلَّموا بالصدق، وبلَّغوا الرسالة؛ وصدقوا فيما بلغوا عن ربهم عزّ وجلّ، وكلُّ ما أنزل عليهم من الكتب والصحف حقّ، وأنَّ محمدا ﷺ خاتم الرسل ولا نبي بعده، وأنَّ الرسل كلهم على حقّ.

الشرح: قد أرسل الله الأنبياء والرسل بدين الإسلام مبشّرين ومنذرين يدعون إلى دين الإسلام، لأن الدين الحقّ عند الله الإسلام قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [سورة ءال

(١) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب أحاديث الأنبياء: باب ما ذكر عن بني إسرائيل، والحاكم في **المستدرك** (٤/ ٤٥٠)، وصححه ووافقه الذهبي على تصحيحه.

عمران/ ٨٥] أي الذي يطلب دينا غير الإسلام يدين به فلن يقبله الله منه فالدين الصحيح عند الله هو الإسلام، وليس معناه أنه لا يسمى ما سِوى الإسلام دينًا بل يقال دين اليهود ودين المجوس لكنه دين باطل، وقد أمر الله تعالى الرسول ﷺ أن يقول ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [سورة الكافرون/ ٦] أي أنا ما أزال على ديني الذي هو حقّ وأنتم لكم دينكم الباطل فعليكم أن تتركوه. وقال تعالى أيضًا: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [سورة ءال عمران/ ١٩] أي الدين الصحيح الذي ارتضاه الله لعباده الإسلام لا غير وما سواه من الأديان فهو باطل.

وقد قال الرسول ﷺ: «**الأنبياء إخوة لعلات دينهم واحد وأمّهاتهم شتى**»[1] الإخوة لعلات هم من كانوا من أب واحد وأمّهات مختلفة، فالنبيّ ﷺ بيّن أن الأنبياء لم يختلفوا في الاعتقاد، كلهم دعوا إلى توحيد الله تعالى وتنزيهه عما لا يليق به من الصفات وبلّغُوا ما أوحى الله إليهم بتبليغه، ليس فيهم من قصّر بذلك، فهم صَفْوَةُ البشر وأجملهم وأتقاهم وأقربهم إلى الله، بيّنوا لأممهم أنه لا إله غيره، ولا شيء يعجزه، وأنه قديم بلا ابتداء باق بلا انتهاء، ولا يكون إلا ما يريد، لا يتصوّر في الأذهان ولا تبلغه الأوهام، ولا يشبه شيئًا من مخلوقاته تنزّه عن الجلوس وعن مشابهة الأنام. عصمهم ربهم من الكفر والكبائر وصغائر الخسة قبل النبوّة وبعدها، فمن كان في زمن موسى ﷺ فآمن بالله ربًّا وصدّق برسالة موسى فهو مسلم موسوي أي من أتباع موسى، وكذلك الأمر فيمن كان في أيام عيسى ﷺ فآمن بالله وصدق بعيسى فهو مسلم عيسوي. ومعنى مسلم محمديّ أي مسلم متّبع محمدًا ﷺ فيما جاء به من توحيد الله وتصديق الأنبياء والإيمان بوجود الملائكة المكرمين والإيمان بالكتب السماويّة والإيمان باليوم الآخر الذي يجازى فيه العباد بأعمالهم بإدخال المؤمنين الجنة والكافرين بإدخالهم جهنم، وأن الجنة فيها نعيم محسوس وجهنم فيها ءالام محسوسة، وأنه لا خالق للأجسام ولا لشيء من الحركات والسكنات إلا الله.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١٥/ ١٥٣).

فكلّ الأنبياء جاؤوا بهذا لا يختلفون في هذا إنما تختلف الأحكام التي أنزلها الله على الرسل وذلك لأن الله تعالى فرض على أنبياء بني إسرائيل وأممهم صلاتين وأنزل على بعض الأنبياء خمسين صلاة، وأوجب فيما أوجب على بعضٍ أن يدفعوا ربع أموالهم زكاة، وأنزل على بعضٍ تحتّمَ قتل القاتل، وأنزل على ءادم ﷺ تحليل زواج الأخ بأخته التي هي توأمة أخيه الآخر، وكل يجب العمل به في شريعة ذلك النبيّ، والله تعالى يغيّر الأحكام في شرع نبيّ سبقه وهو العليم بمصالح عباده، والمصالح تختلف باختلاف الأزمان والأحوال.

وكل نبيّ في زمانه يجب التقيُّد به في الإيمان والأحكام التي أُنزلت عليه، فلما جاء سيدنا محمد ﷺ ءاخرهم أنزل الله عليه أحكامًا لم تكن في شرائع من قبله من الأنبياء كالصلاة في الأماكن التي هُيِّئَت للصلاة وغيرها ولم يكن ذلك في شرع من قبله من الأنبياء بل كان مفروضًا عليهم أن يصلّوا في أماكن مخصوصة، وأنزل على سيدنا محمد ﷺ التيمّم بالتراب عند فقد الماء أو العجز عن استعماله ولم يكن ذلك في شرائع الأنبياء قبله، بل كانوا يتوضؤُون ويصلّون فإن لم يجدوا ما يتوضؤُون به توقّفوا عن الصلاة حتى يجدوا الماء.

قِصّة[1] فيها دلالة على أن سيدنا عيسى ﷺ أوصى باتباع محمد ﷺ إذا ظهر: «خرج من اليمن أربعة أشخاص قاصدين مكّة فأدركهم الليل في البريّة فنزلوا في بعض الليل في أرض فناموا إلا شخصًا واحدًا منهم يسمى الجعد بن قيس المراديّ فسمع هاتفًا لا يرى شخصه يقول:

أَلا أَيُّهَا الرَّكْبُ الْمُعَرِّسُ[1] بَلِّغُوا إِذَا مَا وَصَلْتُمْ لِلْحَطِيمِ[2] وَزَمْزَمَا

---

(١) **الخصائص الكبرى** (١/ ١٨٢).

(١) أي المسافر الذي ينزل في آخر الليل ليستريح.

(٢) حجر إسماعيل.

مُحَمَّـدًا الْمَبْعُـوثَ مِنَّـا تَحِيَّـةً تُشَـيِّعُهُ مِـنْ حَيْـثُ سَـارَ وَيَمَّمَا

وَقُولُـوا لَـهُ إِنَّا لِدِينِكَ شِـيعَةٌ[1] بِذَلِكَ أَوْصَانَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَا

فهذا الهاتف جنيّ مؤمن أدرك عيسى قبل رفعه إلى السماء وآمن به وسمع منه وصيّته بالإيمان بمحمد ﷺ إذا ظهر واتباعه، فلما وصلوا إلى مكة سأل أهل مكة عن محمد ﷺ فاجتمع به فآمن به وأسلم وذلك كان في أوّل بعثة محمد ﷺ قبل أن ينتشر خبره في الجزيرة العربيّة.

البشَرُ في زمن ءادم ﷺ كانوا كلّهم على الإسلام لم يكن بينهم كافر. وإنما حدث الشرك والكفر بالله تعالى بعد ءادم بألف سنة وذلك بعد وفاة إدريس ﷺ. فأوّل الأنبياء ءادم ثم ابنه شيث ثم إدريس. بعد وفاة إدريس ﷺ حصل الشرك بين الناس واستمروا على هذا زمانًا إلى أن بعث الله نوحًا يدعوهم إلى الإسلام. فَبَيْنَ إدريس ونوح عليهما الصلاة والسلام ألف سنة[2] وتلك الفترة تسمى الجاهليّة الأولى، فبهذا يكون نوح ﷺ هو أوّل نبيّ أرسل إلى الكفار يدعوهم إلى الإسلام.

وقد صحّ أن نوحًا أوّل الرسل إلى أهل الأرض. كما روى البخاريّ[3] في صحيحه حديث الشفاعة وفيه أن الناس يقولون لنوحٍ في الموقف: «**أنت أوّل الرسل إلى أهل الأرض**» اهـ أي بعد حدوث الكفر بين البشر، وليس معناه أنه لم يكن قبله نبيّ ولا رسول بل كان ءادم نبيًّا رسولًا كما يشهد لنبوّته حديث

---

(١) أي أنصار.

(٢) رواه الحاكم في **المستدرك** (٢/ ٥٤٨).

(٣) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب أحاديث الأنبياء: باب قول الله عزّ وجلّ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾.

الترمذيّ «**ءادم فمن دونه تحت لوائي**»[1]. فالذي يشكّ في نبوّة ءادم أو في كفرِ الشّاك فيه كافرٌ والذي يشكّ في رسالته أيضًا كافرٌ.

وقد حذّر اللَّهُ جميعَ الرسلِ مِنْ بعده مِنَ الشرك، والمقصود به تحذير أممهم لأن الأنبياء معصومون من الشرك. ولما نزل الوحي على النبيّ لم يكن بين البشر على الأرض مسلم غيره فعرب الجزيرة العربيّة كانوا يعبدون الأوثان، وأهل فارس كانوا يعبدون النار، وسائر أهل الأرض كانت لهم أصنام أو أشياء أخرى يعبدونها، فقام سيدنا محمد ﷺ يدعو إلى الإسلام مؤيّدًا بمعجزات تدلّ على نبوّته فهو مجدّد الدعوة. فدخل البعض في الإسلام كالجعد بن قيس المرادي الذي أسلم بسبب ما سمعه من الجنيّ[2]. وجحد بنبوته أهل الضلال الذين منهم من كان مشركًا قبلُ كفرقة من اليهود عبدت عُزَيْرًا[3] فازدادوا كفرًا إلى كفرهم. وآمن به بعض أهل الكتاب اليهود والنصارى كعبد الله ابن سلام عالم اليهود بالمدينة، وأصحمة النجاشيّ ملك الحبشة وكان نصرانيًّا.

سيدنا محمد ﷺ ءاخر الأنبياء، فمن اعتقد أنّه يجوز أن يأتي نبيٌّ بعد محمد ﷺ أي أن ينزل وحيٌ بالنبوّة على شخصٍ لم يُنبّأ قبلَ محمد ﷺ كفر، وكذا لو شكّ بأن قال يجوز أن يكون فلانٌ نزلت عليه النبوّة.

وقد ظهر جماعةٌ يقال لها الأحمديّة والقاديانيّة ءامنوا برجل اسمه غلام أحمد كان في الهند توفيّ منذ نحو قرنٍ ونصفٍ تقريبًا يعتقدون أنه نبيٌّ مجدّدٌ، وأحيانًا يقولون نبوّته نبوّةٌ ظليّةٌ أي تحت ظل محمد أي ليس مستقلًا إنّما هو منتسبٌ إلى سيدنا محمد ﷺ، وكلّ هذا كفرٌ، فإنّه لا يجوز أن يُنبّأ شخصٌ بعد محمد ﷺ استقلالًا ولا تجديدًا لنبوّة محمّدٍ ﷺ. ويُمَوّهُون على النّاس لترويج دعوتهم

---

(١) رواه أحمد في **مسنده** (٤/ ٤٢٧).

(٢) **الإصابة في تمييز الصحابة** (١/ ٢٣٥-٢٣٦).

(٣) عزير رجل من الصالحين وقد قال بعض الفقهاء بنبوته.

هذه بقولهم إنّ معنى قوله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [سورة الأحزاب/ ٤٠] زِينة النبيّين، وينكرون أن معناه ءاخر الأنبياء، وتفسيرهم هذا فاسدٌ لأن قولهم إن محمّدًا ﷺ زينة النبيّين كما أن الخاتم زينةٌ ليد صاحبه ليس فيه مدحٌ لسيدنا محمد ﷺ، وهذا الوصف أنزله الله تعالى في القرءان تعظيمًا لسيّدنا محمد ﷺ ليس لخلاف ذلك؛ ثم إن الحديث النبويّ الصّحيح الذي رواه مسلمٌ وغيره يبطل هذا التفسير ويهدمه فإنه ﷺ قال: «**وختم بي النبيّون**»[١] وهذا يزيد معنى ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ وضوحًا أنه بمعنى ءاخرهم أي بمعنى الآخر الذي لا نبيّ بعده، وقال ﷺ في الحديث الذي رواه البخاريّ[٢] «**كانت بنو إسرائيل تَسُوسُهم**[٣] **الأنبياء كلّما هلك**[٤] **نبيٌّ خلفه نبيٌّ وإني خاتم النبيّين فلا نبيّ بعدي**» وكذلك قوله ﷺ لعليٍّ رضي الله عنه عند السّفر إلى تبوك: «**أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى**[٥] **غير أنّه لا نبيّ بعدي**»، وقوله ﷺ: «**ذهبت النبوّة وبقيت المبشرات**» قيل وما المبشّرات يا رسول الله؟ قال: «**الرّؤيا الصّالحة**[٦]» رواه البخاريّ[٧] وقال بعض هؤلاء إنّ معنى قول النبيّ «**لا**

---

(١) رواه مسلم في **صحيحه**: أول كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

(٢) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب أحاديث الأنبياء: باب ما ذكر عن بني إسرائيل.

(٣) أي تحكمهم.

(٤) أي مات.

(٥) استخلف موسى هارون عندما ذهب لمناجاة ربه إلى أن يعود. وكانت وفاة هارون قبل موسى.

(٦) الرؤيا المنامية ثلاثة أقسام رؤيا بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا أضغاث أحلام. ولا يكون المعبِّر للرؤيا المنامية إلا وليًّا، وذلك بالإجماع كابن سيرين وقلة من غيره. ولم يشجّع رسول الله ﷺ أفضل الأولياء في أمته أبا بكر على تعبير المنام بل قال له لَمَّا فعل ذلك أصبت بعضا وأخطأت بعضا. كما روى ذلك البخاري في **صحيحه**: كتاب التعبير: باب من لم ير الرؤيا لأوّل عابر إذا لم يصب.

(٧) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب التعبير: باب المبشرات.

نبيّ بعدي» لا نبيّ معي، فلا ينفي نبوّة من يأتي بعده كغلام أحمد، وهذا يردّ بما مضى من الأدلّة وبقوله ﷺ: «**لو كان بعدي نبيٌّ لكان عمر**» رواه الترمذيّ[1]، وبالحديث[2] الذي فيه إخبار النبيّ أنه سيأتي بعده كذّابون كلٌّ منهم يزعم أنه رسول الله، فغلام أحمد داخلٌ في هؤلاء لأن الرسول ذكر أنه يكون ثلاثون منهم من غير أن يفيد ذلك انحصارهم في ثلاثين فقط. ولم يدّع في حياة رسول الله ﷺ النبوّة إلا الأسود العنسيّ ومسيلمة الكذّاب.

ولا بد أن نعرف ما يجب للأنبياء وما يستحيل عليهم:

يجب للأنبياء الصدق ويستحيل عليهم الكذب، وتجب لهم الفطانة ويستحيل عليهم البلادة والغباوة، وتجب لهم الأمانة فلا يجوز عليهم ارتكاب الخيانة بقولٍ وحالٍ وفعلِ كبيرةٍ قبل النبوّة ولا بعدها أو بفعل صغيرة خسَّة فإذا استنصحهم شخص لا يكذبون عليه فيوهمونه خلاف الحقيقة، وإذا وضع عندهم شخص شيئًا لا يضيعونه أو ينكرونه.

وتجب لهم الفطانة أي الذكاء فكلّهم أذكياء فطناء أصحاب عقول كاملة قويّة الفهم فيستحيل عليهم البلادة والغباوة لأنهم بُعثوا لبيان الحق فلا يليق بهم أن يكونوا قاصرين عن إقامة الحجة على من جانب الحق وعاداه قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [سورة الأنعام/ ٨٣] ولأنهم لو كانوا أغبياء لنفر الناس منهم لغباوتهم والله حكيم لا يفعل ذلك.

وممّا يجب للأنبياء الصّيانة فيستحيل عليهم الرّذالة كاختلاس النّظر إلى الأجنبيّة بشهوةٍ وكسرقة حبّة عنبٍ، وكذلك يستحيل عليهم السفاهة كالذي يقول ألفاظًا شنيعةً، وكذلك يستحيل عليهم الجبن فالأنبياء هم أشجع خلق

---

(١) رواه الترمذي في **سننه**: كتاب المناقب: باب في مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب المناقب: باب علامات النبوة في الإسلام.

الله وقد قال بعض الصّحابة: «كنّا إذا حمي الوطيس واحمرّت الحُدُق أي في المعركة اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أقرب إلى العدوّ منه»[1]. وكذلك يستحيل عليهم كلّ مرضٍ منفّرٍ. فمن نسب إليهم الكذب أو الخيانة أو الرذالة أو السفاهة أو الجبن أو نحو ذلك فقد كفر.

قال رسول الله ﷺ: «**ما بعث الله نبيًّا إلا حسن الوجه حسن الصّوت وإن نبيّكم أحسنهم وجهًا وأحسنهم صوتًا**» رواه الترمذيّ[2]. فالأنبياء كلّهم كانوا ذوي حسنٍ وجمالٍ فلا يجوز عليهم المرض الذي ينفّر الناس منهم، ولا يسلّط الله تعالى عليهم هذه الأمراض، أمّا المرض المؤلم الشديد حتى لو كان يحصل منه الإغماء أي الغَشْيُ فيجوز عليهم.

أنبياء الله كلّهم أصحاب خلقةٍ سويّةٍ لم يكن فيهم ذو عاهةٍ في خلقته ولم يكن فيهم أعرج ولا كسيحٌ ولا أعمى إنّما يعقوب من شدّة بكائه على يوسف ابيضّت عيناه من شدّة الحزن فعمي ثم ردّ الله تعالى عليه بصره.

وأمّا الذي يقول إنّ ءادم ﷺ كان متوحّشًا قصير القامة شبيهًا بالقرد فهو كافرٌ، وكذلك من قال إنه كان يمشي في الأرض عريانًا كالبهائم لأن في ذلك تكذيبًا للقرءان قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [سورة التين/ ٤] أي في أحسن صورةٍ، فقول بعض الملحدين في العصور الأخيرة إن أوّل البشر كان على صورة القرد تكذيبٌ للآية المذكورة وللحديث الصحيح «**كان ءادم ستين ذراعًا طولًا في سبعة أذرعٍ عرضًا**» رواه أحمد[3].

ويجب للأنبياء أيضًا التبليغ فلا يجوز عليهم أن يكتُموا ما أُمروا بتبليغه لأن ذلك ينافي منصب النبوّة. وقد دلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا

---

(١) رواه النسائي في **السنن الكبرى**: كتاب السير: باب مباشرة الإمام الحرب بنفسه.

(٢) رواه الترمذي في **الشمائل** (ص/ ٢٦١).

(٣) رواه أحمد في **مسنده** (٢/ ٥٣٥).

﴿مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ الآية [سورة الحج/ ٥٢]. وليس في قول النبيّ ﷺ: «**كان النبيّ يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافّةً**»[١] أنّ من سوى نبيّنا محمد ﷺ لم يجب عليه أن يبلّغ من هم من سوى قومه إنما المعنى أن الأنبياء غير نبيّنا أرسلوا إلى أقوامهم أي أن النصّ لهم كان أن يبلّغوا قومهم ليس معناه أنهم لا يبلّغون سوى قومهم لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبٌ على كل من استطاع من أفراد المكلفين وذلك في حقّ الأنبياء أوكد.

وليعلم أن كلّ الأنبياء فصحاء فليس فيهم من يكون في لسانه عقدة وحبسة ويعجل في كلامه فلا يطاوعه لسانه، ولا تأتاء ولا ألثغ ولا أرت، وأما الألثغ فهو الذي يُصَيِّر السين ثاءً، وأما الأرت فهو الذي لا يفصح الكلام ولا يبينه. وأنه يستحيل عليهم سبق اللسان في الشّرعيّات والعاديّات لأنه لو جاز عليهم لارتفعت الثقة في صحّة ما يقولونه ولقال قائلٌ عندما يبلُغه كلامٌ عن النبيّ «ما يدرينا أنّه يكون قاله على وجه سبق اللسان»، فلا يحصل من النبيّ أن يصدر منه كلامٌ غير الذي أراد قوله، أو أن يصدر منه كلامٌ ما أراد قوله بالمرّة كما يحصل لمن يتكلم وهو نائمٌ. وأمّا النّسيان الجائز عليهم فهو كالسّلام من ركعتين كما حصل مع الرسول مما ورد من أنه قيل لرسول الله ﷺ أقصرت الصلاة يا رسول الله أم نُسّيت[٢] قال: «**كلّ ذلك لم يكن**»[٣] ثم سأل أصحابه «**أصدق ذو**

---

(١) رواه البخاري في **صحيحه**: في أول كتاب التيمم.

(٢) قال ابن الأثير في **النهاية في غريب الحديث** (٤/ ٧٠): «تروى على ما لم يسم فاعله، وعلى تسمية الفاعل بمعنى النقص».

(٣) قال النووي في **شرح مسلم** (٥/ ٦٩): «والثاني: هو الصواب، معناه: لم يكن لا ذلك ولا ذا في ظني، بل ظني أني أكملت الصلاة أربعا. ويدل على صحة هذا التأويل، وأنه لا يجوز غيره، أنه جاء في روايات البخاري في هذا الحديث: أن النبي ﷺ قال: «**لم تقصر ولم أنس**» فنفى الأمرين» اهـ.

اليدين» -وهو السائل- فقالوا نعم فقام فأتى بالرّكعتين رواه مسلم[1].

ومما يستحيل على الأنبياء أيضًا الجنون، وأما الإغماء فيجوز عليهم، وقد كان رسول الله ﷺ يغمى عليه من شدّة الألم في مرض وفاته ثم يصبّ عليه الماء فيفيق. ومما يستحيل عليهم تأثير السحر في عقولهم فلا يجوز أن يعتقد أن الرسول أثّر السحر في عقله وإن كان قاله من قاله. وأما تأثير السحر على جسد النبيّ فقد قال بعض العلماء إنه جائز فقد ورد أن يهوديًّا عمل السحر لرسول الله ﷺ فتألّم الرسول ﷺ من أثر ذلك.

وكذلك يستحيل على الأنبياء الجبن، أما الخوف الطبيعيّ فلا يستحيل عليهم بل هو موجود فيهم وذلك مثل النفور من الحيّة فإن طبيعة الإنسان تقتضي النفور من الحيّة وما أشبه ذلك مثل التخوف من تكالب الكفار عليهم حتى يقتلوهم فإن ذلك جائز عليهم.

ولا يختار الله تعالى لهذا المنصب إلا من هو سالم من الرذالة والخيانة والسفاهة والغباوة والبلادة فمن كانت له سوابق من هذا القبيل لا يصلح للنبوّة ولو تخلّى منها بعد، فلا تجوز النبوّة لإخوة يوسف الذين فعلوا تلك الأفاعيل. وليس المراد بقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَسْبَاطَ﴾ [سورة البقرة/ ١٤٠] إخوة يوسف هؤلاء بل المراد ذريّتهم أو ما يشمل أخاهم بنيامين وذريّتهم.

وأمّا قولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [سورة يوسف/ ٢٤] فقد قيلَ فيه نحو خمسة تأويلات وأحسنُ ما قيلَ في ذلكَ أن يقالَ قولُهُ تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ مربوطٌ بما بعدَه أي بقوله ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ فيكونُ على هذا التفسير ما همَّ يوسف بالمرّةِ لأنَّه رأى البرهانَ، أمَّا لو لم ير البرهانَ لهمَّ، والبرهان هو العصمة أي أنه أُلهِمَ أن الأنبياء معصومون

(١) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب المساجد ومواضع الصلاة: باب السهو في الصلاة والسجود له.

عن مثل هذا الشيء وأنه سيؤتى النبوّة فلم يهمّ. هذا أحسنُ ما قيل في تفسير هذه الآية. وقال بعض علماء المغاربة معنى ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ﴾ أي همّت بأن تدفعه ليزني بها وهمَّ يوسف بدفعها ليخلص منها. والخلاصَةُ أنّ الأنبياءَ لا يقعونَ في الزنى ولا يهمّونَ بهِ.

واتفق المسلمون على أن الأنبياء معصومون عن الكفر قبل الرسالة وبعدها، وقالت طائفة من الخوارج[1] يجوز من الأنبياء الكفر تقيّة، وفساد هذا القول مما لا يخفى، وكذلك الكبائر فهم معصومون منها قبل النبوّة وبعدها. وأما الصغائر فما كان من صغائر الخسّة والدناءة فهم معصومون منها قبل النبوّة وبعدها، ثم يبقى الكلام على الصغائر التي هي غير صغائر الخسّة، فأبو الحسن الأشعريّ قال بجواز ذلك[2] على الأنبياء.

عصمة الأنبياء فضلٌ من الله ولطفٌ بهم ولكن على وجهٍ يبقى اختيارهم بعد العصمة في الإقدام على الطاعة والامتناع عن المعصية وإلى هذا القول مال الشيخ أبو منصور الماتريديّ، وهو القول السديد وعليه الاعتماد إذ لولا ذلك لكانوا مجبورين في أفعالهم ومن كان مجبورًا على فعل الطاعة والامتناع عن المعصية لا يكون مأجورًا في فعله وتركه.

ومن الغلوّ القبيح قول بعض المنحرفين من المتصوفة: «إن ءادم كان منهيًّا عن الأكل من الشجرة ظاهرًا مأمورًا باطنًا» كما في «حاشية الصاوي على الدردير»[3]. وقال بعض هؤلاء في إخوة يوسف[4] مثل ذلك وذلك تكذيب

---

(١) هم الذين خرجوا على علي فدعاهم إلى الطاعة فأصروا على عصيانهم فقاتلهم.

(٢) **طبقات الشافعية** لابن السبكي (٢/ ٢٦٨)

(٣) **بلغة السالك لأقرب المسالك** (٢/ ٥٤٠).

(٤) على أن الصحيح أن إخوة يوسف لم يكونوا أنبياء أصلا لما ظهر منهم من الكذب والأفعال الخسيسة المنافية للنبوة.

للنص. أما في حق ءادم فقد قال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [سورة طه/ ١٢١] أخبرنا الله بأنه نهى ولم يخبرنا بأنه أمر بالأكل من الشجرة وكيف يجتمع الأمر بشيء والنهي عنه في حقّ شخص واحدٍ في وقت واحد، ثم أخبرنا بأنه تاب عليه بقوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [سورة البقرة/ ٣٧] وأما إخوة يوسف الذين كادوه فلم يخبرنا الله تعالى إلا بجرائمهم وأخبرنا أن يوسف قال لهم ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [سورة يوسف/ ٩٢] فكيف يعقل أن يكونوا مأمورين باطنًا.

وكانت معصية الأكل صغيرة وليست كبيرةً كما تدّعي النصارى. فقد قالوا إن المسيح جاء ليخلص البشر من تبعتها وأعظِمْ بذلك افتراءً. وكانت الكلمات التي تلقاها ءادم ما ذكر الله بقوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [سورة الأعراف/ ٢٣]. فالصواب أن معصية ءادم حقيقيّةٌ لكنها من الصغائر التي ليس فيها خسّة ودناءة، وقال بعض العلماء: «إن ما حصل من ءادم يجب إثبات اسم المعصية عليه من أجل موافقة النصّ» أي قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [سورة طه/ ١٢١]، قالوا ونفي اسم المعصية عنه كفر لأنه تكذيب للنصّ، قال ذلك بعض الحنفيّة وبعض المالكيّة.

فالقول بجواز الصغائر من الأنبياء أي غير صغائر الخسّة هو القول المنصور، نصّ على ذلك كثير منهم صاحب القاموس في كتابه «بصائر ذوي التمييز»[١]، وابن الحاجب المالكي[٢]، بل صرّح بعضهم[٣] بأنه مذهب الأكثرين. وأما ما احتجّ به المخالفون مستدلّين بقولهم بأنه لو كان يجوز منهم ذنبٌ لَكُنَّا مأمورين باتباعهم في ذلك ولا يأمر الله بالاتباع في معصية. فالجواب عنه أنهم

---

(١) بصائر ذوي التمييز (١/ ٣٠٧).

(٢) مختصر ابن الحاجب (٢/ ٢٢).

(٣) شرح صحيح مسلم (٣/ ٥٤).

ينبّهون فورًا فيتوبون منها قبل أن يقتدي بهم أحد، فزال المحظور بذلك. وتعلّق بذلك بعض متأخّري الأشاعرة فبالغوا في ذلك حتى قالوا لا يجوز أن يقع منهم المكروه أيضًا، وليس هذا إلا غلوًّا والغلوّ منهيٌّ عنه.

ثم من كان من الأنبياء أبوه كافرًا كإبراهيم لا يُجرَى عليه حكم الكفر بالتبعيّة كما يجري على غيرهم قبل البلوغ، أي أن ولد الكافر يُجرَى عليه أحكام الكفر قبل البلوغ إلا الأنبياء، لأن من المتفق عليه أن المولود بين أبوين كافرين يُجرَى عليه أحكام الكفر ما دام صبيًّا، فلا يتمشّى ذلك في حقّ الأنبياء لأنهم عارفون بالله تعالى حقيقةً.

فائدة:

اختلف العلماء في بيان عدد الأنبياء فقال بعضٌ بموجب حديث ابن حبان[1] عن أبي ذر مرفوعًا: «**إنهم مائة ألف وأربعةٌ وعشرون ألفًا**». وقال بعض: الصواب أن لا يعيّن للأنبياء عددٌ معلومٌ حذرًا من إدخال من ليس منهم أو إخراج من هو منهم، ويمكن الجواب لهؤلاء عن حديث ابن حبّان بأنّ الحديث مختلفٌ في صحّة إسناده فلم يَرِدْ في ذلك حديثٌ متّفق على صحته.

قال المؤلف رحمه الله: وأنَّ عيسى ﷺ ينزل في ءاخر الزمان ويكون على شريعة محمد ﷺ كواحد من أمته، داعيًا إلى دينه وسنّته.

الشرح: يجب الإيمان بنزول المسيح عيسى ﷺ من السماء فإنه ثابتٌ بالأحاديث الصحيحة، فقد روى أبو داود[2] أن رسول الله ﷺ قال: «**ليس بيني وبينه نبيٌّ**[3] **وإنه نازلٌ، فإذا رأيتموه فاعرفوه رجل مربوعٌ إلى الحمرة والبياض بين ممصّرتين كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بللٌ، فيقاتل الناس**

---

(١) **الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان (١/ ٢٨٨).**

(٢) رواه أبو داود في **سننه**: كتاب الملاحم: باب خروج الدجال.

(٣) **يعني عيسى ﷺ.**

على الإسلام فيدقّ الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك المسيح الدجال فيمكث في الأرض أربعين سنةً ثمّ يتوفّى فيصلّي عليه المسلمون». فعندما ينزل عيسى ﷺ من السماء ينزل ويداه على أجنحة ملكين عند المنارة البيضاء شرقيّ دمشق كما ذكر رسول الله ﷺ[1]، مع أنه في ذلك الوقت هذه المنارة لم تكن موجودةً شرقيّ دمشق أما الآن فهي موجودةٌ كما وصفها رسول الله ﷺ، والمنارة هي عمود النور وقد عمل عمود نور للمطار الجديد شرقيّ دمشق. ثم إن المسيح بعدما ينزل يلتقي مع المهديّ في بلاد الشام، والشام ليست سوريا فقط بل لبنان والأردن وفلسطين كلّ هذا شامٌ.

وقوله ﷺ: «**ثمّ يتوفى فيصلّي عليه المسلمون**» يعلم منه أن الله لم يمته بعد إنما رفعه حيًّا من الأرض إلى السماء يقظان، ومن قال إنه قد توفّي من غير قتلٍ ولا صلبٍ فقد غلط.

وأمّا قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [سورة ءال عمران/ ٥٥] فبحسب اللفظ متوفّيك مقدّمٌ أمّا بحسب المعنى متوفّيك مؤخّرٌ ورافعك مقدّمٌ، فالترتيب بحسب المعنى إني رافعك إليّ أي إلى محلّ كرامتي أي المكان الذي هو مشرّفٌ عندي وهو السماء ومطهّرك من الذين كفروا أي مخلّصك من الذين كفروا أي اليهود ومتوفّيك أي بعد إنزالك إلى الأرض أي مميتك بعد إنزالك إلى الأرض، هذا هو القول الصحيح الموافق للأحاديث، وهكذا فسّر عبد الله بن عباس ترجمانُ القرءان الآية، أي من باب المقدّم والمؤخّر كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ﴾ [سورة الأعلى/ ٤-٥] الغثاء اليابس المتكسّر والأحوى الأخضر والنّبات أوّلًا يكون أحوى

---

(١) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب الفتن وأشراط الساعة: باب ذكر الدجال وصفته وما معه.

أي أخضر ثمّ يكون غُثاءً أي يابسًا متكسّرًا. ويجوز تفسير ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ أي قابضك من الأرض وأنت حيٌّ ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ أي إلى محلّ كرامتي وهي السماء الثانية وكلا التفسيرين جائزٌ، إنما الذي لا يجوز تفسير متوفّيك بمعنى مميتك قبل رفعك إلى السماء وإنزالك إلى الأرض لأن هذا يعارض حديث أبي داود المذكور. وما تدّعيه القاديانيّة أتباع غلام أحمد القاديانيّ من أن المسيح عيسى ابن مريم مات فهو كذب، وإنما قالوا ذلك ليدّعوا أن غلام أحمد هو المسيح الموعود وليس عيسى ﷺ.

وقد أخرج البخاريّ ومسلم والحاكم والبيهقيّ[1] عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ: «**والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة خيرًا من الدنيا وما فيها**». وفيه من طريقٍ ءاخر[2]: «**كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم**»، ولفظ مسلم نحو ذلك[3]، ولفظ البيهقيّ في الأسماء والصفات[4] «**ينزل عيسى ابن مريم من السماء**» وفي هذه الرواية تكذيب للقاديانيّة الكافرة في دعواهم أنه لم يَرِدْ في حديث نزول المسيح

---

(١) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب أحاديث الأنبياء: باب نزول عيسى ابن مريم عليهما السلام، ومسلم في **صحيحه**: كتاب الإيمان: باب نزول عيسى ابن مريم حاكمًا بشريعة محمد ﷺ، والحاكم في **المستدرك** (٢/ ٥٩٥) وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي في **السنن الكبرى** (١/ ٢٤٤).

(٢) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب أحاديث الأنبياء: باب نزول عيسى ابن مريم عليهما السلام.

(٣) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب الإيمان: باب نزول عيسى ابن مريم حاكمًا بشريعة محمد ﷺ.

(٤) **الأسماء والصفات** (ص/ ٤٢٤).

ذكر لفظ «**مِن السماء**». وعند أبي داود والإمام أحمد بإسناد صحيح[١] «**ويدعو الناس إلى الإسلام ويضع الجزية**» أي أن الله تعالى جعل إقرار الكفار بالجزية[٢] مغيًا[٣] بنزول المسيح فكان من شرع محمد نسخ الجزية بنزول المسيح. وعند ابن حبان عن ابن عباس[٤] عن النبيّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ [سورة الزخرف/ ٦١] قال «**نزول عيسى ابن مريم قبل يوم القيامة**».

الأحاديث في نزول عيسى متواترة:

وأحاديث نزوله مشهورة قريب من التواتر بل قال كثير من العلماء: تواترت الأخبار عن النبيّ ﷺ في نزول عيسى ابن مريم ﷺ من السماء إلى الأرض عند قرب الساعة.

قال المحدث محمد زاهد الكوثري في «نظرة عابرة في مزاعم من ينكر نزول المسيح قبل الآخرة»[٥]: «وقد نص على تواتر حديث نزول عيسى ﷺ ابن جرير والآبري وابن عطية وابن رشد الكبير والقرطبي وأبو حيان وابن حجر وغيرهم من الحفاظ، وهم أصحاب الشأن». اهـ.

ثم قال الكوثري: «والتواتر في حديث نزول عيسى ﷺ، تواتر معنويّ حيث تشاركت أحاديث كثيرة جدا، بينها الصحاح والحسان بكثرة في التصريح بنزول عيسى، مع اشتمال كلّ حديث منها على معانٍ أخرى، وهذا ما لا يستطيع إنكاره أحد ممن شم رائحة علم الحديث». اهـ

---

(١) رواه أبو داود في **سننه**: كتاب الملاحم: باب خروج الدجال، وأحمد في **مسنده** (٢/ ٢٧٢).

(٢) أي لم يجبرهم على ترك دينهم بالقوة إذا دفعوا الجزية.

(٣) أي إلى وقت نزول سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام.

(٤) **الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان** (٨/ ٢٨٨).

(٥) **نظرة عابرة في مزاعم من ينكر نزول المسيح قبل الآخرة** (ص/ ٦٩).

وعبارة أبي محمد عبد الحق ابن عطية الأندلسي في تفسيره «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز»[1]: «وأجمعت الأمة على ما تضمنه الحديث المتواتر مِن أن عيسى ﷺ في السماء حيّ، وأنه ينزل في ءاخر الزمان فيقتل الخنزير ويكسر الصليب ويقتل الدجال ويفيض العدل ويظهر هذه الملّة ملّة محمد ﷺ» اهـ.

وقال الشيخ عبد الله الغماري في كتابه «عقيدة أهل الإسلام في نزول عيسى ﷺ»[2]: «تواتر هذا المعنى -أي نزول عيسى من السماء- تواترا لا شكّ فيه، بحيث لا يصحّ أن ينكره إلا الجهلة الأغبياء، كالقاديانيّة ومَن نحا نحوهم» اهـ.

أدلّة نزوله من الإجماع:

قال الثعالبي في تفسيره «الجواهر الحسان في تفسير القرءان»[3]: «وأجمعت الأمّة على ما تضمّنه الحديث المتواتر من أن عيسى ﷺ في السماء حي، وأنه ينزل في ءاخر الزمان، فيقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويقتل الدجال، ويفيض العدل، ويظهر هذه الملة ملة محمد ﷺ». اهـ

وقال العلامة شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسين الألوسي في تفسيره «روح المعاني في تفسير القرءان العظيم والسبع المثاني»[4]: «ولا يقدح في ذلك -أي في ختم النبوّة- ما أجمعت الأمّة عليه واشتهرت فيه الأخبار ولعلها بلغت مبلغ التواتر المعنويّ ونطق به الكتاب على قول ووجب الإيمان به وأكفر منكره كالفلاسفة من نزول عيسى ﷺ ءاخر الزمان لأنه كان نبيًّا قبل تحلّي نبينا ﷺ بالنبوّة في هذه النشأة». اهـ

---

(١) **المحرر الوجيز** (١/ ٤٤٣).

(٢) **عقيدة أهل الإسلام** (ص/ ٧).

(٣) **الجواهر الحسان** (١/ ٣٢٦).

(٤) **روح المعاني في تفسير القرءان العظيم والسبع المثاني** (١١/ ٢١٣).

وقال الإمام أبو جعفر الطحاوي في «عقيدته المشهورة في بيان عقيدة أهل السنّة والجماعة»[1]: «ونؤمن بأشراط الساعة من خروج الدجال، ونزول عيسى ابن مريم ﷺ من السماء، ونؤمن بطلوع الشمس من مغربها، وخروج دابة الأرض من موضعها». اهـ

وقال القاضي عياض رحمه الله تعالى في «إكمال المعلم بفوائد مسلم»[2]: «ونزول عيسى ﷺ وقتله الدجال حقّ، صحيح عند أهل السنّة، لصحيح الآثار الواردة في ذلك، ولأنه لم يرد ما يبطله ويضعّفه، خلافا لبعض المعتزلة والجهميّة ومن رأى رأيهم من إنكار ذلك» اهـ. ونقله عنه النوويّ في «شرحه على مسلم» وأقره[3].

وقال العلامة المحدث أبو حفص عمر النسفي في «عقيدته في بيان عقيدة أهل السنّة والجماعة»[4]: «وما أخبر به النبيّ ﷺ من أشراط الساعة من خروج الدجال، ودابة الأرض، ويأجوج ومأجوج، ونزول عيسى ﷺ من السماء، وطلوع الشمس من مغربها، فهو حق» اهـ.

الحكمة في نزوله:

قال الحافظ ابن حجر[5]: «قال العلماء: الحكمة في نزول عيسى دون غيره من الأنبياء الرد على اليهود في زعمهم أنهم قتلوه، فبيّن الله تعالى كذبهم وأنه الذي يقتلهم، أو نزوله لدنو أجله ليدفن في الأرض، إذ ليس لمخلوق من التراب أن يموت في غيرها» اهـ.

---

(١) **العقيدة الطحاوية مع شرحها إظهار العقيدة السنية** (ص/ ٣٤٢).

(٢) **إكمال المعلم** (٨/ ٤٩٢).

(٣) **شرح صحيح مسلم** (١٨/ ٧٥).

(٤) **العقيدة النسفية** مع شرحها للتفتازاني (ص/ ١٩٣).

(٥) **فتح الباري** (٦/ ٤٩٣).

الخبر المتواتر لا يحتمل الكذب بل يتحتّم موافقته للواقع وأما تفسيره فهو الخبر الذي يخبر به أناس كثيرون بحيث لا يتصوّر أن يتواطؤُوا على الكذب فيما بينهم فإن ما كان بهذه الصفة في الطبقة الأولى والوسطى والأخيرة يوجب العلم اليقينيّ، وأما ما كان في الطبقة الأولى أقلّ من هذا القدر ثم حصلت تلك الكثرة فإنه ليس موجبًا للعلم كخبر النصارى بقتل عيسى ﷺ وصلبه.

وقد شرح الكستليّ رحمه الله عدم تواتر خبر النصارى بقتل عيسى وصلبه فقال[1]: «إذ قد قيل إن عدد النصارى المخبرين عن قتل عيسى ﷺ لم يبلغ حدّ التواتر في الطبقة الأولى والوسطى على أنهم لم يرَوا قتله رؤية صادقة بل نظروا إليه من بعيد مصلوبًا فشبّه لهم وشرط التواتر الاستناد إلى الإحساس التام. وربما يقال إن خبر النصارى وقع في معارضة القاطع وشرط التواتر أن لا يعارضه قاطع» اهـ.

ثم إن المخبرين عن قتل عيسى وصلبه قيل إنهم كانوا سبعة وقيل إنهم كانوا تسعة في الطبقة الأولى، قالوا دخلت تسعة أفراد من اليهود ففعلوا ما فعلوا ثم اختلفوا في قتله فقال بعضهم بعد ما سمعوا مقالة اليهود الذين دخلوا البيت الذي كان فيه المسيح ثم شاهدوا شخصًا مصلوبًا: هو إله لا يصح قتله، وقال بعضهم إنه قُتل وصلب، وقال بعضهم إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى، وقال بعضهم رُفع إلى السماء، وقال بعضهم الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا، فعدم تحقق شرط التواتر في خبرهم بيّنٌ لا خفاء به[2].

---

(١) **حاشية الكستلي** (ص/ ٣٥).

(٢) **حاشية الكستلي** (ص/ ٣٥).

فائدة:

وقد أخرج ابن أبي حاتمٍ والنسائيّ[1] عن ابن عبّاسٍ قال الرسول ﷺ: «**كان عيسى مع اثني عشر من أصحابه في بيتٍ فقال إنّ منكم من يكفر بي بعد أن ءامن، ثمّ قال أيكم يلقى عليه شبهي ويقتل مكاني فيكون رفيقي في الجنة، فقام شابٌّ أحدثهم سنًّا فقال أنا قال اجلس، ثم عاد فعاد فقال اجلس، ثم عاد فعاد الثالثة فقال أنت هو، فألقي عليه شبهه، فأخذ الشابّ فصلب بعد أن رفع عيسى ﷺ من روزنةٍ في البيت، وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشابّ**». وهذا إسناده صحيحٌ، والرّوزنة نافذةٌ في السطح يصعد إليها تكون في زاويةٍ من البيت.

أما ما يرويه بعضهم من أن يهوديًّا جاء مع اليهود ليدلّهم ووعدوه مبلغ كذا من المال ثم لَمّا أدخلهم إلى البيت أُلقي عليه شبه المسيح فظنّوه هو المسيح فقتلوه، فهذا غير ثابتٍ لكنه مشهورٌ عند المؤرّخين، والصحيح هو ما قاله عبد الله بن عبّاسٍ رضي الله عنهما.

الإسراء والمعراج

قال المؤلف رحمه الله: وأنَّ المعراج حقٌّ: أُسري بالنبيّ ﷺ بنفسه وبشخصه في ليلة واحدة من مكة إلى بيت المقدس على ظهر البراق، ثم عرج إلى السماء حيث شاء، وأنه ﷺ وقف بين يدي ربه عزّ وجلّ وحياه بقوله ﷺ: «التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله»، وأنَّ الله تعالى رَدَّ عليه بأحسن ردٍّ وقال: السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته[2].

---

(١) رواه النسائي في **السنن الكبرى** (٦/ ٤٨٩)، وابن أبي حاتم في **تفسيره** (٤/ ١١١٠).

(٢) وهذا لا يصح وسأيتي الكلام عليه مفصلا في الشرح.

ثم دنا من ربه عزّ وجلّ دنوّ تكريم كما ذكره في الكتاب العزيز بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [سورة النجم/٨-٩].

الشرح: قال الله تبارك وتعالى ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [سورة الإسراء/ ١]. والسَّبْح في اللغة معناه التباعد[١]. ومعنى سبحان الله تنزّه الله عن مشابهة الخلق بأيّ وجه من الوجوه. والإسراء هو السير بالليل، فالإسراء والمعراج حصلا في جزء من ليلة واحدة، والمسجد الحرام سمي بذلك لحرمته وللأحكام الخاصة به منها: مضاعفة أجر الصلاة فيه أضعافًا كثيرة، ووجوده في مكة أفضل بقاع الأرض، وتحريم صيد البرّ في الحرم. والمسجد الأقصى سمي بذلك لبعده عن المسجد الحرام. وقوله تعالى: ﴿ بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾معناه أنّ أرض الشام أرض مباركة، فقد ثبت في الصحيح صحيح البخاريّ[٢] أن الرسول ﷺ قال: «**اللهم بارك لنا في شامنا ويمننا**» قالوا: وفي نجدنا يا رسول الله؟ قال: «**هناك الزلازل والفتن هناك يطلع قرن الشيطان**». فأرض الشام مباركة وفلسطين التي فيها المسجد الأقصى من الشام.

فمعجزة الإسراء ثابتةٌ بنصّ القرءان والحديث الصحيح[٣]، فيجب الإيمان بأنّ الله أسرى بالنبيّ ﷺ ليلًا من مكة المكرمة إلى المسجد الأقصى. وقد أجمع أهل الحقّ من سلفٍ وخلفٍ ومحدّثين ومتكلّمين ومفسّرين وفقهاء على أنّ الإسراء

---

(١) **لسان العرب** (٢/ ٤٧١).

(٢) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب الاستسقاء :باب ما قيل في الزلازل والآيات.

(٣) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب مناقب الأنصار: باب حديث الإسراء، وكتاب تفسير القرءان: من سورة بني إسرائيل: باب أسرى الله بعبده ليلًا من المسجد الحرام، ومسلم في **صحيحه**: كتاب الإيمان: باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات، وأحمد في **مسنده** (٣/ ١٤٨، ٥/ ٣٩٢) كلهم بألفاظ مختلفة.

كان بالجسد والروح وفي اليقظة، وهذا هو الحق، وهو قول ابن عباسٍ[1] وجابرٍ وأنسٍ وعمر وحذيفة، فلا خلاف إذًا في الإسراء به ﷺ إذ فيه نصٌّ قرءانيٌّ، فلذلك قال العلماء: «إن من أنكر الإسراء فقد كذب القرءان ومن كذب القرءان فقد كفر».

عن شدّاد بن أوسٍ قال: قلنا يا رسول الله كيف أسري بك؟ قال: «**صليت لأصحابي صلاة العتمة بمكة معتمًا، وأتاني جبريل عليه السلام بدابّةٍ بيضاء فوق الحمار ودون البغل، فقال: اركب فاستصعبت علي، فدارها بأذنها ثم حملني عليها، فانطلقت تهوي بنا يقع حافرها حيث أدرك طرفها حتى بلغنا أرضًا ذات نخلٍ فأنزلني فقال: صلّ. فصليت، ثم ركبنا فقال: أتدري أين صليت؟ قلت: الله أعلم قال: صليت بيثرب، صليت بطيبة، فانطلقت تهوي بنا يقع حافرها حيث أدرك طرفها، ثم بلغنا أرضًا فقال: انزل فنزلت ثم قال: صلّ. فصليت ثم ركبنا فقال: أتدري أين صليت؟ صليت بطور سيناء حيث كلّم الله عزّ وجلّ موسى عليه السلام، ثم انطلقت تهوي بنا يقع حافرها حيث أدرك طرفها، ثم بلغنا أرضًا بدت لنا قصورٌ، فقال: انزل. فنزلت فقال: صلّ. فصليت ثم ركبنا قال: أتدري أين صليت. قلت: الله أعلم، قال: صليت ببيت لحمٍ حيث ولد عيسى ﷺ المسيح ابن مريم، ثم انطلق بي حتى دخلنا المدينة من بابها اليمانيّ فأتى قبلة المسجد فربط به دابّته ودخلنا المسجد من بابٍ فيه تميل الشمس والقمر فصليت من المسجد حيث شاء الله**»[2].

وكان قد شق صدر النبيّ ﷺ قبل أن يسرى به ليلًا من بيت أم هانئ من مكة المكرمة من المسجد الحرام. قال أنس بن مالكٍ كان أبو ذرٍ يحدّث أن

---

(١) سنن الترمذي: باب ومن سورة بني إسرائيل، **والسنن الكبرى** للبيهقي (٦/ ٣٨١)، **والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان** (١/ ١٣٦).

(٢) رواه البزار في **مسنده** (٨/ ٤٠٩).

رسول الله ﷺ قال: «**فرج سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله من ماء زمزم ثم جاء بطستٍ من ذهبٍ ممتلئ حكمةً وإيمانًا فأفرغها في صدري ثم أطبقه**» رواه مسلمٌ[1].

وقد جمع الله عزّ وجلّ لسيدنا محمدٍ ﷺ جميع الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم في بيت المقدس من ءادم فمن بعده فصلى بهم إمامًا. وهذا دليل على أن الأنبياء لهم تصرف بإذن الله بعد موتهم وينفعون من شاء الله أن ينتفع منهم فهم ليسوا كالناس العاديين فقد روى البزار[2] أن الرسول ﷺ قال: «**الأنبياء أحياءٌ في قبورهم يصلون**». وقال رسول الله ﷺ في حديث الإسراء والمعراج: «**ثم دخلت بيت المقدس فجمع لي الأنبياء عليهم السلام فقدمني جبريل حتى أممتهم ثم صعد بي إلى السماء**» رواه النسائي[3].

عجائب ما حصل مع الرسول ﷺ في الإسراء رواه البيهقي وغيره[4]:

١. رأى وهو في طريقه إلى بيت المقدس الدنيا بصورة عجوزٍ.

٢. رأى شيئًا متنحّيًا عن الطريق يدعوه وهو إبليس وكان من الجنّ المؤمنين في أوّل أمره، ثم كفر لاعتراضه على الله. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [سورة الكهف/ ٥٠]. ولا يجوز أن يقال إن إبليس كان طاووس الملائكة فهو لم يكن ملكًا. والدليل على ذلك أن الله تعالى قال: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾. والرسول ﷺ قال: «**خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من**

---

(١) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب الإيمان: باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات.

(٢) رواه البزار في **مسنده** (١٣/ ٢٩٩).

(٣) رواه النسائي في **سننه**: كتاب الصلاة: باب فرض الصلاة.

(٤) **دلائل النبوة** (٢/ ٣٦٢)، **والمقدسي في الأحاديث المختارة** (٦/ ٢٥٨).

مارج من نار»[1]، فتبين أن إبليس من الجن حقيقة بدليل ما تقدم.

٣. شم رائحةً طيبةً من قبر ماشطة بنت فرعون، وكانت مؤمنةً صالحةً وجاء في قصتها أنها بينما كانت تمشط رأس بنت فرعون سقط المشط من يدها فقالت باسم الله، فسألتها بنت فرعون أولك ربٌّ إله غير أبي؟ فقالت الماشطة نعم ربي ورب أبيك هو الله، فأخبرت أباها فطلب منها الرجوع عن دينها فأبت فحمّى لها ماءً فألقى فيه أولادها ثم كلمها طفلٌ لها رضيعٌ قبل أن يرميه: «يا أماه اصبري فإن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا فلا تتقاعسي فإنك على حقّ» فقالت لفرعون: «لي عندك طلبٌ، أن تجمع العظام وتدفنها» فقال: «لك ذلك»، فألقاها فيه. وقد ماتت شهيدةً هي وأولادها رواه ابن حبان وصححه[2].

٤. رأى قومًا يزرعون ويحصدون في يومين، فقال له جبريل: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله. والجهاد في سبيل الله نوعان: جهادٌ بالسّنان أي بالسلاح، وجهادٌ في سبيل الله بالبيان، وثواب هذا كثواب من جاهد بالسلاح، فاليوم من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر بجدّ فهو مجاهدٌ في سبيل الله، والمجاهدون لهم درجةٌ عاليةٌ في الآخرة.

٥. رأى أناسًا تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من نارٍ، قال له جبريل: هؤلاء خطباء الفتنة، يعني الذين يخطبون للشرّ والفتنة، أي يدعون الناس إلى الضلال والفساد والغشّ والخيانة.

٦. رأى ثورًا يخرج من منفذٍ ضيّقٍ ثم يريد أن يعود فلا يستطيع أن يعود من هذا المنفذ، فقال له جبريل: هذا الذي يتكلم بالكلمة الفاسدة التي فيها ضررٌ على الناس وفتنةٌ، ثم يريد أن يردها فلا يستطيع.

---

(١) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب الزهد والرقائق :باب في أحاديث متفرقة.

(٢) **الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان** (٦/ ٢٤٧-٢٤٦).

٧. رأى أناسًا يسرحون كالأنعام على عوراتهم رقاعٌ قال له جبريل: هؤلاء الذين لا يؤدون الزكاة.

٨. رأى قومًا ترضخ[١] رؤوسهم ثم تعود كما كانت فقال جبريل: هؤلاء الذين تتثاقل رؤوسهم عن تأدية الصلاة.

٩. رأى قومًا يتنافسون على اللحم المنتن ويتركون اللحم الجيّد المشرح فقال جبريل: هؤلاء أناسٌ من أمتك يتركون الحلال فلا يطعمونه ويأتون الحرام الخبيث فيأكلونه وهم الزناة.

١٠. رأى أناسًا يشربون من الصديد الخارج من الزناة، قال له جبريل، هؤلاء شاربو الخمر المحرم في الدنيا.

١١. رأى قومًا يخمشون وجوههم وصدورهم بأظفارٍ نحاسيةٍ، قال له جبريل: هؤلاء الذين كانوا يغتابون الناس. والغيبة من أشد أسباب عذاب القبر هي والنميمة وترك الاستنزاه من البول. وغيبة الأتقياء من الكبائر، ثم الغيبة لا تفسد الصوم قال الإمام أحمد: لو كانت الغيبة تفسد الصوم لما صح لنا صوم.

المعراج:

المعراج ثابتٌ بنصّ الأحاديث الصحيحة[٢]، وأما القرءان فلم ينص عليه نصًّا صريحًا، لكن ورد فيه ما يكاد يكون نصًّا صريحًا. قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [سورة النجم/ ١٣-١٤] فإن قيل قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ ﴾ يحتمل أن يكون رؤيةً منامية. قلنا هذا تأويلٌ، ولا

---

(١) الرضخ: كسر الرأس.

(٢) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب مناقب الأنصار: باب المعراج، ومسلم في صحيحه: كتاب الإيمان: باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات.

يسوغ تأويل النصّ أي إخراجه عن ظاهره لغير دليلٍ عقليّ قاطعٍ أو سمعيّ ثابتٍ كما قاله الرازي في «المحصول»[1]، وليس هنا دليلٌ على ذلك. المقصود من المعراج تشريف الرسول بإطلاعه على عجائب العالم العلويّ، وتعظيم مكانته.

قال رسول الله ﷺ في حديثه عن الإسراء والمعراج: «**ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل فقيل: من أنت. قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمدٌ. قيل: وقد بعث إليه؟**[2] **قال: قد بعث إليه. ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحّب بي ودعا لي بخيرٍ. ثم عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل عليه السلام فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمدٌ. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا فإذا أنا بابني الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكرياء صلوات الله عليهما فرحّبا ودعوا لي بخيرٍ. ثم عرج بي إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمدٌ ﷺ قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا فإذا أنا بيوسف ﷺ إذ هو قد أعطي شطر الحسن. فرحب ودعا لي بخيرٍ. ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل عليه السلام. قيل: من هذا؟ قال: جبريل: قيل: ومن معك؟ قال: محمدٌ. قال: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا فإذا أنا بإدريس فرحب ودعا لي بخيرٍ. قال الله عزّ وجل: ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾**[3] [سورة مريم/٥٧]. **ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل. قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمدٌ. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا فإذا أنا بهارون ﷺ**

---

(١) **المحصول** (١/ ٤٦٢).

(٢) أي هل حان وقت عروجه، وليس معناه أن الملائكة يسألون هل نزل عليه الوحي أم لا، لأن الملائكة يعلمون أن محمدًا ﷺ خاتم الأنبياء، وكانوا يعلمون أنه قد نزل عليه الوحي.

(٣) نزل إلى الأرض بعد ذلك ومات فيها.

فرحب ودعا لي بخيرٍ. ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل عليه السلام قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمدٌ. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا فإذا أمامي موسى ﷺ فرحب ودعا لي بخيرٍ. ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل ومن معك؟ قال: محمدٌ ﷺ قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم ﷺ مسندًا ظهره إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يومٍ سبعون ألف ملكٍ لا يعودون إليه، ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال[1]. قال: فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت فما أحدٌ من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها فأوحى الله إلي ما أوحى ففرض علي خمسين صلاةً في كل يومٍ وليلةٍ فنزلت إلى موسى ﷺ فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاةً، قال: ارجع إلى ربّك[2] فاسأله التخفيف فإن أمتك لا يطيقون ذلك فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم. قال: فرجعت إلى ربي فقلت: يا ربّ خفّف على أمتي. فحط عني خمسًا فرجعت إلى موسى فقلت حطّ عني خمسًا. قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك فارجع إلى ربّك فاسأله التخفيف قال: فلم أزل أرجع بين ربي[3] تبارك وتعالى وبين موسى ﷺ حتى قال: يا محمد إنهن خمس صلوات كل يومٍ وليلةٍ لكل صلاةٍ عشرٌ، فذلك خمسون صلاةً. ومن هم بحسنةٍ فلم يعملها كتبت له حسنةً، فإن عملها كتبت له عشرًا، ومن هم بسيئةٍ فلم يعملها لم تكتب شيئًا، فإن عملها كتبت سيئةً واحدةً قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى ﷺ فأخبرته فقال: ارجع إلى ربّك فاسأله

---

(١) جمع قلة، وهي الجرة العظيمة.

(٢) ليس معناه أنه كان في مكان يسكنه الله إنما معناه ارجع إلى المكان الذي تتلقى فيه الوحي من ربك. فالله موجود بلا مكان.

(٣) أي المكان الذي كنت أتلقى فيه الوحي من ربي.

التخفيف. فقال رسول الله ﷺ: فقلت: قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه» رواه مسلمٌ[1].

من عجائب ما حصل مع الرسول ﷺ في المعراج:

١. رأى مالكًا خازن النار، ولم يضحك في وجه رسول الله ﷺ. فسأل جبريل لماذا لم يره ضاحكًا إليه كغيره. فقال: إن مالكًا لم يضحك منذ خلقه الله تعالى، ولو ضحك لأحدٍ لضحك إليك.

٢. رأى البيت المعمور في السماء السابعة، وهو بيتٌ مشرّفٌ، وهو لأهل السماء كالكعبة لأهل الأرض، كل يومٍ يدخله سبعون ألف ملكٍ يصلون فيه ثم يخرجون ولا يعودون أبدًا.

٣. رأى سدرة المنتهى، وهي شجرةٌ عظيمةٌ بها من الحسن ما لا يصفه أحدٌ من خلق الله، يغشاها فراشٌ[2] من ذهبٍ، وأصلها في السماء السادسة، وتصل إلى السابعة، ورءاها الرسول ﷺ في السماء السابعة.

٤. رأى الجنة، وهي فوق السموات السبع منفصلة عنها فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشرٍ مما أعده الله للمسلمين الأتقياء خاصةً، ولغيرهم ممن يدخل الجنة نعيمٌ يشتركون فيه معهم. فقد أخبرنا رسول الله ﷺ عن حال أهل الجنة بعد دخولها قال: «**ينادي منادٍ إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا فذلك قوله عزّ وجل: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾**

---

(١) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب الإيمان: باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات

(٢) جمع فراشة وهي التي تطير وتتهافت في السراج.

[سورة الأعراف/ ٤٣] رواه مسلم[١]. ورأى رسول الله ﷺ في الجنة الحور العين فطلب منه سيّدنا جبريل أن يسلّم عليهنّ بالقول فقلن له: «نحن خيراتٌ حسانٌ، أزواج قومٍ كرامٍ». ورأى فيها الولدان المخلّدين وهم خلقٌ من خلق الله ليسوا من البشر ولا من الملائكة ولا من الجنّ، الله تعالى خلقهم من غير أمّ وأبٍ كاللؤلؤ المنثور ليخدموا أهل الجنة، والواحد من أهل الجنة أقل ما يكون عنده من هؤلاء الولدان عشرة ءالافٍ بإحدى يدي كلّ منهم صحيفةٌ من ذهبٍ وبالأخرى صحيفةٌ من فضةٍ.

٥. رأى العرش، وهو أعظم المخلوقات، وحوله ملائكةٌ لا يعلم عددهم إلا الله. وله قوائم كقوائم السرير يحمله أربعةٌ من أعظم الملائكة، ويوم القيامة يكونون ثمانيةً.

٦. وَصَلَ ﷺ إلى مستوًى يسمع فيه صريف الأقلام: ثم انفرد رسول الله عن جبريل بعد سدرة المنتهى حتى وصل إلى مستوًى يسمع فيه صريف الأقلام التي تنسخ بها الملائكة في صحفها من اللوح المحفوظ. وأما ما يقال إن الرسول وصل وجبريل إلى مكان فقال جبريل: «جز فأنا إن اخترقت احترقت وأنت إن اخترقت وصلت» فهذا ونحوه كذب وباطل.

٧. سمع ﷺ كلام الله تعالى الذاتيّ الأزليّ الأبديّ: من المعلوم لدى أهل الحقّ أن كلام الله الذي هو صفة ذاته قديم أزليّ لا ابتداء له، ليس ككلامنا الذي يبدأ ثم يختم، فكلامه تعالى أزليّ ليس بصوتٍ ولا حرفٍ ولا لغةٍ. ففي تلك الليلة المباركة أزال الله عن أفضل خلقه الحجاب الذي يمنع من سماع كلام الله[٢] الأزليّ الأبديّ الذي ليس ككلام العالمين. أسمعه

---

(١) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها: باب في دوام نعيم أهل الجنة، وقوله تعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

(٢) أي أقدره على سماع كلامه.

الله بقدرته كلامه في ذلك المكان الذي فوق سدرة المنتهى، لأنه مكان عبادة الملائكة لله تعالى، وهو مكانٌ لم يعص الله فيه، وليس مكانًا ينتهي إليه وجود الله كما في بعض الكتب المزيفة لأن الله موجودٌ بلا مكانٍ. فهم الرسول منه الأوامر التي أمر بها والأمور التي بلّغها. فهم رسول الله ﷺ فرضيّة الصلوات الخمس. وفهم أيضًا أنه يغفر لأمّته كبائر الذنوب لمن شاء الله له ذلك. أما الكافر فلا يغفر له مهما كانت معاملته للناس حسنةً، ولا يرحمه الله بعد الموت ولا يدخله الجنة أبدًا إن مات على كفره. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [سورة النساء/ ٤٨]. وفهم أيضًا من كلام الله الأزليّ الأبديّ أنّ من عمل حسنةً واحدةً كتبت له بعشرة أمثالها، ومن همَّ[1] بحسنةٍ ولم يعملها كتبت له حسنةً، ومن همّ بسيئةٍ وعملها كتبت عليه سيّئةً واحدةً.

٨. رأى اللهَ عزّ وجلّ بفؤاده لا بعينه فمما أكرم الله به نبيه في المعراج أن أزال عن قلبه ﷺ الحجاب المعنويّ، فرأى الله بفؤاده، أي جعل الله له قوة الرؤية في قلبه لا بعينه لأن الله لا يرى بالعين الفانية في الدنيا، فقد قال الرسول ﷺ: «**واعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا**»[2]. وإنما يرى الله في الآخرة بالعين الباقية، يراه المؤمنون الذين ءامنوا بالله ورسله، لا يشبه شيئًا من الأشياء، بلا مكانٍ ولا جهةٍ ولا مقابلةٍ ولا ثبوت مسافةٍ ولا اتصال شعاعٍ بين الرائي وبينه عزّ وجلّ. يرى المؤمنون الله عزّ وجلّ لا كما يرى المخلوق. والدليل على أن الرسول رأى ربه بفؤاده مرتين في المعراج ما أخرجه مسلمٌ[3] عن ابن عباسٍ رضي الله عنه في قوله تعالى:

---

(١) الهم أمر دون العزم ودون الفعل.

(٢) رواه أحمد في **مسنده** (٣٧/ ٤٢٤).

(٣) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب الإيمان: باب معنى قول الله عزّ وجلّ: ﴿ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ﴾ وهل رأى النبي ﷺ ربه ليلة الإسراء.

﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [سورة النجم/ ١١] ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [سورة النجم/ ١٣] قال: «**رءاه بفؤاده مرتين**». وبهذه المناسبة تجدر الإشارة إلى أنه لم يحصل للنبيّ أن رأى ربه وكلمه في ءانٍ واحدٍ بل كانت الرؤية في حالٍ وسماع كلامه في حالٍ. قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [سورة الشورى/ ٥١].

٩. رأى ﷺ سيدنا جبريل عليه السلام على هيئته الأصلية: كان ﷺ قد رأى جبريل عليه السلام في المرة الأولى في مكة على هيئته الأصلية، فغشي عليه، أما في هذه الليلة المباركة فقد رءاه للمرة الثانية على هيئته الأصلية فلم يغش عليه إذ إنه ازداد تمكنًا وقوّةً. فقد روى مسلمٌ عن عائشة رضي الله عنها في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [سورة النجم/ ٨-٩]. قالت: إنما ذاك جبريل كان يأتيه وإنه أتاه في هذه المرة في صورته التي هي هيئته الأصلية فسدّ أفق السماء. وليس معنى هاتين الآيتين: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾. أن الله دنا من الرسول حتى قرب منه بالمسافة قدر ذراعين أو أقلّ، والذي يعتقد هذا يضلّ ويكفر.

والمعنى الصحيح هو أن جبريل دنا من سيدنا محمدٍ ﷺ ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ أي جبريل في دنوه من سيدنا محمدٍ ﷺ ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي ذراعين ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي بل أقرب. وهناك ظهر له بهيأته الأصلية وله ستمائة جناحٍ، وكل جناحٍ يسد ما بين الأرض والسماء. روى البخاري ومسلمٌ[1] ولفظ مسلم عن الشعبيّ عن مسروقٍ قال: كنت متكئًا عند عائشة فقالت: يا أبا عائشة ثلاثٌ من تكلم بواحدةٍ منهن فقد أعظم على الله الفرية قلت: ما هن؟ قالت: من زعم أن محمدًا ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية. قال وكنت متكئًا

---

(١) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب التفسير: سورة النجم، ومسلم في **صحيحه**: كتاب الإيمان: باب معنى قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ وهل رأى النبي ﷺ ربه ليلة الإسراء.

فجلست فقلت: يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجليني، ألم يقل الله عزّ وجل: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴾ [سورة التكوير/ ٢٣] ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ [سورة النجم/ ١٣]. فقالت: أنا أوّل هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خُلق عليها غير هاتين المرتين، رأيته منهبطًا من السماء سادًّا عظم خلقه ما بين السماء والأرض**». فقالت: ألم تسمع أن الله يقول: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [سورة الأنعام/ ١٠٣] أو لم تسمع أن الله يقول: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [سورة الشورى/ ٥١]. قالت: ومن زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئًا من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [سورة المائدة/ ٦٧]. قالت: ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غدٍ فقد أعظم على الله الفرية. والله يقول: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[1] [سورة النمل/ ٦٥]».

تنبيهان:

الأوّل: قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ أي اجتمع مرة ثانية بجبريل هناك؛ لأن جبريل لا يتجاوز سدرة المنتهى، فإنّ جبريل سفير بين الله وأنبيائه، وبينه وبين ملائكة السماوات السبع، فهو الذي يبلّغ الوحي للملائكة وللأنبياء. وأما الحديث الذي رواه البخاريّ في صحيحه[2]: «ودنا الجبار ربّ العزّة فتدلّى حتى كان قاب قوسين أو أدنى» فهذه الرواية طعن

---

(١) أي لا يعلم الغيب كلّه إلا الله.

(٢) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب التوحيد: باب قوله: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾.

فيها بعض الحفاظ كعبد الحقّ الإشبيلي وغيره[1]، وقال بعضهم: ليس دنوًّا حسيًّا وإنما هو مزيد إكرام وتقريب في الدرجات، وأما حمله على الظاهر فكلّ أهل السنّة يردونه بل يجعلون ذلك تشبيها لله بخلقه كما ذكر ذلك الحافظ ابن حجر العسقلانيّ في شرح البخاريّ[2].

الثاني: ما يرويه بعض الناس من أنه ﷺ وقف بين يدي ربّه عزّ وجلّ وحيّاه بقوله: «التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله» وأن الله تعالى رد عليه بأحسن رد وقال: «السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته»، لا يصح وفي التعليق على هذا الكلام وقفات:

الأولى فيما يتعلّق بسندها، فإنّه لا أصل لهذه الرواية في شيء من الكتب الحديثية العشرة الأمّات ولا في كتب التخريج والأصول التي وقفنا عليها، إنّما غاية أمرها رواية في كتب السيرة وأبواب بعض حواشي الكتب الفقهية التي تذكرها على سبيل السرد الخالي عن الإسناد، ولا تنزّل منزلة «الضعيف المعمول به في فضائل الأعمال» لفقدها السند الذي عليه أحد مداري الفحص، أعني فحص السند والمتن من قبل الحفّاظ.

والثانية: فيما يتعلق بالمتن، فإنّ التعبير بالوقوف بين يدي الله معروف عند المحدثين والمفسرين والمتكلمين من أهل السنّة والجماعة مشهور في كلامهم على قيام العبد يوم القيامة ممتثلًا للحساب، والله عزّ وجلّ موجودٌ أزلًا وأبدًا بلا كيف ولا مكان لا يحلّ في أرض الحساب ولا في غيرها من الأماكن والأحياز كما أنّه لا يجوز عليه اليدان بمعنى الجارحة والعضو، كما أنّهم ربّما عبّروا به عن قيام العبد في مصلّاه أخذًا من حديث: «**فإنّ ربّه بينه وبين قبلته**»[3] الذي

---

(١) **فتح الباري** (١٣/ ٤٨٤ و٤٨٠).

(٢) **فتح الباري** (١٣/ ٤٨٤).

(٣) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب الصلاة: باب إذا بدره البزاق فليأخذ بطرف ثوبه.

يعني أنّ رحمةً خاصّةً من الله تنزل على المصلّي. أمّا التعبير بالوقوف بين يدي الله المذكور في حديث المعراج الذي لا أصل له فلا حاجة إلى تكلّف تأويله.

ثم إن الصحابة كانوا يقولون قبل أن تفرض عليهم صيغة التشهد: السلام على الله قبل عباده، السلام على جبريل، السلام على ميكائيل، السلام على فلان، فقال ﷺ: «**لا تقولوا السلام على الله فإن الله هو السلام ولكن قولوا التحيات لله**» إلى ءاخره. رواه الدارقطني والبيهقيّ. فهذا يدل على أن التحيات لم تكن فرضت في ليلة الإسراء والمعراج إذ لو فرضت فيها لبلَّغها النبيّ أصحابه لأنه لا يؤخر البيان عن وقت الحاجة ولقالها الصحابة في صلاتهم لأنهم كانوا حريصين على تنفيذ ما أمرهم النبي ﷺ. فلما لم يقلها الصحابة عرفنا أن النبي ﷺ لم يأمرهم بالتحيات لأنها لم تكن أوحيت إليه ﷺ.

ماذا حصل بعد رجوع الرسول من المعراج:

قال بعض العلماء: كان ذهابه من مكة إلى المسجد الأقصى وعروجه إلى أن عاد إلى مكة في نحو ثلث ليلةٍ أخبر أم هانئ بذلك ثم أخبر الكفار أنه أسري به فلم يصدّقوه واستهزؤوا به فتجهز ناسٌ من قريشٍ إلى أبي بكرٍ فقالوا له: هل لك في صاحبك يزعم أنه قد جاء بيت المقدس ثم رجع إلى مكة في ليلةٍ واحدةٍ، فقال أبو بكرٍ: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم قال: فأشهد لئن كان قال ذلك لقد صدق. قالوا: فتصدّقه بأن يأتي الشام في ليلةٍ واحدةٍ ثم يرجع إلى مكة قبل أن يصبح؟ قال: نعم، إني أصدّقه بأبعد من ذلك أصدّقه بخبر السماء. قال أبو سلمة فبها سمّي أبا بكرٍ الصديق رضي الله عنه[1].

(١) دلائل النبوة (٦/ ٣٦٠).

التكاليف لا تسقط عن الصالحين مهما بلغت درجاتهم

قال المؤلف رحمه الله: وأن الصالحين مع علو منزلتهم وقربهم من ربهم لا يسقط عنهم التكليف من الفرائض والواجبات من الصلاة والزكاة والحج والصيام وغير ذلك ومن زعم أنه صار وليًّا وسقط عنه الفرائض فقد كفر فإنه لم يسقط ذلك عن الأنبياء فكيف يسقط عن الأولياء وأن الولي كبقلة تحت شجرة النبوّة، ولقد قام رسول الله ﷺ حتى تورمت قدماه فقيل له: ألم يغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ﷺ: «أفلا أكون عبدا شكورا».

الشرح: ومما يجب الإيمان به وجود الأولياء وكراماتهم. أما الوليّ فهو المؤمن المستقيم بطاعة الله. قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [سورة يونس/ ٦٢]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [سورة فصلت/ ٣٠]. وقد روى البخاريّ[1] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ قال الله تعالى: «**أعددت لعبادي الصّالحين ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر**» اهـ. فينبغي معرفة شرط الولاية حتى إذا أراد واحدٌ أن يسلك مسلكهم ويصل إلى ما وصلوا إليه عرف كيف يقتدي بأفعالهم وأقوالهم واعتقاداتهم الموافقة للقرءان والحديث.

فالوليّ هو المؤمن الذي ءامن بالله ورسوله وتعلّم من علوم الدين ما هو فرضٌ ضروريٌّ ولو بالتّلقي الشّفوي بحضور مجالس أهل العلم، حصّل

---

(١) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب بدء الخلق: باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة.

القدر الذي لا بدّ منه لصحّة العقيدة ولتصحيح الأعمال من صلاةٍ وصيامٍ، وعرف معاصي القلب كالرياء والعجب والحسد والكبر، وعرف معاصي السمع كالاستماع إلى الغيبة والنميمة عمدًا وعرف معاصي اليد كضرب المؤمن ظُلمًا، وعرف معاصي اللسان كالشتم والغيبة والكفر اللفظي وعرف معاصي الرجل كالمشي إلى المحرّمات، وعرف معاصي الفرج كالزنى، وعرف معاصي البطن كأكل المحرّمات وغير ذلك ممّا يجب عليه تعلّمه، ثم طبّق ذلك على نفسه بأن تخلّى عن المعاصي الظّاهرة والباطنة، وتحلّى بأداء الفرائض وأفضلها الإيمان بالله ورسوله ثمّ الصّلاة ثمّ أكثر من النّوافل، لكن ليس شرطًا للولاية أن يأتي بجميع أنواع النّوافل بل إذا أكثر من نوعٍ أو نوعين من النّوافل يكفي ذلك لثبوت الولاية. والنّوافل التي يكون من شأن الوليّ أن يكون مكثرًا منها التهجّد بالليل ومنها كثرة الذكر اللسانيّ والتهليل أفضله، ومنها التسبيح وهو بعد «لا إله إلّا الله» بالفضل. كان أبو هريرة رضي الله عنه أحد علماء الصّحابة المكثرين من رواية أحاديث رسول الله ﷺ له وردٌ يفعله كلّ يومٍ وهو أنه كان يسبّح اثنتي عشرة ألف تسبيحةٍ كلّ يومٍ، ذكر ذلك ابن عساكر في تاريخ دمشق.

ولا يسقط التكليف عن الوليّ مهما علت درجته، فإذا كانت الفرائض لم تسقط عن النبيّ محمد ﷺ وهو خير البريّة فكيف تسقط عن وليّ من الأولياء. وقد روت السيدة عائشة أن النبيّ ﷺ «كان يقوم الليل حتى تتورّم قدماه[1]» مع أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ولما سألته في ذلك قال ﷺ لها: «**أفلا أكون عبدا شكورا**»[2]، فمن شأن العبد كُلَّما علت درجته أن يزداد في العبادة والطاعة شكرا لله على ما أنعم عليه به ووفّقه إليه.

ذكر في شذرات الذهب قصة حصلت مع السيد عبد القادر الجيلاني «مرة

---

(١) من غير أن يصيبه ضرر.

(٢) رواه البخاري في **صحيحه**: أبواب التهجد: باب قيام النبي ﷺ حتى تتورم قدماه وقالت عائشة رضي الله عنها حتى تفطر قدماه والفطور الشقوق انفطرت انشقت.

كان في خلوته يذكر الله فأتاه إبليس على هيئة ضوء وقال: «يا عبد القادر أنا ربك، أسقطتُ عنك الواجبات وأحللت لك المحرمات». فقال له عبد القادر: «خسئت يا لعين، بل أنت الشيطان»، فإذا ذلك النور ظلام، ثم خاطبني، وقال: «يا عبد القادر، كيف عرفتني؟» فقلت له: «جئتني بصورة وهيئة، والله ليس كمثله شيء، وقلت أسقطتَ عني الواجبات وأحللت لي المحرمات وهذا لم يكن لرسول الله ﷺ فكيف يكون لي، وخاطبتني بحرف وصوت ولغة وكلام الله ليس حرفا ولا صوتا ولا لغة». فقال يا عبد القادر: «لقد غلبتني بعلمك وإني أضللت بمثل هذه الواقعة سبعين من أهل الطريق» اهـ.

قال الإمام أبو جعفر الطحاوي في عقيدته ما نصه: «ولا نفضّل أحدًا من الأولياء على أحدٍ من الأنبياء عليهم السّلام، ونقول نبيٌّ واحدٌ أفضل من جميع الأولياء» اهـ. وفي هذا رد على من قال بتفضيل بعض الأئمة على الأنبياء لأن الوليّ إنما يستحق الولاية باتباعه النبيّ واقتدائه به في طاعة الله تعالى، فيستحيل أن يكون أفضل منه أو مثله. قال تعالى: ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأنعام/ ٨٦] أي كلًّا من الأنبياء الذين ذكروا في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأنعام/ ٨٣-٨٦]. قوله تعالى: ﴿فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي من إنسٍ وجنّ بل وملائكة. ولا يجوز تأويل الآية بأن المراد عالمو زمان أولئك المذكورين لأن هذا تأويل بلا دليل وهو ممنوع.

قال القرطبيّ: «فالنبيّ أفضل من الوليّ وهو أمر مقطوعٌ به عقلًا ونقلًا والصائر إلى خلافه كافرٌ لأنه أمرٌ معلومٌ من الشرع بالضرورة» اهـ نقله الحافظ في الفتح وأقرّه.

وتفترق الكرامة عن المعجزة بأن المعجزة تكون لإثبات النبوّة، وأما الكرامة فتكون للدلالة على صدق اتباع صاحبها لنبيه. ومما يفترق به الوليّ عن النبيّ أن الوليّ تجوز عليه المعاصي الكبيرة والصغيرة لكنه معصوم من الكفر. والدليل على ذلك حديث أبي هريرة عن النبيّ ﷺ عن الله تعالى: «**من عادى لي وليًّا فقد ءاذنته بالحرب. ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبّه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها**[1]». وفي رواية الطبراني من حديث حذيفة: «**ويكون من أوليائي وأصفيائي**» وإسنادها حسن غريب كما قال الحافظ ابن حجر. ولا شك أن من كان من أوليائه وأصفيائه ءامنٌ من سلب الإيمان والولاية فلا يصدر منه كفر إلا أنه في حال غيبة عقله قد تصدر منه كلمة كفر، فلا يحكم بكفره لعذره.

وما ذهب إليه بعض المتصوّفة من أن الوليّ يصل إلى درجةٍ من اليقين يرتفع عنه فيها التكليف مع بقاء عقله ووعيه فلا يعود فرضًا عليه أن يصلّيَ ويصوم ولا تبقى في حقّه عورة بل يجوز له أن ينظر إلى ما يشاء من بدن رجلٍ أو امرأةٍ، لأن نظره يطهّر، فاتّباع هوًى وتدليسٌ على العباد لاستباحة أموالهم وأعراضهم باسم المشيخة عليهم وباطن ذلك في الحقيقة زندقةٌ ومروقٌ من الدين وخروجٌ عن منهج صوفيّة الصدق المتشرّعين. قال الكلاباذيّ في البابين التاسع عشر والعشرين من «التعرّف»: «وَهُمْ أي صوفية الحقّ أشفقُ الناس على خلق الله، وأَبْذَلُ الناس لما في أيديهم وأزهدهم عما في أيدى الناس وأشدهم عُزوفًا عن الدنيا وأكثرهم طلبًا للسنة والآثار وأحرصهم على اتباعها، أجمعوا أن جميع ما فرض الله تعالى على العباد في كتابه وأوجبَه رسولُ الله ﷺ فرض واجب وحتم لازم على العقلاء البالغين لا يجوز التخلف عنه ولا يسع التفريط فيه بوجهٍ من الوجوه لأحد من الناس من صِدّيقٍ ووليّ وعارفٍ وإن بلغ أعلى المراتب

---

(١) معناه أحفظ له سمعه وبصره ويده ورجله، وقال بعضهم: أي أعطيه قوة غريبة في سمعه وبصره ويده ورجله.

وأعلى الدرجات وأشرف المقامات وأرفع المنازل، وأنه لا مقام للعبد تسقط معه ءاداب الشريعة من إباحة ما حظرَ اللَّهُ أو تحليل ما حرّم الله أو تحريم ما حلّل الله أو سقوط فرضٍ من غير عذرٍ ولا علة. والعذر والعلّة ما أجمع عليه المسلمون وجاءت به أحكام الشريعة. ومن كان أصفى سرًّا وأعلى رُتبة وأشرف مقامًا فإنه أشدُّ اجتهادًا وأخلصُ عملًا وأكثر تَوقّيًا» اهـ.

وقال الإمام المصنف السيد الإمام أحمد بن عليّ الرفاعيّ رضي الله عنه في مجلس وعظه يومًا: «يا أولياءُ يا وعَّاظُ يا رجالَ الدوائر يا أصحاب المنابر يا شيوخ الأروقة يا فتيان الرُّبُط يا أهل الزيَقِ يا سلّاكَ الطريق يا علماءُ يا حكماء يا أرباب النقول المعقولة والعقول المقبولة أين أنتم؟، كلُّ ما أنتم فيه تحت كلمتين وصلٌ أو قطعٌ. فالوصل باطنه وظاهره وأمّه وأبوه وروحه وجسمه التأدّب بأدب القرءان على ما شرع حبيب الرحمن ﷺ وما فوق ذلك من الأقوال والأفعال فمن هفوةِ نفسٍ أو من استراق سمعٍ انقلبَ على متن الروحِ من طريق الشهوة فظَنَّهُ صاحبُهُ من واردات الروحِ وعَجَزَ عن كشف منازلاته وحكّه بمحكّ الشرع لغلبةِ وَجْدٍ أو لشدة طيشٍ أو لموافقة هوًى أو لمنازعة خصمٍ وقد يكونُ ذلك من حالٍ سالبٍ فإن استمرّ السَّلبُ فالمسلوب غير مكلّفٍ لا يُؤاخَذُ ولا يُقْتَدَى به وإن نُزِعَ السَّلبُ وعاد الفهم فالأدب كشف ما كان فيه وإنكاره وتوبيخُ نفسه عليه وإعلامُ أهلِ حضرته بِخِسَّةِ ذلك الشأن، وأنه من زَبَدِ مَوْجِ السّكر أي الغَيْبَةِ الصارف عن حضرة الأمر» اهـ، نقله عنه حفيده عزّ الدين الصياد الرفاعيّ رضي الله عنه في الوظائف الرفاعيّة وعلى هذا المنوال نسج أولياء الله العارفون حقًّا فقال الشيخ أبو الحسن الشاذليّ رضي الله عنه: «إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنّة فتمسك بالكتاب والسنّة ودع الكشف وقل لنفسك إن الله تعالى ضمن لي العصمة في الكتاب والسنّة ولم يضمنها في جانب الكشف ولا الإلهام إلا بعد عرضه على الكتاب والسنّة» اهـ. نقله أحمد شمس الدين في تعليقه على كتاب التعرف.

فائدة:

الراجح في الخضر أنه نبي ويدل لذلك أمور منها ما ورد في القرءان: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ أي بل بأمر الله، وكذلك لما ذهب موسى إلى الخضر ولقيه فقال له: **السلام عليك أيها الخضر** فقال الخضر: **وعليك السلام يا موسى**، فقال موسى: «**من علّمك أنني موسى**»، فقال له: «**من علّمك أنني الخضر**». معنى ذلك أن الله تعالى هو الذي أوحى إليك بأنني الخضر فكذلك هو الذي أوحى إليّ أنك موسى. فالراجح أن الخضر نبي، لكن بعضهم يرجّحون القول بأنه وليّ، هذا قول ونحن لا ننكر هذا القول، لهم أجوبة على هذه النصوص يجيبون بها لكن نقول الظاهر من هذه النصوص أنه كان نبيّا، والأصل هو حمل النصوص على ظواهرها.

قال الحافظ في الفتح نقلًا عن القرطبي في قصة موسى مع الخضر[1]: «ولننبه هنا على مغلطتين:

الأولى: وقع لبعض الجهلة أن الخضر أفضل من موسى تمسكًا بهذه القصّة وبما اشتملت عليه، وهذا إنما يصدر ممن قصر نظره على هذه القصّة ولم ينظر فيما خصّ الله به موسى ﷺ من الرسالة وسماع كلام الله وإعطائه التوراة فيها علم كل شيء وأن أنبياء بني إسرائيل كلهم داخلون تحت شريعته، وأدلة ذلك في القرءان كثيرة، ويكفي من ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [سورة الأعراف/ ١٤٤]، وسيأتي في أحاديث الأنبياء من فضائل موسى ما فيه كفاية. قال: والخضر وإن كان نبيًّا فليس برسول باتفاق[2]، والرسول أفضل من نبي ليس برسول، ولو تنزلنا على أنه رسول فرسالة موسى أعظم وأمته أكثر فهو أفضل، وغاية الخضر أن يكون كواحد من أنبياء بني إسرائيل وموسى أفضلهم. وإن قلنا إن الخضر ليس بنبيّ بل وليّ فالنبيّ أفضل من

---

(١) **فتح الباري** (١/ ٢٢١-٢٢٢).

(٢) لكن هناك من يحكي الخلاف في هذه المسألة.

الوليّ وهو أمر مقطوع به عقلًا ونقلًا، والصائر إلى خلافه كافر لأنه أمر معلوم من الشرع بالضرورة قال: وإنما كانت قصّة الخضر مع موسى امتحانًا لموسى لِيَعْتَبر.

الثانية: ذهب قوم من الزنادقة إلى سلوك طريقة تستلزم هدم أحكام الشريعة فقالوا إنه يستفاد من قصّة موسى والخضر أن الأحكام الشرعيّة العامّة تختصّ بالعامّة والأغبياء وأما الأولياء والخواصّ فلا حاجة بهم إلى تلك النصوص بل إنما يراد منهم ما يقع في قلوبهم ويحكم عليهم بما يغلب على خواطرهم لصفاء قلوبهم عن الأكدار وخلوها عن الأغيار فتنجلي لهم العلوم الإلهية والحقائق الربانية فيقفون على أسرار الكائنات ويعلمون الأحكام الجزئيّات فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات كما اتفق للخضر فإنه استغنى بما ينجلي له من تلك العلوم عما كان عند موسى، ويؤيده الحديث المشهور[1] «**استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك**»[2]. قال القرطبيّ وهذا القول زندقة وكفر لأنه إنكار لما علم من الشرائع فإن الله قد أجرى سنّته وأنفذ كلمته بأن أحكامه لا تعلم إلا بواسطة رسله السفراء بينه وبين خلقه المبيّنين لشرائعه وأحكامه كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [سورة الحج/ ٧٥]، وقال: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [سورة الأنعام/ ١٢٤]، وأمر بطاعتهم في كل ما جاؤوا به وحثّ على طاعتهم والتمسك بما أَمروا به فإن فيه الهدى، وقد حصل العلم اليقين وإجماع السلف على ذلك فمن ادعى أن هناك طريقًا أخرى يُعرف بها أمرُه ونهيه غيرُ الطرق التي جاءت بها الرسل يُستغنى بها عن الرسل فهو كافر يقتل ولا يستتاب[3]، وهي دعوى تستلزم إثبات نبوّة بعد

---

(١) رواه أحمد في **مسنده** (٤/ ٢٢٧-٢٢٨)، والدارمي في **سننه** (٢/ ٢٤٥-٢٤٦).

(٢) هذا الحديث هو للمجتهد، أي أن المجتهد يأخذ باجتهاده لا يقلد مجتهدًا غيره فيما خالف فيه اجتهادُه اجتهادَه.

(٣) هذا عند المالكية استتابته سنة وعند بعضهم واجبة. المالكية هذا اعتبروه زنديقا.=

نبينا لأن من قال إنه يأخذ عن قلبه لأن الذي يقع فيه هو حكم الله وأنه يعمل بمقتضاه من غير حاجة منه إلى كتاب ولا سنّة فقد أثبت لنفسه خاصّةَ النبوّة كما قال نبينا ﷺ: «**إن روح القدس نفث في روعي**»[1].

قال: وقد بلغنا عن بعضهم أنه قال: أنا لا ءاخذ عن الموتى وإنما ءاخذ عن الحيّ الذي لا يموت. وكذا قال ءاخر: أنا ءاخذ عن قلبي من ربّي وكلّ ذلك كفر باتفاق أهل الشرائع. ونسأل الله الهداية والتوفيق. وقال غيره: من استدلّ بقصّة الخضر على أن الوليّ يجوز أن يطلع من خفايا الأمور على ما يخالف الشريعة ويجوز له فعله فقد ضلّ وليس ما تمسك به صحيحًا فإن الذي فعله الخضر ليس في شيء منه ما يناقض الشرع، فإن نقض لوحٍ من ألواح السفينة لدفع الظالم عن غصبها ثم إذا تركها أعيد اللوح جائز شرعًا وعقلًا، ولكن مبادرة موسى بالإنكار بحسب الظاهر، وقد وقع ذلك واضحًا في رواية أبي إسحاق التي أخرجها مسلم[2] ولفظه: «**فإذا جاء الذي يُسَخِّرُهَا فوجدها منخرقةً تجاوزها فأصلحها**» فيستفاد منه وجوب التأنّي عن الإنكار في المحتملات، وأما قتله الغلام فلعله كان في تلك الشريعة[3]، وأما إقامة الجدار فمن باب مقابلة الإساءة بالإحسان. والله أعلم» اهـ.

= لو تشهد لا يؤمَن أن ينخلع عن عقيدته عن حاله، عندهم بعض من نطق بالكفر يستتاب وبعضهم لا يستتاب.

(١) رواه الحاكم في **المستدرك** (٢/ ٤)، والقضاعي في **مسند الشهاب** (٢/ ١٨٥).

(٢) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب الفضائل: باب من فضائل الخضر عليه السلام.

(٣) معناه أنه يحتمل أنه كان في ذلك الوقت جائزًا قتله لو دون البلوغ إن كان يحث أهله على الكفر.

معنى الإيمان وصفته وأركانه

قال المؤلف رحمه الله: وإيمانُ العبادة: هو تصديقٌ بالقلب، وهو على طريق الاختيار والخبر والتصديق لله في جميع ما أنزل على أنبيائه عليهم الصلاة والسلام، وجميع ما بلَّغوا عن الله عزّ وجلّ، ويدخلُ ذلك كلُّه تحت هذه العبادة وهي: الإيمان بالله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبما أنزل الله على رسله.

الإيمان هو التصديق بالقلب بما جاء به النبيّ من عند الله تعالى والإقرار به باللسان، أي أن الإيمان يشمل كلا الأمرين، فيعلم من ذلك أنه إذا انتفى التصديق انتفى الإيمان، والتصديق محلّه القلب فمن لم يصدّق بقلبه ونطق بلسانه فهو عند الله كافر، وأما عندنا فهو بحسب الظاهر مؤمن مسلم، وهذا بالنسبة لمن كان كافرًا فأراد الدخول في الإسلام فهو الذي لا يصح له الإيمان إلا بالأمرين التصديق بالقلب والإقرار باللسان. فالإقرار هو ركن لا يحتمل السقوط إلا فيما استثناه الشرع، وهو من له عذر بأن كان عاجزًا عن النطق فلا يشترط النطق في حقه.

إيمان العبادة يكون على طريق الاختيار والخبر، الله تعالى لا يخلق الطاعة والمعصية في قلب العبد بطريق الجبر والغلبة بل يخلقهما في قلبه مقرونًا باختيار العبد وكسبه، فإن المكره على عمل هو الذي عمل ذلك العمل يكرهه في الأصل، وكان المختار عنده أن لا يعمله فإنه عنده كالذليل كالمؤمن إذا أكره على إجراء كلمة الكفر فأجراها على لسانه وقلبه مطمئنّ بالإيمان وكالمنافق حيث يجري الإيمان على اللسان وقلبه مشحون بالكفر، فليس الكافر في كفره معذورا ولا المؤمن في إيمانه مجبورا، بل الإيمان محبوب للمؤمنين، كما أن الكفر مطلوب للكافرين[1]، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [سورة المؤمنون/ ٥٣] غاية الأمر أن الله تعالى بفضله حبب إلينا الإيمان وزيّن في

(١) أي أن الكفار يحبون الكفر ويطلبونه.

قلوبنا الإحسان وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان. والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وبعدله ترك هداية أهل الكفر والكفران، وحبب إليهم العصيان وكرّه لديهم الإيمان، فسبحانه يضلّ الله من يشاء ويهدي من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد ومن يهد الله فما له من مضل، وهذا من أسرار القضاء والقدر بحكم الأزل لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون. ولا خلقهم مؤمنًا ولا كافرا بالجبر والإكراه، ولكن خلقهم أشخاصا قابلة لقبول الإيمان إخلاصًا ولاختيار الكفر على توهّم كونه لهم خلاصًا. ومعنى قوله: «والخبر» أي الإذعان لحكم المخبر وقبوله على جهة الإيقان.

روى مسلم[1] من حديث عمر بن الخطاب قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفّيه على فخذيه، وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا**» قال: صدقت، قال: فعجبنا له، يسأله ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال ﷺ: «**أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر، خيره وشره**» قال: صدقت». هذا حديث عظيم قد اشتمل على جميع وظائف الأعمال الظاهرة والباطنة. وقد استفيد من هذا الحديث أن الإيمان والإسلام حقيقتان متباينتان لغة وشرعا، وهذا هو الأصل في الأسماء المختلفة وقد يتوسع فيهما الشرع فيطلق أحدهما على الآخر على سبيل التجوّز.

فالإيمان بالله هو التصديق بأنه سبحانه موجود موصوف بصفات الجلال والكمال منزّه عن صفات النقص وأنه واحد حقّ صمد فرد خالق جميع المخلوقات متصرف في ما يشاء ويفعل في ملكه ما يريد.

---

(١) رواه مسلم في **صحيحه**: في أول كتاب الإيمان.

والإيمان بملائكة الله أي بوجودهم وأنّهم عبادٌ مُكرمون وهم أجسام نورانيّة لطيفة ألطف من الهواء ذوُو أرواحٍ مشرّفةٍ ليسوا ذكورًا ولا إناثًا لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون ولا يتوالدون مكلّفون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، كما أخبر الله تبارك وتعالى عنهم في القرءان قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ وهذا عام في كل فرد منهم وما ورد في أن هاروت وماروت عصيا في تلك القصة المشهورة فلا يعتمد عليه لأنه لم يصح[1].

---

(١) ما يذكره كثير من المفسرين في قصّة هاروت وماروت من أن الزهرة كانت امرأة فراوداها على نفسها فأبت إلا أن يعلماها الاسم الأعظم فعلّماها فقالته فرُفعت كوكبا إلى السماء فهذا أظنه من وضع الإسرائيليّين وإن كان قد أخرجه كعب الأحبار وتلقاه عنه طائفة من السلف فذكروه على سبيل الحكاية والتحدث عن بني إسرائيل. وقد قال الشيخ محمد الحوت في **أسنى المطالب** (ص/ ٣٣٧) ما نصه: «وقال المفسرون كالفخر الرازي والبيضاوي وأبي السعود والخازن إنها لم تثبت بنقل معتبر فلا تعويل على ما نقل فيها لأن مداره رواية اليهود مع ما فيه من المخالفة لأدلّة العقل والنقل» اهـ. وقال الشيخ عبد الله الغماريّ في **قصّة هاروت وماروت** ما نصه: «وتتبع الحافظ السيوطيّ طرقها في «**التفسير المسند**» وفي «**الدر المنثور**» فأوصلها إلى نيّف وعشرين طريقا أغلبها ضعيف أو واهٍ. وقد تتبعت طرقها المشار إليها وأعملت فيها فِكْرِي فوجدتها قصّة شاذّة منكرةَ المعنى تخالف القرآن والسنة وقواعد العلم هذا إلى تضارب ألفاظها ورواياتها وليس فيها حديث عن النبيّ ﷺ صحيح سالم من علة» اهـ. وقال ابن كثير في **تفسيره**: «وقد روي في قصّة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين كمجاهد والسديّ والحسن البصريّ وقتادة وأبي العالية والزهريّ والربيع بن أنس ومقاتل بن حيّان وغيرهم وقصّها خلق من المفسرين المتقدمين والمتأخرين وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متّصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فيها فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى والله أعلم بحقيقة الحال» اهـ.=

وأما الإيمان برسله فهو التصديق بأنهم صادقون في ما أخبروا به عن الله تعالى، أيّدهم بالمعجزات وأنهم بلّغوا عن الله رسالاته وبيّنوا للمكلفين ما أمرهم الله به وأنه يجب احترامهم، وأنه لا يفرق بين أحد منهم أي أنبيائه من كان رسولًا ومن لم يكن رسولًا.

والإيمان بالكتب وهي كثيرة لكن أشهرها هؤلاء الأربع: التوراة والإنجيل والزّبور والفرقان أي القرءان. قال وهبُ بن مُنَبِّهٍ قرأت سبعين كتابًا مما أنزل الله.

والإيمان بالقدر خيره وشرّه فالواجب الذي هو أحد أركان الإيمان الستة هو الرضا بقدر الله أي تقديره وأما المقدور فيجب الإيمان بأنّ كلّ المقدورات أي المخلوقات بتقدير الله تحصل ما كان خيرًا وما كان شرًا فما كان من المقدور خيرًا يجب الرضا به وما كان منه شرًا يجب كراهيته كالكفر والمعاصي، ومعنى ذلك أن كل ما دخل في الوجود من خيرٍ وشر هو بتقدير الله الأزليّ فالخير من أعمال العباد بتقدير الله ومحبّته ورضاه والشرّ من أعمال العباد بتقدير الله لا بمحبّته ورضاه. وقد ورد في حديث جبريل الصحيح المشهور لفظ «**والقدر خيره وشرّه**» رواه مسلم[1] وفي لفظ «**والقدر كلّه**»[2].

= وقال الرازي في **تفسيره** (٢٠/ ٤٦): «القصة الخبيثة التي يذكرونها في حقّ هاروت وماروت كلام باطل فإن الله تعالى وهو أصدق القائلين لما شهد في هذه الآية على عصمة الملائكة وبراءتهم عن كل ذنب وجب القطع بأن تلك القصة كاذبة باطلة» اهـ.

(١) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب الإيمان: باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بثبوت قدر الله سبحانه وتعالى.

(٢) **المصدر السابق**.

تنبيه:

قال جمهور علماء أهل السنّة والجماعة إن إيمان المقلد صحيح، والمقلد هو الذي يعتقد العقيدة الحقة من غير دليل، لكنه عاصٍ بترك الاستدلال وقالوا يكفي الاستدلال الطبيعي وهو أن وجود العالم دليل على وجود البارئ ولا يخلو من ذلك إلا شخص نشأ بشاهق جبلٍ فسمع الناس يقولون إن للخلق ربًّا خلقهم يستحق العبادة عليهم وصدّقهم إجلالًا لهم عن الخطإ.

ويدل على وجوب الاستدلال ءاياتٌ منها قوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ [سورة الأعراف/ ١٨٥] وقوله: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾ [سورة ءال عمران/ ١٩٠-١٩١].

الكلام عن الردة:

يجب على كلّ مسلمٍ حفظ إسلامه وصونه عمّا يفسده ويبطله ويقطعه وهو الردّة والعياذ بالله تعالى. الردة أقبح أنواع الكفر لأن الردة تُذهب كل الحسنات وتَبقَى السيئات، ولو رجع إلى الإسلام بعد ذلك لا ترجع له الحسنات التي كان عملها، وتبقى السيئات فإن تاب منها ذهبت. قال النوويّ[1] وغيره: «الردّة أفحش أنواع الكفر[2]» اهـ. وقد كثر في هذا الزمان التساهل في الكلام حتى إنّه

---

(١) **روضة الطالبين** (١٠/ ٦٤).

(٢) وليس معنى «الردة أفحش أنواع الكفر» أن كل أنواع الردة أشد من كفر الكافر الأصلي، لأن كفر الكافر الأصلي قد يكون أشد من كفر المرتد، فليس معنى قول النووي المذكور أن الردة أشد أنواعِ الكفرِ كفرًا، إنما مراده شدة قبحها في أنها خروجٌ من الإسلام الذي هو الحق إلى الباطل الذي هو الكفر كما يقال «الفسوق أقبح من العالم منه من الجاهل».

وأشد أنواع الكفر التعطيل وهو قول الشيوعي: «لا إله والحياة مادةٌ -معناه عندهم=

يخرج من بعضهم ألفاظٌ تخرجهم عن الإسلام، بل ولا يرون ذلك ذنبًا فضلًا عن كونه كفرًا وذلك مصداق قوله ﷺ «**إنّ العبد ليتكلّم بالكلمة لا يرى بها بأسًا يهوي بها في النّار سبعين خريفًا**» أي مسافة سبعين عامًا في النزول وذلك منتهى جهنّم وهو خاصٌ بالكفّار. والحديث رواه الترمذيّ[1] وحسّنه. ومعنى الحديث أن الإنسان قد يتكلّم بكلمةٍ لا يراها ضارّةً له ولا يعتبرها معصيةً يستوجب بها النزول إلى قعر جهنّم الذي هو محلّ الكفّار لأنه لا يصل إلى قعر جهنّم الذي هو مسافة سبعين عامًا في النّزول عصاة المسلمين[2]. وفي معناه حديثٌ رواه البخاريّ ومسلمٌ[3] وهو «**إنّ العبد ليتكلّم بالكلمة ما يتبيّن فيها يزلّ بها في النّار أبعد ممّا بين المشرق والمغرب**» فحديث الترمذيّ مفسرٌ لحديث الشّيخين.

وهذا الحديث دليلٌ على أن الإنسان قد يخرج من الإسلام من غير أن يقصد الخروج منه ومن غير أن يستبدل به دينًا غيره كما هو حال كثيرٍ ممن يدّعون الصوفيّة وهم يتخبّطون في الكفر، أي إن كان الشخص يعرف أن هذا القول الكفريّ الذي قاله كفرٌ أو لا يعرف، يحكم عليه بالكفر. إنما الشرط معرفة

= طبيعة- وقول أهل الوحدة: «إن الله هو جملة العالم» وعقيدة الحلول أي أن الله يحل في غيره كاليشرطية القائلين: «بأن الله يدخل في كل شخصٍ ذكرٍ أو أنثى» حتى قال قائلهم في بعض الأشخاص أنت الله وهذا الجدار الله، وهم فرقةٌ من متأخري الشاذلية انحرفوا عن أصول التوحيد الذي هو عقيدة كل مشايخ أهل الله الذين عملوا الطرق الرفاعي والشيخ عبد القادر والشيخ أبي الحسن الشاذلي وغيرهم.

(١) رواه الترمذي في **سننه**: كتاب الزهد: باب فيمن تكلم بكلمة يضحك بها الناس.

(٢) **المستدرك** (٢/ ٥٠٧، و٥٣٤، و٤/ ٥٩٦).

(٣) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب الرق: باب حفظ اللسان، ومسلم في **صحيحه**: كتاب الزهد والرقائق: باب التكلم بالكلمة يهوي بها في النار.

معنى اللفظ، وكذلك ليس شرطًا أن يعتقد بقلبه معنى هذا اللفظ[1] بل بمجرّد أنه قال ذلك بإرادةٍ وهو يفهم المعنى كفرَ وخرج من الإسلام[2].

وقد شذّ سيّد سابق فإن له كتابًا سمّاه «فقه السنّة»[3] يقول فيه في كتاب الردّة: «إن المسلم لا يعتبر خارجًا عن الإسلام ولا يحكم عليه بالردّة إلا إذا انشرح صدره بالكفر واطمأن قلبه به ودخل في دينٍ غير الإسلام بالفعل» اهـ. ويكفي في الرد عليه الحديث الذي رواه البخاريّ ومسلمٌ والحديث الذي رواه الترمذيّ وقد مرّ ذكرهما ءانفًا وموضع الشاهد فيه قوله ﷺ: «**لا يرى بها بأسًا**» أي لأنه يدلّ على أن من الكلام ما يخرج الإنسان من الإسلام من غير فرقٍ بين أن يكون منشرح البال وأن يكون غير منشرح البال لذلك القول. ويجوز على مقتضى قوله أن يقول الرجل أيَّ قول من أقوال الكفر ويدافع عن نفسه بقوله: «أنا ما كنت منشرح البال إنما نطقت بذلك باللسان فقط» فيُعفى من الاستتابة ثم ترتُّبِ القتل عليه، فيكون ذلك هدمًا لباب من أبواب الشرع وهو أحكام المرتدين وما يترتّب عليها من انقطاع النكاح بين الزوجين وانقطاع التوارث ومن قتلهم بعد الاستتابة إن لم يرجعوا، فإنّه يجب على الحاكم ذلك كما قتل

---

(١) قال القونويّ «ولو تلفّظ بكلمة الكفر طائعًا غير معتقدٍ له يكفر لأنّه راضٍ بمباشرته وإن لم يرض بحكمه كالهازل به فإنّه يكفر وإن لم يرض بحكمه ولا يعذر بالجهل» اهـ وفي الفتاوى الهنديّة رجلٌ كفر بلسانه طائعًا وقلبه مطمئنّ بالإيمان يكون كافرًا ولا يكون عند الله مؤمنًا كذا في **فتاوى قاضيخان** (٣/ ٥٧٧) اهـ. وقال ابن السبكيّ في **الطبقات** (١/ ٩١) «لا خلاف عند الأشعريّ وأصحابه بل وسائر المسلمين أنّ من تلفّظ بالكفر أو فعل الكفر أنّه كافرٌ بالله العظيم مخلّدٌ في النّار وإن عرف بقلبه وأنّه لا تنفعه المعرفة مع العناد ولا تغني عنه شيئًا ولا يختلف مسلمان في ذلك» اهـ.

(٢) **الفقه الأكبر بشرح ملا علي القاري** (ص/ ٢٧٤): «ثم اعلم أنه إذا تكلم بكلمة الكفر عالِمًا بمعناها ولا يعتقد معناها لكن صدرت عنه من غير إكراه بل مع طواعية في تأديته فإنّه يحكم عليه بالكفر» اهـ.

(٣) **فقه السنة** (٢/ ٤٥٣).

أبو بكرٍ امرأةً ارتدّت[1]، وكما قتل رجلٌ من أصحاب رسول الله ﷺ أمَّ ولدٍ له كانت تقع في رسول الله ﷺ فيزجرها فلا تنزجر، فأُخبر رسول الله ﷺ بقتلها، قال الرّجل أنا قتلتها يا رسول الله كانت تقع فيك فأزجرها فلا تنزجر، فقال الرسول ﷺ: «**اشهدوا أنّ دمها هدرٌ**»[2] أي لا قيمة له رواهما البيهقيّ، وروى الأوّل أيضًا الدارقطنيّ[3] وروى الثاني أيضًا أبو داود[4].

وليس في قول الله تعالى ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ﴾ [سورة النّحل/ ١٠٦] دليلٌ على ما ادّعاه سيّد سابق لأنّ هذا ورد في المكره على كلمة الكفر فإنّه لا يكفر إن كان نطقه بالكفر بدون انشراح صدرٍ لذلك الكفر، وإنّما يكفر هذا المكره إن انشرح صدره حالة النطق بالكفر لما قاله من الكفر كما جاء عن رسول الله ﷺ أنّه قال لعمّار بن ياسرٍ: «**هل كنت شارحًا صدرك حين قلت ما قلت أم لا؟**» فقال: «لا» رواه الإمام ابن المنذر في كتابه «الإشراف» فحرّف هذا الرجل سيّد سابق كلام الله تعالى وقال ما لم يقله عالمٌ قطّ. فالضّمير في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ﴾ يعود إلى المكره الذي انشرح صدره حين النطق فهذا الذي يكفر، فهذا الذي يشترط فيه الانشراح أما غير المكره فليس محلَّ هذه الآية.

وكذلك لا يشترط في الوقوع في الكفر عدم الغضب كما أشار إلى ذلك

---

(١) رواه البيهقيّ في سننه (٨/ ٢٠٤).

(٢) رواه البيهقيّ في سننه (٧/ ٦٠).

(٣) رواه الدارقطني في سننه (٣/ ١١٤).

(٤) رواه أبو داود في سننه: كتاب الحدود: باب الحكم فيمن سب النبي ﷺ.

النوويّ قال[1]: «لو غضب على ولده أو غلامه[2] فضربه ضربًا شديدًا فقال له رجل: «ألست مسلمًا»، فقال: «لا» متعمدًا[3] كفر» وقاله غيره من حنفيّةٍ وغيرهم.

أقسام الردة:

الردّة ثلاثة أقسامٍ: اعتقاداتٌ وأفعالٌ وأقوالٌ وكلٌّ يتشعّب شعبًا كثيرةً كما قسّمها النوويّ حيث قال في «روضة الطالبين» في كتاب الردة ما نصّه[4]: «الردة وهي قطع الإسلام، ويحصل ذلك تارة بالقول الذي هو كفر وتارة بالفعل، وتحصل الردّة بالقول الذي هو كفر سواء صدر عن اعتقاد أو عناد أو استهزاء» اهـ. وذكر مثل هذا الكلام ابن حجر الهيتميّ الشافعيّ[5]، والبهوتيّ الحنبليّ في «شرح منتهى الإرادات»[6]، والشيخ محمد عليش المالكي[7]، وابن عابدين الحنفي[8] في «ردّ المحتار على الدرّ المختار».

وقد استدلّوا على هذا التّقسيم بالقرءان الكريم كقوله تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ ﴾ [سورة التّوبة/ ٧٤] فإن هذه الآية يفهم منها أن الكفر منه قوليٌّ وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ﴾ [سورة الحجرات/ ١٥] أي لم يشكّوا

---

(١) **روضة الطالبين (١٠/ ٦٨).**

(٢) أي عبده.

(٣) أي بغير سبق لسان.

(٤) **روضة الطالبين (١٠/ ٦٤).**

(٥) **فتح الجواد بشرح الإرشاد (٢/ ٢٩٨).**

(٦) **شرح منتهى الإرادات (٣/ ٣٨٦).**

(٧) **منح الجليل شرح مختصر خليل (٩/ ٢٠٥).**

(٨) **رد المحتار على الدر المختار (٣/ ٢٨٣).**

ويفهم منه أن الكفر منه اعتقاديٌّ لأن الارتياب أي الشكّ يكون بالقلب وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [سورة فصلت/ ٣٧] يفهم منه أنّ الكفر منه فعليٌّ وهذا التّقسيم اتفق عليه علماء المذاهب الأربعة بل هو مجمعٌ عليه.

وكلّ قسمٍ من هؤلاء الثلاثة يُخرج من الإسلام بمفرده من غير أن ينضمّ إليه قسمٌ ءاخر أي أن الأقوال الكفريّة تُخرج من الإسلام من دون أن يقترن بها اعتقادٌ أو فعلٌ، هذا ما اتفق عليه العلماء وأجمعوا عليه فلا التفات إلى ما خالف ذلك.

فمن الأوّل: الشكّ في اللَّه أو في رسوله أو القرءان أو اليوم الآخر أو الجنة أو النار أو الثواب أو العقاب أو نحو ذلك مما هو مجمعٌ عليه أو اعتقاد قدم العالم وأزليّته بجنسه وتركيبه أو بجنسه فقط أو نفي صفةٍ من صفات اللَّه الواجبة له إجماعًا ككونه عالِمًا أو نسبة ما يجب تنزيهه عنه إجماعًا كالجسم أو تحليل محرّمٍ بالإجماع معلومٍ من الدين بالضّرورة مما لا يخفى عليه كالزنى واللواط وقتلِ المسلم والسرقة والغصب أو تحريم حلالٍ ظاهرٍ كذلك كالبيع والنكاح أو نفي وجوب مجمعٍ عليه كذلك كالصلوات الخمس أو سجدةٍ منها والزكاة والصوم والحج والوضوء. أو إيجابُ ما لم يجب إجماعًا كذلك أو نفيُ مشروعيّةِ مجمعٍ عليه كذلك أو عزمَ على الكفر في المستقبل أو على فعل شيء مما ذكر أو تردّد فيه لا خطوره في البال بدون إرادةٍ. أو أنكر صحبة سيدنا أبي بكرٍ رضي اللَّه عنه أو رسالة واحدٍ من الرسل المجمع على رسالته أو جحد حرفًا مجمعًا عليه من القرءان أو زاد حرفًا فيه مجمعًا على نفيه معتقدًا أنه منه عنادًا أو كذّب رسولًا أو نقصه أو صغّر اسمه بقصد تحقيره أو جوّز نبوّة أحدٍ بعد نبينا محمّدٍ ﷺ.

والقسم الثّاني الأفعال: كسجودٍ لصنمٍ أو شمسٍ إن قصد عبادتهما أو لم يقصد والسجود لإنسانٍ إن كان على وجه العبادة له كسجود بعض الجهلة لبعض

المشايخ المتصوفين أي إذا كان سجودهم على وجه العبادة لمشايخهم فإنه يكون عندئذٍ كفرًا وإن لم يكن على وجه العبادة لهم لا يكون كفرًا لكنّه حرامٌ.

والقسم الثالث الأقوال: وهي كثيرةٌ جدًّا لا تنحصر منها أن يقول لمسلمٍ يا كافر أو يا يهوديّ أو يا نصرانيّ أو يا عديم الدين مريدًا بذلك أنّ الذي عليه المخاطَب من الدين كفرٌ أو يهوديّةٌ أو نصرانيّةٌ أو ليس بدينٍ لا على قصد التشبيه، وكالسخرية باسمٍ من أسمائه تعالى أو وعده أو وعيده ممن لا يخفى عليه نسبة ذلك إليه سبحانه، وكأن يقول لو أمرني الله بكذا لم أفعله أو لو صارت القبلة في جهة كذا ما صلّيت إليها أو لو أعطاني الله الجنة ما دخلتها مستخفًّا أو مظهرًا للعناد في الكلّ. أو قال لفعلٍ حدث هذا بغير تقدير الله أو لو شهد عندي الأنبياء أو الملائكة أو جميع المسلمين بكذا ما قبلتهم أو قال لا أفعل كذا وإن كان سنّةً بقصد الاستهزاء. أو قال أنا بريءٌ من الله أو من الملائكة أو من النبيّ أو من الشريعة أو من الإسلام أو قال لا أعرف الحكم مستهزئًا بحكم الله، وكذا يكفر من شتم نبيًّا أو ملكًا أو يقول شيئًا من نحو هذه الألفاظ البشعة الشنيعة. وقد عدّ كثيرٌ من الفقهاء كالفقيه الحنفيّ بدر الرشيد والقاضي عياضٍ المالكيّ رحمهما الله أشياء كثيرةً فينبغي الاطلاع عليها فإن من لم يعرف الشرّ يقع فيه.

والقاعدة: أن كلّ عقدٍ[1] أو فعلٍ أو قولٍ يدلّ على استخفافٍ بالله أو كتبه أو رسله أو ملائكته أو شعائره أو معالم دينه[2] أو أحكامه أو وعده أو وعيده كفرٌ فليحذر الإنسان من ذلك جهده على أيِّ حال.

---

(١) العقد معناه الاعتقاد.

(٢) والشعائر والمعالم بمعنى واحد. المعالم جمع معلم والمعلم بمعنى الشعيرة وهو ما كان مشهورًا من أمور الدين كالصلاة والحج والزكاة والأذان والمساجد وعيد الأضحى وعيد الفطر. وكل ذلك يسمى شعيرةً من شعائر الدين.

يستثنى من الكفر القولي:

١. حالة سبق اللسان: أي أن يتكلم الشخص بشيء من ذلك من غير إرادةٍ بل جرى على لسانه ولم يقصد قوله بالمرة.

٢. وحالة غيبوبة العقل: أي عدم صحو العقل.

٣. وحالة الإكراه: فمن نطق بالكفر بلسانه مكرهًا بالقتل ونحوه[1] وقلبه مطمئنّ بالإيمان غير شارحٍ صدره بالكفر الذي يجري على لسانه فلا يكفر.

٤. وحالة الحكاية لكفر الغير: فلا يكفر الحاكي كفر غيره ومستندنا في هذا أي في استثناء مسألة الحكاية قول الله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [سورة التوبة/ ٣٠]. وقوله: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ [سورة المائدة/ ٦٤] نسبوا إلى الله البخل فرد الله عليهم بقوله: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [سورة المائدة/ ٦٤] أي واسع الكرم.

ثم الحكاية المانعة لكفر حاكي الكفر إما أن تكون في أوّل الكلمة التي يحكيها عمن كفر، أو بعد ذكره الكلمة عقبها أي وكان في نيّته أن يؤخر أداةالحكاية من الابتداء، فلو قال المسيح ابن الله قول النصارى أو قالته النصارى فهي حكايةٌ مانعةٌ للكفر عن الحاكي، فأداة الحكاية لكلمة الكفر إن قُدِّمت فهي أحسن وإن أخرت نفعت لدفع الكفر عن الحاكي. وهكذا الحكم في الكتابة فمن كتب كلامًا فيه كفرٌ مع أداة الحكاية قبل الكلام الذي هو كفرٌ أو بعده متّصلًا به وكان ناويًا قبل أن يكتب كلام الكفر أن يتبعه بالحكاية فلا يكفر. وقد تكون أداة الحكاية تقديريّةً كالذي يقول ماذا تقول اليهود في عزيرٍ فقال ابن الله، فلا يشترط أن يقول يقولون ابن الله لأن الحكاية هنا تقديريّةٌ.

٥. وحالة كون الشخص متأولًا باجتهاده في فهم الشرع: فإنه لا يكفر المتأوّل

---

(١) أي ما كان مفضيًا إلى الموت عادةً.

كتأوّل الذين منعوا الزكاة في عهد أبي بكرٍ بأن الزكاة وجبت في عهد الرسول ﷺ، لأن صلاته[1] عليهم عند دفع الزكاة إليه كانت سكنًا لهم وطهرةً وأن ذلك انقطع بموته، فإن الصحابة لم يكفِّروهم لذلك إنما كفَّروا الآخَرين الذين ارتدّوا عن الإسلام لطاعتهم لمسيلمة الكذاب الذي ادعى الرسالة. فمقاتلتهم لهؤلاء الذين تأوّلُوا منع الزكاة على هذا الوجه كان لأخذ الحقّ الواجب عليهم في أموالهم، فقد كان لهم شوكةٌ ولجؤوا إلى القتال فاضطر أبو بكرٍ إلى أن يقاتلهم ليأخذ الزكاة من أموالهم لا لأنه كفرهم.

فائدة:

حكم من يأتي بإحدى أنواع هذه الكفريات هو أن تحبط أعماله الصالحة وحسناته جميعها، فلا تحسب له ذرّة من حسنة كان سبق له أن عملها من صدقة أو حجّ أو صيام أو صلاة ونحوها، لقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ [سورة المائدة/ ٥]. فإن رجع إلى الإسلام لم ترجع إليه حسناته التي خسرها، وأما ذنوبه التي عملها في أثناء الردّة وقبل ذلك فإنها لا تمحى عنه برجوعه إلى الإسلام وإنما الذي يغفر له بذلك هو الكفر لا غير، أما حسناته التي كان عملها قبل إسلامه فلا تكتب له بعد أن يسلم، وهذا هو القول الصحيح ومن قال بأن حسناته تعود له فهو غالطٌ لكن لا يكفّر إن كان ممّن يخفى عليه الحكم، بخلاف الكافر الأصليّ فإن ذنوبه تمحى بإسلامه لقول رسول الله ﷺ: «**الإسلام يهدم ما قبله**» رواه مسلمٌ[2].

وإذا قال أستغفر الله قبل أن يجدد إيمانه بقوله: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله» وهو على حالته هذه فلا يزيده قوله أستغفر الله إلا

---

(١) أي دعاؤه.

(٢) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب الإيمان: باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج.

إثمًا وكفرًا، لأنه يكذب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [سورة محمد/ ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ [سورة النساء/ ١٦٨].

روى ابن حبان[١] عن عمران بن الحصين: أتى رسول الله رجلٌ فقال يا محمدُ، عبدُ المطلب خير لقومه منك، كان يطعمهم الكبد والسنام وأنت تَنْحَرُهُم[٢] فقال رسول الله ﷺ ما شاء الله[٣] فلما أراد أن ينصرف قال: ما أقول، قال: «**قل اللهم قني شر نفسي واعزم لي على أرشد أمري**» فانطلق الرجل ولم يكن أسلم، ثم قال لرسول الله ﷺ إني أتيتك فقلت علمني فقلت: قل اللهم قني شر نفسي واعزم لي على أرشد أمري، فما أقول الآن حين أسلمت قال: «**قل اللهم قني شر نفسي واعزم لي على أرشد أمري اللهم اغفر لي ما أسررت وما أعلنت وما أخطأت وما عمدت وما جهلت**[٤]».

قال المؤلف رحمه الله: ولا خلاف أن التصديق بالقلب مزكّ لثبوت الإيمان وهو ركن الإيمان والركن هو التصديق بالقلب ويصير العبد مؤمنًا بينه وبين الله تعالى بالتصديق المجرد والإقرار باللسان دلالة عليه ليجري عليه إيمانه.

الشرح: الإيمان هو الإقرار بالشهادتين مع التصديق القلبيّ، قال النوويّ[٥]: «من صدق بقلبه ولم ينطق بلسانه فهو كافر مخلد في النار بالإجماع» اهـ. أي ولم ينطق باللّفظ الصّحيح، ونقل اتفاق أهل السنّة من الفقهاء والمحدثين

---

(١) **الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان** (٢/ ١٢٨).

(٢) أي تقتلهم بالجهاد.

(٣) أي رد عليه.

(٤) معناه الإعراض عن الطاعة.

(٥) **شرح صحيح مسلم** (١/ ١٤٩).

والمتكلمين على ذلك. وقال في موضعٍ ءاخر منه[1]: «إنّ الإيمان شرطه الإقرار بالشهادتين مع اعتقادهما» اهـ. وقد تجد للنوويّ نفسه أنّه يقول: اختلف العلماء لكن مراده أنهم اختلفوا هل الإقرار شرطٌ للإيمان أم ركنٌ؟

والصواب ما قاله النووي لقوله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ويؤمنوا بي وبما جئت به**» اهـ رواه البخاريّ وغيره[2]، ولذلك لم يعتبر قول الغزاليّ رحمه الله: «بأن من صدّق بقلبه ولم ينطق بلسانه فهو مؤمن عند الله ما لم تعرض عليه الشهادتان فيأبى». وقوله مخالفٌ لما نصّ عليه إمام مذهبه الذي ينتسب إليه أعني الإمام الشافعيّ رضي الله عنه ولما نصّ عليه غيره من المجتهدين. فالذي عليه القدماء والذي هو منقولٌ عن نصّ الشافعيّ أنه لا بدّ من الجمع بين الاعتقاد بالقلب والنطق باللسان، وكذلك منقولٌ عن نصّ أبي حنيفة وغيرهما قال مثل ذلك، لذلك بعضهم نقل الإجماع على ذلك. والغزاليّ لم يكن مجتهدًا مطلقًا فخلافه لنصّ إمامه لا يعتبر لذلك النوويّ ما عرّج على كلامه، ولا اعتبره بالمرّة مع أنّ الغزالي من أصحاب الوجوه.

قال البيهقيّ: «إنه لا بدّ للدخول في الإسلام من الجمع بين النطق والاعتقاد ولا يكون الشخص مؤمنًا ولا مسلمًا إلا إذا جمع بينهما» اهـ. واحتجّ لهذا بالكتاب والسنّة والآثار الموقوفة على السلف فأما الكتاب فكقوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ [سورة البقرة/ ١٣٦] مع قوله: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [سورة الحجرات/ ١٤] فأمر من صدّق أن يقولوا ءامنّا بالله وأخبر أن

---

(١) **شرح صحيح مسلم** (١/ ٢١٢).

(٢) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب الإيمان: باب ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡ﴾، ومسلم في **صحيحه**: كتاب الإيمان: باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله.

القول العاري عن الاعتقاد ليس بإيمان.

ويشهد لصحّة ما ذهب إليه أئمّة أهل السنّة حديث رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي فإن شهدوا أن لا إله إلا الله وءامنوا بي وبما جئت به فقد عصموا منّي دماءهم إلا بحقها وحسابهم على الله**»[1] اهـ. وحديث: «**أمرت أن أقاتل النّاس حتى يقولوا لا إله إلّا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به**» اهـ رواه ابن حبّان. وفي هذه الرواية التصريح بشرط النطق، وهذا أصرح في شرط النطق من الروايات التي فيها «**يشهدوا**» ولكن الذين يقولون بقول الغزاليّ إذا أوردت عليهم هذا الحديث قد يقولون لك: الحديث بالنسبة للمقاتلة لأن الحديث فيه «**أمرت أن أقاتل الناس**» أي نحن بما أنه لا يظهر لنا حالهم إلا بالنطق نقاتلهم، وكلامنا فيما هو الحكم عند الله، فيقال لهم: الإجماع كافٍ في اشتراط النطق. ثم النبيّ ﷺ ما قال للناس: على الأقلّ صدّقوا بقلوبكم حتى تنجوا وإنما قال: قولوا حتى تنجوا. وحديث مسلمٍ أيضًا مرفوعًا: «**اذهب فمن لقيت يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه فبشّره بالجنة**» اهـ، فجعل ﷺ الجمع بين نطق اللسان وعقد القلب شرطًا للنجاة، وأما الآثار عن السلف فكحديث مجاهدٍ موقوفًا عليه أنه قال في قول الله تعالى: ﴿**إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ [سورة الزخرف/ ٨٦] قال شهد بالحقّ وهو يعلم أنّ الله ربّه» اهـ. وقال محبّ الدين الطبريّ في كتابه «غاية الإحكام في أحاديث الأحكام»: «مذهب أهل السنّة سلفهم وخلفهم أن الإيمان بالقلب مرتبطٌ بالشهادتين لا ينجي أحدهما من النار دون الآخر» اهـ. وقال القاضي عياضٌ: «ومذهب أهل السنّة أن المعرفة مرتبطةٌ بالشهادتين لا تنفع إحداهما ولا تنجي من النار دون الأخرى إلا لمن لم يقدر على الشهادتين

---

(١) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب الإيمان: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾، ومسلم في **صحيحه**: كتاب الإيمان: باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله.

لآفةٍ بلسانه أو لم تمهله المدة ليقولها بل اخترمته المنيّة» اهـ، ونقله عنه النوويّ في «شرح مسلم» وأقرّه. وقال في هذا الشرح أيضًا عند شرحه لحديث «**اذهب بنعليّ هاتين فمن لقيت وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه فبشره بالجنة**»[1] إنّ في هذا دلالةً ظاهرةً لمذهب أهل الحق أنه لا ينفع اعتقاد التوحيد دون النطق ولا النطق دون الاعتقاد بل لا بد من الجمع بينهما» اهـ. وفي «شرح مختصر خليل» للخرشيّ من المالكية: «إنه لا يصحّ الإسلام قبل النطق بالشهادتين إلا لعجزٍ» اهـ.

والعجب من بعض المتأخرين بعد ما تقدّم من النصوص الصريحة والنقول الواضحة يزعم بأن التحقيق أن من صدّق بقلبه ولم ينطق بلسانه فهو مؤمن عاصٍ، وربما نسب هذا القول إلى الجمهور أو جمهور الأشاعرة وهو وهمٌ، وأي تحقيق يدّعى في ذلك وهو على خلاف الكتاب والسنّة والإجماع.

تنبيه:

المراد بقوله ﷺ: «**حتى يقولوا لا إله إلّا الله**» أي ويقولوا أيضًا محمّدٌ رسول الله كما تدلّ عليه الروايات الأخرى، وإنما ذكرت الشهادة الأولى فقط لما علم من أن ذكرها يتضمّن في عرف الشرع ذكر الثانية أيضًا كما أخرج الشيخان عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنه قال قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبلٍ حين بعثه إلى اليمن: «**إنّك ستأتي قومًا أهل كتابٍ فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّدًا رسول الله فإن هم أطاعوا**[2] **لك بذلك فأخبرهم أنّ الله فرض عليهم خمس صلواتٍ في كل يومٍ وليلةٍ**»اهـ. قال الحافظ ابن حجرٍ في فتح الباري: «واستدلّ به على أنّه لا يكفي في الإسلام الاقتصار على شهادة أن

---

(١) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب الإيمان: باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار.

(٢) أي نطقوا بذلك.

لا إله إلّا اللَّه حتى يضيف إليها الشّهادة لمحمّدٍ ﷺ بالرسالة -النبيّ ﷺ جعل أمرهم بالصلاة مشروطًا بنطقهم بالشهادتين كلتيهما - وهو قول الجمهور وقال بعضهم يصير بالأولى مسلمًا ويطالب بالثانية» اهـ. أي يطلب منه الحاكم أن ينطق بالثانية. قالوا ومن عجز عن النطق بحرف الحاء فقال أشهد أن «مهمّدًا رسول اللَّه» بالهاء يقال له قل أشهد أن أبا القاسم رسول اللَّه إذ هو مطالبٌ بهذه الشهادة قادرٌ على الإتيان بها بهذا اللفظ الذي هو صنو -مثل- اللفظ المعجوز عنه، وقال بعضهم إنه لو تلفّظ بالقاف معقودةً كما يلفظها أهل اليمن صحّ تشهّده بذلك كما يفيده كلام الرمليّ في شرحه على المنهاج والقاضي زكريّا في «أسنى المطالب» في مبحث قراءة الفاتحة في الصّلاة. وقال بعضٌ ءاخر لو قيل له أتشهد أن لا إله إلّا اللَّه وأن محمّدًا رسول اللَّه فقال نعم صحّ إسلامه. وهذا القول مقبول، فليس المراد أن في هذا خلافًا، ومما يشهد على هذا حديث الجارية: «**أتشهدين أن لا إله إلا اللَّه وأنّي رسول اللَّه**» قالت نعم، فحكم عليها الرسول ﷺ بالإسلام. وأما من أراد الدخول حالًا في الإسلام فعجز عن النطق لفجأة موتٍ أو علّةٍ فإنه يكون مؤمنًا عند اللَّه تعالى ولو لم ينطق لقول اللَّه تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [سورة البقرة/ ٢٦٨]. والخلاف المتقدم بين الجمهور والغزاليّ ومن تبعه هو في من لم تعرض عليه الشهادتان فيأبى، أما من عرضت عليه الشهادتان فأبى فهو كافرٌ اتفاقًا لما صحّ من أن النبيّ ﷺ عَرض ذلك على أبي طالبٍ فأبى مع معرفته بقلبه فلما توفّي جاء عليّ رضي اللَّه عنه إلى النبيّ ﷺ فقال إن عمّك الشيخ الضالّ قد مات وفي روايةٍ الشيخ الكافر فقال: «**اذهب فواره**» اهـ أي فادفنه رواه أبو داود ولذلك لم يختلفوا في كفر الآبي الممتنع.

الإيمان يزيد وينقص

قال المؤلف رحمه الله: وأنَّ الإيمان يزيدُ وينقصُ، والإيمانُ والإسلامُ واحدٌ، وكلُّ مسلمٍ مؤمنٌ.

الشرح: في هذه المسألة خلاف مشهور بين الحنفية وغيرهم فالحنفيّة قالوا الإيمان لا يزيد ولا ينقص اتّباعًا للنصّ المنقول عن إمامهم رضي الله عنه فقد قال رحمه الله في «الفقه الأكبر»[1]: «وإيمان أهل السماء والأرض لا يزيد ولا ينقص، والمؤمنون مستوون في الإيمان والتوحيد، متفاضلون في الأعمال» اهـ. وقصده بذلك أن أصل الإيمان أي حقيقته الذي هو التصديق في حدّ ذاته لا يزيد ولا ينقص لأنه إن نقص عن حدّه وعن أصله فليس هناك إيمان، ولا يزيد الأصل إنما يزيد وصفه، والآخرون من الشافعيّة وغيرهم لا سيّما أصحاب الحديث يقولون الإيمان يزيد وينقص وهو ما دلّت عليه ظواهر النصوص الكتاب والسنّة.

الدليل من الكتاب:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [سورة الأنفال/ ٢]. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [سورة ءال عمران/ ١٧٣]. قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [سورة التوبة/ ١٢٤]. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [سورة الفتح/ ٤].

---

(١) **الفقه الأكبر** (ص/ ٥٥).

الدليل من السنّة:

روى البخاريّ[1] عن أبي سعيدٍ الخدريّ قال خرج رسول الله ﷺ في أضحى أو فطرٍ إلى المصلَّى فمرّ على النساء فقال: «**يا معشر النّساء تصدّقن فإنّي أريتكنّ أكثر أهل النّار**» فقلن: وبم يا رسول الله؟ قال: «**تكثرن اللّعن وتكفرن العشير ما رأيت من ناقصات عقلٍ ودينٍ أذهب للبّ الرجل الحازم من إحداكنّ**» قلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال: «**أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل**» قلن: بلى، قال: «**فذلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تصلّ ولم تصم؟**» قلن: بلى، قال: «**فذلك من نقصان دينها**».

قال إسحاق بن إبراهيم بن هانئ: سألت الإمام أحمد عن الإيمان ما نقصانه قال: نقصانه قول النبيّ ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن**[2]».

روى البخاريّ[3] عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان**».

روى البخاريّ[4] عن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال: «**يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، ثم يقول الله تعالى: أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان**».

الدليل من أقوال العلماء:

أقوال الصحابة رضي الله عنهم في الإيمان:

---

(١) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب الحيض: باب ترك الحائض الصوم.

(٢) أي وهو كامل الإيمان.

(٣) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب الإيمان: باب أمور الإيمان.

(٤) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب الإيمان: باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال.

قول معاذ بن جبل لرجل: «اجلس بنا نؤمن ساعة»[١] يعني نذكر الله عزّ وجل.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: «الإيمان يزداد وينقص»[٢].

وقد ثبت هذا أيضًا عن ابن عباس وأبي الدرداء رضي الله عنهم كلهم قالوا: «الإيمان يزيد وينقص»[٣].

وعن عمير بن حبيب رضي الله عنه قال: «الإيمان يزيد وينقص، قيل له: ما زيادته ونقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله عزّ وجلّ خشيناه فذلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا وضيّعنا فذلك نقصانه»[٤].

وروى الآجري[٥] بسنده أنه قال لسفيان بن عيينة: «الإيمان يزيد وينقص؟ قال: أليس تقرؤون القرءان: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [سورة ءال عمران/ ١٧٣] في غير موضع، قيل: ينقص؟ قال: ليس شيء يزيد إلا وهو ينقص».

وقال سهل بن المتوكل رحمه الله تعالى: «أدركت ألف أستاذ أو أكثر كلّهم يقولون: الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص»[٦].

وعن الأوزاعي رحمه الله تعالى قال: «الإيمان قول وعمل ويزيد ينقص، فمن زعم أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص فاحذروه فإنه مبتدع»[٧].

---

(١) **شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة** (١٧٠٧).

(٢) **الشريعة** (ص/ ١١١).

(٣) **شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة** (١٧١٢).

(٤) **الشريعة** (ص/ ١١١).

(٥) **الشريعة** (ص/ ١١٧).

(٦) **شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة** (١٧٣٤).

(٧) **الشريعة** (ص/ ١١٧).

الخلاصة:

قال النوويّ[1]: مذهب جماهير السلف من المحدثين، وطائفة من المتكلمين، أنه يزيد بالطاعة، وينقص بالمعاصي، قال الله تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [سورة المدثر/ ٣١]، ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [سورة التوبة/ ١٢٤] ونظائر ذلك من الآيات الكريمة.

ومذهب جمهور أصحابنا والمتكلمين وغيرهم: أن نفس الإيمان لا يزيد ولا ينقص؛ لأنه متى قَبِلَ الزيادة كان شكًا وكفرًا.

وقالت طائفةٌ من أصحابنا: إن نفس الإيمان لا يزيد ولا ينقص؛ ولكن يزيد بمتعلّقاته وثمراته، وعليه حملوا الآيات والأحاديث وكلام السلف المصرّحات بزيادة.

والمختار أن نفس التصديق يزيد وينقص، لا نقص تردد وشك؛ بل زيادته بمعنى بُعدِه عن قبول الشك، والتزلزل والشبهة. ونقصه إمكان تطرق ذلك إليه بشبهة، ولا يشك عاقل في أن إيمان أبي بكر الصديق رضي الله عنه كان أرسخَ من إيمان ءاحاد الناس» اهـ. فالخلاف في هذه المسألة حقيقيّ عند بعض العلماء ولفظيّ عند بعضهم.

والإيمان والإسلام واحدٌ:

الإيمان والإسلام باعتبار الاعتداد بهما هما شيء واحد، لأن الإيمان هو التصديق القلبيّ والإسلام هو الاعتراف باللسان بوحدانيّة الله وإلهيّته ورسالة نبيّه محمد ﷺ، ولا يكون أحد المفهومين مقبولا معتبرًا عند الله إلا باجتماع الأمرين فإذا اجتمع التصديق القلبيّ والاعتراف باللسان يصيران معتدًّا بهما، وإلا فلا يعتدّ بأحدهما دون الآخر وبالنظر لهذه الحيثيّة فهما واحد، أما باعتبار المفهوم اللغويّ فهما متغايران، لأن مفهوم الإيمان اللغويّ هو التصديق ومفهوم

(١) فتاوى النووي (ص/ ٢٦٨).

الإسلام هو الانقياد هذا أصل الإيمان والإسلام من حيث المفهوم اللغويّ.

فالإسلام والإيمان الشرعيان متلازمان لا يقبل أحدهما بدون الآخر وإن كانا مختلفين من حيث معنياهما الأصليان، أي من حيث مفهوم الإسلام والإيمان، فالمراد أنهما متلازمان لا أنهما مترادفان، فقد قال أبو حنيفة رضي الله عنه في الفقه الأكبر[1]: «لا يكون إيمان بلا إسلام ولا إسلام بلا إيمان فهما كالظهر مع البطن» اهـ وعبارة أبي حنيفة تؤيّد أنهما متلازمان وليسا مترادفين. فكما أن الظهر لا ينفصل عن البطن مع أنهما مختلفان فكذلك الإيمان لا ينفصل عن الإسلام والإسلام لا ينفصل عن الإيمان، فمن ءامن بما جاء به الرسول ﷺ وصدّق ذلك بالنطق بالشهادتين بلسانه فهو مسلم مؤمن إن مات على ذلك لا بدّ أن يدخل الجنة.

أما معظم الإيمان ومعظم الإسلام، أي معظم أمورهما فالإسلام خمسة أشياء وهي ما ذكر في حديث جبريل وذلك قوله ﷺ: «**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا**» رواه مسلم[2].

والإيمان مفسّر بستّة أشياء قال ﷺ جوابًا لجبريل[3]: «**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره**»، ولا يشترط اجتماع هذه الأشياء استحضارًا بالقلب وعملا بالبدن لحصول أصل الإيمان والإسلام بل يكون الرجل مؤمنًا مسلمًا بالشهادتين، وقول الفقهاء أركان الإسلام خمسة معناه معظم أموره ليس معناه أن الإسلام تتوقف صحته على فعل الأمور الخمسة بل يحكم بالإسلام لمجرّد الشهادتين.

---

(١) **الفقه الأكبر** (ص/ ٥٨).

(٢) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب الإيمان: الباب الأول منه.

(٣) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب الإيمان: باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان.

وأما قول الله عزّ وجلّ ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [سورة الحجرات/ ١٤] فالمراد بأسلمنا فيه الإسلام اللغويّ الذي هو الانقياد لا الشرعيّ. ومعنى ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ﴾ أي: بعض الأعراب ءامنّا، نزلت في نفر من بني أسد، قدموا المدينة في سنة جدبة، فأظهروا الإسلام، ولم يؤمنوا في السر، وأفسدوا طرق المدينة بالعذرات، وأغلوا أسعارها، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ: أتيناك بالأثقال والعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، وهم يريدون الصدقة، ويقولون: أعطنا، ويمنّون بإسلامهم.

قل لهم: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ لم تصدّقوا بقلوبكم ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾، فالإيمان هو التصديق بالقلب مع الإذعان به، والإسلام هو الدخول في السّلم، والخروج من أن يكون حربًا للمؤمنين بإظهار الشهادتين ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ فهو يدلّ على أن مجرد النطق بالشهادتين ليس بإيمان، فتحصّل أن ما يكون من الإقرار باللسان من غير مواطأة للقلب فهو إسلام، وما واطأ فيه القلب اللسان فهو إيمان، وهذا من حيث اللغة، وأما في الشرع فهما متلازمان، فلا إسلام إلا مع إيمان، ولا إيمان إلا مع النطق بالشهادة إلا لعذر.

قال أبو حيّان[1] في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [سورة الحجرات/ ١٤] ما نصّه: «فهو اللفظ الصادق من أقوالهم وهو الانقياد والاستسلام ظاهرًا» اهـ.

وقال القرطبيّ[2]: «ومعنى ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [سورة الحجرات/ ١٤] أي استسلمنا خوف القتل والسبي وهذه صفة

---

(١) **تفسير النهر الماد** (مجلد ٣ – القسم الثاني ص/ ٩٨٢).

(٢) **الجامع لأحكام القرءان** (١٦/ ٣٤٨).

المنافقين» اهـ فليس في هذه الآية أن هؤلاء الأعراب كانوا مسلمين حقيقة غير مؤمنين.

فائدة:

إذا وجد من العبد التصديق والإقرار صحّ له أن يقول أنا مؤمنٌ حقًّا، لأنه تحقق فيه معنى الإيمان الذي هو التصديق من غير اقتران بما ينافيه.

وإن كان قصده بقوله أنا مؤمن إن شاء الله التأدبَ وإحالة الأمور إلى مشيئة الله أو لأنه لا يأمن أن تتغيّر عاقبته إلى غير ما هو عليه الآن أو للتبرك بذكر الله أو للابتعاد عن تزكية نفسه أو الإعجاب بحاله فالأولى تركه لأنه يوهم الشكّ.

وقد ذكر بعض المؤلفين حديث حارثة بن مالك دليلًا على هذا وهذا الحديث في إسناده ضعف، فيه راو ضعيف ليس ضعفًا شديدًا لكنه مشهور عند الصوفيّة وفيه أنه قال الرسول ﷺ له: «**كيف أصبحت يا حارثة**» قال «أصبحت مؤمنًا حقًّا» إلى ءاخره[1]، رواه ابن أبي شيبة وتمامه فقال: «**انظر ما تقول فإن لكل قول حقيقة**» فقال عزفت نفسي عن الدنيا أسهرت ليلي وأظمأت نهاري فكأني بعرش ربّي بارزا وكأني بأهل الجنة يتزاورون فيها وكأني بأهل النار يتعاوون فيها قال: «**عرفت فالزم عبدٌ نوّر الله الإيمان في قلبه**» اهـ.

هذا ولم يقل أحد من علماء الإسلام بتحريم قول «أنا مؤمن» فليحذر ما في كتاب إحياء علوم الدين للغزاليّ من قوله[2]: «وفي الحديث[3] من قال أنا

---

(١) رواه العقيلي في **الضعفاء** (٤/ ٤٥٥)، قال العقيلي: «ليس لهذا الحديث إسناد يثبت» اهـ.

(٢) **إحياء علوم الدين بهامش إتحاف السادة المتقين** (٢/ ٢٧٦).

(٣) للحافظ السيوطي رسالة نفيسة في إبطال هذا الحديث ذكرها في كتابه **الحاوي للفتاوى** (٢/ ٤٥) سمّاها «أعذب المناهل في حديث من قال أنا عالم فهو جاهل».

مؤمن فهو كافر ومن قال أنا عالم فهو جاهل» اهـ، وهذا كذب على الرسول فإن الرسول لا يقول «من قال أنا مؤمن فهو كافر»، ولا يقول «من قال أنا عالم فهو جاهل».

وهذا الحديث متداول بين الصوفية[1] وفيه أن الرسول لم ينكر على حارثة قوله: «أصبحت مؤمنا حقًّا» فكيف هذا الحديث الذي فيه ضدّ ما عليه الصوفيّة وغيرهم هذا تكفير للمسلم بغير سبب وهذا أمر عظيم لأن فيه إخراج المسلم من الإسلام من غير سبب. ثم هذا الحديث وإن كان راو من رواته٢ ضعيفًا ضعفًا خفيفا فهو في فضائل الأعمال يُعمل به وهذا مقرر عند المحدّثين ومعناه صحيح، بل قول المؤمن: «أنا مؤمن» مما علم من الدين جوازه بالضرورة.

تنبيه:

ذكر العلماء أن كتاب «الإحياء» لا يعتمد عليه في الحديث لذكره في كتابه المذكور جملة من الأحاديث الموضوعة وهي نحو ثلاثمائة حديث. قاله تاج الدين السبكيّ وسردها في بعض مؤلفاته فلتنظر «طبقات الشافعيّة الكبرى» له[3].

---

(١) قال الحافظ الفقيه تقي الدين السبكي في بعض **رسائله**: «وهذا الحديث يذكره الصوفية كثيرا وهو مشهور عندهم وإن كان في سنده ضعف من جهة يوسف بن عطية، وهو شاهد لأمرين أحدهما جواز إطلاق أنا مؤمن من غير استثناء» اهـ، نقله عنه الحافظ الزبيدي في **الإتحاف** (٢/ ٢٨٠).

(٢) روه الطبراني في **المعجم الكبير** (٣/ ٢٦٧-٢٦٦)، والبزار في مسنده انظر **كشف الأستار** (١/ ٢٦)، قال الحافظ الهيثمي في **مجمع الزوائد** (١/ ٥٧): «رواه الطبراني في **الكبير** وفيه ابن لهيعة وفيه من يحتاج إلى الكشف عنه» اهـ، وقال: «رواه البزار وفيه يوسف بن عطية لا يحتج به» اهـ.

(٣) **طبقات الشافعية** (٦/ ٢٨٩-٢٨٧).

قال الشيخ عبد الوهاب الشعرانيّ ما نصّه[1]: «قال الإمام العلامة عمر ابن محمد الإشبيليّ الأشعريّ رضي الله عنه في كتابه المسمى بـ«لحن العوام»[2]: «وليحذر من العمل بمواضع من كتاب الإحياء للغزاليّ ومن كتاب «النفخ والتسوية» له وغير ذلك من كتب الفقه فإنها إما مدسوسة عليه أو وضعها أوائل أمره ثم رجع عنها كما ذكره في كتابه «المنقذ من الضلال»» اهـ.

الإيمان بما بعد الموت

قال المؤلف رحمه الله: وأنَّ عذاب القبر حقٌّ، وأنَّ منكرًا ونكيرًا حقٌّ، وأنَ سؤالهما حقٌّ، وأنَّ البعث حقٌّ، والعرض حقٌّ، والحساب حقٌّ، وأنَ الجنة ونعيمها حقٌّ، والنار وعذابها حقٌّ.

الشرح: النبيّ صادق في كل ما أخبر به. وجميع ما صح عن الرسول ﷺ من الشرع والبيان كلّه حقّ، فيجب الإيمان به، قال الشيخ أحمد المرزوقي:

وكل ما أتى به الرسول فحقه التسليم والقبول

الإيمان بعذاب القبر وسؤاله:

قال الله تعالى: ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾ [سورة غافر/ ٤٦]. وقال تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا ﴾ [سورة طه/ ١٢٤]. فهاتان الآيتان واردتان في عذاب القبر للكفار.

وأما عصاة المسلمين من أهل الكبائر الذين ماتوا قبل التوبة فهم صنفان

---

(١) **لطائف المنن والأخلاق** (ص/ ٣٩٤).

(٢) **المختار من لحن العامة** (ص/ ٥٨-٥٧).

صنف يعفيهم الله من عذاب القبر وصنف يعذّبهم ثم ينقطع عنهم العذابُ ويؤخَّر لهم بقيّةُ عذابهم إلى الآخرة، فقد روى البخاريّ ومسلم والترمذيّ وأبو داود والنسائيّ عن ابن عباس[1] مرّ رسول الله ﷺ على قبرين فقال: «**إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير إثم**»، قال: «**بلى أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستتر**[2] **من البول**»، ثم دعا بعسيب رطبٍ فشقّه اثنين فغرس على هذا واحدًا وعلى هذا واحدًا ثم قال: «**لعله يخفّف عنهما**».

ومن عذاب القبر عرض النار على الكافر كلّ يومٍ مرّتين مرّةً أوّل النهار ومرّةً ءاخر النهار يتعذّب بنظره ورؤيته لمقعده الذي يقعده في الآخرة، وتضييق القبر عليه حتى تختلف أضلاعه، فالأضلاع التي في إحدى الجهتين تدخل في الأضلاع التي في الجهة الأخرى[3]، وبعض الناس يسلّط عليهم الثعابين، وبعض الناس يأتيهم ريح جهنّم إلى القبر، وكذلك من عذاب القبر الانزعاج من ظلمة القبر ووحشته، وضرب منكرٍ ونكيرٍ للكافر بمطرقةٍ بين أذنيه[4]؛ ويشمل ذلك ما يحصل لبعض عصاة المسلمين الذين ماتوا بلا توبةٍ لا لجميعهم مما هو دون ما يحصل للكافر كضغطة القبر حتى تختلف أضلاعه فهذه الضغطة تحصل لبعض عصاة المسلمين، أما الأتقياء والشهداء والأطفال فلا تحصل لهم. فما يتوهّمه بعض الناس من أن القبر يضيّق على كل أحدٍ في البداية ثم يوسّع على

---

(١) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب الجنائز: باب عذاب القبر في الغيبة والبول، ومسلم في **صحيحه**: كتاب الطهارة: باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه، وأبو داود في **سننه**: كتاب الطهارة: باب الاستبراء من البول، والترمذي في **سننه**: كتاب أبواب الطهارة: باب ما جاء في التشديد في البول، والنسائي في **سننه**: كتاب الطهارة: باب التنزه عن البول.

(٢) أي لا يستنزه.

(٣) **الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان** (٥/ ٤٨).

(٤) **الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان** (٥/ ٤٩).

المؤمن غير صحيحٍ، وهو لا يليق بكرامة المؤمن عند الله أي المؤمن التقيّ لأن بعض العصاة يحصل لهم ذلك برهةً من الزمن.

ولم يصحّ حديث لو نجا منها أحدٌ لنجا سعدٌ كما حكم بضعفه الحافظ ابن الجوزيّ في الموضوعات[1]، كيف وقد ورد في فضل سعدٍ «**اهتزّ العرش لموت سعد بن معاذٍ**» رواه البخاريّ[2]، فمن اهتزّ العرش لموته كيف يليق بمقامه أن يصيبه ضغطة القبر. وورد عن عائشة أنها قالت في حق سعدٍ[3]: «لم يكن في عشيرة بني الأشهل أفضل من سعد بن معاذٍ وأسيد بن حضيرٍ وعبّاد بن بشرٍ». وكان أسيد بن حضيرٍ رضي الله عنه لَمّا يقرأ القرءان أحيانًا تنزل الملائكة إليه من السماء. وكيف بعد كلّ هذا يقال عنه إنه كان لا يحترّز من البول، فهذا غير صحيحٍ[4].

ثم إن سعد بن معاذٍ كان من أكابر الأولياء والله يقول: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [سورة يونس/ ٦٢]. فحديث ضغطة القبر على سعد بن معاذٍ غير ثابتٍ وإن صحّحه بعض الحفّاظ، لأنه خلاف مضمون الآية المذكورة وخلاف رواية البخاريّ فإنه ليس فيها الضغطة على كل ميتٍ إنما المذكور فيها الكافر المعلن لكفره والمنافق الذي يخفي كفره. ومثله حديث ضغطة الصبيان فإنه لا يصحّ فالأحاديث المعمّمة لكل ميتٍ سوى الأنبياء لا تصحّ وهي تخالف الحديث الصحيح: «**الدّنيا سجن المؤمن وسنته فإذا فارق الدّنيا فارق السجن والسنّة**» رواه ابن حبّان[5]، قوله ﷺ: «**سجن المؤمن**» أي

---

(١) **الموضوعات** (٢/ ٢٣٢-٢٣٤).

(٢) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب مناقب الأنصار: باب مناقب سعد بن معاذ رضي الله عنه.

(٣) رواه الحاكم في **المستدرك** (٣/ ٢٢٩) وصححه ووافقه الذهبي.

(٤) **الموضوعات** (٣/ ٢٣٤).

(٥) رواه ابن حبان في **صحيحه**: كتاب الرقائق: باب الفقر والزهد والقناعة.

بالنسبة لما يلقاه من النعيم في الآخرة الدنيا كالسجن، وقوله ﷺ: «**وسنته**» أي دار جوعٍ وبلاءٍ. لأن هذا لا يتفق مع ضغطة القبر على المؤمن التقي، وما ذكر عن بعض التابعين أن تلك الضغطة كضمّة الأمّ لطفلها لا معنى له لأن ضغطة الأمّ لطفلها ليس فيها إيذاءٌ.

فائدة:

واعلم أنه ثبت في الأخبار الصحيحة عود الروح إلى الجسد في القبر كحديث البراء بن عازب الذي رواه الحاكم والبيهقيّ وأبو عوانة وصححه غير واحد[١] وحديث ابن عباس مرفوعًا «**ما من أحدٍ يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام**» رواه ابن عبد البرّ وعبد الحقّ الإشبيلي وصححه[٢]، فيستلزم ذلك رجوع الروح إلى البدن كله وذلك ظاهر الحديث أو إلى بعضه ويتأكد عود الحياة في القبر إلى الجسد في حق الأنبياء فإنه ورد من حديث أنس عن النبيّ ﷺ: «**الأنبياء أحياءٌ في قبورهم يصلّون**» صححه البيهقيّ[٣] وأقره الحافظ[٤]، وهذا ثابت لكل نبيّ[٥].

سؤل الملكين منكر ونكير:

روى البخاريّ ومسلم عن أنس[٦] عن النبيّ ﷺ: «**إن العبد إذا وضع في قبره**

---

(١) وهو حديث طويل فيه «**ويعاد الروح إلى جسده**».

(٢) **الاستذكار** (١/ ٢٣٤)، العاقبة (ص/ ١١٨)، **إتحاف السادة المتقين** (١٠/ ٣٣).

(٣) **حياة الأنبياء بعد وفاتهم** (ص/ ٢٧ - ٢٨).

(٤) **فتح الباري** (٦/ ٤٨٧).

(٥) وأما غيرهم من الصالحين فقد يحصل لبعضهم لكنه ليس عامًا كما حصل للتابعي الجليل ثابت البناني فقد شوهد في قبره بعد موته وهو يصلي نقل ذلك الحافظ ابن رجب الحنبلي في كتابه «**أهوال القبور**» (ص/ ٣٦) عن أبي نعيم.

(٦) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب الجنائز: باب ما جاء في عذاب القبر، ومسلم في=

وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان ما كنت تقول في هذا الرجل محمد؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعدًا من الجنة فيراهما جميعًا. وأما الكافر أو المنافق فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس فيه، فيقال: لا دريت ولا تليت، ثم يضرب بمطرقة من حديد بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين».

وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ ذكر فتّانَي القبر فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أتردّ علينا عقولنا يا رسول الله؟ قال: «**نعم كهيئتكم اليوم**»، قال: فبفيه الحجر.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا قبر الميت أو الإنسان أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر وللآخر النكير فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد؟ فهو قائل ما كان يقول. فإن كان مؤمنًا قال: هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله فيقولان له: إن كنا لنعلم أنك لتقول ذلك**[1]**، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعًا في سبعين ذراعًا**[2] **وينوّر له فيه فيقال له: نم، فينام كنوم العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك فإن كان منافقًا قال: لا أدري كنت أسمع الناس يقولون شيئًا فكنت**

= **صحيحه**: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها: باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه.

(١) سؤال الملكين للكافر «من ربك» وهما يعلمان أن سيقول «لا أدري»، لأنهما يعرفان أنه لا يقولها عن اعتقاد إنما يقولها عن دهشة أو يجيب مخبِرا عما كان يعتقده قبل الموت من غير أن يعتقده الآن أنه حق، وقولهما «إن كنا لنعلم» أي قبل أن تجيب أنك كنت على هذا الاعتقاد.

(٢) أي طوله سبعون وعرضه سبعون وذلك بذراع اليد وهي شبران.

أقوله، فيقولان له: إن كنا لنعلم أنك تقول ذلك ثم يقال للأرض التئمي عليه فتلتئم عليه حتى تختلف أضلاعه فلا يزال معذبًا حتى يبعثه الله تعالى من مضجعه ذلك».

والحديثان رواهما ابن حبان وصححهما[1]. ففي الأوّل منهما إثبات عود الروح إلى الجسد في القبر والإحساس. وفي الثاني إثبات استمرار الروح في القبر وإثبات النوم وذلك ما لم يبل الجسد.

وقد سمي الملكان منكرًا ونكيرًا لأن الذي يراهما يفزع منهما، وهما اثنان أو يكون هناك جماعة كلّ واحدٍ منهم يسمى منكرًا وجماعةٌ كلّ واحدٍ منهم اسمه نكيرٌ فيأتي إلى كلّ ميّتٍ اثنان منهم أحدهما من هذا الفريق والآخر من ذاك الفريق، ويحتمل أن يعطي الله لهؤلاء أشباحًا فيحضران إلى كلّ ميّتٍ بشبحين إما بالشبح الأصليّ وإما بالشبح الفرعيّ. قال الحليميّ[2]: «إن الأشبه أن يكون ملائكة السؤال جماعة كثيرة يسمى بعضهم منكرًا وبعضهم نكيرًا فيبعث إلى كل ميت اثنان منهم» اهـ. وكذلك عزرائيل يحتمل أنه يتطوّر إلى أشباحٍ كثيرةٍ ويقبض هذه الأرواح الكثيرة فلو أراد أن يقبض مائة ألف نفسٍ في ساعة واحدة يستطيع أن يحضر ويقبض هؤلاء الأرواح، ثم يتناول منه الملائكة إمّا ملائكة الرحمة وإمّا ملائكة العذاب[3] ولا يتركون الروح في يد عزرائيل بعدما يقبضها طرفة عينٍ فيذهبون بها إلى السماء إن كانت الروح مؤمنةً، وإن كانت الروح كافرةً فإلى الأرض السابعة بعد أن يرفعوها إلى الجوّ ويمروا بجمع من الملائكة فيجدوا لهذه الروح رائحة خبيثة فيقولون: روح من هذه؟ فيقولون: روح فلان ثم لا يفتح لها باب السماء فتطرح وتؤخذ إلى سجّين[4].

---

(١) **الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان** (٥/ ٤٧-٤٨).

(٢) **المنهاج في شعب الإيمان** (١/ ٤٨٩).

(٣) ملائكة الرحمة منظرهم جميلٌ، أمّا ملائكة العذاب فمنظرهم مخيفٌ.

(٤) رواه أحمد في **مسنده** (٤/ ٢٨٧-٢٨٨).

تنبيه:

ما جاء في الحديث أن منكرًا ونكيرًا يقولان للمقبور: «**ما كنت تقول في هذا الرجل محمد**» أي في محمّدٍ ﷺ يسمّيان الرسول باسمه من غير أن يكون الرسول شاهدًا حاضرًا للسؤال. بعض أهل الغلوّ يدّعون أن الرسول بذاته يحضر يكون شاهدًا وهذا لا أساس له إنما هي إشارةٌ إلى المعهود ذهنًا، فيقول الرجل ما كان يقوله قبل الموت، المسلم قبل الموت كان يقول «عبد الله ورسوله» فيقول ذلك ويقرنه بالشّهادة فيقول «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمّدًا رسول الله»، الله تعالى يلهمه ويقدره على الجواب، كلّ مسلمٍ يجيب بذلك إنما الذي لا يستطيع الجواب هو الذي ينكر ويجزم بنفي رسالة سيّدنا محمّدٍ ﷺ أو مات على الشكّ فيها، الكافر المعلن والمنافق كلاهما يقولان: كنت أقول ما يقول الناس.

ثم إن المؤمن التقيّ يوسَّع قبره سبعين ذراعًا طولًا في سبعين ذراعًا عرضًا وذلك بذراع اليد وهي شبران تقريبًا، وبعضهم أكثر من ذلك كما حصل للعلاء بن الحضرميّ الصحابيّ الجليل الذي كان من أكابر الأولياء فإنه اتسع قبره مدّ البصر شاهدوا ذلك لما نبشوا القبر ليدفنوه في مكانٍ ءاخر لأن المكان الذي دفنوه به كثير السباع[1]. وينوّر قبر المؤمن التقيّ ويفتح له في قبره بابٌ إلى الجنة فيأتيه نسيمها، ويملأ عليه خضرًا أي يوضع في قبره من نبات الجنة الأخضر. ثم إنّ المؤمن التقيّ يقال له: نم، فينام كنوم العروس الذي لا يوقظه إلا أحبّ أهله إليه، أي لا يحسّ بقلقٍ ولا وحشةٍ. وهذا النعيم للمؤمن التقيّ وهو الذي يؤدّي الفرائض ويجتنب المعاصي وهو الذي قال رسول الله ﷺ فيه: «**الدنيا سجن المؤمن وسنته فإذا فارق الدنيا فارق السجن والسنّة**» حديث صحيح أخرجه ابن حبان[2]، يعني المؤمن الكامل.

---

(١) **دلائل النبوة** (٦/ ٥٣).

(٢) رواه ابن حبان في **صحيحه**: كتاب الرقائق: باب الفقر والزهد والقناعة.

وهذا كلّه حقيقيٌّ ليس وهمًا لكنّ الله يحجب ذلك عن أبصار الناس أي أكثرهم، أما أهل الخصوصيّة من عباد الله الكاملين فيشاهدون.

فائدة:

قال الحافظ اللغويّ الفقيه محمد مرتضى الزبيدي بعد كلام ما نصه[1]: «ويقرب من ذلك ما رواه مالك في الموطأ وأحمد والنسائيّ[2] بسند صحيح عن كعب بن مالك رفعه: «**إنما نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعث**»، وروى أحمد والطبرانيّ[3] بسند حسن عن أم هانئ أنها سألت رسول الله ﷺ: أنتزاور إذا متنا ويرى بعضنا بعضًا؟ فقال ﷺ «**تكون النسم طيرًا تعلق بالشجر حتى إذا كان يوم القيامة دخلت كل نفس في جسدها**» اهـ.

ثم إذا بلي الجسد كلّه ولم يبق إلا عَجْبُ الذَّنَبِ[4] يكون روح المؤمن التقيّ في الجنة وتكون أرواح عصاة المسلمين أهل الكبائر الذين ماتوا بلا توبة بعد بلى الجسد فيما بين السماء والأرض وبعضهم في السماء الأولى. وتكون أرواح الكفار بعد بلى الجسد في سجين وهو مكان في الأرض السفلى.

المؤمن التقيّ هو في نعيمٍ أينما دُفن ولو دُفن وسط الكفّار وقد يسخّر الله

---

(١) **إتحاف السادة المتقين** (١٠/ ٣٨٧).

(٢) رواه مالك في **الموطإ**: كتاب الجنائز: باب جامع الجنائز، والنسائي في **سننه**: كتاب الجنائز: باب أرواح المؤمنين، وأحمد في **مسنده** (٣/ ٤٥٥).

(٣) رواه أحمد في **مسنده** (٣/ ٤٥٥ و٤٥٦)، والطبراني في **المعجم الكبير** (١٩/ ٦٤) كلاهما بنحوه.

(٤) عجب الذنب لا يبلى ولو سلط عليه نار شديدة، وهو عظم صغير قدر حبّة خردلة، وقد ورد في الصحيح: «منه خُلق الإنسان وعليه يُركَّب» أي أنّ سائر العظام تركب على هذا العظم الصغير.

له من الملائكة من ينقله من المكان الذي هو فيه إلى المكان الذي يحبّ أن يدفن فيه.

تنبيه:

يستثنى من السؤال الأنبياء والشهداء – أي شهداء المعركة – وكذلك الطفل. فالشهداء الذين ماتوا وهم يقاتلون في سبيل الله خصّهم الله بمزايا عديدةٍ منها أنهم لا تبلى أجسادهم وتصعد أرواحهم فورًا إلى الجنة، وقد ورد في الحديث الذي رواه مسلمٌ وغيره[1]: «**أرواحهم في جوف طيرٍ خضرٍ لها قناديل معلقةٌ بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل**»، والمعنى أنه قبل يوم القيامة يخلق الله أجسادًا تكون بصورة طيورٍ وأرواحهم تكون في حَوْصَلة هذه الطيور يطيرون في الجنة ويأكلون من ثمارها، أما يوم القيامة فكلّ واحدٍ منهم يأخذ متبوّأه الخاصّ، لا يدخلون في حواصل الطّيور التي في الجنة.

حكم منكر عذاب القبر:

ويكفر منكر عذاب القبر لقول الله تعالى في صفة ءال فرعون ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [سورة غافر/ ٤٦] ولو كان المراد بالأوّل عذاب النار لما ورد القيامة بعده بالذكر، وقد ورد في معنى إحياء الموتى في القبور ما لا يحصى من الآي والأخبار والآثار حتى لا يوجد موافق ولا مخالف إلا وهو يقرأ في التشهد: ربنا ءاتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا برحمتك عذاب القبر وعذاب النار. وقد قال الرسول ﷺ: «**اللهم إني أعوذ بك من فتنة النار ومن عذاب النار،**

---

(١) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب الإمارة: باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة، وأبو داود في **سننه**: كتاب الجهاد: باب في فضل الشهادة.

وأعوذ بك من فتنة القبر، وأعوذ بك من عذاب القبر» رواه البخاريّ[1]. قال تعالى في صفة المؤمنين: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [سورة إبراهيم/ ٢٧] وقوله تعالى خبرا عنهم: ﴿ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا ﴾ [سورة غافر/ ١١] وأراد به الإماتة عند الخروج من الدنيا والإحياء في القبر ثم الإماتة في القبر، ثم الإحياء يوم الحشر والنشر، ولا يمكن حمله على الإحياء الأوّل بعد أن كان مواتا، لأن الإحياء إنما يستعمل بعد وجود الموت، والمواتيّة لا تسمى موتا في عرف أهل اللغة. ولا ينكر ما استفاض به الإخبار ونطقت به الآيات من الإحياء في القبر إلا من ينكر عموم قدرة الله تعالى ومن أنكر عموم قدرته سبحانه وتعالى كان خارجا عن زمرة أهل الإسلام. بخلاف منكر سؤاله فلا يكفر إلا أن يكون على وجه العناد كأن عرف بأن الرسول ﷺ أثبت ذلك ومع ذلك أنكره.

تنبيه:

ورد في الحديث الذي اتفق على إخراجه البخاريّ ومسلم عن عائشة رضي الله عنها أن يهوديّة جاءت تسألها[2] فقالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر[3]. فسألت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ: أيعذَّب الناسُ في قبورهم؟؛ هنا اختلفت الروايات في جواب النبيّ ﷺ، فجاء في رواية أن النبيّ ﷺ قال لها: «**إنما تفتن يهود**»، ثم أُوحي إليه بأن العذاب حاصل لأمّته أيضًا فأخبر عائشة. فتوهّم بعض الناس من هذا أن النبيّ ﷺ أنكر عذاب القبر عن هذه الأمة أوّلًا، ثم أوحي إليه أن عذاب القبر ثابت في أمته فأخبر عائشة بذلك. هذا الكلام

---

(١) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب الدعوات: باب الاستعاذة من فتنة الغنى.

(٢) أي شيئا تعطيها.

(٣) دعاء من اليهودية على عادة السائل.

فاسد لأمور:

أوّلا: يوهم أن النبيّ ﷺ أفتى بغير علم وتكلم بهواه في الشرعيات، وهذا يصادم قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾.

ثانيا: فيه أن النبيّ ﷺ يُخطئ في الشرعيّات، وهذا يصادم قوله ﷺ: «**إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأي فإنما أنا بشر**» رواه مسلم[1].

وكل ذلك يؤدي إلى التشكيك بالنبيّ ﷺ ورفع الثقة عن كلامه.

ثالثا: يؤدّي إلى نسخ الأخبار؛ وذلك أن بعضهم قال إن النبيّ أُوحي إليه أنه لا عذاب في القبر في حقّ أمّته ثم أوحي إليه إثباته، قلنا: الكلام في أمر العقائد، والنسخ لا يدخل العقائد بالإجماع؛ نقله النحّاس في كتاب له في الناسخ والمنسوخ، ذلك لأن النسخ في الأخبار يؤدّي إلى الكذب، والكذب مستحيل على الشارع.

ومن هنا طعن الحافظ الإسماعيليّ في رواية للبخاري يوهم ظاهرها أن النبيّ أنكر عذاب القبر لهذه الأمة ثم أثبتها. ولكن بعض العلماء كالحافظ ابن حجر العسقلانيّ في شرحه على البخاريّ قال: «هذا الحديث له محمل صحيح وذلك أن يقال إن النبيّ ﷺ كان أوحي إليه ابتداء في عذاب القبر لليهود ولم يكن أوحي إليه في حقّ أمّته فأخبر عن اليهود وسكت عن أمّته، ثم لما جاءه الوحي عن أمّته أيضًا أعلم به.

ثم استشكل بعضهم ما ذكرنا بآية: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ وكذا بآية: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ إذ إنهما مكيتان والحادثة وقعت في المدينة. فأجيب: أن عذاب القبر إنما يؤخذ من الآية الأولى بطريق المفهوم في حقّ من لم يتصف بالإيمان، وكذلك بالمنطوق في الآية الأخرى في

---

(١) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب الفضائل: باب وجوب امتثال ما قاله شرعا دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي.

حق ءال فرعون؛ وإن التحق بهم من كان له حكمهم من الكفار، فالذي سكت عنه النبيّ ﷺ إنما هو وقوع عذاب القبر على الموحّدين، ثم أعلم ﷺ أن ذلك قد يقع على من يشاء الله منهم، فجزم به وحذر منه وبالغ في الاستعاذة منه تعليمًا لأمته وإرشادًا فانتفى التعارض بحمد الله تعالى» اهـ.

ويؤيد كلَّ ما ذكرناه ما جاء في رواية الحديث من كتاب سنن الشافعي رضي الله عنه من رواية الإمام الطحاويّ فإنه ورد فيه ما نصه[1]: «قال أخبرنا الطحاويّ قال حدثنا المزنيّ قال حدثنا الشافعيّ قال: وأخبرنا سفيان بن عيينة قال: سمعت يحيى بن سعيد يقول: سمعت عمرةَ ابنةَ عبد الرحمن تُحدِّث عن عائشة أنها قالت: أتتني يهوديّة فقالت: أعاذكِ الله من عذاب القبر. فذكرتُه للنبي ﷺ فقال كلمةً إليَّ كأنه لم يكن عنده فيها شيء» اهـ الحديثَ. فانتبه لقول أم المؤمنين عائشة: «فقال -تعني النبيّ ﷺ- كلمة إليّ كأنه لم يكن عنده فيها شيء» اهـ فهذا صريح فيما قلناه من أن النبيّ ﷺ لم يكن أوحي إليه في شأن عذاب أمته في القبر أوّلًا فسكت عنه ثم أوحي إليه فأخبر به وشهره؛ وبهذا يرتفع الإشكال ويتضح الصواب والله أعلى وأعلم.

البعث:

يجب الإيمان بأن الله يعيد الأبدان التي أكلها التراب إن كانت من الأجساد التي يأكلها التراب وهي أجساد غير الأنبياء وشهداء المعركة وبعض الأولياء، يعيدها كما كانت ثم يعيد الأرواح إلى أجسادها فتنشقّ القبور عنها فيحشرون.

والبعث يكون بأن يجمع أجزاءهم الأصلية ويعيد الأرواح إليها. ثم هل الأجزاء الأصلية لم تنعدم إنما زال اجتماعها فتفرقت أو انعدمت ثم أعيدت في ذلك كلام للعلماء، قال بكلٍّ قائلون من أهل السنّة، والموافق لظواهر النصوص أنها تنعدم ثم تعاد.

---

(١) **السنن المأثورة** (ص/ ١٤٢).

أوّل من ينشق عنه القبر سيدنا محمد ﷺ[1]، ويكون أهل مكة والمدينة والطائف من أوّل من يبعث ويشفع له[2]، وإنما قيل من أوّل من يبعث لأن الأنبياء هم أوّل من يبعث. والدليل على أن البعث حقّ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [سورة المؤمنون/ ١٦] وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [سورة الأنبياء/ ١٠٤] وقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [سورة يس/ ٧٩] وغير ذلك من النصوص القاطعة بحشر الأجساد. وأنكرت الفلاسفة حشر الأجساد فزعموا أن المعدوم لا يصح إعادته بعينه بعد عدمه وذلك أمر لا دليل لهم عليه يعتدّ به.

الحشر:

يجب الإيمان بالحشر وهو أن يجمعوا بعد البعث إلى مكان وهو الشام[3][4] أوّلًا ثم بعد ذلك تبدّل الأرض غيرها فينقلون إلى ظلمة عند الصراط ثم يعادون إلى الأرض المبدّلة وهي أرض بيضاء كالفضة مستوية[5] كالجلد المشدود لا جبال فيها ولا وديان أكبر وأوسع من أرضنا هذه.

ويكون الحشر على ثلاثة أحوال:

١- قسم طاعمون كاسون راكبون وهم الأتقياء.

٢- وقسم حفاة عراة وهم المسلمون من أهل الكبائر.

---

(١) رواه الترمذي في **سننه**: كتاب المناقب: باب في فضل النبي ﷺ.

(٢) **كشف الأستار** (٤/ ١٧٢)، قال الهيثمي في **مجمع الزوائد** (١٠/ ٣٨١): «رواه البزار والطبراني وفيه جماعة لم أعرفهم».

(٣) ذلك اليوم تُوَسّع أرض الشام.

(٤) رواه أحمد في **مسنده** (٣/ ٥)، والحاكم في **المستدرك** (٢/ ٤٤٠)، والطبراني في **المعجم الكبير** (١٩/ ٤٢٦).

(٥) **فتح الباري** (١١/ ٣٧٦-٣٧٥)، **إتحاف السادة المتقين** (١٠/ ٤٥٤-٤٥٥).

٣- وقسم يجرّون فيحشرون على وجوههم وهم الكفار كما يؤخذ من حديث أخرجه الترمذي[١].

وليس المعاد روحانيًّا فقط كما تزعم الفلاسفة وغيرهم. وهذه المسألة من جملة ما كفرت به الفلاسفة ومنهم فلاسفة منتسبون إلى الإسلام وهم في الحقيقة قد خرجوا من الإسلام كابن سينا ولذلك يسمّون الفلاسفة الإسلاميين كما يقال ذلك عن بعض أهل البدع المكفّرة مع انتسابهم إلى الإسلام.

تنبيهان:

الأول: قول بعض الناس إن كل الناس حتى الأنبياء يحشرون حفاة عراة غرلًا[٢] كفرٌ.

الثاني: يجب الإيمان بأن الروح بعد مفارقة الجسد تعود إلى الجسد الذي في القبر إلى أن يبلى الجسد ويبقى عَجْبُ الذنب الذي هو قدر خردلةٍ. فإن كان الميت مؤمنًا تقيًّا تصعد روحه إلى الجنة فتعيش في الجنة إلى قيام الساعة حين يعاد الجسد الذي أكله التراب فتعود الروح إليه. وأما الكافر فإذا بلي جسده تكون روحه في سجّين وهو مكان في الأرض السابعة. وأما المسلم العاصي فتكون روحه بعد البلى فيما بين السماء والأرض، ومنهم من يكون روحه في السماء الأولى إلا الشهيد فإنه تصعد روحه فورًا إلى الجنة ويُحفظ جسده من البلى فيعود إليه تعلق الروح يوم البعث تمامًا.

وزعم أهل التناسخ أن الإعادة إنما تكون برجوع الأرواح في أجساد مختلفة، وذلك كله في الدنيا وأن كل روح أحسنت في قالبها أعيدت في قالب يتنعم فيه،

---

(١) رواه الترمذي في **سننه**: كتاب التفسير: باب ومن سورة بني إسرائيل. وقال: «هذا حديث حسن».

(٢) قال ابن الأثير في **النهاية** (٣/ ٣٦٢): «الغُرْل: جمع الأغرل وهو الأقلف، والغرلة: القُلفة.

وكل روح أساءت في قالبها أعيدت في قالب يؤذيها، وزعموا أن أرواح الحيات والعقارب كانت قد أساءت في بعض القوالب فعذّبت في قوالب الحيات والعقارب، فيقال لهم هل تثبتون لكون الروح في القالب ابتداء لم يكن قبله في غيره، فإن قالوا لا، صاروا إلى قول الدهريّة القائلة بقدم الأجسام وقد تقدم إبطال القول بحوادث لا أوّل لها. وإن قالوا نعم، قيل فما أنكرتم أن ليس كون الروح الآن في هذا القالب جزاءً له على عمل كان قبل ذلك كما لم يكن كونها في القالب الأوّل جزاءً له على عمل قبل ذلك.

والعجب من إنكار أهل التناسخ قول المسلمين بأخذ الميثاق عليهم في الذّر الأوّل. وقالوا لهم لو كان ذلك صحيحًا لكنا نذكر. وهم يدّعون أن روح كل إنسان كانت فيما مضى في قالب ءاخر وعملت فيه طاعات أو معاصي فلحقها الجزاء في هذا القالب ولا يذكر ذلك أحد منهم ولا منا. فمن أجاز هذا وأنكر ذاك فإنما يسخر من نفسه.

والفرق بين عدم تذكرنا للميثاق الذي أخذ علينا يوم «ألست بربكم» وبين ما يدعونه أن الأجسام كانت لم تخلق بعد يوم «ألست» فلما التبست الأرواح بالأجساد نسيت معلومها. وأما على قول أهل التناسخ فقد كانت الأرواح ملتبسة بالأجساد فكيف تنسى جميع معلوماتها؟!

الحساب:

يجب الإيمان بالحساب قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [سورة التكاثر/ ٨] وهو عرض أعمال العباد عليهم، ويكون بتكليم الله للعباد جميعهم فيفهمون من كلام الله السؤال عما فعلوا بالنعم التي أعطاهم الله إياها فيسرّ المؤمن التقيّ ولا يسرّ الكافر لأنه لا حسنة له في الآخرة بل يكاد يغشاه الموت فقد ورد في الحديث الصحيح: «**ما منكم من أحدٍ إلا وسيكلّمه الله يوم**

القيامة ليس بينه وبينه ترجمانٌ» رواه الشيخان وغيرهما[1].

ومما يدلّ على الحساب أيضًا قوله ﷺ: «**إن الله يدني**[2] **المؤمن يوم القيامة فيضع عليه كنفه وستره**[3] **فيقول: أتعرف ذنب كذا فيقول: نعم أي رب حتى قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك قال الله تعالى: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته. وأما الكافر والمنافقون، فيقول الأشهاد:** ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ رواه البخاريّ[4]. والمراد بالظالمين الكفار لأن الكفر هو أعظم الظلم وما سواه بالنسبة له كأنه ليس بظلم. ويكون الحساب يوم القيامة كما تقدّم بسماع كلام الله الذي ليس حرفًا ولا صوتًا، يسمع البشر والجن المسلمون وغير المسلمين ذلك الكلام فيفهمون عن أيّ شيء يسألهم ثم ينتهي من حسابهم في وقت قصير في ساعة وذلك معنى قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ

---

(١) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب الرقاق: باب من نوقش الحساب عذب، وكتاب **التوحيد**: باب ما يُذكر في الذات والنعوت وأسامي الله، ومسلم في **صحيحه**: كتاب الزكاة: باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار، والترمذي في **سننه**: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع: باب في القيامة، وأحمد في **مسنده** (٤/ ٣٧٧)، والبيهقي في سننه (٤/ ١٧٦)، والطبراني في **المعجم الكبير** (١٧/ ٨٢-٨٣).

(٢) دنو العبد من ربه بالقرب من رحمة ربه وهو سائغ في اللغة يقال فلان قريب من فلان ويراد به الرتبة ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

(٣) قال ابن حجر في **فتح الباري**: «كنفه بفتح الكاف والنون بعدها فاء المراد بالكنف الستر وقد جاء مفسرا بذلك في رواية عبد الله بن المبارك عن محمد بن سواء عن قتادة فقال في آخر الحديث قال عبد الله بن المبارك كنفه ستره أخرجه المصنف في كتاب **خلق أفعال العباد** والمعنى أنه تحيط به عنايته التامة» اهـ. (١٣/ ٤١٠)

(٤) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب المظالم: باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾ [سورة الأنعام/ ٦٢] لأنه لو كان يكلمهم بكلام هو حرف وصوت ما كان أسرع الحاسبين لأنه يحاسب الجن والإنس، والبشر كثيرون جدًّا ويأجوج ومأجوج أكثر من سائر البشر عددًا والجن أكثر من البشر عددًا وأطول أعمارًا بكثير. ولا يكون الله تعالى في مكان عندما يسمعون كلامه لا في الأرض المبدلة ولا في غيرها من الأماكن لأنه سبحانه موجود بلا مكان كان ولا مكان وهو على ما عليه كان، وما يقوله بعض الناس عن يوم القيامة إنه يوم الوقوف بين يدي الله لا يريدون به إثبات المكان لله ولا أن الله يكون في الأرض والخلق حوله، لأن الله تعالى منزّه عن التحيز في مكان وعن الانتقال والحركة والسكون.

يقول الله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [سورة يس/ ٦٥] أي نمنعهم من الكلام. وصحّ في الحديث أنهم يجحدون ويخاصمون من شدّة اضطرابهم أنكروا قالوا نحن ما أشركنا، فتشهد عليهم جيرانهم وأهاليهم وعشائرهم فيحلفون بأنهم ما كانوا مشركين فحينئذٍ يختم على أفواههم وتتكلّم أيديهم وأرجلهم ثم هو يعود يذمّ أعضاءَه التي شهدت عليه بلسانه. وفي الحديث الذي رواه مسلمٌ[1] عن أنس بن مالك قال: «كنا عند رسول الله ﷺ، فضحك فقال: **هل تدرون مم أضحك؟** قال قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: **من مخاطبة العبد ربه، يقول: يا رب، ألم تُجِرْني من الظلم؟. قال: يقول: بلى. قال: فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدًا مني. قال فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا، وبالكرام الكاتبين شهودا. قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي. قال: فتنطق بأعماله**».

قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [سورة فصلت/ ٢١] الكفّار في حالٍ من الأحوال يوم القيامة يختم الله على أفواههم لأنهم كانوا أنكروا الكفر الذي كفروه من شدّة اضطرابهم

---

(١) رواه مسلم في **صحيحه**: في أول كتاب الزهد والرقائق.

فقالوا: نحن ما أشركنا، فمنع الله أفواههم من الكلام وأنطق جوارحهم وجلودهم فشهدت عليهم بما عملوا.

الآخرة دار العجائب والغرائب، الله تعالى يكشف ذلك اليوم أمورًا كانت مخفيّةً عن البشر في الدنيا، الأيدي تتكلّم يوم القيامة والأرجل تتكلّم يوم القيامة ولا سيّما بالنسبة للكفّار، الكفّار تشهد عليهم أيديهم وأرجلهم، ينكرون هم في وقتٍ من الأوقات عبادة الأوثان، يقولون نحن ما أشركنا بربّنا أي ما عبدنا غير ربّنا، أي غير الله، فيختم على أفواههم، تطبق أفواههم ولا تتكلّم فيكون الكلام للأيدي والأرجل، الأيدي والأرجل تشهد عليهم بما فعلوا، تشهد عليهم بأنهم ذهبوا إلى مكان كذا لعبادة غير الله ولإيذاء المسلمين وغير ذلك من الكفر والضلال والمعاصي، كذلك أيديهم تقول أنا قَتَلْتُ كذا من المسلمين، ضَرَبْتُ كذا من المسلمين وما أشبه ذلك.

ثم بعدما تشهد عليهم أيديهم وأرجلهم يردّ النطق للفم فينفضحوا، يردّ النطق للسان كما كان قبل ذلك ينطق، الآخرة دار العجائب والغرائب يظهر الله تبارك وتعالى كثيرًا من الأمور التي ما كانت تعرف في الدنيا. أما بالنسبة للمؤمن فالذنب الذي تاب المؤمن منه لا تشهد به عليه جوارحه، كأنه لم يكن، ثم بعض النّاس الله يجعل هذا اليوم الطويل لهم بمقدار تدلّي الشّمس للغروب إلى أن تغيب يعني نحو ساعةٍ تقريبًا.

الجنة والنار والدليل على أنهما قد خلقتا:

يجب الإيمان بالجنة ودوامها ونعيمها إلى غير نهاية، والنار ودوامها ودوام عقابها إلى غير نهاية. فالجنة أعدت للمتقين لإيمانهم على التأبيد، والنار أعدت للكافرين جزاءً لكفرهم على التأبيد، قال تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [سورة النبأ/ ٢٦]. لأن الدين يعتقد للأبد، وقد صرح الله في كتابه بذكر الخلود في جزاء الكافرين وجزاء المؤمنين فوجب القول ببقائهما إلى الأبد.

فالجنة والنار باقيتان أي دائمتان لا يطرأ عليهما عدم مستمرّ ولا غير

مستمرّ لقوله تعالى في حق الفريقين: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [سورة النساء/ ٥٧]. وأما ما قاله بعض المتصوّفة من أنهما يهلكان ولو لحظة تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [سورة القصص/ ٨٨] فهو مخالف لظاهر النص ولا داعي إلى الخروج عنه فإن قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ ليس نصًّا في أن المراد بالوجه الذات المقدّس بل الوجه هنا مؤول بالملك كما قاله البخاريّ في صحيحه في تفسير سورة القصص[1]، ويصح تأويله بأن المراد بوجهه كل ما يتقرّب به إليه من الحسنات.

ثم الجنة والنار مما ثبت بالدلائل السمعيّة لأن العقل لا يستقل بإدراك ذلك والآيات والأحاديث الواردة في بيانهما أشهر من أن تخفى وأكثر من أن تحصى، والمراد بإثباتهما عند أهل الحقّ وجودهما الآن أي أنهما مخلوقتان. قال الله تبارك وتعالى في الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة ءال عمران/ ١٣٣] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [سورة الأعراف/ ١٧٩]. وقال ﷺ: «**دخلت الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء**». رواه مسلم وأحمد والترمذيّ عن ابن عباس[2]، والبخاريّ والترمذيّ وغيرهما[3] من حديث عمران بن الحصين، وابن حبان عن أسامة بن

---

(١) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب التفسير: في أول تفسير سورة القصص.

(٢) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب الذكر والدعاء: باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء، والترمذي في **سننه**: كتاب صفة جهنم: باب ما جاء أن أكثر أهل النار النساء، وأحمد في **مسنده** (١/ ٢٣٤، ٣٥٩).

(٣) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب النكاح: باب كفران العشير، والترمذي في سننه: كتاب صفة جهنم: باب ما جاء أن أكثر أهل النار النساء، وأحمد (٤/ ٤٢٩، ٤٣٧، ٤٤٣).

زيد[1] وعبد الله بن عمرو[2]، وأحمد في مسنده عن أبي هريرة[3] كما يستدلّ على وجود الجنة بقصة ءادم وحواء وإسكانهما الجنة، وأما حمل ذلك على بستان من بساتين الدنيا فهو بعيد لا تقبله النصوص. فالمسلمون أجمعوا أن الجنة والنار موجودتان الآن وليس كما زعم أكثر المعتزلة أنهما تخلقان يوم الجزاء.

صفة الجنة:

لها ثمانية أبواب منها باب الرّيان الذي يدخل منه الصائمون، وشهيد المعركة يخيّر من أيّ أبواب الجنة يدخل، والجنة فوق السماء السابعة[4] منفصلة عنها بمسافة بعيدة ولها أرضها المستقلّة وسقفها عرش الرحمن كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه البخاريّ[5]: «**إذا سألتم الله**[6] **فسلوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرّحمن**». كما في الحديث الصحيح الذي رواه البيهقيّ، وقال تعالى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ [سورة النجم/ ١٥] أي سدرة المنتهى.

وقد صحّ الحديث[7] أن أهل الجنة على صورة أبيهم ءادم ستون ذراعا طولا في عرضِ سبعة أذرع حسان الوجوه فمن كان في الدنيا من المؤمنين دميما

---

(١) **الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان** (٩/ ٢٧٣).

(٢) **الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان** (٩/ ٢٨٥)، وأحمد في **مسنده** (٢/ ١٧٣).

(٣) رواه أحمد في **مسنده** (٩/ ٢٧٢).

(٤) كما في الحديث الصحيح الذي رواه البيهقي في **دلائل النبوة** (٦/ ٢٣٢).

(٥) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب **التوحيد**: باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾.

(٦) أي الجنة.

(٧) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب أحاديث الأنبياء: باب خلق ءادم وذرياته.

تذهب عنه دمامته ويجعله الله تعالى في الجنة جميلا كجمال يوسفَ الصدّيق[1] أي يعطيه شبها بيوسف الصدّيق في الجمال، والذي كان قصيرًا يذهَبُ عنه قصرُهُ وهكذا. ويجعل الله تعالى في كلّ واحد علامة تميّزه عن غيره أن هذا هو فلان حتى إن زاره من كان يعرفه في الدنيا يعرفه تلك الساعة، فإن أهل الجنة يتزاورون، وتزاورهم يحصل إما بأن يطير بالشخص سريره حتى ينزل به أمام سرير الذي يريد زيارته فيجلسان متقابلين لأنه من سهولة السير هناك السرير الذي عليه بمجرّد ما يشتاق الإنسان لصاحبه الذي يريد رؤيته يطير به بقدرة الله تعالى حتى ينزل به أمام سرير ذلك الشخص فيتجالسان فيتحدّثان، ثم يطير به إذا أراد الرجوع إلى منزله وهذا هو معنى الآية: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [سورة الصافات/ ٤٤].

وأما قوله تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ [سورة الغاشية/ ١٣] قال ابن عبّاس[2]: ألواحها من ذهب مكلّلة بالزبرجد والدرّ والياقوت مرتفعة ما لم يَجِئ أهلها، فإذا أراد أن يجلس عليها أصحابها تواضعت لهم حتى يجلسوا عليها، ثم ترتفع إلى موضعها، وأحيانًا يركبون خيولًا من ياقوت لها أجنحة من ذهب تطير بهم.

وأهل الجنة جردٌ مردٌ في عمر ثلاثة وثلاثين عامًا[3]، لا تنبت لهم لحية وليس على أذرعتهم ولا على بطونهم ولا على سيقانهم شعر إلا شعر الرأس والحاجب، طعامهم وشرابهم لا يتحوّل إلى الغائط والبول، إنما يفيض من جسمهم عرقًا كالمسك ليس كعرق الدنيا، عرق الدنيا يتولّد منه الوسخ والقمل.

---

(١) رواه الطبراني في **المعجم الكبير** (٢٠/ ٢٥٦ و٢٨٠ و٢٨١). قال الحافظ الهيثمي في **مجمع الزوائد** (١٠/ ٣٣٤): «رواه الطبراني بإسنادين وأحدهما حسن».

(٢) **معالم التنزيل للبغوي** (٥/ ٥٦٣)، **زاد المسير** لابن الجوزي (٩/ ٩٨).

(٣) رواه الترمذي في **سننه**: كتاب صفة الجنة: باب ما جاء في سن أهل الجنة. وقال: «هذا حديث حسن».

وقد روى مسلم[1] من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى منادٍ: إنّ لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإنّ لكم أن تصحّوا فلا تسقموا أبدًا، وإنّ لكم أن تشبّوا فلا تهرموا أبدًا، وإنّ لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا**»، وءاخر من يدخل الجنة من المؤمنين له مثل الدنيا وعشرة أمثالها وقد ورد في ذلك حديث صحيح رواه البخاريّ وغيره[2].

والواحد من أهل الجنة أقلّ ما يكون عنده من الولدان المخلّدين عشرة ءالاف[3]، بإحدى يدي كل منهم صحيفة من ذهب وبالأخرى صحيفة من فضّة قال تعالى: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ [سورة الزخرف/ ٧١] والأكواب جمع كوب وهو إناء مستدير لا عروة له أي لا أذن له. وقال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾ [سورة الطور/ ٢٤] أي يطوف للخدمة غلمان كأنهم من الحسن والبياض لؤلؤ مكنون أي لم تمسّه الأيدي وهؤلاء الغلمان خلق من خلق الله ليسوا بشرًا ولا جنًا ولا ملائكة.

وقال رسول الله ﷺ في وصفها: «**هي وربّ الكعبة نور يتلألأ وريحانة تهتزّ، وقصر مشيد ونهر مطّرد، وفاكهة كثيرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة في مقام أبديّ في حبرة ونضرة**» رواه ابن حبان[4].

في بداية الحديث يقول النبيّ ﷺ لأصحابه: «**هل مشمّر للجنّة، فإنّ الجنة لا خطر لها**» أي لا مثل لها، وقوله ﷺ: «**هي وربّ الكعبة**» أي أقسم برب

---

(١) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها: باب في دوام نعيم أهل الجنة.

(٢) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب الرقاق: باب صفة الجنة والنار، ومسلم في **صحيحه**: كتاب الإيمان: باب ءاخر أهل النار خروجًا.

(٣) رواه الطبراني في **الأوسط** (٧/ ٣٩٢)، قال الحافظ الهيثمي في **مجمع الزوائد** (١٠/ ٤٠١): «رواه الطبراني في **الأوسط** ورجاله ثقات».

(٤) **الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان** (٩/ ٢٣٨).

الكعبة على أنّها نور يتلألأ أي فلا تحتاج الجنة إلى شمس ولا قمر، لا ظلام فيها هناك كما في الدنيا، لكن مقدار الليل والنهار يعرف بعلامة جعلها الله فيها، إذا كانت المرأة من نساء الجنة كما نعتها رسول الله ﷺ ووصفها بحيث لو اطلعت على هذه الدنيا لأضاءت ما بين المشرق والمغرب فمن أين يكون فيها ظلام، ولو كانت أعين أهل الجنة بنسبة قوّتها اليوم لعمي أهل الجنة من عظم نور الجنة، لكن الله يعطيهم قوّة أضعافًا مضاعفة إلى حد يعلمه الله، الله أعطى أبصارهم قوّة بحيث تستطيع أن ترى مسافة ألف سنة كأنها كفّ، يرونها رؤية ليس فيها اشتباه.

ووصفها ﷺ بأنها «**ريحانة تهتزّ**» أي ذاتُ خضرة كثيرةٍ يانِعَةٍ أي مُعْجِبَة المنْظَرِ، وليس هناك مواسمُ للثّمار بل في أي وقت ماً تشتهيه تجده فقد قال الله تعالى: ﴿ **لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ** ﴾ [سورة الواقعة/ ٣٣] فإذا كان المؤمن جالسًا أو مستلقيًا فاشتهى أن يأكل من شجرة من أشجار الجنة مالت إليه ليأخذ منها ما يريد، ثم تعود كما كانت وقد أنبت الله فيها بدل الذي أخذ منها، ثمّ إنّ كلّ شجرة في الجنة ساقها من ذهب، وأشجار الجنة عندما تتحرّك يصدر لها صوت جميل جدًا تميل إليه النفوس، وروى البخاريّ أنّه يوجد في الجنة شجرة اسمها طوبى يسير الراكب في ظلّها مائة عام لا يقطعها تتفتّق بثياب أهل الجنة أي يخرج منها ثياب لأهل الجنة يلبسونها، فثيابهم منها الحريرُ والسّندسُ والاستبرقُ، ومجامِرُهُم الأَلُوَّةُ أي العود وأمشاطهم الذهب، وكلام أهل الجنة عربيّ، يذكرون الله ويسبّحونه ويقرؤون القرءان أما الصلاة فلم يرد لها ذكر.

وفي الحديث المارّ أن الرسول ﷺ وصف الجنة بأنها «**قصر مشيد**» أي فيها قصور عالية مرتفعة في الهواء، وقد صحّ في الحديث[1] أن للمؤمن في الجنة خيمةً من لؤلؤةٍ مجوّفةٍ واحدةٍ طولها في السماء ستّون ميلًا. وفي الجنة جنّتان ءانيتهما

---

(١) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها: باب في صفة خيام الجنة وما للمؤمنين فيها من الأهلين.

وما فيهما من ذهب، يسكنهما المقرّبون، وهناك أيضًا جنّتان ءانيتهما وما فيهما من فضّة. وقد ورد في الحديث الصحيح[1] أن الجنة منها ما بناؤه لَبِنُ ذهب ولَبِنُ فضة، وهي كما قال الرسول ﷺ: «**جنان كثيرة**» رواه البخاريّ[2]. وكذلك يوجد في الجنة غرف يُرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها.

وقوله ﷺ في الحديث المارّ: «**نهر مطّرد**» أي أنهار جارية، قال الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [سورة محمد/ ١٥] اللَّبَنُ المذكور في الآية المراد به الحليب، والخمر الذي هناك لا يسكر ولا يغيّب العقل ولا يصدع الرأس وليس مرّ الطعم بل هو لذيذ الطعم جدًا، والعسل الذي هناك غير العسل الذي يخرجه النحل.

وقوله ﷺ في الحديث المارّ: «**وفاكهة نضيجة**» أي أن فيها من الفواكه كلّ ما تشتهيه النفس، وكلّ ما فيها من الفواكه نَضِيجٌ، وفي الجنة أيضًا طيور وغنم، وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إنك لتنظر إلى الطّير في الجنة فتشتهيه فيخرّ بين يديك مشويًّا**» رواه البيهقيّ[3]، ثم بعدما يأكله المؤمن يعيده الله كما كان فيطير.

وقوله ﷺ في الحديث المارّ: «**وزوجة حسناء جميلة**» فقد ورد في الحديث الذي رواه البخاريّ ومسلم[4]: «**لكلّ امرئ منهم زوجتان من الحور العين**»

---

(١) **الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان** (٩/ ٢٤١-٢٤٠).

(٢) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب الرقاق: باب صفة الجنة والنار.

(٣) رواه البيهقي في البعث والنشور (ص/ ١٨٩-١٨٨).

(٤) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب بدء الخلق: باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، ومسلم في **صحيحه**: كتاب الإيمان: باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها.

وهذا الحديث صحيح متفق عليه، وورد في الحديث الصحيح أيضًا الذي رواه الضياء المقدسيّ في المختارة[1]: «**أنّ الرجل من أهل الجنة ليطوف في الغداة الواحدة على مائة عذراء**». وجاء في الحديث الصحيح[2] أن الشهيد له اثنتان وسبعون زوجة، ثم سائر أهل الجنة على مراتب منهم من عنده مائة من النساء، في الجنة الله يعطي الواحد من الرجال قوّة مائة رجل في الشهوة، وكذلك في الأكل والشرب، ولا يصيب المؤمن فتورٌ عَقِبَ الجماع ولا ينزل منه مني لأن الجنة ليس فيها ذلك ولكن يحسّ باللّذّة دون نزول المنيّ. وقد ثبت في الحديث[3] أن نساء أهل الجنة على رؤوسهنّ خُمُرٌ، الدنيا وما فيها لا تساوي الخمار الذي يلبسه نساء أهل الجنة، وهنّ يلبسن الخمار تجمّلًا زيادة في الحسن، والخمار ما تغطي النساء به رؤوسهنّ. ونساء الجنة أبكار أي كلما أتى المؤمن زوجته وجدها بِكْرًا، ثم مع كثرة أزواج أهل الجنة لا يحصل بين نسائهم تباغض وغَيْرَةٌ وتحاسدٌ لأن الله يطهّر قلوب أهل الجنة من ذلك، والمؤمنة التقيّة من بنات ءادم أفضل عند الله من الحور العين مقامًا.

والحور العين نساء أهل الجنة من غير الإنس خُلِقْنَ خلقًا من غير توالد إكرامًا للمؤمنين، والحُور جمع حَوْراء والعِين جمع عَيناء، والحُورُ من الحَوَرِ وهو شدّة بياض العين وشدّة سوادها، وأما العِين فمعناه واسعات العيون. وقد قال الله تعالى في وصفهن: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [سورة الرحمن/٥٨] وهن خيرات حسان أزواج قوم كرام. والواحدة منهنّ من شدّة صفاء عظمها يُرى مُخُّ ساقها من خلال الجلد.

وليس في الجنة عَزَبٌ ولا عَزَبَةٌ بل كلّهم يتزوّجون قال رسول الله ﷺ: «**ما**

---

(١) رواه الترمذي في **سننه**: كتاب صفة الجنة: باب ما جاء في صفة جماع أهل الجنة.

(٢) رواه الترمذي في **سننه**: كتاب فضائل الجهاد: باب في ثواب الشهيد. وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٣) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب الجهاد: باب الحور العين وصفتهن.

في الجنة أعزب» رواه مسلم[1].

وقوله ﷺ في الحديث المذكور: «**في مُقام أبديّ**» أي في حياة دائمة لا نهاية لها.

وقوله: «**في حبرة**»، أي سرور دائم.

وأمّا قوله: «**نضرة**» فمعناه أن وجوه أهلها ناضرة أي جميلة لأنهم ليس عليهم فيها كآبة. وليعلم أن أعظم نعيم أهل الجنة هو رؤيتهم لله عزّ وجلّ، فليس شيءٌ أحبَّ إلى أهل الجنة من رؤية الله، يرونه بلا كيف ولا مكان ولا جهة، الأولياء يرونه كل يوم مرتين أما سائر المؤمنين ففي الأسبوع مرة.

صفة جهنّم:

النار حقّ أي وجودها ثابت وهي ليست متّصلة بالأرض السابعة بل تحتها منفصلة عنها، وقد ذكر أبو عبد الله الحاكم في كتابه المستدرك[2] على الصحيحين أنه جاءت روايات صحيحة في أن جهنم تحت الأرض السابعة، لها أرضها وسقفها المستقلان.

ويزيد الله في حجم الكافر في النار ليزداد عذابًا حتى يكون ضرسه كجبل أحد. ما بين منكبي الكافر يوم القيامة مسيرة ثلاثة أيّام، ولو كانت خِلقتهم تكون كما هي في الدنيا لذابوا بلحظة.

الكفار يخلّدون في النار أبدًا لا يخرجون منها كما ثبت ذلك في النصوص الشرعيّة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [سورة الأحزاب/ ٦٤-٦٥] ولا يموتون في النار فيرتاحون من العذاب ولا يَحْيَوْنَ حياة هنيئة طيّبة بل هم دائمًا في نكد

---

(١) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها: باب أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر وصفاتهم وأزواجهم.

(٢) **المستدرك** (٤/ ٥٩٦).

وعذاب، وهذا معنى قول الله تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [سورة طه/ ٧٤]، وقال ملاحدة المتصوّفة: إن أهل النار يعودون يتلذّذُون في النار حتى لو أُمروا بالخروج لا يرضون، وهذا ردٌّ للنصوص الشرعيّة وردّ النصوص كفرٌ.

وطعامهم من ضريعٍ وهو شجرٌ كريه المنظر كريه الطّعم كريه الرائحة، يوجد في البلاد الحارّة شبيهه، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ [سورة الغاشية/ ٦-٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ الْأَثِيمِ ۝٤٤ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ [سورة الدخان/ ٤٣-٤٦].

وهذه الشجرة منظرها قبيح جدًا ورائحتها كريهة جدًا لا تطاق لكن هم من شدّة اضطرارهم ومن شدّة جوعهم وحرمانهم كأنّهم يأكلون منها بدون اختيار، ملائكة العذاب يطعمونهم من هذا، قال ﴿تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ۝٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ۝٦٥ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ [سورة الصافات/ ٦٤-٦٦].

وكذلك يأكل أهل النار من الغِسْلِين قال تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦ لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ [سورة الحاقة/ ٣٥-٣٧]، والغِسْلِين هو ما يسيل من جلود أهل النار، لأنه كلما أَنْضَجَتْ جلودهم النار يكسون جلودًا غيرها فيها رطوبة.

وأمّا شراب أهل النّار فهو الماء المتناهي في الحرارة قال تعالى: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [سورة النبأ/ ٢٥]، والحميم هو الماء المتناهي في الحرارة، والغَسّاق هو ما يسيل من جلود أهل النار، ملائكة العذاب يَسْقُونَهم من هذا فَتَتَقَطَّعُ أَمْعَاؤُهُم.

وثياب الكفار من نار قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ [سورة الحج/ ١٩].

وقد خلق الله في جهنّم لتعذيب الكفّار حيّات الواحدة كالوادي، وعقارب كالبغال.

وأنكرت الملاحدة وجود الجنة والنار فقالت الفلاسفة: «خراب هذا العالم شيء لا يصح والأفلاك يجب أن تظل على ما هي عليه إلى الأبد» اهـ ولذلك أحالوا وجود الجنة والنار بالصفة التي ذكرت بالنصوص الشرعية وليس لكلامهم حجّة من عقل أو نقل وإنما هو وهم محض فلا يقام له وزن.

صفة رؤية الله

قال المؤلف رحمه الله: وأهلُ الجنة يرون ربهم بعينهم من غير إدراك ولا إحاطة، ولا كيفيّة ولا مقابلة، ولا على مكان، ولا في جهة من الجهات الستّ.

الشرح: المؤمنون يرون الله تعالى في الآخرة بغير إحاطةٍ ولا كيفيّةٍ يرونه بأبصارهم من غير مسافة بينهم وبين الله لا كما يرى المخلوق لأن الذي يكون بينه وبين شيء ءاخر مسافة يكون محدودًا، فإما أن يكون أعظم جرمًا منه أو أصغر منه أو مثله وهذا كله لا يجوز على الله. فلذلك يثبت أهل السنّة رؤية الله في الآخرة من غير تشبيهٍ ولا جهةٍ ولا مسافةٍ أي لا كما يرى المخلوق. نصّ على هذا الإمام أبو حنيفة فقال في الفقه الأكبر[1]: «والله تعالى يرى في الآخرة ويراه المؤمنون وهم في الجنة بأعين رؤوسهم بلا تشبيهٍ ولا كيفية ولا يكون بينه وبين خلقه مسافة» اهـ. وقال مثلَه الإمام أبو منصورٍ الماتريديّ[2]، وقاله خلائق لا يحصون غيرهما.

ولا يخفى أن الإنسان إذا رأى المخلوق يراه في جهةِ أمامٍ أو خلفٍ أو يمينٍ أو يسارٍ أو فوقٍ أو تحتٍ أو في جميع الجهات كما إذا كُنت ضمنَ غرفة فإنها محيطةٌ بك وهذا كلّه يستلزم كما هو واضحٌ الكميّة والكيفيّة والله تعالى منزّه

---

(١) **الفقه الأكبر** بشرح ملا علي القاري (ص/ ١٣٧-١٣٨).

(٢) كتاب **التوحيد** (ص/ ٧٧).

عنهما. وخالف في ذلك المشبّهة فالرؤية عندهم تكون بالكيفيّة والجهة وإن كانوا يقولون لفظًا بلا كيفية لكنهم يعتقدون الكيفيّة لأنهم يثبتون الجهة لله فالرؤية عندهم لا بد أن تكون بكيفية المقابلة لأنهم يفسرون حديث مسلم[1]: «**أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تَضامّون في رؤيته**» بأنّ معناه ترونه مواجهةً كما ترون القمر مواجهةً.

وأجاب أهل السنّة عن هذه الشبهة بقولهم التشبيه هنا واردٌ على غير المعنى الذي تدّعونه فإنه واردٌ على عدم الشكّ لا على المرئيّ إذ المراد أن العباد يرونه رؤيةً لا شكّ فيها كما أن القمر ليلة البدر إذا لم يكن سحاب يُرى رؤية لا شكّ فيها، وهذا مصرّحٌ به في بعض روايات الحديث ففي حديث الشيخين عن أبي هريرة رضي الله عنه «أن الناس قالوا يا رسول الله هل نرى ربّنا يوم القيامة قال ﷺ: «**هل تمارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب**» قالوا: لا يا رسول الله قال: «**فهل تمارون في الشمس ليس دونها سحابٌ**» قالوا: لا قال: «**فإنكم ترونه كذلك**» اهـ الحديث. وهو مثل قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [سورة البقرة/ ١٤٦] فالتشبيه في هذه الآية من حيث عدم الشكّ وكذا التشبيه في الحديث هو من حيث عدم الشكّ لا تشبيهٌ لله بالقمر فهو واردٌ على قوّة ثبوت المعرفة لا على المعلوم كما هو ظاهرٌ. قاله الحافظ السيوطيّ في كتاب «تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه».

قال الغزنويّ: «وإنما قال بغير إحاطةٍ لأن الإحاطة وهي الإدراك بالجوانب محالٌ على الله لأنه ليس بجسم حتى يكون له نهاياتٌ فيدرك بها» اهـ. وهو معنى ما قاله قبله بمئات السنين الإمام العارف سهلٌ التستريّ[2]: «ينظر إليه تعالى

---

(١) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب المساجد ومواضع الصلاة: باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما.

(٢) وسهلٌ هو أبو محمدٍ سهل بن عبد الله التّستريّ أحد أئمة القوم، لقي ذا النون بمكة سنة خروجه إلى الحجّ وكان صاحب كرامات.

المؤمنون بالأبصار من غير إحاطةٍ ولا إدراك نهايةٍ» اهـ.

وقال أهل الحقّ نصرهم الله رؤية المؤمنين لله بالأبصار في الآخرة بعد دخولهم الجنة جائزةٌ عقلًا وسمعًا أي أن الأدلة قائمة عليها في العقل والقرءان والحديث فيرى لا في مكان ولا باتصال شعاع. وأما المعتزلة والفلاسفة والخوارج فقالوا إن العقل يحيل رؤية الله فلا يرى واحتجّوا بأنه يلزم من القول بالرؤية تشبيهه بالخلق قالوا لأن الذي يُرى لا بد أن يكون في جهة.

واحتجاج المعتزلة بأنه يلزم من القول بالرؤية تشبيه الله بخلقه غير مسلّمٍ فكما صحّ علم الخلق بالربّ من غير أن يكون في جهة صحّ أن يُرى تعالى بلا جهة.

وليس واجبًا عقلًا أن تكون رؤية المؤمنين له كرؤيتهم للمخلوق في استلزام الجهة إذ المصحّح للرؤية الوجود لا الحجم. قال الجوينيّ في كتاب «الإرشاد» في باب القول في ما يجوز على الله تعالى: «اتفق أهل الحقّ على أنّ كلّ موجودٍ يجوز أن يرى» اهـ، وأثبت الأشاعرة والماتريديّة جميعًا أن رؤية الله تعالى جائزةٌ عقلًا ليس في إثباتها محالٌ وهي واجبةٌ شرعًا جاءت بها النصوص فقلنا بها إيمانًا وتسليمًا. ذكره ابن فورك في الفصل المعقود لإبانة مذهب الإمام الأشعريّ في القول برؤية الله بالأبصار من «مجرد مقالات الأشعريّ» وذكره شرف الدين التّلمسانيّ في «شرح لمع الأدلة» حيث قال[1]: «إن الله تعالى موجود وكلّ موجودٍ يصحّ أن يرى، فإنّا نرى الجواهر والأعراض شاهدًا، فإن رُئِيَ الجوهر لكونه جوهرًا لزم أن لا يرى اللون، وإن رئي السواد لكونه لونًا لزم أن لا يرى الجوهر، وإن رؤيا لوجودهما لزم أن يُرَى كلّ موجودٍ، فإن قالوا إنما رئي الجوهر لحدوثه والربّ تعالى أزليّ قديم، قلنا: هذا يقضي عليكم بجواز رؤية الطعوم والروائح

(١) شرح لمع الأدلة (ص/ ٩٠).

والعلوم ونحوها وهي حادثة غير مرئيّةٍ عندكم[1]، ثمّ الحدوث ينبئُ عن وجودٍ مسبوقٍ بعدمٍ والعدم السّابق لا يصحّح رؤية الحاضر فانحصر المصحّح في الوجود فإذًا كلّ موجودٍ يصحّ أن يرى» اهـ.

قال أبو منصور الماتريدي في كتاب التوحيد[2] بعد أن ذكر أن رؤية الله في الآخرة واجبةٌ سمعًا بلا كيف: «فإن قيل كيف يرى؟ قيل بلا كيف إذ الكيفيّة تكون لذي صورة بل يرى بلا وصف قيامٍ وقعودٍ واتكاءٍ وتعلقٍ واتصال وانفصال ومقابلة ومدابرة وقصير وطويل ونور وظلمة وساكن ومتحرك ومماس»، ثم قال: «ولا معنًى يأخذه الوهم أو يقدره العقل لتعاليه عن ذلك» انتهى كلام الماتريدي رحمه الله.

رؤية الله تعالى واجبة بالنقل أي لا بد منها على مقتضى النص الشرعيّ لورود الدليل السمعي بإيجاب رؤية المؤمنين لله تعالى في الدار الآخرة، أما الأحاديث التي وردت في الرؤية ثابتةٌ رواتها ثقاتٌ ومن جملتها حديث البخاريّ وغيره[3] أن النبيّ ﷺ قال: «**إنكم سترون ربّكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته**» اهـ، أي من دون تعب وليس معناه أنه يشبه القمر ليلة البدر، وهو مرويٌّ من طريق نيّفٍ وعشرين من الصحابة كما في «شرح عقيدة ابن أبي زيد» للقاضي عبد الوهاب و«الأزهار المتناثرة» للسيوطيّ و«نظم المتناثر» للكتانيّ. وهذا الحديث مشهور يحتجّ به في الاعتقاد لأن جمهور أهل السنّة يشترطون للاحتجاج بالحديث في العقائد أن يكون متواترا أو مشهورا ولا تقوم الحجة عندهم بالعقيدة بما دون المشهور.

وأما الكتاب فقوله تعالى في سورة يونس: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾

---

(١) يعني المعتزلة.

(٢) كتاب **التوحيد** (ص/ ٨٥).

(٣) رواه البخاري في **صحيحه**: في أول كتاب **التوحيد**.

[سورة يونس/ ٢٦] وقد فسّر النبيّ ﷺ ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بالجنة ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ بالنظر إلى الله تعالى كما روى مسلمٌ في باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربّهم سبحانه وتعالى من صحيحه وغيره وروى هذا التفسير للآية عن بضعة عشر من الصحابة وعشرةٍ أو يزيد من التابعين كما يعرف من شرح عقيدة ابن أبي زيد والدرّ المنثور للسيوطيّ. وكذلك قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [سورة القيامة/ ٢٢-٢٣].

قال البيهقيّ[1]: «قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ يعني: يوم القيامة، ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ يعني: مشرقة، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، وليس يخلو النظر من وجوه: إما أن يكون الله عزّ وجلّ عنى به نظر الاعتبار كقوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [سورة الغاشية/ ١٧]، أو يكون عنى به نظر الانتظار كقوله: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ [سورة يس/ ٤٩]، أو يكون عنى به نظر التعطف والرحمة كقوله: لا ينظر الله إليهم، أو يكون عنى الرؤية كقوله: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ﴾ [سورة محمد/ ٢٠]، ولا يجوز أن يكون الله سبحانه عنى بقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ نظر التفكر والاعتبار؛ لأن الآخرة ليست بدار استدلال واعتبار، وإنما هي دار اضطرار، ولا يجوز أن يكون عنى نظر الانتظار؛ لأنه ليس في شيء من أمر الجنة انتظار؛ لأن الانتظار معه تنغيص وتكدير، والآية خرجت مخرج البشارة، وأهل الجنة فيما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من العيش السليم والنعيم المقيم، فهم ممكنون مما أرادوا وقادرون عليه، وإذا خطر ببالهم شيء أُتُوا به مع خطوره ببالهم، وإذا كان كذلك لم يجز أن يكون الله أراد بقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ نظر الانتظار؛ ولأن النظر إذا ذكر مع ذكر الوجوه فمعناه: نظر العينين اللتين في الوجه كما قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [سورة البقرة/ ١٤٤]، وأراد بذلك تقلب عينيه نحو السماء؛ ولأنه قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، ونظر الانتظار لا يكون مقرونا بـ «إلى» لأنه لا يجوز عند العرب أن

---

(١) **الاعتقاد والهداية** (ص/ ١٢٠-١٢٢).

يقولوا في نظر الانتظار: «إلى»، ألا ترى أن الله عزّ وجلّ لما قال: ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً ﴾ [سورة يس/ ٤٩] لم يقل: «إلى»؛ إذ كان معناه الانتظار، وقالت بلقيس فيما أخبر الله عنها ﴿ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [سورة النمل/ ٣٥]، فلما أرادت الانتظار لم تقل: «إلى». قلنا: ولا يجوز أن يكون الله سبحانه أراد نظر التعطف والرحمة؛ لأن الخلق لا يجوز أن يتعطفوا على خالقهم، فإذا فسدت هذه الأقسام الثلاثة صحّ القسم الرابع من أقسام النظر، وهو أن معنى قوله: ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ أنها رائية ترى الله عزّ وجلّ، ولا يجوز أن يكون معناه: إلى ثواب ربها ناظرة؛ لأن ثواب الله غير الله، وإنما قال الله عزّ وجلّ: ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا ﴾، ولم يقل: إلى غير ربها ناظرة، والقرءان على ظاهره وليس لنا أن نزيله عن ظاهره إلا بحجّة، ألا ترى أنه لما قال: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [سورة البقرة/ ١٥٢]، لم يجز أن يقال: أراد ملائكتي أو رسلي، ثم نقول: إن جاز لكم أن تدعوا هذا في قوله: ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ جاز لغيركم أن يدعيه في قوله: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [سورة الأنعام/ ١٠٣]، فيقول: أراد بها: لا تدرك غيره، ولم يرد أنها لا تدركه الأبصار، وإذا لم يجز ذلك لم يجز هذا، ولا حجّة لهم في قوله: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾، فإنه إنما أراد به: لا تدركه أبصار المؤمنين في الدنيا دون الآخرة، ولا تدركه أبصار الكافرين مطلقا، كما قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [سورة المطففين/ ١٥]. فلما عاقب الكفار بحجبهم عن رؤيته دلّ على أنه يثيب المؤمنين برفع الحجاب لهم عن أعينهم حتى يروه، ولما قال في وجوه المؤمنين: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ﴾، فقيّدها بيوم القيامة ووصفها، فقال: ﴿ نَّاضِرَةٌ ﴾ ثم أثبت لها الرؤية فقال: ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾، علمنا أن الآية الأخرى في نفيها عنهم في الدنيا دون الآخرة، وفي نفيها عن الوجوه الباسرة دون الوجوه الناضرة جمعا بين الآيتين حملا للمطلق من الكلام على المقيد منه، ثم قد قال بعض أصحابنا: إنما نفي عنه الإدراك دون الرؤية. والإدراك هو الإحاطة بالمرئي دون الرؤية، فالله يرى ولا يدرك، كما يعلم ولا يحاط به علما» اهـ.

الدليل على الرؤية من حيث النقل والسمع:

أن موسى ﷺ قد سأل الرؤية بقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [سورة الأعراف/ ١٤٣] فلو كانت رؤيته تعالى مستحيلة عقلا لكان طلب موسى لذلك جهلا بما يجوز في حقّ الله وما لا يجوز، أو سفهًا وعبثًا وطلبًا للمحال والأنبياء منزّهون عن ذلك، ويستحيل أن يخفى على نبيّ من أنبياء الله تعالى انتهى منصبه إلى أن يكلّمه الله سبحانه أن يجهل من صفات ذاته تعالى ما عرفه المعتزلة، وهذا معلوم على الضرورة فإن الجهل بكونه ممتنع الرؤية عند الخصم يوجب التكفير أو التضليل وهو جهل بصفة ذاته لأن استحالتها عندهم لذاته ولأنه ليس بجهةٍ فعلى زعمهم إما أن موسى ﷺ لم يعلم أنه تعالى ليس في جهة أو علم أنه ليس في جهة وجهل أن رؤية ما ليس في جهة محال فهو نسبة للجهل بالله تعالى إلى موسى ﷺ على التقديرين واتهام الأنبياء بمثل ذلك كفرٌ صراح فإنه تكفير لهم.

وأن الله تعالى قد علّق الرؤية باستقرار الجبل وهو أمر ممكن في نفسه عقلًا والمعلق بالممكن ممكن لأن معناه الإخبار بثبوت المعلق عند ثبوت المعلق به والمحال لا يثبت على شيء من التقادير الممكنة.

وأوردت المعتزلة على ذلك شبهتين الأولى قولهم سؤال موسى ﷺ كان لأجل قومه حيث قالوا ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ [سورة البقرة/ ٥٥] فسأل ليعلموا امتناعها كما علمها هو والثانية قالوا إنا لا نسلّم أن المعلق عليه ممكن بل هو استقرار الجبل حال تحرّكه واجتماع الاستقرار والتحرك في ءان واحد مستحيل

وأجاب أهل الحق بأن كلّا من ذلك خلاف الظاهر ولا ضرورة إلى ارتكابه على أن القوم إن كانوا مؤمنين لكفاهم أن يقول موسى إن الرؤية مستحيلة وإن كانوا كفارًا لم يصدّقوه في حكم الله تعالى بالامتناع أي عدم إمكانها وأيًا ما كان فيكون السؤال عبثًا، ثم لو كان السؤال من قومه محالا لكان من موسى محالا

أيضًا فلا يجوز من الرسول أن يباشر الحرام لإعلام غيره، ثم أيضًا لو كان سؤاله لأجل قومه لسأل بحضورهم ليشاهدوا وليعرفوا الحقيقة وقد سأل أن يريه ذاته هذا في مقام الخلوة ولم يكن قومه معه، قالوا والاستقرار حال التحرك أيضًا ممكن بأن يقع السكون بدل الحركة وإنما المحال اجتماع الحركة والسكون.

ثم في تتمة الآية أخبرنا الله بأنه تجلّى للجبل أي أن الله خلق في الجبل إدراكًا ومعرفة ورؤية فرأى ربه كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [سورة الأعراف/ ١٤٣] أي أن الله خلق في الجبل رؤية الله سبحانه فلم يتحمل هيبة الرؤية فصار دكًّا أي تحطم وصار كالأرض المستوية وإذا جاز أن يرى الجبلُ الذي هو من الجماداتِ اللهَ تعالى فكيف لا يجوز أن يراه المؤمنون في الآخرة دار البقاء.

فلزم المعتزلة من نفيهم جواز رؤية الله تعالى أن يكون موسى إما جاهلا بما يجوز على الله وإما أن يكون يعلم ذلك وإنما من باب السّفه طلب من الله وكلا الأمرين مستحيل على من نبّأه الله تعالى وأكرمه بالنبوّة، والأنبياء هم أولى بأن يعرفوا ما يجوز على الله وما لا يجوز عليه تعالى فكيف لا يثبتون[1] صحة الرؤية عقلا وقد سأل موسى ذلك بنص القرءان.

وليس في قول الله تعالى المذكور: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ [سورة الأعراف/ ١٤٣] نفي لرؤية الله تعالى في الآخرة كما زعم الزمخشريّ محرّفًا معنى الآية لأنّ لن لا تقتضي تأبيد النفي ولا تقتضي توكيده إذ لو كانت كذلك للزم التناقض بذكر اليوم في قوله تعالى: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [سورة مريم/ ٢٦] وللزم التكرار بذكر أبدًا في قوله تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [سورة البقرة/ ٩٥].

ولأهل الحق دليل الإجماع أيضًا لأن الأمة كانوا مجمعين على وقوع الرؤية في الآخرة وأن الآيات الواردة في ذلك محمولة على ظواهرها ثم ظهرت مقالة

---

(١) أي المعتزلة.

المخالفين وشاعت شبههم وتأويلاتهم.

فإن قالوا من أبصر شيئًا يمكنه التمييز بين رؤيته لنفسه وبين رؤيته ما يراه فإذا رأيتم الإله سبحانه كيف تميزون بين المرئيين قلنا من لا جهة له لا يشار إليه بالجهة ومن لا مثل له لا إيضاح له بالمثال ومن لا أشكال له فلا إشكال فيه.

ثم نقول لهم: أنتم إذا رأيتم الإله على حسب زعمكم كيف تميّزون بينه وبين العرش وهو دونه سبحانه بالرؤية أتميّزون بينهما بالشكل والصورة أم باللون والهيئة ومن أصلكم أن المرئيّ شرطه أن يكون في مقابلة الرائي وكيف يرى القديم سبحانه نفسه وكيف يرى الكائنات مع استتار بعضها ببعض فلا يرى على هذا الأصل بطون الأشياء وهذا خلاف ما عليه المسلمون وإذا كان على حسب زعمكم العرش دونه فلا يحجبه عنّا حالة الرؤية. قال الأشعريّ يصح أن يرى الشخص نفسه وغيره من المخلوقات عند رؤية الذّات المقدّس من غير أن يكون بينه وبين الله مسافة ولا اتصال ولا انفصال وهذا هو الصواب.

فائدة:

قال الكلاباذيّ في الباب الحادي عشر والثاني عشر من التعرّف: «أجمعوا على أن الله تعالى يرى بالأبصار في الآخرة» ثم قال: «وأجمعوا أي الصوفيّة أنه لا يرى في الدنيا بالأبصار ولا بالقلوب واختلفوا في النبيّ ﷺ هل رأى ربه ليلة المسرَى فقال الجمهور منهم والكبار إنه لم يره محمدٌ ﷺ ببصره ولا أحدٌ من الخلائق في الدنيا ومنهم الجنيد والنوريّ وقال بعضهم رءاه النبيّ ﷺ ليلة المسرى وخصّ من بين الخلائق بالرؤية كما خصّ موسى بالكلام ومنهم الشبليّ وغيره وقال بعضهم رءاه بقلبه ولم يره ببصره. وأطبق المشايخ كلّهم على تضليل من ادّعى من الصوفية لأنفسهم رؤية الله تعالى في الدنيا وصنفوا في ذلك كتبًا منهم أبو سعيد الخزاز، وللجنيد في تكذيب من ادعاه وتضليله رسائل وكلامٌ كثيرٌ، وزعموا أنّ من ادعى ذلك فلم يعرف الله عزّ وجلّ وهذه كتبهم تشهد على ذلك» اهـ.

مواقف يوم القيامة

قال المؤلف رحمه الله: وأنَّ قراءة الكُتب حقٌّ، يُؤتى المؤمن كتابه بيمنيه والكافر بشماله، والميزان حقٌّ، والصراط حق، وحوض الكوثر حقٌّ، والشفاعة للنبي ﷺ حقٌّ، والشفاعة للمؤمن حقٌّ.

الشرح: النبيّ ﷺ أخبرنا عن أمور كثيرة ومن ذلك أن هناك حياة بعد الموت وأن هناك يوم القيامة وتحصل فيه أمور كثيرة كالحساب والميزان والصراط والحوض والشفاعة وغير ذلك. فعلينا أن نؤمن بجميع ذلك حتى نكون من الفائزين يوم القيامة. يقول ربنا عزّ وجلّ: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [سورة ق/ ١٨] ويقول تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [سورة الذاريات/ ٥٦] أي إلا لآمرهم بالعبادة. فإننا ملك لله وإليه مرجعنا، يحاسبنا يوم القيامة على أقوالنا وأفعالنا واعتقاداتنا.

الكتاب:

مما يجب الإيمان به الكتاب المثبت فيه طاعات العباد والمعاصي يؤتى المؤمنون كتبهم بأيمانهم والكفار بشمائلهم ووراء ظهورهم. والدليل السمعي على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾ [سورة الإسراء/ ١٣] وقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴾ [سورة الانشقاق/ ٧-٩] والحساب اليسير هو الذي ليس فيه مناقشة لأنه صح أن من نوقش الحساب عذّب.

فلا بد من الإيمان بالحساب وهو عرض أعمال العباد عليهم، يعرض عليهم ما عملوا في الدّنيا. ومما جاء في الحساب قوله تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ [سورة الكهف/ ٤٩] وقوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾ [سورة

الإسراء/ ١٣] وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ [سورة الانشقاق/ ٧-٩] وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [سورة القارعة/ ٦-٧] وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ [سورة القارعة/ ٨-١١]

وأما قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ أي كتاب عمله ﴿بِيَمِينِهِۦ﴾ وهو المؤمن ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ والحساب اليسير هو الحساب السهل الهيّن وهو أن يجازى على الحسنات ويتجاوز له عن السيّئات. وقد روى الحاكم[١] أن رسول الله ﷺ فسّر الحساب اليسير قال: «أن ينظر في سيّئاته ويتجاوز له عنها»، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ وهو الكافر، قال المفسّرون تغلّ يده اليمنى إلى عنقه وتجعل يده اليسرى وراء ظهره فيأخذ بها كتابه.

روى البيهقيّ[٢] حدثنا جعفر بن محمد عن أبيه قال: سمعت جابر بن عبد الله يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**شفاعتي يوم القيامة لأهل الكبائر من أمتي**». فقلت: ما هذا يا جابر؟ قال نعم يا محمد إنه من زادت حسناته على سيئاته، فذلك الذي يدخل الجنة بغير حساب، وأما الذي قد استوت حسناته وسيئاته فذلك الذي يحاسب حسابا يسيرا، ثم يدخل الجنة، وإنما الشفاعة شفاعة رسول الله ﷺ لمن أوبق نفسه، وأغلق ظهره.

الميزان:

يجب الإيمان بأن الأعمال توزن يوم القيامة ودليله قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [سورة الأنبياء/ ٤٧]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذِ

---

(١) رواه الحاكم في **المستدرك** (٩/ ٦٢٨).

(٢) **البعث والنشور** (ص/ ٣٩٥).

﴿ٱلۡحَقُّ﴾ [سورة الأعراف/ ٨]، فالميزان هو عبارة عما يعرف به مقادير الأعمال والعقل قاصر عن إدراك كيفيّته[١]، وهل توزن الأشخاص[٢][٣] أو الكتب[٤] أو الأعمال[٥] وَرَدَ بكلّ ذلك نصّ فلا مانع من القول بكل ذلك، ومعنى ذلك أنه يمكن أن توزن أحيانًا الأشخاص أو أعمالهم وأحيانًا الكتب.

فإن قيل كيف توزن الأعمال وهي حركات ونوايا فعلها العبد؟ قلنا لا مانع عقلًا من ذلك، قالوا الحسنات تصوّر بصور حسنة والسيئات بصور قبيحة وتوزن هذه وتوزن هذه، وتوضع هذه في كفة وتلك توضع في كفة.

والميزان كميزان الدنيا له قصبة وعمود وكفّتان كفة للحسنات وكفة

---

(١) أي كيفية الوزن.

(٢) رواه من حديث أنس بن مالك الحارث بن أبي أسامة في مسنده انظر **بغية الباحث** (ص/ ٣٣٧)، ومن طريقه أبو نعيم في **حلية الأولياء** (٦/ ١٧٤) وقال: «تفرد به داود بن صالح عن جعفر. وروي عن داود عن صالح عن ثابت ومنصور بن زاذان عن أنس». وعزاه الحافظ الزبيدي في **الإتحاف** (١٠/ ٤٧٤) أيضًا للبزار واللالكائي والبيهقي في البعث، وعزاه البوصيري في **إتحاف الخيرة** (٨/ ١٦١) للحارث والبزار وقال: «ومدار إسناديهما على صالح المري وهو ضعيف».

(٣) ذكر ذلك أبو المعين النسفي في كتابه **بحر الكلام** (ص/ ٢٤٢) قال: قلنا قال بعضهم يوزن العبد مع عمله لما روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه صعد شجرة وكان صغير الساقين فتبسم أصحاب النبي ﷺ فقال ﷺ: «**أتعجبون من دقة ساقه وإنهما لأثقل في الميزان من السموات والأرضين**» فثبت أن العبد يوزن مع عمله.

(٤) عزاه الزبيدي في **إتحاف السادة المتقين** (١٠/ ٤٧٤) إلى حديث البطاقة المشهور. ورواه الترمذي في **سننه**: كتاب الإيمان: باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله وقال: «هذا حديث حسن».

(٥) عزاه القرطبي في كتابه **التذكرة** (٢/ ٣٧٠) لمسند خيثمة بن سليمان من حديث جابر.

للسيئات توزن به الأعمال يوم القيامة، والذي يتولى وزنها جبريل وميكائيل[1]، وما يوزن إنما هو الصحائف التي كتب عليها الحسنات والسيئات، فمن رجحت حسناته على سيئاته فهو من أهل النجاة، ومن تساوت حسناته وسيئاته فهو من أهل النجاة أيضا، لكن يؤخّر برهة عن دخول الجنة ثم يدخل يكون على الأعراف على أعلى سور الجنة، ومن رجحت سيّئاته على حسناته فهو تحت مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له. وأما الكافر فترجح كفّة سيئاته لا غير لأنه لا حسنات له في الآخرة، لأنه أطعم بحسناته في الدنيا بالرزق وصحة الأجسام ونحو ذلك.

الصراط:

والصراط حق قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [سورة مريم/ ٧١] وقد وردت به الأخبار الصحيحة واستفاضت. وهو جسر يضرب بين ظهراني جهنم يرده الناس فمنهم من يرده ورود دخولٍ وهم الكفار وبعض عصاة المسلمين أي يزلون منه إلى جهنم. ومنهم من يرده ورود مرور فمنهم من يمر كالبرق الخاطف ومنهم من يمر كطرفة عين ومنهم غير ذلك، وهو محمول على ظاهره بغير تأويل وقد ورد في صفته أنه[2] «دحضٌ مزلةٌ».

وقد اختلف في تفسير الورود المذكور في الآية فقال بعض إنه الدخول، وقال بعض إنه العبور، والصواب أن الورود على وجهين ورود دخول وورود عبور، فورود الدخول للكفار ولبعض عصاة المسلمين وورود العبور للأتقياء، ولا يستبعد أن يحصل ذلك لأفراد من البشر من مرورهم من دون أن يمشوا على

---

(١) ذكر الحافظ محمد مرتضى الزبيدي في **إتحاف السادة المتقين** (١٠/ ٤٧٢) عن حذيفة رضي الله عنه أن صاحب الميزان هو جبريل، وعزاه يعقوب وسفيان في فوائد وأبي الشيخ في كتاب السنة.

(٢) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب الإيمان: باب معرفة طريق الرؤية.

الجسر، لأن من أمسك السماء في الهواء بلا عِلَاقَة ولا عمد وسخّر السحاب الثقال وعليها بُحُور الماء بين السماء والأرض بلا عِلَاقَة من فوق ولا عمد من تحت قادر على ذلك أي على أن يعبروا على الصراط في الهواء.

وما ورد أنه أحدّ من السيف وأدقّ من الشعر كما روى مسلم[1] عن أبي سعيدٍ الخدريّ «بلغني أنه أدق من الشعرة وأحد من السيف» فليس المراد ظاهره وإنما المراد بذلك أن خطره عظيم، فإن يسر الجواز عليه وعسره على قدر الطاعات والمعاصي ولا يعلم حدود ذلك إلا الله فقد ورد في الصحيح أنه تجري بهم أعمالهم[2].

الحوض:

والحوض حق وهو مكان أعد الله فيه شرابا لأهل الجنة يشربون منه قبل دخول الجنة وبعد مجاوزة الصراط، فَلِنَبِيِّنَا حوض ترده أمته فقط لا ترده أمم غيره طوله مسيرة شهر وعرضه كذلك، ءانيته كعدد نجوم السماء، شرابه أبيض من اللبن وأحلى من العسل وأطيب من ريح المسك. وقد أعد الله لكل نبي حوضا وأكبر الأحواض حوض نبينا محمد ﷺ، روى البخاريّ[3] في صحيحه عن عبد الله بن عمرو قال: قال النبيّ ﷺ: «**حوضي مسيرة شهر ماؤه أبيض من اللبن وريحه أطيب من المسك وكيزانه كنجوم السماء من شرب منه لا يظمأ أبدا**» ثم إن لكل نبي حوضا[4] لكن حوض النبيّ أكثر ورودا.

---

(١) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب الإيمان: باب معرفة طريق الرؤية.

(٢) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب الإيمان: باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها.

(٣) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب الرقاق: باب في الحوض.

(٤) رواه الترمذي في **سننه**: كتاب صفة القيامة والرقائق: باب ما جاء في صفة الحوض. وقال: «وقد روى الأشعث بن عبد الملك هذا الحديث عن الحسن عن النبي ﷺ مرسلًا ولم يذكر فيه عن سمرة وهو أصح»، **فتح الباري** (١١/ ٤٦٧).

وأنكرت المعتزلة إيتاء الكتاب والميزان والحوض والصراط، وشبهتهم في إنكار الصراط أنهم قالوا إذا كان أدقّ من الشعرة وأحدّ من السيف فإمرار المؤمنين عليه تعذيب لهم. والجواب أن المؤمنين يعبرون على كيفيات شتى منهم من يطير ومنهم من يمشي عليه، ثم منهم من يقع ومنهم من لا يقع، ومنهم من يسلم حتى يصل إلى الجنة، لأن أعمالهم هي التي تجري بهم ليست قوة المشي فيهم إذ قوة المرور هناك على حسب حالهم في الدنيا من حيث الأعمال. وأما حملهم لما ورد عن بعض الصحابة على ظاهره فلا حجة فيه ولا دليل لهم عليه، وقد قلنا إن الصواب أنه في الحقيقة عريض لكنه من شدة هوله عبّر عنه بهذا التعبير فكيف بنت المعتزلة أمرهم في إنكارهم الصراط على حديث غير مرفوع ولا هو مجمعٌ عليه ولا اتفق على حمله على ظاهره.

الشفاعة:

الشفاعة هي طلب الخير من الغير للغير، وهي ثابتة بنص القرءان والحديث قال الله تبارك وتعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [سورة البقرة/ ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [سورة الأنبياء/ ٢٨]، وقال ﷺ: «**من زار قبري وجبت له شفاعتي**» رواه الدارقطني[١].

وروى مسلم[٢] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «**لكل نبيّ دعوة مستجابة فتعجّل كلّ نبي دعوته وإني اختبأت دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة فهي نائلةٌ إن شاء الله من مات من أمّتي لا يشرك بالله شيئًا**».

المحتاجون لشفاعة النبيّ ﷺ هم أهل الكبائر فقط لقوله ﷺ: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي**» معناه هم الذين يحتاجون إليها، رواه أبو داود[٣]

---

(١) رواه الدارقطني في **سننه** (٢/ ٢٧٨).

(٢) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب الإيمان: باب اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعة لأمّته.

(٣) رواه أبو داود في **سننه**: كتاب السُّنّة: باب الشفاعة.

والترمذيّ[1] وأحمد[2] وغيرهم[3].

أما الأتقياء والأولياء والشهداء فلا حاجة لهم للشفاعة كما يعلم من النصوص الصحيحة الواضحة، بل إنه ثبت في أحاديث كثيرة صحيحة أنهم هم أهل شفاعةٍ لغيرهم فقد روى ابن ماجه[4] عن رسول الله ﷺ: «**للشهيد عند الله ستّ خصال يغفر له في أوّل دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويحلّى حلّة الإيمان، ويزوّج من الحور العين، ويشفّع في سبعين إنسانًا من أقاربه**».

والشفاعة تكون على نوعين:

١ـ شفاعة لمن استحقوا دخول النار من عصاة المسلمين بذنوبهم، فينقذهم الله من النار بهذه الشفاعة قبل دخولها.

٢ـ شفاعة للمسلمين العصاة بعد دخولهم النار، لإخراجهم منها قبل أن تنتهي المدّة التي يستحقّونها.

أما الكفّار فلا أحد يشفع لهم قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ أي لا يشفعون إلا لمن مات على الإيمان. وقال تعالى إخبارًا عن أصحاب اليمين من أهل الجنة أنهم يسألون الكفار وهم في النار: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [سورة

---

(١) رواه الترمذي في **سننه**: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع: باب ما جاء في الشفاعة.

(٢) رواه أحمد في **مسنده** (٣/ ٢١٣).

(٣) رواه ابن حبان في **صحيحه**: كتاب التاريخ: باب الحوض والشفاعة، والحاكم في **المستدرك** (٢/ ٣٨٢).

(٤) **سنن ابن ماجه**: كتاب الزهد: باب ذكر الشفاعة.

المدثر/ ٤٢-٤٨]، وليس في قوله تعالى: ﴿شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ إثبات لحصول الشفاعة لهم وأنها تردّ بل المعنى أنه لا شفاعة لهم. وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [سورة الأعراف/ ١٥٦]، فرحمة الله وسعت في الدنيا كل مؤمن وكافر لكنها في الآخرة خاصة لمن اتّقى الشرك وسائر أنواع الكفر.

ثم إن النبيّ ﷺ هو أوّل من يشفع وأوّل من تقبل شفاعته[١]، وهو يختصّ بالشفاعة العظمى وقد سميت بذلك لأنها لا تختصّ بأمّته فقط بل ينتفع بها غير أمّته من المؤمنين، وهي لتخليصهم من الاستمرار في حرّ الشمس في الموقف. وأما الكفار فلا ينتفعون بها لأنهم ينقلون من هذا الموقف إلى موقفٍ أشدّ لا يستفيدون تخفيف مشقةٍ ولا نيل راحةٍ.

تنبيه:

ينبغي أن يحذر مما ورد في بعض نسخ الإحسان في ترتيب ابن حبان[٢] السقيمة أن كلا من هؤلاء الأنبياء الخمسة يقول عندما يطلب منه الشفاعة «إني أخاف أن يطرحني الله في النار» لأن نسبة هذا لنبيٍ من الأنبياء كفرٌ لأن النبيّ لا يظن بربه أنه يطرحه في النار، فما ذكر في كتاب الإحسان لابن بلبان فهو باطلٌ[٣].

---

(١) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب الفضائل: باب تفضيل نبيّنا ﷺ على جميع الخلائق.

(٢) **الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان**، ٨/ ١٣٠.

(٣) رواه ابن حبان في **صحيحه**: كتاب التاريخ: باب الحوض والشفاعة: ذكر العلة التي من أجلها لا يشفع الأنبياء للناس يوم القيامة في الوقت الذي ذكرناه.

محبة أصحاب النبيّ ﷺ

قال المؤلف رحمه الله: ومحبة أصحاب رسول الله ﷺ على العموم حقٌّ، وكلُّهم على هدى، فمن كان عنده محبة لله ورسوله، وكان هذا الدين عزيزًا عنده، لا يخطر في قلبه بغضهم، ولا بغض أحد منهم، ولا ينطق لسانه فيهم بسوء.

الشرح: قال الطحاويّ: «من أحسن القول في أصحاب رسول الله ﷺ وأزواجه الطّاهرات من كل دنسٍ وذرياته المقدّسين من كلّ رجسٍ فقد برئ من النفاق». أي أحسن القول في أصحاب رسول الله ﷺ بمعنى اعتقد فيهم الخيريّة وقال فيهم قولا حسنا. وقد زكّاهم نبيّ الله ﷺ فقال: «**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**»[1] اهـ، وهذه تزكيةٌ إجماليّةٌ فنحب أصحاب رسول الله ﷺ ونعتقد أن حبهم إيمان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان. ولكن لا نتجاوز الحدّ في محبة أحد منهم فلا نصفهم بما ليس فيهم في التعظيم بل نصفهم بما يستحقون. ولا نتبرأ من أحد منهم ولا نذكرهم إلا بخير أي من حيث الإجمال أما من حيث التفصيل فنمدح ونذمّ على حسب ما يقتضيه الشرع. فحبّهم دين وإيمان وإحسان فلا ننبذ أحدا ممن ثبتت له الصحبة وثبت على مقتضاها إلى ءاخر حياته وهذا لا يعني أنه يساوى بين كل من ثبتت له الصحبة في المحبة والتعظيم والإجلال.

فمن سبّ أصحاب رسول الله ﷺ جملة كفر، فالذي يقول الصحابة لا فضل لهم مستخفّا بهم يكفر، فمن أبغض جميع الصحابة كافر نص عليه الإمام أحمد رضي الله عنه كما نقله أبو محمد التميمي عنه. والذي يقول الصحابة لا يؤتمنون في نقل الشريعة يكفر لأننا لم نعرف الشريعة إلا بواسطتهم لأننا لم ندرك

---

(١) رواه الترمذي في سننه: كتاب المناقب: باب ما جاء في فضل من رأى النبي ﷺ وأصحابه. وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

الرسول ﷺ فالذي يخوّن الصحابة جملةً يكفر، فإن القرءان من طريقهم وصل إلينا وأمور الدين المنقولة عن الرسول ﷺ كلّها من طريقهم وصلت إلينا. قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [سورة التوبة/ ١٠٠] هؤلاء هم أولياء الصحابة، ليس المراد أن كل من بلغَ الولاية هو من السابقين الأوّلين هناك من الصحابة من تأخر إسلامهم وصاروا أولياء لكنهم ليسوا من السابقين الأوّلين، وهؤلاء لم يصلوا إلى رتبة السابقين الأوّلين كسيدنا خالد هو ولي صالح وهو سيف الله المسلول لكنه ليس من السابقين الأوّلين. وسبّ أحدهم أعظم إثما وأشد ذنبا من سبّ غيره، والمراد بالسبّ هنا أن يذكر أنه فعل كذا كذا من الأمور التي لا تنبغي وهذا يقال له سبّ. وأما سبّ بعض الذين بالغوا في الفسق من الصحابة لسبب شرعي فجائز فقد ثبت أن الرسول ﷺ قال لصحابيّ قال في خطبته مَن يُطعِ اللَّهَ ورسولَهُ فقد رشدَ ومَن يعصِهما فقد غوى: «**بئس الخطيب أنت**» وذلك لأنه جمع بين الله ورسوله في ضمير واحد وقال له: «**قل ومن يعص الله ورسوله فقد غوى**»[(١)].

فإن قيل أليس اتفق المحدثون على أن الصحابة عدولٌ. فالجواب: أن المحدثين قالوا بعدالة الصحابة كلّهم في رواية الحديث، لأن الواحد منهم لا يكذب على رسول الله ﷺ، لا على معنى أنهم كلهم أتقياء صالحون فقد صحّ في الحديث الذي رواه أحمد[(٢)] أن الرسول ﷺ قال في رجل من أهل الصفة يقال له كِرْكِرَة لما مات فوجدوا في شملته[(٣)] دينارين فذكروا ذلك للنبي: «**كيتان من نار**» وفضل أهل الصفّة معروف، فهذا لإخفائه دينارين عن الناس وإظهار الفاقة قال الرسول ﷺ فيه ما قال، ومع ذلك فله فضل باعتبار أنه من أهل

---

(١) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب الجمعة: باب تخفيف الصلاة والخطبة.

(٢) رواه أحمد في **مسنده** (١/ ٤٥٧).

(٣) الشملة هي نوع من الثياب.

الصفة، وهل يطلق على هذا أنه عدل بالمعنى المشهور الذي هو من سلم من الكبائر والإصرار على الصغائر؟

ولم يقل رسول الله ﷺ لا يقع أحد من أصحابي في ذنب ولا يعذبّ أحد منهم في قبره بل جاء في الحديث الصحيح ما يدلّ على خلاف هذا فقد روى البخاريّ[١] عن أبي هريرة قال ثم انصرفنا مع رسول الله ﷺ إلى وادي القرى ومعه عبدٌ له يقال له مدعم أهداه له أحد بني الضباب فبينما هو يحط رحل رسول الله إذ جاءه سهم عائر[٢] حتى أصاب العبد فقال الناس هنيئا له الشهادة فقال رسول الله ﷺ: «**بلى والذي نفسي بيده إن الشملة التي أصابها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم لَتشتعلُ عليه نارا**». وكان في الصحابة من شرب الخمر مرات عديدة ثم أقيم عليه الحدّ كل مرة[٣] وكان فيهم من أقيم عليه حد الزنى[٤].

ولما تُكُلِّمَ بالإفك على عائشة كان من الصحابة من رماها بالزنى قبل تبرئتها في القرءان فأقام الرسول عليه الحد[٥]، أما بعد نزول القرءان فمن يرميها بالزنى يكفر. وهناك غير هذا مما صح من الحديث في هذا المعنى.

وأما حديث البخاريّ[٦] الذي فيه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تسبوا**

---

(١) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب المغازي: باب غزوة خيبر.

(٢) أي لا يدرى من رماه

(٣) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب الحدود: باب ما يكره من لعن شارب الخمرة وأنه ليس بخارج من الملة.

(٤) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب الحدود: باب من اعترف على نفسه بالزنى.

(٥) رواه أبو داود في **سننه**: كتاب الحدود: باب في حد القذف

(٦) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب فضائل الصحابة: باب قول النبي ﷺ: «**لو كنت متخذا خليلا**».

أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه» فهذا الحديث لا يريد به الرسول ﷺ كلّ من لقيه مؤمنا به إنما يعنى به السابقين الأوّلين من المهاجرين والأنصار بدليل قوله: «**لا تسبوا أصحابي**» وهو يخاطب الصحابة فهذا يدل على أنه أراد طائفة من الصحابة كالعشرة المبشرين بالجنة وغيرهم وذلك أن سبب الحديث أن خالد ابن الوليد سبّ عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنهما، فأراد رسول الله ﷺ أن يبيّن أن أولئك الذين عبدُ الرحمٰن بن عوف من طبقتهم في الفضل لا يلحق بهم من ليس من طبقتهم كخالد، فإنه ليس من السابقين الأوّلين لأن إسلامه كان بعد الحديبية، وهذا مع ما لخالد من الفضل حتى سماه رسول الله «سيفا من سيوف الله»[1] ومع ذلك مرتبته بعيدة عن اللحاق بهم، ومن يورد هذا الحديث في حقّ كلّ صحابيّ فمنشؤه الجهل بمراتب الصحابة وبالحديث المذكور.

ولا يعطي هذا الحديث ونحوه أن لا يذكر أيّ فرد منهم إلا بخير بل حكم التحذير الشرعيّ لا بد منه، فلذلك ضَمَّنَ علماء الحديث كتبهم التي ألفوها في الحديث إيراد أحاديث كالتي فيها ذمّ مِدْعَمٍ وكِرْكِرَة ولو كان لا يجوز انتقاد الصحابيّ في أيّ شيء من الأشياء ما ذكروا هذه الأحاديث، ولا قوله ﷺ لفاطمة بنت قيس حين استشارته في أبي جهم ومعاوية وكان أراد كل منهما أن يتزوجها: «**أما أبو جهم فلا يضع العصا عن عاتقه**[2] **وأما معاوية فصعلوك لا مال له انكحي أسامة**» رواه مسلم[3]. وفي العادة الجارية بين الناس لا يحب الشخص أن يذكر بأنه ضرّاب للنساء.

وأما حديث ابن حبان والترمذيّ أن الرسول ﷺ قال: «**اللَّهَ اللَّهَ في أصحابي**

---

(١) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب فضائل الصحابة: باب مناقب خالد بن الوليد رضي الله عنه.

(٢) أي ضرَّابٌ للنساء.

(٣) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب الطلاق: باب المطلقة ثلاثا لا نفقة لها.

لا تسبوا أصحابي فمن أحبهم فبحُبّي[1] **أحبهم ومن سبهم فقد سبني**» قوله: «**ومن سبّهم فقد سبّني**» أي كأنه سبّني فهذا تشبيه. وهو محمول على أن من سبّ الصحابة جملة يكون كافرا ومن سبّ بعضا منهم بغير سبب شرعيّ يكون وقع في معصية كبيرة.

ينبغي للواحد أن يحسن القول في ذرية الرسول ﷺ المقدّسين من كل رجس. التقديس هو التطهير أي التنزه عما يشين. والرجس المراد هو المذكور في قوله تعالى: ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ [سورة الأحزاب/ ٣٣] وهو الشرك. وهذا الفضل شامل لعليّ وفاطمة والحسن والحسين ولأزواج الرسول ﷺ جمعا بين دلالة السياق والحديث، سئل زيد بن أرقم ومن أهل بيته يا زيد أليس نساءُه من أهل بيته؟ قال: «نساءُه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده» رواه مسلم[2]. وعقد البيهقيّ في «السنن» بابا في الدليل على أن أزواجه ﷺ من أهل بيته. وقال في «الاعتقاد»[3]: «وهذا يؤكّد ما ذكرنا من دخول ءاله وأزواجه في أهل بيته وعلينا محبّة جميعهم وموالاتهم في الدين» اهـ، ولا يتوهّم أن أهل البيت خاصّ بالذكور بدليل دخول فاطمة رضي الله عنها كما يدلّ على ذلك حديث الكساء الذي رواه كثيرون منهم الترمذيّ وأحمد وابن أبي شيبة والطبرانيّ والحاكم وقال: «هذا حديث صحيح على شرط البخاريّ ومسلم ولم يخرجاه» وحديث البخاريّ[4] أن الرسول ﷺ قال: «**إنكِ أوّل أهل بيتي لحاقا بي**» وبدليل قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ

---

(١) قال المناوي: «أي بسبب حبه إياي أو حبي إياهم أي إنما أحبهم لحبه إياي أو لحبي إياهم» اهـ.

(٢) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب: باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٣) **الاعتقاد والهداية** (ص/ ٣٢٧).

(٤) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب المنقب :باب علامات النبوة في الإسلام.

أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ ﴾ [سورة هود/ ٧٣] والخِطاب في هذه الآية لزوج إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

ثم إن الجمع بين محبة الصحابة ولا سيما الخلفاء الأربعة وسائر العشرة المبشرين بالجنة ومحبة زوجات النبيّ ﷺ ومحبة أهل البيت مطلوب مرغوب فيه وهو علامة على لزوم العقيدة الصحيحة والبعد عن الشذوذ والنفاق. وأما بغض الصحابة كلّهم فهو مروق من الدين قال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴾ [سورة الفتح/ ٢٩] يدلّ على أن من أبغضهم كلهم فهو كافر كما تقدّم ومن أبغض أبا بكر أو عمر أو عثمان أو عليا أو نحوهم من الصحابة فهو ءاثم إثما كبيرا.

ومن شأن المؤمن من أهل السنّة أن يحسن القول في أزواج النبيّ ﷺ اللاتي فزن بعشرته ولا يَطْعَنَ بهن بشرك أو نفاق أو فسوق. وما صدر من بعضِهن وهي السيدة عائشة رضي الله عنها من خطإ لم ينشأ عن خبث وقد وقع مغفورا لها كما قال أبو الحسن الأشعريّ رضي الله عنه لتوبتها وللبشارة النبويّة لها. روى ابن سعد في طبقاته وأحمد في الزهد وابن راهويه في المسند أنها رضي الله عنها «كانت تبكي ندما حتى تبل خمارها» اهـ، وذكره البيهقيّ في «الاعتقاد» وقال[1]: «إنها كانت تقول يا ليتني كنت نسيا منسيا» وتقول: «وددت أني كنت ثكلت عشرة مثل ولد الحارث بن هشام وأني لم أسر مسيري الذي سرت» اهـ فمن اتخذ الطعن فيها وِرْدًا له فقد خاب وخسر.

فالحاصل الذي تلخّص من هذا أن سبّ الصحابة على الإجمال كفرٌ، وأما

(١) **الاعتقاد والهداية** (ص/ ٣٧١).

سبّ فرد من الأفراد منهم إن كان تقيًّا فهو معصية كبيرة، وأما إن لم يكن تقيا فذكره لذلك بسبب شرعي جائز.

وأما ما زعم بعض الناس بأن كلّ فردٍ من أفرادِ الصحابة أفضلُ ممن جاء بعدهم على الإطلاق فهو منابذ للقرآن والحديث، لأن كثيرا من التابعين ومن جاء بعدهم أتقى عند الله من بعض أفراد الصحابة، وهذا لا يخفى على من عنده إِلْمَامٌ بأحوال الصحابة وبالله التوفيق.

الخلافة الراشدة حقّ

قال المؤلف رحمه الله: وأنّ أبا بكر رضي الله عنه صاحب رسول الله ﷺ وخلافته حقٌّ، وبعده خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حقٌّ، وبعده خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه حقٌّ، وبعده خلافة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي الله عنه حقٌّ، وهؤلاء كلُّهم خلافتهم حقٌّ.

الشرح: نثبت الخلافة بعد رسول الله ﷺ أوّلا لأبي بكر الصديق رضي الله عنه تفضيلا له وتقديما على جميع الأمة ثم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ثم لعثمان رضي الله عنه ثم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وهم الخلفاء الراشدون والأئمة المهتدون.

سيدنا أبو بكر:

إمامة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، قد ثبتت بإجماع الصحابة؛ فإنهم أطبقوا عن ءاخرهم على بذل الطاعة له والانقياد لحكمه، واستوى في ذلك الخاصّ والعام[1]؛ فإن أبا ذرٍّ وصُهيبًا وعمّارا وغيرهم من الذين كانوا لا تأخذهم في الله لومة لائم اندرجوا تحت الطاعة.

---

(١) **الإرشاد الجويني** (ص/ ٤٢٨).

وكان عليّ رضي الله عنه مطيعا له سامعا لأمره، ناهضا إلى غزوة بني حنيفة متسرّيا بالجارية المغنومة من مغانمهم. وما ادعوا عليه من إبدائه الخلاف في عقد البيعة له كذب لا أصل له، نعم لم يكن رضي الله عنه في السقيفة، وكان مستخليًا بنفسه قد أخذه الحزن على رسول الله ﷺ وكان يُمَرِّضُ فاطمة بنت الرسول ﷺ، ثم دخل فيما دخل فيه الناس وبايع أبا بكر على ملأ من الأشهاد.

روى أحمد[1] عن عليّ رضي الله عنه ما يخالف ويضاد دعوى بعض المفترين وذلك أنه قال: «قام أبو بكر بعدما بويع وبايعه علي وأصحابه، فقال: «يا أيها الناس قد أَقَلْتُكُم بيعتَكم فهل من كاره؟ فقال عليّ في أوائل الناس: «لا والله لا نقيلك ولا نستقيلك، قدّمك رسول الله ﷺ فمن الذي يؤخرك؟!».

روى اللالكائيّ[2] حديث المنهال بن عمرو عن سويد بن غفلة: أن عليًّا ذكر في خطبة طويلة له، ذكر فيها فضل أبي بكر، قال: «ثم أعطوه -يعني المهاجرين والأنصار- البيعة طائعين غير مكرهين، أنا أول من سن له ذلك من بني عبد المطلب، وهو لذلك كاره يود أن أحدا منا كفاه ذلك، وكان والله خير من بقي، أرحمه رحمة، وأرأفه رأفة، وأكيسه ورعا، وأقدمه سنا وإسلاما».

روى ابن حبان[3] حديث معمر عن الزهريّ أن عليًّا قال: «أما بعد، فإنه لم يمنعنا أن نبايعك إنكارا لفضيلتك ولا نفاسة عليك بخير ساقه الله إليك، ولكنا نرى أن لنا في الأمر حقًّا، ثم ذكر قرابته من رسول الله ﷺ وقرابتهم، فلم يزل عليّ يذكر ذلك حتى بكى أبو بكر، فلما صمت عليّ تشهّد أبو بكر وحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فوالله لقرابة رسول الله ﷺ أحبُّ إليّ أن أصل من قرابتي، وإني والله ما ألوت في هذه الأمور التي كانت بيني وبينكم، وإني والله

---

(١) رواه أحمد في **فضائل الصحابة** (١/ ١٣١).

(٢) **شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة** (٢٤٥٦).

(٣) **الثقات** لابن حبان (٢/ ١٧٠).

لا أدع أمرا رأيت رسول الله ﷺ يصنعه -يريد في المال- إلا صنعته فقال عليّ: فموعدك العشيّة للبيعة فلما صلّى أبو بكر الظهر أقبل على الناس ثم عذر عليًّا ببعض ما اعتذر به، ثم قام عليّ فعظّم مِن حقّ أبي بكر وذكر فضيلته وسابقته ثم مضى إلى أبي بكر فبايعه وأقبل الناس على عليّ فقالوا أصبت وأحسنت».

وفي حديث عروة عن عائشة قالت: «ثم قام أبو بكر وخطب للناس واعتذر إليهم وقال: «والله ما كنت حريصا على الإمارة يوما ولا ليلة قطّ، ولا كنت فيها راغبا ولا سألتها الله تعالى في سرّ ولا غائبة قطّ، ولكني أشفقت من الفتنة، وما لي في الإمارة من راحة، ولقد قلدت أمرا عظيما ما لي به طاقة ولا يدان إلا بمعونة الله تعالى». فقبل المهاجرون والأنصار ما قال وما اعتذر به، وقال عليّ والزبير: «ما عصينا إلا وأنا أخّرنا عن المشورة، وإنا لنرى أن أبا بكر أحقّ الناس بها بعد رسول الله ﷺ؛ إنه لصاحب الغار وثاني اثنين، وإنا لنعرف فضله وشرفه، وقد أمره رسول الله ﷺ بالصلاة وهو حيّ»[1]. وهذا مما أورده البخاريّ[2] ومسلم في صحيحيهما، إلا أنهما قالا: إنما كان ذلك بعد موت فاطمة فلما ماتت فاطمة التمس عليّ المبايعة.

-فإن قال المفتري: إنما بايعه عليّ والزبير تقيّة وخوفا.

-قلنا: لو جازت هذه الدعوى، لجاز لقائل أن يقول: لا، بل إنما تأخر عن البيعة لأبي بكر؛ خوفا وتقيّة من بني هاشم وشيعته، ولا جواب عن ذلك.

وروى قيس بن عبادة وغيره عن عليّ أنه قال: والذي فلق الحبّة وبرأ النسمة لو عهد إليّ رسول الله ﷺ في هذا الأمر عهدا لجاهدت عليه، ولا أترك ابن أخي قحافة يصعد درجة واحدة من منبره، ولكنه ﷺ رأى موضعه وموضعي، فقال

---

(١) **الاعتقاد والهداية** (ص/ ٣٥٠).

(٢) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب المغازي: باب غزوة خيبر، ومسلم في **صحيحه**: كتاب الجهاد والسير: باب قول النبي ﷺ: **لا نورث ما تركنا فهو صدقة**.

له: «**قم فصل بالناس**... الحديث[1].

-فإن قال قائل: كيف تجمعون بين هذه الروايات فإن أكثر حملة الحديث يقولون: إنما بايع عليّ أبا بكر بعد وفاة فاطمة، وقد رويتم عن عائشة أنها قالت: بايعه بعد بيعة السقيفة بمدّة يسيرة.

-قلنا: في حديث عائشة: «قام أبو بكر بعد أن بويع له حتى دخل على عليّ» فأطلقت إطلاقا ولم تبيّن، ثم يحتمل أن الأمر كما قالت عائشة، ثم لما وقعت قصّة فَدَك بينهم أظلم ما بينه وبينهم إلى أن توفيت فاطمة، فأظهر عليّ له البيعة بعد ذلك، والله أعلم.

-فإن قيل: ما الدليل على كون أبي بكر مستجمعا لشروط الإمامة؟

-قلنا: لنا في ذلك طريقان:

أحدهما: الاجتزاء بالإجماع على إمامته، ولو لم يكن صالحا لها لما وضعوه لها ولما أجمعوا على ذلك، ولم يَبْدُ من أحدٍ نكير يوجب عدم صلاحيّته.

والطريق الآخر: التفضيل؛ فنقول: الدليل عليه أشياء، منها: سبقه إلى الإسلام والجهاد بنفسه وبماله، وإنفاقه على الرسول ﷺ، وإيثاره إياه على نفسه في الغار، وتعاظم انتفاع رسول الله ﷺ والمؤمنين بدعوة من دعاه إلى الإيمان، وبناؤه مسجدا يدعو منه إلى الإيمان. ومما يدلّ على عظيم فضله قوله تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ إذ وصفه بصاحبه وقرنه معه بضمير واحد في قوله: ﴿مَعَنَا﴾ أي حافظنا وناصرنا.

وشراؤه المعذبين في الله تعالى مثل بلال وعامر بن فهيرة وغيرهما، وكونه مع رسول الله ﷺ في المشاهد، وكان يعظّمه ويخلّي له مجلسا عن يمينه لا يجلس فيه غيره.

---

(١) سير أعلام النبلاء (ص/ ٢٤١).

روى البخاريّ[1] قال النبيّ ﷺ: «**إنه ليس من الناس أحد أمن علي في نفسه وماله من أبي بكر بن أبي قحافة، ولو كنت متخذا من الناس خليلا، لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن خلة الإسلام أفضل، سدوا عني كل خوخة في هذا المسجد غير خوخة أبي بكر**».

أخرج البخاريّ[2] «أتت النبيّ ﷺ امرأة فكلمته في شيء، فأمرها أن ترجع إليه، قالت: يا رسول الله، أرأيت إن جئت ولم أجدك؟ كأنها تريد الموت، قال: **إن لم تجديني فائتي أبا بكر**».

وأخرج البخاريّ[3] عن أبي موسى الأشعريّ رضي الله عنه قال: مرض النبيّ ﷺ اشتد مرضه، فقال: «**مروا أبا بكر فليصلّ بالناس**» قالت عائشة: يا رسول الله، إنه رجل رقيق القلب، إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس، فقال: «**مُرِي أبا بكر فليصلّ بالناس**»، فعادت فقال: «**مري أبا بكر فليصل بالناس، فإنكن صواحب يوسف**»[4]، فأتاه الرسول فصلى بالناس في حياة النبيّ ﷺ. هذا الحديث متواتر، وورد أيضًا من حديث عائشة، وابن مسعود،

---

(١) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب الصلاة: باب الخوخة والممر في المسجد.

(٢) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب الأحكام: باب الاستخلاف.

(٣) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة: باب ما يكره من التعمق والتنازع في العلم والغلو في الدين والبدع لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾.

(٤) المراد أنهن مثل صواحب يوسف في إظهار خلاف ما في الباطن ثم إن هذا الخطاب وإن كان بلفظ الجمع فالمراد به واحد وهي عائشة فقط كما أن صواحب صيغة جمع والمراد زليخا فقط ووجه المشابهة بينهما في ذلك أن زليخا استدعت النسوة وأظهرت لهن الإكرام بالضيافة ومرادها زيادة على ذلك وهو أن ينظرن إلى حسن يوسف ويعذرنها في محبته وأن عائشة أظهرت أن سبب إرادتها صرف الإمامة عن أبيها كونه لا يسمع المأمومين القراءة لبكائه ومرادها زيادة على ذلك وهو أن لا يتشاءم الناس به.

وابن عباس، وابن عمر، وعبد الله بن زمعة، وأبي سعيد، وعليّ بن أبي طالب، وحفصة رضوان الله عليهم.

وهذه فضائل لا تنكر وقد كان أهل الجاهليّة يعرفون هذا من أمره.

ثم من شرائط الإمام: أن يكون من قريش، وقد كان من صميمها.

ومن شرائطها: العلم، ونحن نعلم أنه كان من أحبار الصحابة ومفتيهم، ولم يؤخذ عليه شيء من أحكامه في زمن خلافته.

ولما مات رسول الله ﷺ كاد يخرج الأمر عن النظام، وارتد الأعراب واشرأب النفاق، وتحزب الناس أحزابا حتى قالوا: نخاف أن تنخرم بيضة الإسلام؛ فحماها الله تعالى بأبي بكر. ولقد تشتتت ءاراء أصحاب رسول الله ﷺ، وكان عمر يقول: إنه لم يمت وليرجعنه الله تعالى، فقام أبو بكر خطيبا وأعلمهم بموته، وقال: من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد ربّ محمدٍ فإنه حيّ لا يموت، هذا حكمه في أوّل واقعة اختلفت الصحابة فيها.

ثم لما سمع باجتماع الأنصار في السقيفة وإرادتهم تأمير بعضهم، مشى إليهم وحاجّهم في ذلك، وروى لهم أن رسول الله ﷺ قال: «**الأئمة من قريش**»[1].

ثم اختلافهم في موضع دفن رسول الله ﷺ، فحدث لهم عنه أنه قال: «**الأنبياء يدفنون حيث يقبضون**»[2] فأطاعوا له.

ثم ما كان من إنفاذه جيش أسامة ومخالفته للكافة في ترك إنفاذه مع شدة خوفهم من الظفر بعدوهم وقولهم إن هذا الجيش فيه الحامية من نقباء المهاجرين والأنصار وأهل الردة قد أطلعوا رؤوسهم وساقوا المدينة فانتظر بإنفاذه انكشاف الردة فقال والله لأن أخر من السماء فتخطفني الطير وتنهشني

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١٩/ ٣١٨).

(٢) **تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل** (ص/ ٤٩٠).

السباع أحب إلي من أن أكون أول حالٍّ لعقد عقده رسول الله ﷺ أنفِذوا جيش أسامة. ونادى مناديه بخروجهم وسأل نقباء المهاجرين والأنصار عمر أن يسأل أبا بكر أن يصرف أسامة ويولي من هو أسن وأدرب بالحرب منه فسأله عمر ذلك فوثب إليه وأخذ لحيته بيده فهزها وقال ثكلتك أمك يا ابن الخطاب وعدمتك أيوليه رسول الله ﷺ وتأمرني أن أصرفه والله لا يكون ذلك أبدا[1].

فأما ورعه وزهده وشهامته وكفايته فقد شهدت لها ءاثاره ودلت عليها سيره.

فائدة:

قد دخل أبو بكر الصديق على فاطمة في مرض موتها وترضاها حتى رضيت عنه[2] فلا طائل لسخط غيرها ممن يدعي موالاة أهل البيت ثم يطعن على أصحاب رسول الله ﷺ ويهجن من يواليه ويرميه بالعجز والضعف واختلاف السر والعلانية في القول والفعل وبالله العصمة والتوفيق.

بقية الخلفاء الراشدين:

وأما عمر وعثمان وعليّ رضوان الله عليهم: فسبيل إثبات إمامتهم واستجماعهم شرائط الإمامة، كسبيل إثبات ذلك لأبي بكر ومرجع كلّ قاطع في الإمامة: الخبر المتواتر والإجماع، وغرضنا الإيجاز، ولو تدبر العاقل لاكتفى بما ذكرناه، واستيقن أن فيه أكمل غنية.

وتولية أبي بكر عمر رضي الله عنهما وجعله إياه وليّ عهده، وجعل عمر الأمر شورى، من غير إنكار عليهما إجماع على تصحيح ذلك في سائر الأعصار. ولا اكتراث بقول من يقول: لم يحصل إجماع على إمامة عليّ رضي الله عنه؛ فإن

---

(١) **تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل** (ص/ ٤٩٠).

(٢) **الاعتقاد والهداية** (ص/ ٣٥٣).

الإمامة لم تجحد له وإنما هاجت الفتن لأمور أخر.

سيدنا عمر:

وأما الدليل على ثبوت إمامة عمر رضي الله عنه أن أبا بكر خرج معصوبا رأسه في مرضه، فخطب خطبة مشهورة وقال: «أترضون من أستخلف عليكم والله ما ألوت جهدي ولا وليت ذا قرابة أستخلف عمر بن الخطاب». وقال في هذه الخطبة: «يا أيها الناس احذروا الدنيا ولا تثقوا بها فإنها غدارة وآثروا الآخرة عليها» إلى أن قال: «وإن هذا الأمر لا يحتمله إلا أفضلكم مقدرة وأملككم لنفسه، وأشدكم في حال الشدة وأسلسكم في حال اللين وأعلمكم برأي ذوي الرأي لا يتشاغل إلا بما يعنيه ولا يحزن لما لا ينزل به ولا يستحي من التعلم» ثم ذكر غير ذلك. ثم قال: «وهو عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا». فقالوا: سمعنا وأطعنا. ولم يبد من أحد نكير، إلا أن طلحة قال: أتولّي علينا فظا غليظا ما تقول لربك إذا لقيته؟ قال أبو بكر: «أقول لربي إذا سألني: ولّيت عليهم خير عبادك» في كلام طويل، ثم نزل[1].

فلم يُخلِفْ في عمر رأيه ولا خاب ظنه؛ ففتح الفتوح وجنّد الأجناد، واستأصل الملوك واستولى على ديارهم، وصَلح بحسنِ ظنه القاصي والداني، وقومهم بالدِرة دون السيف، وكان في جميع ذلك متواضعا لربّه تعالى خاضعا لأمره، لا تأخذه في الله لومة لائم، كان يحمل الجرة بنفسه ويلبس المرقعة ويباشر تفقد الأرامل وأهل المنازل بنفسه ويطوف عليهم في ليله ونهاره.

وروي عن عليّ رضي الله عنه أنه قال في خطبة له: «إن أبا بكر كان أوّاها منيب القلب، وإن عمر ناصح الله فناصحه»[2]. وقال لأهل نجران: «والله لا

---

(١) **تاريخ المدينة** (٢/ ٦٧١).

(٢) **فضائل الصحابة** (١/ ١٧٦).

أغيّر شيئا صنعه عمر إن عمر كان رشيدا»[1]، وقال في خطبة أخرى: «ثم ولي الأمر من بعده عمر-يعني من بعد أبي بكر- واستأمر المسلمين في ذلك فمنهم من رضي ومنهم من كره وكنت ممن رضي ولم يفارق الدنيا حتى رضيه من كان كرهه»[2].

وروي أن طلحة وصف عمر بمثل ما وصفه أبو بكر رضي الله عنه، وفوق ما وصفه وقال له في كلام مشهور[3]: «لقد استقامت العرب عليك وقد فتح الله عليك فسر بنا فإنا لا نستعصي عليك ولا ننبو في يديك».

وروي عن عائشة وعبد الرحمن بن عوف وعمرو بن العاص وغيرهم ممن وصفوا عمر، قالوا[4]: «إن عمر أبدت له الدنيا زينتها وزخرفها وألقت إليه أفلاذ كبدها فمشى في صحصاحها وخرج سليما ما ابتلت قدماه».

سيدنا عثمان:

وأما الدليل على ثبوت إمامة عثمان رضي الله عنه أن عبد الرحمن بن عوف عقد له الإمامة بمحضر من أهل الشورى سوى طلحة، وإن طلحة تابعه حين قدم، وعلم ضرورة من حاله رضاه بإمامته؛ فإن عثمان في فضيلته وسابقته وقرابته وجهاده بنفسه وماله، وما هو بصدده من الإحاطة بحفظ القرءان وجمعه، ومعرفة الأحكام من الحلال والحرام بصفة من يصلح لهذا الشأن.

هذا مع ما عرف من فضله وكثرة مناقبه وجهاده وهجرته، وأنه: مجهز جيش العسرة، ومشتري بئر رومة، وموسع المسجد على النبيّ ﷺ من ماله، وكونه من المهاجرين الأوّلين، وتزويج النبيّ ﷺ إياه ابنتيه، وقوله ﷺ:

---

(١) **فضائل الصحابة** (١/ ٣٦٦).

(٢) **شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة** (٢٤٥٦).

(٣) **تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل** (ص/ ٤٩٧).

(٤) **تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل** (ص/ ٤٩٩).

«**لو كانت لنا ثالثة لزوجناك**»[1] وإنه لرابع أربعة في الإسلام، وكان يقول «أما إني تغنيت ولا تمنيت -أي ولا كذبت- ولا وضعت يميني على فرجي منذ بايعت رسول الله ﷺ ولا زنيت في جاهلية ولا إسلام»[2].

سيدنا عليّ:

وأما الكلام في إمامة عليّ رضي الله عنه، فالدليل على ثبوت إمامته صلاحيّتُه لها واستجماعه شرائطها، وذلك مما لا يجحد ولا ينكر، وقد اجتمع فيه من الفضائل ما افترق في غيره.

ولما قتل عثمان اجتمع عليه خلق يكثر عددهم من المهاجرين والأنصار، منهم: خزيمة بن ثابت وأبو الهيثم بن التيهان وأبو أيّوب الأنصاريّ وسهل بن حنيف ومحمد بن مسلمة وعمار وغيرهم.

وهذا أصح العقود وأثبتها؛ لأن المعقود له أفضل من بقي، ومن ذكرناهم من العاقدين بصفة من يملك عقد الإمامة في الفضل والسابقة؛ فوجب بذلك تمام بيعته وصحة إمامته، ولم يصحّ عن أحد من المعتبرين نكول عن البيعة، وإن كان قد صحّ فقد أثم بنكوله وتأخره.

الخلاصة:

لا يجوز التفريق بين الخلفاء الأربعة بحب بعضٍ وبغض بعضٍ لأنهم كانوا متحابين بينهم. والدليل على ذلك أن عليًّا رضي الله عنه سمى أحد أولاده «أبا بكر» وءاخر «عمر» وءاخر «عثمان». وزوّج سيدنا عليٌّ عليه السلام عمرَ ابنته «أمّ كلثوم» بنت السيدة فاطمة وشقيقة الحسن والحسين، وأن الإمام محمدًا الباقر تزوّج أمّ فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق. وأمُّ أمِّ فروة هي

---

(١) **تاريخ دمشق** (٣٩/ ٤٦).

(٢) **تاريخ دمشق** (٣٩/ ٢٧).

أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين ولذلك كان جعفر الصادق يقول[1]: «ولدني أبو بكر مرتين». وكان جعفر تلقى الحديث عن جدّه القاسم بن محمد بن أبي بكر والزهري وغيرهما من أئمة السنّة. وللحسين ابن سماه أبا بكر قتل معه رضي الله عنهم وذلك دليل على أن أئمة أهل البيت سنيون.

روى ابن عساكر[2] بأسانيد متعددة عن عليّ زين العابدين عليه السلام أنه سئل كيف كانت منزلة أبي بكرٍ وعمر من رسول الله ﷺ فقال: «**منزلتهما منه منزلتهما اليوم**» اهـ روى البيهقيّ[3]: «عن سالم بن أبي حفصة، قال: سألت أبا جعفر محمد بن علي وجعفر بن محمد، عن أبي بكر، وعمر، فقالا لي: يا سالم تولَّهما وابرأ من عدوهما فإنهما كانا إمامي هدى».

قال سفيان الثوري: «من زعم أن عليًّا كان أحق بالولاية من أبي بكر وعمر فقد أخطأ وخطّأ أبا بكر والمهاجرين والأنصار»[4]. وقال شريك: «ليس يُقَدِّمُ عليًّا على أبي بكر وعمر أحد فيه خير»[5]. فلا عبرة بمن قال الخليفة بعد الرسول ﷺ عليّ، ومن أكبرِ الأدلة على صحة خلافة الخلفاء الثلاثة أن سيدنا عليًّا لم يعترض على خلافة واحدٍ منهم بل كان يغزو إذا أغزوه ويقبل العطاء منهم إذا أعطوه، وقد قبل من أبي بكر أمة اتخذها سريّة ولدت له ولدا فقيها عالما، هو محمد ابن الحنفية فلو لم يعتقد صحّة خلافة أبي بكر لما صح له أن يتخذها سريّة.

---

(١) **تهذيب التهذيب** (٢/ ٨٨)، **السير للذهبي** (٦/ ٢٥٥).

(٢) **تاريخ دمشق** (٤١/ ٣٨٨).

(٣) **الاعتقاد والهداية** (ص/ ٣٥٨).

(٤) رواه أبو داود في **سننه**: كتاب السنة: باب في التفضيل.

(٥) **تاريخ الخلفاء** (ص/ ١٤٢).

أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ

قال المؤلف رحمه الله: وأفضل الخلق بعد نبينا محمد ﷺ أبو بكر الصديق ثم عمر ثم عثمان ثم عليّ رضي الله عنهم أجمعين.

الشرح: قال السيوطي[1]: «أجمع أهل السنّة أن أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم عليّ، ثم سائر العشرة، ثم باقي أهل بدر، ثم باقي أهل أحد، ثم باقي أهل البيعة، ثم باقي أهل الصحابة، هكذا حكى الإجماع عليه أبو منصور البغدادي» اهـ.

فائدة: مراد الإمام الرفاعي بقوله: «**وأفضل الخلق بعد نبينا محمد ﷺ أبو بكر...**» أي من هذه الأمة، وإلا فلا يخفى على أحد أن الأنبياء أفضل من جميع الأولياء.

سيّدنا أبو بكرٍ الصّديق رضي الله عنه:

ولد سيدنا أبو بكر الصديق بعد عام الفيل بنحو ثلاث سنين، وتوفّي في السنّة الثالثة عشرة للهجرة عن ثلاثٍ وستين سنة. واسمه عبد الله بن أبي قحافة القرشيّ.

ما جاء في أنه أفضل الخلق بعد الأنبياء:

عن حبيب بن أبي حبيب قال: شهدت رسول الله ﷺ قال لحسان بن ثابت: «قلتَ في أبي بكر شيئا؟»، قال: نعم، قال: «**قل حتى أسمع**»، قال: قلت:

وثانيَ اثْنَينِ في الغارِ المُنيف وقَدْ ... طـافَ العَدُوُّ بـهِ إذْ صَعّدَ الجَبَلا

---

(١) **تاريخ الخلفاء** (ص/ ٣٨).

وكان حِبَّ رسولِ اللَّهِ قد عَلموا مِـنَ الْخَلَائِـقِ لَمْ يَعْدِلْ بِـهِ أَحَدًا

فتبسم رسول الله ﷺ[1].

صفته رضي الله عنه:

عن عائشة رضي الله عنها وقد قيل لها: صفي أبا بكر قالت: كان أبيض نحيفًا خفيف العارضين، أجنأ لا يستمسك إزاره يسترخي عن حقويه، معروق الوجه غائر العينين، ناتئ الجبهة عاري الأشاجع[2].

إسلامه رضي الله عنه:

عن عائشة قالت: خرج أبو بكر يريد النبيَّ ﷺ وكان صديقًا له في الجاهليّة فلقيه فقال: يا أبا القاسم قعدت في مجالس قومك واتهموك بالعيب لآبائها وأديانها، فقال رسول الله ﷺ: «**إني رسول الله أدعوك إلى الله عزّ وجلّ**» فلما فرغ رسول الله ﷺ أسلم أبو بكر وما بين الأخشبين أكثر منه سرورًا بإسلام أبي بكر[3].

هجرته رضي الله عنه:

قال ابن إسحاق: لما بايع رسول الله ﷺ الأنصار وأمر أصحابه بالهجرة إلى المدينة وقال: «**إن الله جعل لكم إخوانًا ودارًا تأمنون بها**» فخرجوا أرسالًا وأقام النبيّ ﷺ ينتظر أن يؤذن له ولم يتخلف معه من أصحابه إلا من حبس أو فتن إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر بن أبي قحافة، وكان أبو بكر كثيرًا ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة فيقول له رسول الله ﷺ: «**لا تعجل، لعل الله أن يجعل**

---

(١) **المستدرك** (٣/ ٦٧).

(٢) **تاريخ دمشق** (٣٠/ ٢٨).

(٣) **تاريخ دمشق** (٣٠/ ٢٨).

لك صاحبًا» فيطمع أبو بكر أن يكون إياه[1].

ذكر بعض الأحاديث الواردة في فضله:

أخرج عبد الله بن أحمد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أبو بكر صاحبي ومؤنسي في الغار**»[2].

وأخرج أبو داود[3] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أما إنك يا أبا بكر أوّل من يدخل الجنة من أمتي**».

ذكر بعض بعض ما أنزل من الآيات في مدحه:

قال السيوطي[4]: «قال الله تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ [سورة التوبة/ ٤٠] أجمع المسلمون على أن الصاحب المذكور أبو بكر.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ [سورة التوبة/ ٤٠] قال: على أبي بكر؛ إن النبيّ ﷺ لم تزل السكينة عليه» اهـ.

ذكر بعض أقوال الصحابة في فضله:

عن جابر رضي الله عنه قال: «قال عمر بن الخطاب: أبو بكر سيدنا»[5].

عن عمر رضي الله عنه قال: لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجح

---

(١) **الرياض النضرة في مناقب العشرة** (١/ ١٠٤).

(٢) رواه أحمد في **مسنده** (٥/ ١٣٠).

(٣) رواه أبو داود في **سننه**: كتاب السنة: باب الخلفاء.

(٤) **تاريخ الخلفاء** (ص/ ٤١).

(٥) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب فضائل الصحابة: باب مناقب بلال بن رباح.

بهم[1].

وأخرج ابن أبي خيثمة، عن عمر رضي الله عنه قال: إن أبا بكر كان سابقًا مبرزًا[2].

ذكر نبذ من خصائصه وفضائله:

من خصائصه أنه أوّل من أسلم من الرجال، وأوّل من أظهر إسلامه، وبادر إلى تصديق رسول الله ﷺ فيما كان يخبر به، أخرج الحاكم في المستدرك[3] عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما أسري بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك، فارتد ناس ممن كان ءامنوا به وصدقوه، وسعوا بذلك إلى أبي بكر رضي الله عنه، فقالوا: هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس، قال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم، إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة، فلذلك سمي أبا بكر الصديق» هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

وكان أعلم الصحابة، وأذكاهم فقد قال النوويّ في تهذيبه[4]: «استدل أصحابنا على عظم علمه بقوله رضي الله عنه في الحديث الثابت في الصحيحين: والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، والله لو منعوني عقالًا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه». واستدل الشيخ أبو إسحاق بهذا وغيره في طبقاته على أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه أعلم الصحابة؛ لأنهم كلهم

---

(١) **شعب الإيمان** (١/ ٣٦).

(٢) **فضائل الصحابة** (١/ ١٨٨).

(٣) رواه الحاكم في **المستدرك** (٣/ ٦٥).

(٤) **تهذيب الأسماء واللغات** (٢/ ١٩٠).

وقفوا عن فهم الحكم في المسألة إلا هو، ثم ظهرت لهم بمباحثته لهم أن قوله هو الصواب، فرجعوا إليه.

قال أبو عمر وغيره واللفظ له: لا يختلفون أن أبا بكر شهد بدرًا والحديبية مع رسول الله ﷺ وأنه لم يكن رفيقه من أصحابه غيره، وأنه كان مؤنسه في الغار، وأنه قام بقتال أهل الردة وظهر من فضل رأيه في ذلك وشدة بأسه مع لينه ما لم يحتسب، وأظهر الله به دينه، وقتل على يديه كل من ارتد عن دين الله حتى ظهر أمر الله وهم كارهون[1].

وهو أوّل خطيب دعا إلى الله تعالى في فضل إسلام أمه، وأوّل من تنشق عنه الأرض بعد النبيّ ﷺ. واختص بصحبته في الهجرة وخدمته له فيها، واختص براجحيته بالأمة، وإثبات أهليّة الخلة له ولولا أنه ﷺ خليل الرحمن لاتخذه خليلًا، وأن النبيّ ﷺ ما نفعه من مال ما نفعه مال أبي بكر، وأنه أرحم الأمة بالأمة بعد النبيّ صلى الله عليه، وأسلم على يد سيّدنا أبي بكرٍ رضي الله عنه خمسةٌ من العشرة المبشّرين بالجنة عثمان بن عفّان، وطلحة بن عبيد الله، والزّبير بن العوّام، وسعد بن أبي وقّاصٍ، وعبد الرّحمن بن عوفٍ رضي الله عنهم.

وفاته:

وكان سبب موت أبي بكرٍ رضي الله عنه أنه سُمّ، وذلك أنه أهدي له طعامٌ فيه لحم مع دقيق يخلط ويطبخ، نوعٌ من الطعام. فأكل منها هو والحارث بن كلده[2]. فبينما هما يأكلان قال الحارث له ارفع يدك توقف لا تأكل والله إن فيها لسمّ سنة، يعني فيها سمٌّ يقتل بعد سنة تأثيره يستمر إلى سنة حتى يموت منه الشخص، وأنا وأنت نموت في يومٍ واحد. فكان كذلك. ما زالا عليلين حتى ماتا في يومٍ واحدٍ عند انقضاء السنة.

---

(١) **الرياض النضرة في مناقب العشرة** (١/ ١٨٤).

(٢) هذا من أشهر أطباء العرب

سيّدنا عمر بن الخطّاب رضي الله عنه:

وُلد سيّدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنةً، ومات سنة ثلاثٍ وعشرين من الهجرة.

ما جاء في أفضليّته بعد أبي بكر رضي الله عنه:

عن أبي جحيفة قال: قال لي علي: يا أبا جحيفة، ألا أخبرك بأفضل هذه الأمة بعد نبيها؟ قلت: بلى، ولم أكن أرى أن أحدا أفضل منه، قال: أفضل هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر، وبعد أبي بكر عمر، وبعدهما ءاخر ثالث، ولم يسمه[1].

صفته رضي الله عنه:

عن سلمة بن الأكوع قال: كان عمر رجلًا أعسر يسر يعني يعمل بيديه جميعًا، وأخرج ابن عساكر عن أبي رجاء العطاردي قال: كان عمر رجلًا طويلًا جسيمًا أصلع شديد الصلع أبيض شديد الحمرة في عارضيه خفة، سبلته كبيرة، وفي أطرافها صهبة[2].

إسلامه رضي الله عنه:

خرج عمر متقلدًا سيفه، فلقيه رجل من بني زهرة، فقال: أين تعمد يا عمر؟ فقال: أريد أن أقتل محمدًا، قال: وكيف تأمن من بني هاشم وبني زهرة وقد قتلت محمدًا؟ فقال: ما أراك إلا قد صبوت، قال: أفلا أدلك على العَجَبِ؟! إن خَتَنَكَ[3] وأختك قد صبوَا وتركا دينك، فمشى عمر فأتاهما وعندهما خَبَّابٌ، فلما سمع بحس عمر توارى بالبيت، فدخل، فقال: ما هذه؟ وكانوا يقرؤون طه، قالا: ما عدا حديثًا تحدثناه بيننا، قال: فلعلكما قد صبأتما، فقال له

---

(١) **فضائل الصحابة** (١/ ٣٠٣).

(٢) **تاريخ الخلفاء** (ص/ ١٠٥).

(٣) أي صهرك.

ختنه: يا عمر إن كان الحق في غير دينك، فوثب عليه عمر، فوطئه وطأ شديدًا، فجاءت أخته، لتدفعه عن زوجها، فنفحها نفحة بيد، فدمي وجهها، فقالت، وهي غضبى: وإن كان الحق في غير دينك؟ إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، فقال عمر: أعطوني الكتاب الذي هو عندكم، فأقرأه، وكان عمر يقرأ الكتاب، فقالت أخته: إنك رجس، وإنه لا يمسه إلا المطهرون، فقرأ طه حتى انتهى إلى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [سورة طه/ ١٤] فقال عمر: دُلّوني على محمد، فلما سمع خَبَّابٌ قول عمر خرج، فقال: أَبْشِرْ يا عمر فإني أرجو أن تكون دعوةُ رسول الله ﷺ لك ليلة الخميس: «**اللهم أعزّ الإسلام بعمر بن الخطاب، أو بعمرو ابن هشام**». وكان رسول الله ﷺ في أصل الدار التي في أصل الصفا، فانطلق عمر حتى أتى الدار، وعلى بابها حمزة وطلحة وناس، فقال حمزة: هذا عمر إن يرد الله به خيرًا يسلم، وإن يرد غير ذلك يكن قتله علينا هيّنًا، قال: والنبيّ ﷺ داخل يوحى إليه، فخرج حتى أتى عمر، فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل السيف، فقال: «**ما أنت بِمُنْتَهٍ يا عمر حتى يُنزلَ الله بك من الخزي والنكال ما أنزل بالوليد بن المغيرة**»، فقال عمر: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبد الله ورسوله[1].

هجرته رضي الله عنه:

عن عليّ قال: ما علمت أحدًا إلا هاجر مختفيًا إلا عمر بن الخطاب، فإنه لما همّ بالهجرة تقلّد سيفه وتنكب قوسه وانتضى في يده أسهمًا، وأتى الكعبة وأشراف قريش بفنائها، فطاف سبعًا، ثم صلى ركعتين عند المقام، ثم أتى حلقهم واحدة واحدة، فقال: شاهت الوجوه، من أراد أن تثكله أمّه ويتيّم ولده، وترمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي، فما تبعه منهم أحد[2].

---

(١) **تاريخ الخلفاء** (ص/ ٩٠).

(٢) **تاريخ الخلفاء** (ص/ ٩٤).

ذكر بعض الأحاديث الواردة في فضله:

أخرج البخاريّ[1] عن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه قال: سمعت النبيّ ﷺ يقول: «**بينا أنا نائم رأيت الناس عرضوا علي وعليهم قمص، فمنها ما يبلغ الثدي، ومنها ما يبلغ دون ذلك، وعرض علي عمر وعليه قميص يجره**»، قالوا: فما أولته يا رسول الله؟ قال: «**الدين**».

وأخرج البخاريّ[2] عن سعد بن أبي وقاص قال: قال النبيّ ﷺ: «**يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكًا فجًّا قط إلا سلك فجًّا غير فجك**».

ذكر بعض أقوال الصحابة في فضله:

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «ما على ظهر الأرض رجل أحب إلي من عمر» أخرجه ابن عساكر[3].

قيل لأبي بكر في مرضه: ماذا تقول لربك وقد ولّيت عمر؟ أقول له: «ولّيت عليهم خيرهم» أخرجه ابن سعد[4].

وقال علي رضي الله عنه: إذا ذكر الصالحون فحيهلا بعمر، ما كنا نبعد أن السكينة تنطق على لسان عمر[5].

---

(١) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب فضائل الصحابة: باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي رضي الله عنه.

(٢) **المصدر السابق**.

(٣) **تاريخ دمشق** (٤٤/ ٢٤٧).

(٤) **الطبقات الكبرى** (٣/ ٢٧٤).

(٥) **فضائل الصحابة** (١/ ٢٦٣).

ذكر نبذ من خصائصه وفضائله:

اختص بسؤال النبيّ ﷺ ربه عزّ وجلّ أن يعزّ الإسلام بعمر خاصّة، وبأن المسلمين ما زالوا أعزّة منذ أسلم عمر، وتسميته الفاروق وإعلان هجرته. واختص بالتحديث، وموافقة التنزيل في قضايا أوصلها بعضهم إلى أكثر من عشرين، منها ما أخرجه مسلم عن عمر قال: وافقت ربي في ثلاث: في الحجاب، وفي أسارى بدر، وفي مقام إبراهيم.

ومن فضائله أنه كان من المهاجرين الأوّلين ممن صلى إلى القبلتين، وشهد بدرًا والحديبية وبيعة الرضوان وسائر المشاهد مع رسول الله ﷺ ولما أسلم أعزّ الله به الإسلام وهاجر علانية كما تقدم، وتوفي رسول الله ﷺ وهو عنه راضٍ وبشره بالجنة، وأخبره أن الله جعل الحقّ على لسانه وقلبه، وأن رضاه وغضبه عدل، وأن الشيطان يفرّ منه، وأن الله عزّ وجلّ أعزّ به الدين واستبشر أهل السماء بإسلامه وسماه عبقريًّا ومحدثا وسراج أهل الجنة، ودعاه صاحب رحى دارة العرب يعيش حميدًا ويموت شهيدًا، وأنه رجل لا يحب الباطل ولو كان بعد رسول الله ﷺ نبيّ لكان عمر، وهو أوّل من كتب التاريخ للمسلمين من الهجرة، وأوّل من حضّ على جمع القرءان، وأوّل من جمع الناس على قيام رمضان، وحمل الدرة وأدّب بها، ووضع الخراج ومصّر الأمصار واستقضى القضاة، ودوّن الدواوين وفرض الأعطية، وحجّ بأزواج النبيّ ﷺ في ءاخر حجة حجها.

وفاته:

وأما وفاته رضي الله عنه فبينما هو يؤّم الناس في صلاة الصّبح طعنه أبو لؤلؤة المجوسيّ بسكين، وقبل أن تفيض نفسه طلب من ابنه عبد الله أن يستأذن السيدة عائشة رضي الله عنها أن يدفن مع صاحبيه، فقالت السيدة عائشة «كنت أريده لنفسي ولأوثرنّه اليوم على نفسي»[1]، فدفن قرب النبيّ ﷺ

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٧/ ١٤١٢).

وأبي بكر الصديق رضي الله عنه.

سيّدنا عثمان بن عفّان رضي الله عنه:

ولد سيّدنا عثمان بن عفّان رضي الله عنه بعد عام الفيل بست سنين، ومات سنة خمسٍ وثلاثين من الهجرة.

صفته رضي الله عنه:

عثمان كان رجلًا ربعة: ليس بالقصير، ولا بالطويل، حسن الوجه، أبيض مشربًا حمرة، بوجهه نمشات جدري، كثير اللحية، عظيم الكراديس، بعيد ما بين المنكبين، خدل الساقين، طويل الذراعين، شعره قد كسا ذراعيه، جعد الرأس أصلع، أحسن الناس ثغرًا، جمّته أسفل من أذنيه يخضب بالصفرة، وكان قد شد أسنانه بالذهب[1].

إسلامه رضي الله عنه:

عن عمرو بن عثمان قال: كان إسلام عثمان فيما حدثنا عن نفسه قال: كنت رجلًا مستهترًا بالنساء، وإني ذات ليلة بفناء الكعبة قاعد في رهط من قريش إذ أتينا فقيل لنا: إن محمدًا قد أنكح عتبة بن أبي لهب رقيّة، وكانت رقيّة ذات جمال رائع، قال عثمان: فدخلتني الحسرة لم لا أكون أنا سبقت إلى ذلك؟ فلم ألبث أن انصرفت إلى منزلي فأصبت خالة لي قاعدة وهي سعدى بنت كريز وكانت قد طرقت وتكهنت عند قومها، فلما رأتني قالت:

أَبْشِرْ وَحُيِّيتَ ثَلَاثًا تَتْرَى أَتَاكَ خَيْرٌ ووقيتَ شَرّا

أُنْكِحْتَ واللَّه حَصَانًا زَهرًا وَأَنْتَ بِكْرٌ وَلَقِيتَ بِكْرًا

---

(١) **تاريخ الخلفاء** (ص/ ١١٩).

وَافَيْتَهـا بِنْـتَ عَظِيـمٍ قَـدْرًا بِنـتَ امـرئٍ لقَـدْ أَشَـادَ ذِكْرًا

قال عثمان: فعجبت من قولها فقلت: يا خالة ما تقولين؟ فقالت: يا عثمان لك الجمال ولك اللسان، هذا نبيّ معه البرهان أرسله بحقّه الديان، فاتبعه لا تغتالك الأوثان. قال: قلت: يا خالة إنك لتذكرين شيئًا ما وقع ذكره في بلدنا فأبينيه لي قالت: محمد بن عبد الله رسولٌ من عند الله جاء بتنزيل الله، يدعو إلى الله ثم قالت: مصباحه مصباح ودينه فلاح، وأمره نجاح وقرنه نطاح، دانت له البِطاح، ما ينفع الصِباح لو وَقَعَ الذِباح وسُلت الصِفاح ومُدَّتِ الرماح قال: ثم انصرفتُ ووقع كلامها في قلبي، فجعلت أفكر فيه وكان لي مجلس عند أبي بكر فأتيته فأصبته في مجلس ليس عنده أحد، فجلست إليه فرآني مفكّرًا فسألني عن أمري وكان رجلا متأنيًا، فأخبرته بما سمعت من خالتي فقال: ويحك يا عثمان، إنك لرجل حازم ما يخفى عليك الحق من الباطل، ما هذه الأوثان التي يعبدها قومنا؟! أليست من أحجار صم لا تسمع ولا تبصر؟! قلت: بلى والله إنها كذلك! فقال: والله لقد صَدَقَتْكَ خالتك، هذا رسول الله محمد بن عبد الله قد بعثه الله تعالى برسالته إلى خلقه، فهل لك أن تأتيه فتسمع منه؟ قلت: نعم، فوالله ما كان أسرع مِن أن مرَّ رسولُ الله ﷺ ومعه عليّ بن أبي طالب يحمل ثوبًا، فلما رآه أقبل عليَّ فقال: «يا عثمانُ أجبِ اللَّهَ إلى جنته، فإني رسول الله إليك وإلى خلقه» قال: فَوَاللَّهِ ما تمالكت حين سمعت قوله أن أسلمتُ وشهدت أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، ثم لم ألبث أن تزوجت رقية بنت رسول الله ﷺ[1].

هجرته رضي الله عنه:

قال أبو عمر: هاجر عثمان إلى أرض الحبشة فارًّا بدينه مع زوجته رقيّة بنت رسول الله ﷺ فكان أوّل مهاجرٍ إليها، ثم تابعه سائر المهاجرين إلى أرض

(١) الرياض النضرة في مناقب العشرة (٣/ ٨).

الحبشة، ثم هاجر الهجرة الثانية إلى المدينة[1].

ذكر بعض الأحاديث الواردة في فضله:

أخرج مسلم[2] عن عائشة رضي الله عنها: أن النبيّ ﷺ جمع ثيابه حين دخل عثمان، وقال: «ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة».

وأخرج الطبراني[3] عن عصمة بن مالك قال: لما ماتت بنت الرسول ﷺ تحت عثمان قال رسول الله ﷺ: «**زوجوا عثمان، لو كان لي ثالثة لزوجته، وما زوجته إلا بالوحي من الله**».

ذكر بعض أقوال الصحابة في فضله:

وقال ابن سعد: استخلفه رسول الله ﷺ على المدينة في غزوته إلى ذات الرقاع، وإلى غطفان[4].

أخرج ابن سعد عن عبد الرحمن بن حاطب، قال: ما رأيت أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ -كان إذا حدث- أتم حديثًا ولا أحسن من عثمان بن عفان، إلا أنه كان رجلًا يهاب الحديث[5].

ذكر نبذ من خصائصه وفضائله:

من خصائصه أنه أشبه الصحابة خَلْقًا بالنبيّ، وأصدق الأمة حياء، وكانت

---

(١) **الرياض النضرة في مناقب العشرة** (٣/ ٩).

(٢) رواه مسلم في **صحيحه**: كتاب فضائل الصحابة: باب: من فضائل عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٣) رواه الطبراني في **المعجم الكبير** (١٧/ ١٨٤).

(٤) **الطبقات الكبرى** (٣/ ٥٣).

(٥) **الطبقات الكبرى** (٣/ ٥٤).

تستحي منه الملائكة، وجهز جيش العسرة وكان رضي الله عنه من السابقين الأوّلين، وصلى إلى القبلتين، وهاجر الهجرتين، وتزوج ابنتي رسول الله ﷺ، وشهد له النبيّ بأنه على حقّ، وأمر النبيّ ﷺ باتباعه عند ثوران الفتنة، وكان من مكثري الإعتاق، وهو أحد الصحابة الذين جمعوا القرءان، بل قال ابن عباد: لم يجمع القرءان من الخلفاء إلا هو والمأمون، واستخلفه رسول الله ﷺ على المدينة في غزوته إلى ذات الرقاع، وإلى غطفان.

وهو أوّل من حمى الحمى، وأوّل من خفض صوته بالتكبير، وأوّل من أمر بالأذان الأوّل في الجمعة، وأوّل من رزق المؤذنين، وأوّل من قدم الخطبة في العيد على الصلاة، وأوّل من فوض إلى الناس إخراج زكاتهم، وأوّل من ولي الخلافة في حياة أمه، وأوّل من اتخذ صاحب شرطة.

أخرج ابن عساكر عن أبي ثور الفهمي قال: دخلت على عثمان وهو محصور فقال: لقد اختبأت عند ربّي عشرًا، وإني لرابع أربعة في الإسلام، وأنكحني رسول الله ﷺ ابنته، ثم توفيت فأنكحني ابنته الأخرى، وما تغنيت، ولا تمنيت، ولا وضعت يميني على فرجي منذ بايعت النبيّ ﷺ وما مرت بي جمعة منذ أسلمت إلا وأنا أعتق فيها رقبة إلا أن يكون عندي شيء فأعتقها بعد ذلك، ولا زنيت في جاهلية ولا إسلام قط، ولا سرقت في جاهلية ولا إسلام قط، ولقد جمعت القرءان على عهد رسول الله ﷺ[1].

وفاته:

لما بلغ سيّدنا عليًّا كرّم الله وجهه أن أصحاب الفتنة حاصروا عثمان وأرادوا قتله، أمر ابنيه الحسن والحسين رضي الله عنهما أن يقوما على باب عثمان، وبمثل ذلك أمر بعض الصحابة أبناءهم، ولكن الذين أرادوا بسيّدنا عثمان شرًّا تسوّروا داره حتى دخلوا عليه وكان يقرأ القرءان وهو صائمٌ، فضربه

(١) **تاريخ دمشق** (٣٥/ ١١٤).

أحدهم بالسيف، فقتل شهيدًا رضي الله عنه وكان عمره ثلاثًا وثمانين سنةً ودفن في مقبرة البقيع بالمدينة المنوّرة.

سيّدنا عليٌّ كرّم الله وجهه:

ولد سيّدنا عليّ بن أبي طالبٍ كرّم الله وجهه في الكعبة قبل البعثة بعشر سنين، وتوفي سنة أربعين للهجرة، وهو ابن عمّ رسول الله ﷺ.

صفته رضي الله عنه:

عن أبي سعيد التيميّ أنه قال: كنا نبيع الثياب على عواتقنا ونحن غلمان في السوق، فإذا رأينا عليا قد أقبل قلنا: بزرك أشكم قال علي: ما تقولون؟ قال: نقول: عظيم البطن قال: أجل أعلاه عِلْمٌ وأسفله طعام. وكان رضي الله عنه عريض المنكبين، لمنكبه مشاش كمشاش السبع الضاري لا يبين عضده من ساعده، قد أدمج إدماجا، شثن الكفين، عظيم الكراديس، أغيد كأن عنقه إبريق فضة، أصلع ليس في رأسه شعر إلا من خلفه[1].

إسلامه رضي الله عنه:

عن أبي الحجاج مجاهد بن جبر قال: كان من نعمة الله على علي بن أبي طالب ومما أراد الله به أن قريشا أصابتهم أزمة شديدة وكان أبو طالب ذا عيال كثيرة، فقال رسول الله ﷺ للعباس عم النبيّ ﷺ: «**يا عباس، إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا إليه فلنخفف من عياله فآخذ من بنيه رجلا وتأخذ رجلا فنكفيهما عنه**» فقال العباس: نعم. فانطلقا حتى أتيا أبا طالب فقالا له: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه، فقال لهم أبو طالب: إذا تركتما لي عقيلا فاصنعا ما شئتما، وفي رواية: إذا تركتما لي عقيلا وطالبا فاصنعا ما

(١) **الرياض النضرة في مناقب العشرة** (٣/ ١٠٧).

شئتما، فأخذ رسول الله ﷺ عليًّا فضمّه إليه، فلم يزل عليّ مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله نبيًّا فتابعه عليّ وآمن به وصدقه، ولم يزل جعفر عند العباس[1].

هجرته رضي الله عنه:

قال ابن إسحاق: وأقام عليّ بمكة بعد النبيّ ﷺ ثلاث ليالٍ وأيامها حتى أدّى عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس، حتى إذا فرغ منها لحق برسول الله ﷺ فنزل معه على كلثوم ابن زهدم، ولم يقم بقباء إلا ليلة أو ليلتين[2].

ذكر بعض الأحاديث الواردة في فضله:

أخرج الشيخان عن سعد بن أبي وقاص: أن رسول الله ﷺ خلف عليّ بن أبي طالب في غزوة تبوك، فقال: يا رسول الله تخلفني في النساء والصبيان؟ فقال: «**أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى**»[3].

وأخرج الترمذيّ عن أبي سريحة، وزيد بن الأرقم، عن النبيّ ﷺ قال: «**من كنت مولاه فعلي مولاه**»[4].

ذكر بعض أقوال الصحابة في فضله:

قد شاوره أبو بكر في قتال أهل الردة بعد أن شاور الصحابة فاختلفوا عليه فقال له: ما تقول يا أبا الحسن؟ فقال: أقول لك: إن تركت شيئًا مما أخذ

---

(١) **ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى** (ص/ ٥٨).

(٢) **ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى** (ص/ ٦٠).

(٣) رواه البخاري في **صحيحه**: كتاب المناقب، باب مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٤) رواه الترمذي في **سننه**: كتاب المناقب: باب مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وقال: «هذا حديث حسن غريب».

رسول الله ﷺ منهم فأنت على خلاف سنّة رسول الله ﷺ قال: أما إن قلت ذاك لأقاتلنهم وإن منعوني عقالا[1].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: أقضانا عليّ بن أبي طالب[2].

عن ابن عمر قال: كنا نقول في زمن النبيّ ﷺ: رسول الله خير الناس، ثم أبو بكر، ثم عمر، ولقد أوتي ابن أبي طالب ثلاث خصال، لأن تكون لي واحدة منهن أحب إلي من حمر النعم، زوجه رسول الله ﷺ ابنته، وولدت له، وأعطاه الراية يوم خيبر[3].

ذكر نبذ من خصائصه وفضائله:

هو أوّل من ءامن من الصّبيان، ولم يسجد لصنمٍ قطّ، وكان من أعلم الصحابة، وأجمعوا أنه صلى إلى القبلتين وهاجر، وشهد بدرًا والحديبية وبيعة الرضوان والمشاهد كلها غير تبوك. استخلفه رسول الله ﷺ فيها على المدينة وعلى عماله بها، وأنه أبلى ببدر وأحد والخندق وخيبر بلاء عظيما، وأنه أغنى في تلك المشاهد وقام القيام الكريم، وكان لواء رسول الله ﷺ بيده في مواطن كثيرة منها يوم بدر على خلف فيه؛ ولما قتل مصعب بن عمير يوم أحد وكان لواء رسول الله ﷺ بيده، دفعه رسول الله ﷺ إلى عليّ.

ومن خصائصه أن لواء رسول الله ﷺ كان بيده في أكثر الزحاف. وكان رسول الله ﷺ إذا لم يغز لم يعط سلاحه إلا عليًّا أو أسامة. وثبت له أفضل فضيلة بالمصاهرة وأقرب القرابة، وأنه من النبيّ ﷺ بمنزلة الرأس من الجسد، وأنه من النبيّ ﷺ بمنزلة هارون من موسى، ومن فضائله ما جاء عن المطلب بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ لوفد ثقيف حين جاؤوه: «**لتُسلِمُنّ أو**

---

(١) **الرياض النضرة في مناقب العشرة** (٣/ ٢٠٣).

(٢) **الرياض النضرة في مناقب العشرة** (٣/ ١٦٧).

(٣) رواه أحمد في **مسنده** (٨/ ٤١٦).

لأبعثَنّ عليكم رجلًا مني أو قال: مثل نفسي فليضربن أعناقكم وليستبين ذراريكم وليأخذن أموالكم» قال عمر: فوالله ما تمنيت الإمارة إلا يومئذ، فجعلت أنصب صدري رجاء أن يقول: هو هذا، قال: فالتفت إلى عليّ فأخذه بيده وقال: «**هو هذا**»[1].

وفاته:

قال الزبير بن بكار: كان من بقي من الخوارج تعاقدوا على قتل عليّ، فكان عبد الرحمن ابن ملجم هو الذي التزم لهم قتل علي، فدخل الكوفة عازمًا على ذلك واشترى سيفا لذلك بألف وسقاه السمّ، وكان في خلال ذلك يأتي عليًّا يسأله ويستحمله فيحمله. ذات يوم جلس ابن ملجم وشبيب بن نجرة الأشجعي قبالة السدة التي يخرج منها عليّ، فخرج عليّ إلى صلاة الصبح فبدره شبيب فضربه فأخطأه، وضربه ابن ملجهم على رأسه وقال: الحكم لله يا عليّ، لا لك ولا لأصحابك فقال عليّ: لا يفوتكم الكلب، فشدّ الناس عليه من كلّ جانب ليأخذوه، وهرب شبيب خارجا من باب كندة، فلما أخذ قال: احبسوه فإن مت فاقتلوه ولا تمثلوا به، وإن لم أمت فالأمر إليّ في العفو والقصاص[2].

الحاصل:

أفضل هذه الأمة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر رضي الله عنهما وتفضيلهما على من بعدهما بإجماع أهل الحقّ، وأما تفضيل عثمان رضي الله عنه على عليّ رضي الله عنه فقد اختلف فيه بعض الأئمة فمنهم من توقف[3] ولم يقل بتفضيل واحد منهما على الآخر ومنهم من صرح بأفضلية عثمان، ومنهم من

---

(١) الرياض النضرة في مناقب العشرة (٣/ ١١٩).

(٢) الرياض النضرة في مناقب العشرة (٣/ ٢٣٤).

(٣) فتح الباري (٧/ ١٦).

فضل عليا على عثمان[1]. ثم المخالف في أفضلية الشيخين أي أبي بكر وعمر يبدع ولا يكفر.

الخاتمة

قال المؤلف رحمه الله: فهذا اعتقادُنا ومذهبُنا، فمن خالفَه، وقال غير ذلك لا بُرهان له، والله بريءٌ منه، ثم قال: أي عبد الرحيم، اجعل هذا اعتقادك، واعتقاد من تعلَّقَ بكم، فهذا اعتقاد الأتقياء من السلف رحمة الله عليهم أجمعين.

الشرح: ما ذكر هو مذهب أهل الحق أهل السنّة والجماعة كلهم بلا استثناء، وأهل السنّة والجماعة هم الصحابة ومن تبعهم في المعتقد. قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ ﴾ [سورة يوسف/ ١٠٨] فالسنّة عبارة عن الطريقة، ومعنى: ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ أي أن كلّ ما جاء به الإسلام لا يردّه العقل الصحيح، وأما الجماعة فهم الذين اتبعوه على ملته. ونحن بُرَءَاءُ إلى الله من كلّ من خالف ما ذكرناه وبيناه. فإن مذهب أهل السنّة والجماعة من الصحابة والتابعين ثابت بالمنقول والمعقول وهو الطريق الذي كان عليه النبيّ ﷺ وأصحابه فيكون المخالف على مذهب أهل الهوى والبدعة فوجب التبرؤ منه.

فلتثبت على هذا الاعتقاد أنت ومن تبعك وتعلق بك وبنهجك ولا تميلوا عنه، فإنه ما عقد السلف قلوبهم عليه، وجاهدوا في سبيل نشره والحفاظ عليه حتى وصل إلينا عِلْمًا صافيًا.

---

(١) فتح الباري (٧/ ١٦).

متن العقيدة الرفاعية

[المقدّمة]

قال أبو الفتح بن محمد الواسطي:

وروي عنه رحمه الله: ما وجدته مكتوبا في كتاب من تأليف: عمر بن أحمد رحمه الله، عن الثقات من أصحاب سيدي أحمد [عزّ الدين الصياد] رحمه الله أنه قال: سألت أخي سيدي محمّدًا [شمس الدين رمانة القبان] رحمه الله عن هذه المسألة، فقال: سألت والدي سيدي عبد الرحيم [مهذب الدولة والدين] رحمه الله عن هذه المسألة وقلت له: الناس يسألوني عن عقيدتي فما أقول لهم؟ فقال رحمه الله:

[الله خالق كل شيء]

أيْ عبد الرحيم، اعلم أن كل ما عدا الخالق فهو مخلوق؛ الليل والنهار، والضوء والظلام، والسموات السبع وما فيها من النجوم، والشمس والقمر، والأرض وما عليها من جبل وبحر وشجر، وأنواع النبات وأصناف النبات والحيوانات، والضار منها والنافع، لم يكن شيء من ذلك إلا بتكوين الله. ولم يكن قبل تكوين الله للأشياء أصل ولا مادة.

وكذلك الجنة والنار، والعرش والكرسي، واللوح والقلم، والملائكة والإنس، والجن والشياطين، لم يكن منها شيء إلا بتكوين الله تعالى. وكذا صفات هذه الأشياء من الحركة والسكون، والاجتماع والافتراق، والإطعام والمشروب والروائح، والجهل والعلم، والعجز والقدرة، والسمع والصمم، والبصر والعمى، والنطق والبكم، والصحة والسقم، والحياة

والموت، كل ذلك من مخلوقات الله تعالى.

[القول في خَلق أفعال العباد]

وكذلك أفعال العباد واكتسابهم والأمر والنهي والوعد والوعيد كل ذلك مخلوقات الله تعالى، خلق كل شيء وكل ما لم يكن مخلوقا وسيخلق فهو من مخلوقات الله تعالى لقوله تعالى: ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم ﴾ [سورة فاطر/٣].

والله تعالى خلق كلّ شيءٍ ﴿ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ﴾ [سورة القمر/٥] علم العباد أو لم يعلموا، لقوله تعالى: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [سورة الأنبياء/٢٣] يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

[قدرة الله ومشيئته]

والطاعات والمعاصي بقضاء الله تعالى وقدره، وعبادتُه بإرادته ومشيئته؛ فإن الطاعة مقدّرة من الله تعالى بقضائه وقدره، وكذا المعصية، والمعاصي مكوَّنة مقدّرة بقضاء الله تعالى وقدره ومشيئته، لكنها ليست برضائه ومحبته ولا بأمره.

وما أراد الله أن يكون كان بلا محالة، طاعة كان أو معصية، وهذا معنى قولنا: «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن».

وإنّ أمره لنا بالطاعة وإرادته موافقة لعلمه ولأمره ونهيه، فمن هداه الله تعالى خلق الله فيه فعل الاهتداء، ومن لم يهده لم يهتد، وكل ذلك بمشيئة الله تعالى، كما قال ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [سورة فاطر/٨].

[لا يجب على الله شيء]

والله تعالى يُعطي العبد كما يُريدُ كان فيه صلاحُ العبدِ أو فسادُه، وغايةُ صلاح العبد ليست بواجبة على الله تعالى، بل إن كان فيه صلاح كان منه إحسانًا وتفضُّلًا، وإن لم يكن ذلك كان منه عدلًا، فله الفضل والحمد.

[مقدورات الله تعالى]

ومقدور الله تعالى لا نهاية له، وله في قدرته لطف عامٌّ.

[الطاعة والإيمان ونَقضياهُما من الله]

والطاعةُ والإيمانُ توفيقٌ من الله بمعونته سبحانه وتعالى، وكذلك المعاصي والكفرُ فهي بقضائه وقدره.

[وجود الله تعالى أزليّ أبديّ]

والله تعالى قديم ليس لوجوده ابتداء، وباق ليس لبقائه انتهاء، حي لا بروح، عالم لا بقلب وفكرة، قادر لا بآلة، سميع لا بأذن، بصير لا بحدقة، متكلم لا بلسان، إله في الأزل.

[ذِكر بعض صفات الله عزّ وجلّ]

والحياة، والعلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والكلام، والخلق هو في التكوين صفات. وصفاته قائمةٌ بذاتِهِ، والله تعالى قديمٌ بصفاتِهِ، وليس شيءٌ من صفاته محدثًا.

[كلام الله تعالى، والكلام على القرءان]

وكلامُه: ليس في جنس الحروف والأصوات، بل الحروفُ والأصواتُ عبارةٌ عن كلامه ودلالة عليه.

والقرآنُ كلامُ اللهِ تكلَّم به البارئ جلَّت عظمتُه قبل خلق المخلوقين جميعًا.

وهو مقدَّسٌ ومنزَّهٌ عما يقول المبتدعون والظالمون والجاحدون، كتابٌ بيَّن الله فيه لعباده الحلال والحرام، والوعد والوعيد، والضرَّ والنفع، وهو الفرقان المبين: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [سورة فصلت/٤٢].

[كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان]

والله تعالى كان ولا مكان، ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض، ولا على مكانٍ ولا في مكانٍ، بل كان جلَّت عظمتُهُ ولا زمانَ ولا مكانَ.

[السماء قبلة الدعاء]

ورفع الأيدي إليه في الدنيا إلى السماء تعبُّدٌ، لا إليه أنَّهُ في السماء، بل كالتوجه إلى الكعبة في الصلاة، فالكعبةُ قبلةُ الصلاة، والسماءُ قبلةُ الدعاء.

[مخالفة الله تعالى للحوادث]

والله تعالى ليس بصورة، وكل ما تصور في فهمك ووهمك فالله تعالى

خالقه ومكوّنُهُ، والله تعالى لا يشبه شيئًا مما خَلَقَ، ولا تُشبه ذاتُهُ ذات المخلوقين، ولا صفاته صفات المخلوقين كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى/١١].

[شهادَتا التوحيد]

والله تعالى واحدٌ أحدٌ فردٌ صمدٌ، لا شريك له، ولا وزير له، ولا شبيه له، ولا ضدَّ له، ولا ندَّ له، ولا نظير له، ولا مثيل له، ولا أوّل له، ولا ءاخر له، ولا ولد له، ولا والدة له، ولا والد له.

وهو الأوّل والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، عالم بأمور خلقه من مبتداهم إلى منتهاهم، وكل مخلوق بخلقته شاهدٌ عادلٌ على أنه: لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

وأنّ محمدا ﷺ عبده ورسوله، وصفيه وحبيبه وأمينه، وخيرته من خلقه، أرسله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، سيّد المرسلين، وخاتم النبيّين ﷺ.

[الإيمان برسالة الأنبياء والرُّسل]

وأن الله أرسل قبله رسله أولهم ءادم وخاتمهم محمد ﷺ، وكلهم جاؤوا بالحقِّ، وتكلَّموا بالصدق، وبلَّغوا الرسالة؛ وصدقوا فيما بلغوا عن ربهم عزّ وجلّ، وكلُّ ما أنزل عليهم من الكتب والصحف حقّ، وأنَّ محمدا ﷺ خاتم الرسل ولا نبي بعده، وأنَّ الرسل كلهم على حقّ.

وأنَّ عيسى ﷺ ينزل في ءاخر الزمان ويكون على شريعة محمد ﷺ كواحد من أمته، داعيًا إلى دينه وسنّته.

[الإسراء والمعراج]

وأنَّ المعراج حقٌّ: أُسري بالنبيّ ﷺ بنفسه وبشخصه في ليلة واحدة من مكة إلى بيت المقدس على ظهر البراق، ثم عرج إلى السماء حيث شاء، وأنه ﷺ وقف بين يدي ربه عزّ وجلّ وحياه بقوله ﷺ: «التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله»، وأنَّ الله تعالى رَدَّ عليه بأحسن ردٍّ وقال: السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته. ثم دنا من ربه عزّ وجلّ دنوّ تكريم كما ذكره في الكتاب العزيز بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [سورة النجم/٨-٩].

[التكاليف الشرعيّة لا تَسقط عن الصالحين مهما بلغت درجاتهم]

وأن الصالحين مع علو منزلتهم وقربهم من ربهم لا يسقط عنهم التكليف من الفرائض والواجبات من الصلاة والزكاة والحج والصيام وغير ذلك ومن زعم أنه صار وليا وسقط عنه الفرائض فقد كفر فإنه لم يسقط ذلك عن الأنبياء فكيف يسقط عن الأولياء وأن الولي كبقلة تحت شجرة النبوّة، ولقد قام رسول الله ﷺ حتى تورمت قدماه فقيل له: ألم يغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ﷺ: «أفلا أكون عبدا شكورا».

[معنى الإيمان وصفته وأركانه]

وإيمانُ العبادة: هو تصديقٌ بالقلب، وهو على طريق الاختيار والخبر والتصديق لله في جميع ما أنزل على أنبيائه عليهم الصلاة والسلام، وجميع ما بلَّغوا عن الله عزّ وجلّ، ويدخلُ ذلك كلُّه تحت هذه العبادة وهي:

الإيمان بالله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبما أنزل الله على رسله.

ولا خلاف أن التصديق بالقلب مزكّ لثبوت الإيمان وهو ركن الإيمان والركن هو التصديق بالقلب ويصير العبد مؤمنًا بينه وبين الله تعالى بالتصديق المجرد والإقرار باللسان دلالة عليه ليجري عليه إيمانه.

[الإيمان يزيد وينقص]

وأنَّ الإيمان يزيدُ وينقصُ، والإيمانُ والإسلامُ واحدٌ، وكلُّ مسلمٍ مؤمنٌ.

[الإيمان بما بعد الموت]

وأنَّ عذاب القبر حقٌّ، وأنَّ منكرًا ونكيرًا حقٌّ، وأنَ سؤالهما حقٌّ، وأنَّ البعث حقٌّ، والعرض حقٌّ، والحساب حقٌّ، وأنَ الجنة ونعيمها حقٌّ، والنار وعذابها حقٌّ.

[صفة رؤية الله عزّ وجلّ]

وأهلُ الجنة يرون ربهم بعينهم من غير إدراك ولا إحاطة، ولا كيفيّة ولا مقابلة، ولا على مكان، ولا في جهة من الجهات الستِّ.

[مواقف يوم القيامة]

وأنَّ قراءة الكُتب حقٌّ، يُؤتى المؤمن كتابه بيمنيه والكافر بشماله، والميزان حقٌّ، والصراط حق، وحوض الكوثر حقٌّ، والشفاعة للنبي ﷺ

حقٌّ، والشفاعة للمؤمن حقٌّ.

[محبة أصحاب النبي ﷺ]

ومحبة أصحاب رسول الله ﷺ على العموم حقٌّ، وكلُّهم على هدى، فمن كان عنده محبة لله ورسوله، وكان هذا الدين عزيزًا عنده، لا يخطر في قلبه بغضهم، ولا بغض أحد منهم، ولا ينطق لسانه فيهم بسوء.

[الخلافة الراشدة حقّ]

وأنّ أبا بكر رضي الله عنه صاحب رسول الله ﷺ وخلافته حقٌّ، وبعده خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حقٌّ، وبعده خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه حقٌّ، وبعده خلافة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي الله عنه حقٌّ، وهؤلاء كلُّهم خلافتهم حقٌّ.

[أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ]

وأفضل الخلق بعد نبينا محمد ﷺ أبو بكر الصديق ثم عمر ثم عثمان ثم عليّ رضي الله عنهم أجمعين.

[الخاتمة]

فهذا اعتقادُنا ومذهبُنا، فمن خالفَه، وقال غير ذلك لا بُرهان له، والله بريءٌ منه، ثم قال: أي عبد الرحيم، اجعل هذا اعتقادك، واعتقاد من تعلَّقَ بكم، فهذا اعتقاد الأتقياء من السلف رحمة الله عليهم أجمعين.

القـــلائِـــد

فيـما أُجمـعَ عليـه
مـن العقـــــائد

للشَّيخ الدُّكتور جَمِيـل مُحمَّـد علي حَلِيـم
الحُسَـــيـنِيّ الأشـعَرِيّ الشَّـــافِعِيّ
دكتور مُحاضِـر في العَقائِد والفِـرَق والسِّـيَر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الّذِي بعَث سيّدَنا محمّدًا بالمَحَجّةِ البيضاءِ، وجعَلَ سبِيلَ أمَّتِه السَّبِيلَ السَّواءَ، وأشهَدُ أن لّا إله إلّا اللهُ شهادةً أنجُو بِها يومَ القِيامةِ مِن الرَّمْضاء، وأشهَدُ أنّ سيّدَنا محمّدًا سيّدُ الرُّسلِ والأنبياءِ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسَلِّم وزِدْ وبارِك وأَنعِمْ وأَكرِمْ علَيه وعلَى ءالِه وأصحابِه ما عادَتِ الشَّمسُ علَى الدُّنيا بالنُّور والضِّياءِ.

أمّا بعدُ، فإنَّ أقوامًا مِن المَخذُولِينَ قد تَنطَّعُوا في أيّامِنا بدعوَى تَعمِيم الاجتِهادِ وأنّهُم قد استَوَوا معَ الأئِمّة الفُحولِ الأعلامِ بدعوَى أنهّم رِجالٌ وأولئكَ رِجالٌ، وهَيهاتَ هَيهاتَ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ثُمّ زادُوا في غَيّهِم يَعمَهُون حتَّى أنكَرُوا حُجّيةَ الإجماعِ؛ فأرَدتُّ أنْ أجمعَ أصُولًا أجمعَ علَيها عُلَماءُ المُسلِمِينَ فِي العقِيدة، وقدَّمتُ لذَلِكَ مُقدّمةً في معنَى الإجماعِ وانعِقادِه، راجِيًا مِن اللهِ تعالَى أنْ يَنفَع بِها طالِبِي الحقِّ، وهو حَسبِي ونِعمَ الوَكِيلُ.

معنَى الإجماعِ وحُجّيَّتُه وبَيانُ كَيفِيّةِ انعِقادِه

اعلم أنّ الإجماع لغةً يطلق بِمعنيَين: أحدُهما العَزمُ علَى الشّيء، والثّاني الاتّفاقُ، وأمّا اصطِلاحًا فاتِّفاقُ أهلِ الحَلّ والعَقدِ - وهم مُجتَهِدُو أمّةِ محمّدٍ ﷺ - في عَصرٍ مِن العُصورِ على أمرٍ دِينِيّ.

ودليلُ حُجّيّةِ الإجماعِ قولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾[1]؛ ووَجهُ الحُجّةِ أنّه تعالَى جَمعَ بينَ مُشاقّةِ الرَّسولِ ﷺ واتِّباعِ غيرِ سَبيلِ المُؤمنِين في الوَعِيد في قَولِه: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ فيَلزَم تَحريمُ اتِّباعِ غيرِ سَبيلِ المؤمنِين لأنّه لَو لَم يكُن حَرامًا لَما جَمعَ بَينَه وبينَ المُحرَّم الّذي هو مُشاقّةُ الرَّسولِ ﷺ، لأنّ الجَمعَ بينَ حَرامٍ ونَقِيضِه لا يَحسُن في وَعيدٍ، فدَلّ ذلكَ علَى أنّ اتّباعَ غيرِ سَبيلِهم حَرامٌ، وإذا حَرُم اتِّباعُ غَيرِ سَبيلِهم كان اتِّباعُ سَبيلِهم واجِبًا، إذْ لا واسِطةَ بينَ السَّبيلَين، وإنْ ثَبَتَ وُجوبُ اتّباعِ سَبيلِهم ثَبَتَتْ حُجّيّةُ الإجماعِ.

فإذا اتَّفَقَ المُجتهِدُون في عَصرٍ على شيءٍ فهو إجماعٌ وحُجّةٌ، فلا يَصِحُّ أنْ يأتيَ بَعدَهم مَن يَنقُض ما اتَّفَق عليه السّابِقُون.

وقد ادَّعَى بعضُ المَلاحِدة أنّ هذا الدِّين كَثِيرُ الاختِلاف لا يَصلُح اتِّباعُه ولا يُعرَف الصّوابُ مِنه، فرَدَّ علَيهِم الفُحُول مِن العُلماءِ كأبي إسحاق الإسفراييني بقَولِه: «نحنُ نَعلَم أنّ مسائِلَ الإجماعِ أكثَرُ مِن عِشرِين ألفَ

(١) سورة النِّساء، ١١٥.

مَسألةٍ، وبهذا يُرَدّ قولُ المُلحِدة: إنّ هذا الدِّينَ كَثِيرُ الاختِلافِ إذْ لَو كان حقًّا لَما اختَلَفُوا فيه. فنَقُول: أخطَأتَ، بل مَسائِلُ الإجماعِ أكثَرُ مِن عِشرِينَ ألفَ مَسألةٍ، ثُمّ لَها مِن الفُروعِ الّتي يَقَعُ الاتِّفاقُ مِنها وعلَيها وهي صادِرةٌ عن مَسائِل الإجماعِ الّتي هي أصُولُ أكثرَ مِن مائةِ ألفِ مسألةٍ»، ذكَره في «شَرح التّرتيب» ونقلَه عنه الزّركَشيُّ[1].

(١) **البحر المُحِيط في أصول الفقه**، بدر الدّين الزَّركَشّي، (٦/ ٣٨٤).

الإِجماعُ فِي العَقائِد

اعلَم أَنّ أَهلَ السّنّةِ والجماعة قد أَجمعُوا على أنّ الحقائِقَ ثابِتةٌ والعِلم بِها مُتحقِّق[١].

وأَنَّ أسبابَ العِلم هِي الحواسّ الظّاهِرة السّلِيمةُ والخَبرُ الصّادِقُ والعَقلُ[٢].

وأَنّ العالمَ عُلوِيَّه وسُفلِيَّه مُحْدَث بِجنسِه وأفرادِه وجواهرِه وأعراضِه[٣].

وأَنّ اللهَ خالقُ العالَم لا يُماثِله ولا يُشابِهه شَيء في ذاتهِ ولا في صِفاتِه ولا أفعالِه[٤]، فليسَ سُبحانَه وتعالَى بِجسمٍ ولا عَرَضٍ[٥]، بل هو واحدٌ لا شرِيك له[٦]، قَديمٌ لا بِدايَة له، باقٍ لا نِهايَةَ له[٧]، مُرِيدٌ لا ءامِر له، شاءٍ لا يَكون إِلَّا ما يُرِيد[٨]، قادِرٌ لا شَيءَ يُعجِزهُ[٩]، عالمُ الغَيبِ والشَّهادَة[١٠]،

---

(١) **المِنَن الكبرى** (لَطائف المِنَن والأخلاق)، عبد الوهّاب الشّعرانيّ، (ص/ ٦٥٢).

(٢) **حاشية على شرح العقائد النسَفيّة**، عصام الإسفراييني، (ص/ ٤٦).

(٣) **الفَرق بين الفِرَق**، أبو منصور البغدادي، (ص/ ٣١٥).

(٤) **إتحاف السّادة المتَّقِين**، محمد مرتضى الزَّبيديّ،(٢/ ٣٥).

(٥) **التعرُّف لمذهب أهل التصوُّف**، أبو بكر الكلاباذي، (ص/ ٤١).

(٦) **الأنوار القُدسيّة**، عبد الوهّاب الشّعرانيّ، (ص/ ١٣).

(٧) **أصول الدِّين**، أبو منصور البغدادي، (ص/ ٩١).

(٨) **الإنصاف فيما يجب اعتِقادُه ولا يجوز الجَهلُ به**، أبو بكر الباقلاّني، (ص/ ١٣).

(٩) **التعرُّف**، أبو بكر الكلاباذي، (ص/ ٣٥).

(١٠) المصدر السابق، (ص/ ٣٥). **الإقناع في مسائل الإجماع**، أبو الحسَن القَطّان، (١/ ٣٥).

سَميعٌ بِسَمعٍ من غَير أُذُن[1]، بَصِيرٌ بِبصَرٍ من غيرِ حَدَقَة[2]، مُتكلِّمٌ بِكلامٍ واحدٍ ليس بِحرفٍ ولا صَوتٍ ولا لُغَةٍ[3]، حَيٌّ قيُّومٌ أَحدٌ صَمدٌ، لَمْ يَلِدْ ولم يُولَدْ، لا تُدرِكُهُ الأوهامُ والأَفهامُ[4]، مَهْما تَصوَّرْتَ بِبالِكَ فاللهُ لا يُشبِهُ ذلِكَ، وأَنّ صفاتِه الذّاتِيّةَ أَزليّة أَبَدِيّة وليسَتْ عَين الذّاتِ ولا غيرَه[5].

وأَنَّ اللهَ تعالَى كانَ قبلَ كُلِّ شيءٍ[6]، وهو مُستَغنٍ عمّا سِواهُ، فلا تَحوِيهِ الجِهاتُ ولا تَكتَنفُه الأرضُونَ والسَّماواتُ[7]، وأَنَّه استَوَى كما أَخبَرَ لا كما يَخطُرُ للبَشَر.

وأَنَّ اللهَ خالِقُ الجَواهِر والأجسامِ والأَعمالِ والحرَكاتِ والسَّكَناتِ والخَواطِرِ والنِّيّاتِ والخيرِ والشَّرِّ والقَبِيح والحسَن[8].

وأنَّ للعبدِ مَشِيئةً هي تابِعةٌ لمشِيئةِ اللهِ، فمَن أَنكَرَها أو جعلَها بِخَلقِ العَبدِ فقد كفَرَ[9].

والاستِطاعةُ نَوعان:

---

(١) **الإقناع**، أبو الحسَن القَطّان، (١/ ٣٥).

(٢) المصدر السابق.

(٣) **التعرُّف**، أبو بكر الكلاباذي، (ص/ ٤٠).

(٤) المصدر السابق، (ص/ ٣٥).

(٥) المصدر السابق، (ص/ ٣٧).

(٦) **الإقناع**، أبو الحسَن القَطّان، (١/ ٥٦).

(٧) **الفَرق بيَن الفِرَق**، أبو منصور البغدادي، (ص/ ٣٢١). **الإرشاد إلى قواطِع الأدِلّة**، أبو المَعالي الجُوَينيّ، (ص/ ٢١). **التفسير الكبير**، فخر الدّين الرازيّ، (٢٩/ ٤٤٩).

(٨) **إتحاف السّادة المتّقِين**، محمد مرتضى الزَّبيديّ، (٢/ ٤٤٨).

(٩) **التعرُّف**، أبو بكر الكلاباذي، (ص/ ٤٤).

استِطاعَةٌ سابِقَةٌ على الفِعل وهِي سَلامةُ الأسبابِ والآلاتِ وبِها يكُونُ صِحَّة التَّكلِيف.

واستِطاعةٌ تُقارِنهُ وهي حقيقةُ القُدرةِ الَّتِي يَكونُ بِها الفِعلُ.

وَأجمَعُوا أَنَّ اللهَ تعالى يُثِيبُ فَضلًا وَيُعاقِبُ عدلًا وَيرزُقُ كرَمًا[1]، ويُضِلُّ مَن يَشاء وَيهدِي مَن يَشاء.

وأنَّ تَعذِيبَهُ المُطِيعَ وإيلامَه الدَّواب وَتَوجِيعَهُ الأَطفال ليسَ مِنه بِظلمٍ[2] بِلِ اتّصافُهُ بالظُّلم مُحالٌ[3].

وَأَنَّ القُرءانَ كلامُ اللهِ عزّ وجلّ لا يُشبِهُ كلامَ المَخلُوقِينَ، وأَنَّ اللَّفظَ المُنَزَّل الَّذِي نَزَلَ بِه جِبرِيلُ علَى سيّدِ الأَنبياءِ والمُرسَلِين لَيسَ عَينَ الكَلام الذّاتِيّ بل هو عِبارةٌ عنهُ[4]، وَكُلٌّ يُسمَّى قُرءانًا.

وَنُؤمِنُ بِمُحكَمِ الكِتابِ وَمُتَشابِهِه وَنَقُول كُلٌّ مِن عِندِ اللهِ - والمُحْكَماتُ هُنَّ أُمُّ الكِتابِ - وَنُنَزِّهُهُ عزّ وجلّ عَمّا تَقتَضِيهِ ظَواهِر المُتشابِهات مِن كُلّ وَصفٍ لا يَلِيقُ بِجَلالِه.

وَأَنَّ الرِّزقَ ما يَنفعُ وَلَو مُحَرَّمًا، والشَّيءُ هُو المَوجُودُ وَلَو قَدِيمًا.

وَأَنَّ الأَجلَ واحِدٌ والمقتول ميت بِأَجَلِهِ[5].

---

(١) **التعرُّف**، أبو بكر الكلاباذي، (ص/ ٦٢). أبكار الأفكار في أصول الدّين، سيف الدّين الآمديّ، (٢/ ٢٢٤).

(٢) **الإقناع**، أبو الحسَن القَطّان، (١/ ٥٧).

(٣) **التعرُّف**، أبو بكر الكلاباذي، (ص/ ٥١).

(٤) **التعرُّف**، أبو بكر الكلاباذي، (ص/ ٣٩). **المِلَل والنِّحَل**، أبو الفتح الشّهرستانيّ، (١/ ٨٩). **نهاية العُقول في دراية الأصول**، فخر الدّين الرازيّ، (٢/ ٣١٥).

(٥) **التعرُّف**، أبو بكر الكلاباذي، (ص/ ٥٧).

وَأَنَّ الرُّوحَ مَخلُوقَةٌ حادِثَةٌ[1].

وَأَنَّ اللـهَ بَعَـثَ الأَنبِيـاء مُبَشِّـرِينَ وَمنُذرِيـنَ، فَضَّلَهـم علـى سـائِرِ العالَمِيـنَ، أَوَّلُهُـم ءادَم، وءاخِرُهـم وأَفضَلُهُـم مُحمَّـد صلـوات ربّـي وسـلامه عليهـم أَجمَعيـن[2]، أَيَّدَهُـم بالمُعجِـزاتِ الدّالَّةِ على صِدقِهِـم، وَأَنـزَلَ على بَعضِهـم كُتُبًـا.

وَأَنَّـهُ يجِـبُ لِـكُلٍّ مِنهُـم الصِّـدق والأَمانَـة والفَطانَـة والعِفَّـة والتَّبلِيـغ[3]، وَيسـتَحِيلُ عليهـم كُلُّ مـا يُنَفِّـرُ عـن قَبَـولِ دَعوَتِهـم، وَيَجُـوزُ فِـي حَقِّهـم الأَعـراض الَّتـي لا تَقـدَحُ فـي مَراتِبِهـم[4].

وَأَنَّ عـذابَ القَبـرِ ونعِيمَـه وسُـؤالَ المَلَكَيـنِ والقِيامـةَ والبَعـثَ والحَشـرَ والحِسـابَ والمِيـزانَ والصِّـراطَ والحَـوضَ والشَّـفاعَة حَـقٌّ[5].

وَأنَّ الجَنَّـةَ والنّـارَ مَخلُوقتـانِ لا تَفنَيـانِ ولا تَبِيـدانِ، وأَنَّ العَـذابَ والنَّعِيـمَ فـي القَبـرِ وَيـوم القِيامَـة وفِي الجَنَّـة والنّـارِ بالـرُّوحِ والجَسَـدِ[6].

وَأَنَّ المُؤمِنِيـنِ يَـرَونَ اللـهَ يَـومَ القِيامَـةِ بـلا كَيـفٍ ولا مَـكانٍ ولا جِهـةٍ لا كَمـا يُـرَى المَخلُـوق[7].

---

(١) **البحر المحيط في التفسير**، أبو حيّان الأندلسّي، (٧/ ١٠٦).

(٢) **أصول الدِّين**، أبو منصور البغدادي، (ص/ ١٧٧).

(٣) **المُحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، ابن عَطِيّة الأندلسّي، (١/ ٢١١).

(٤) **التعرُّف**، أبو بكر الكلاباذي، (ص/ ٦٩-٧٠).

(٥) **الإقناع**، أبو الحسَن القَطّان، (١/ ٥٠-٥٣).

(٦) المصدر السابق، (١/ ٥٢). **أصول الدِّين**، أبو منصور البغدادي، (ص/ ٢٦٣).

(٧) **المنهـاج في شرح صحيـح مُسـلِم بن الحَجّـاج**، محي الدّيـن النـوويّ، (٣/ ١٥). **التعرُّف**، أبو بكر الكلاباذي، (ص/ ٤٢).

وأنَّ المَلائِكَةَ عبادٌ للهِ مُكرَمُونَ، ليسُوا ذُكُورًا ولا إناثًا[1]، لا يأكُلون ولا يَشرَبونَ ولا يَنامُونَ ولا يَتناكحُونَ ولا يَتعبُونَ[2]، لا يَعصُون اللهَ ما أمَرَهُم ويَفعلونَ ما يُؤمَرُون[3].

وأنّ الجِنَّ موجُودُونَ[4]، أَبُوهُم الأوّل إبلِيسُ، وهم مُكلَّفُونَ مُتَعَبَّدُونَ فمِنهُم الصّالِحُ ومِنهُم الطّالِحُ.

وأنَّ شَرِيعَة سَيّدنا محمّدٍ ﷺ قد نَسَخَتْ ما خالَفها مِن الشَّرائِعِ أَجمَعِين[5].

وأنَّ كَراماتِ الأولياءِ حَقٌّ[6].

وأنَّ التَّوسُّلَ إلى اللهِ بالذَّواتِ الفاضِلَةِ والأعمالِ الصّالِحَةِ والتَّبَرُّكَ بآثارِ الأنبياءِ والصّالحِينَ حَسَنٌ[7].

وأنَّ شَدَّ الرِّحالِ بِقصدِ زيارةِ قَبرِ النَّبِيّ ﷺ وغيرِه مِن الأولياءِ والصّالحِينَ قُربَةٌ إلى اللهِ[8].

---

(١) قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [سُورة الزُّخرُف: ١٩].

(٢) قال تعالى: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [سُورة الأنبياء: ٢٠].

(٣) قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [سُورة التَّحرِيم: ٦].

(٤) **أبكار الأفكار**، سيف الدّين الآمديّ، (٤/ ٣١).

(٥) **رَوضة النّاظِر**، ابن قُدامة المقدِسّي، (١/ ٢٢٩).

(٦) **التعرُّف**، أبو بكر الكلاباذي، (ص/ ٧١). الفَرق بيَن الفِرَق، أبو منصور البغدادي، (ص/ ٣١٠).

(٧) **شِفاء السَّقام في زيارة خير الأنام** ﷺ، تقيّ الدّين السُّبكيّ، (ص/ ١٢١).

(٨) المصدر السّابِق.

وأنَّ الأمواتَ يَنتَفِعُونَ بِدُعاءِ الأحياءِ لهُم وتَصدُّقِهِم عنهم وقراءتِهم القُرءان عندَهم[١].

وأنَّ التَّحذِيرَ مِن أهلِ البِدَعِ واجِب[٢].

وَأنّا لا نُكَفِّرُ أَحدًا مِن أَهلِ القِبلةِ بِذَنبٍ ما لَم يَستَحِلَّه.

وأنَّ المَعصِيَةَ وَلَو كَبِيرةً لا تُخرِج مُرتَكِبَها مِن الإِيمان[٣].

وَأَنَّ اللهَ لا يَغفِرُ الكُفرَ لِمَن ماتَ عَلَيهِ وَيغفِرُ ما دُونَ ذَلكَ لِمَن يَشاء[٤].

وَأَنَّه قَد أُسرِي بِالنَّبِي ﷺ وعُرِجَ بِشَخصِهِ فِي اليَقَظَةِ إِلَى حيثُ شاءَ اللهُ مِن العُلَى[٥].

وأَنَّ المِيثاقَ الّذِي أَخذه اللهُ تعالى مِن ءادَم وَذُرِّيَّته حَقٌّ[٦].

وأَنَّ ظُهُورَ المَهدِيّ وَخُرُوجَ المَسِيحِ الدجال وَيأَجُوجَ وَمَأجُوجَ وَنُزُولَ عِيسَى ابن مَريمَ عليه السلام وطلوعَ الشَّمسِ مِن مغربِها وسائرَ ما أخبَر بِه النَّبِيّ عليه الصلاة والسلام مِن الغَيبِيّات كُلّ ذلك حقٌّ.

وأَنّ خَيرَ القُرُونِ قَرْن رَسولِ الله ﷺ وأصحابِه ثمّ الّذين يلُونَهم ثمّ الّذين

---

(١) **الإمتاع بالأربعين المُتباينة السَّماع**، ابن حجَر العسقلانيّ، (ص/ ٧٩).

(٢) قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [سُورة ءال عِمران: ١٠٤].

(٣) **شرح رسالة القَيَروانيّ**، ابن ناجِي التَّنُوخيّ، (ص/ ٥٦).

(٤) قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [سُورة النِّساء: ٤٨].

(٥) **التبصير في الدّين**، أبو المظفَّر الإسفراييني، (ص/ ١٧٧).

(٦) قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ﴾ [سُورة الأعراف: ١٧٢].

يلُونَهم[١]، وأَنَّ أَفضلَ الصَّحابَةِ الخُلَفاء الرّاشِدُونَ المَهدِيُّونَ[٢]، وأَنّا نَعتَرفُ بِفضلِ أَهلِ بَيتِ رَسولِ اللهِ وأَزواجِه أُمَّهات المؤمِنِينَ.

وأَنَّه يَجبُ علَى النّاسِ نَصبُ إِمامٍ[٣] وَلَو مَفضُولًا، وأنّ طاعَةَ الإِمامِ العادِلِ واجِبةٌ[٤].

وأَنَّ إِمامَةَ أَبِي بَكرٍ وَعُمَرَ وَعُثمانَ وَعَلِيٍّ كانَت حَقَّة[٥] وأنّ عليًّا أَصابَ في قِتالِ أَصحابِ الجَمَلِ وأَهل صفّين وأَهل النَّهرَوان[٦]، وأَنَّ عائِشَةَ مُبَرَّأَةٌ مِنَ الزِّنا.

وأَنَّ أَبا الحَسَنِ الأَشعَرِيَّ وأَبا مَنصُورٍ الماتُرِيدِيَّ كُلًّا مِنهُما إِمام لأَهلِ السّنّةِ مُقدَّم.

وأَنَّ طَرِيقَ الإِمامِ الجُنَيدِ البَغْدادِيِّ طَرِيق قَوِيمٌ، وَأَنَّ الشّافِعِيَّ وَأَبا حَنِيفَةَ وَصاحِبَيهِ وَمالِكًا وأَحمدَ وَسُفيانَ وَسائِرَ أَئِمَّةِ الإِسلامِ أَئِمَّة هُدَى واختِلافهم رَحمَة بالأَنامِ.

وأَنَّ الصَّلاةَ تَجُوزُ على كلّ بَرٍّ وفاجِرٍ مِن المُسلِمِينَ.

وَأَنَّ المَسحَ عَلَى الخُفَّينِ جائِزٌ فِي الحَضَرِ والسَّفَرِ.

وأَنَّ الحَجَّ والجِهادَ فَرْضانِ ماضِيانِ مَع أُولِي الأَمرِ مِن أَئِمَّةِ المُسلِمِينَ إِلى قِيامِ السّاعَةِ.

---

(١) **الإقناع**، أبو الحسَن القَطّان، (١/ ٥٨).

(٢) المصدر السابِق، (١/ ٥٩).

(٣) **المنهاج في شرح صحيح مُسلِم بن الحَجّاج**، محيي الدّين النوويّ، (١٢/ ٢٠٥).

(٤) **الإقناع**، أبو الحسَن القَطّان، (١/ ٦٠).

(٥) **التبصير في الدّين**، أبو المظفَّر الإسفراييني، (ص/ ١٧٨).

(٦) نقلَه عبد القاهِر الجُرجانِّي في كتابِه «**الإمامة**» وعنه القُرطبي في «**التّذكِرة بأحوال الموتَى وأمور الآخرة** (ص/ ١٠٨٩).

والحمدُ للهِ رَبِّ العالَمِين، وصلَّى اللهُ علَى سيِّدِنا محمّدٍ وعلَى ءالِه الطّاهرِين وصَحابَتِه الطَّيّبِين، وسَلامُ اللهِ علَيهِم أجمَعِين.

الفهرس

- التوطئة الميزان في بيان عقيدة أهل الإيمان ٣
- نُبْذَة تعريفِيَّة بالشّيخ الدكتور جَمِيل حَلِيم ٧
- نَسَبُ الشّيخ الدكتور جَمِيل حَلِيم إِلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ ١٠
- الشكر ١١
- اتصالي بالقطب الغوث السيد أحمد وطريقته الرفاعية العلية بعدّة وسائط ٠٢
- الواسطة الأولى ٢٠
- الواسطة الثانية ٢٦
- الواسطة الثالثة ٢٧
- الواسطة الرابعة ٢٩
- الواسطة الخامسة ٣١
- الواسطة السادسة ٣٢
- الواسطة السابعة ٣٤
- الواسطة الثامنة ٣٦
- الواسطة التاسعة ٣٧
- الواسطة العاشرة ٣٩
- الواسطة الحادية عشر ٤٠
- الواسطة الثانية عشر ٤١
- الواسطة الثالثة عشر ٤٢
- الواسطة الرابعة عشر ٤٤
- أسانيدي في المشابكة والمصافحة بأنواعها المسلسل بالمصافحة الخضرية ٤٧

- إجازة الخضر عليه السلام للإمام الرواس بالمصافحة والمشابكة ولمن اتبعه إلى سابع ٤٨
- طرق أخرى للمصافحة ٤٩
- سند ءاخر في المشابكة ٥٠
- سند ءاخر في المشابكة ٥٠
- سند ءاخر في المشابكة ٥٠
- سند ءاخر ٥١
- سند ءاخر ٥١
- سند ءاخر في المشابكة والمصافحة ٥١
- سند ءاخر ٥٢
- ترجمة لإمامنا القطب الغوث أبي العلمين أحمد الرفاعي الكبير رضي الله عنه ٥٤
- إسناد عقيدة الإمام أحمد الرفاعي ٧١
- كل ما عدا الخالق فهو مخلوق ٧١
- صفتا القدرة والإرادة ٩٤
- صفات الله تعالى ١٢٥
- كلام الله تعالى ١٥٢
- كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان ١٧٢
- السماء قبلة الدعاء ١٨١
- مخالفة الله تعالى للحوادث ١٩٦
- شهادتا التوحيد ٢١١
- الإيمان برسالة الأنبياء والرسل ٢٣٠
- الإسراء والمعراج ٢٤٩

- التكاليف لا تسقط عن الصالحين مهما بلغت درجاتهم ٢٦٤
- معنى الإيمان وصفته وأركانه ٢٧٢
- الإيمان يزيد وينقص ٢٩٠
- الإيمان بما بعد الموت ٢٩٨
- صفة رؤية الله ٣٢٥
- مواقف يوم القيامة ٣٣٤
- محبة أصحاب النبيّ ﷺ ٣٤٢
- الخلافة الراشدة حقّ ٣٤٨
- أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ ٣٥٩
- الخاتمة ٣٧٦
- متن العقيدة الرفاعية ٣٧٧
- [المقدّمة] ٣٧٧
- [الله خالق كل شيء] ٧٧٣
- [القول في خَلق أفعال العباد] ٨٧٣
- [قدرة الله ومشيئته] ٣٧٨
- [لا يجب على الله شيء] ٣٧٩
- [مقدورات الله تعالى] ٣٧٩
- [الطاعة والإيمان ونَقضياهُما من الله] ٣٧٩
- [وجود الله تعالى أزليّ أبديّ] ٣٧٩
- [ذِكر بعض صفات الله عزّ وجلّ] ٣٧٩
- [كلام الله تعالى، والكلام على القرءان] ٣٨٠
- [كان الله ولا شيء معه،

وهو الآن على ما عليه كان] ٣٨٠
- [السماء قبلة الدعاء] ٣٨٠
- [مخالفة الله تعالى للحوادث] ٣٨٠
- [شهادَتا التوحيد] ٣٨١
- [الإيمان برسالة الأنبياء والرُّسل] ٣٨١
- [الإسراء والمعراج] ٣٨٢
- [التكاليف الشرعيّة لا تَسقط عن الصالحين
مهما بلغت درجاتهم] ٣٨٢
- [معنى الإيمان وصفته وأركانه] ٣٨٢
- [الإيمان يزيد وينقص] ٣٨٣
- [الإيمان بما بعد الموت] ٣٨٣
- [صفة رؤية الله عزّ وجلّ] ٣٨٣
- [مواقف يوم القيامة] ٣٨٣
- [محبة أصحاب النبي ﷺ] ٣٨٤
- [الخلافة الراشدة حقّ] ٣٨٤
- [أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ] ٣٨٤
- [الخاتمة] ٣٨٤
- معنَى الإجماعِ وحُجِّيَّتُه وبَيانُ كَيفِيّةِ انعِقادِه ٣٨٧
- الإِجماعُ فِي العَقائِد ٣٨٩
- الفهرس ٣٩٧